مختار سعد شحاته

رواية

تغريبة بني صابر

كلمة
للنشر و التوزيع

مدونة ابو عبدو

تغريبة بني صابر

رواية

مُختار سعد شحاته

كلمة للنشر و التوزيع ©
جميع الحقوق محفوظة

عنوان : ١٩ ش مرميوان-الأزاريطة – الإسكندرية

هاتف: ٠٣٤٨٤٩٢٦٢
فاكس: ٠٣٤٨٥٩١٢٢

تغريبة بني صابر
رواية
المؤلف: مختار سعد شحاته
الغلاف: صورة الغلاف إهداء من الفنانة الكولومبية
Liliana Anaya Garcia
Cover photo is donated by the Colombian Plastic Artist
Liliana Anaya Garcia

تصميم الغلاف: نظمي يعقوب .La Plume Advertising Agency

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٣٥١٤
الترقيم الدولي: ٨-٣٨-٥٣٢٢-٩٧٧-٩٧٨

الإهدَاء

"إلى كلّ مَن دخل غرْفةَ الشّباب يومًا"

تصديرٌ وشكرٌ واجبان

أي تشابهٍ في الرواية مع أحداث الواقع، هو تشابه متعمد لا أخجل منه، ولا أنفيه، بل أقره؛ ومتى اعتقد القارئُ هذا التشابه، فلا يسعني غير شكر شخوصه الحقيقية التي دعمت خيالَ الكاتب حين بدأتُ أستلهم واقعَهم لصورتي الخيالية تلك؛ ولولا كتبتها، لظلت نقطة سوداء تلوث قلبي للأبد.

المقاطع الواردة بافتتاحية الفصول وبداخلها، هي من حذْي "غناء" الصيادين بمنية المرشد، جمعتها من الحاج "محمد محمد عيسوى"، و الحاج " محمد عبد الفتاح شحاته" فلهما الشكر الكامل.

مُختار سعد شحاته

مُفتتح

كيف بدأت الحكاية بداية عادية لا تتشابه مع كثيرٍ من الحكايات، التي ربَّما تعرفونها؟!

لا تعرف أخرى أن تحكيَ مثلي. لا تجيد تتبعَ أثر الحكاية مثلما أتتبعها أنا الآن في نهايتها. من قال بأنَّ السماءَ غير منحازة؟! من قال بأنها تتسع للجميع، أسفلها؟! أنا أملك من الأسرار الأولى القديمة الكثير، لكن كيف لامرأةٍ مثلي أن تحكي؟ فحتى لحظتي تلك لم أكن أملك الحكي خيارًا متاحًا لي، وحده السمع والطاعة تكليفٌ أبديٌّ لنا هنا، وحده الرضا ما نستتر به أو يمرره الرجال إلى عقولنا هنا كي نقنع بأن السماءَ غير منحازة. إذن لتكن البداية أن أحكي؛ ففي وقتٍ لا تعوزك فيه السماء ولا الأرض، أظنه وقتًا يناسبني كثيرًا للحكاية، هنا سأنشغل عن وقع النعال حين تغادرني، ولن تمرَّ اللحظاتُ كأنها سنوات، سأحكي وسأحكي ما شاء الحكي أن ينسابَ كما تنسابُ بعيدًا عني - وقريبًا في آن- الحكاياتُ حولي، ممَّا تجترُّه النساءُ قرب بيتي. لن يشغلني اتهام، ولن ترضيني مجاملة. سأحكي للسماء قبلكم حكايتي القديمة/ الجديدة؛ فأنا في حاجةٍ إليها أن تسمع، وحين ترهف للحكاية، ربما تغيِّر من انحيازها القديم. لن يكون صعبًا على مثلي أن تبدأ من هاهُنا أو من هناك، فقط سألتقط خط البداية؛ فأنا الشغوفة بفن البدايات، وفي ذلك أتناقض معهم هنا، فلا تعنيهم البدايات قدر ما يعرفون عن سمتها وتكرارها المقيت؛ فالبدايات هنا واحدة، وتفضي إلى نهايةٍ واحدة؛ لذا فلأجعل البداية سهلة قدر المتاح سهولة حياتنا في تلك البلدة، التي تتكرر معها كلُّ الأحداث، وتتشابه في بُلدان عديدة، حتى تصل بساطتها إلى الحدِّ الذي لا يُلاحظه الناس، فهكذا حيواتُنا هنا، كل ما فيها يسير في هدوء يصل إلى حد المرارة. نولد في صمتٍ مهما كان صراخنا، نحيا في صمتٍ، نحبُّ في صمتٍ، ونتزوج بمن لا نحب أو بمن

نحب في صمتٍ، ويموت الحب في صمتٍ، تمضي رحلتنا في صمتٍ، حتى موتنا صموتٌ كعشقنا هناك. ذلك يسمح لي أن أفهم؛ وأن تفهم هنا يلزمك معرفة لا حصر لها؛ فهنا تربينا عليها "المعرفة همٌّ بالليل والنهار". إذن هي بداية اعتيادية للغاية؛ سيحكيها جيلٌ من بعدي مغفلًا بعض التفاصيل البسيطة لهم، لكن مثلي في مكاني هذا ما أحوجه إلى كل التفاصيل المنمنمة، فقط يلزمني أن أخبر بالآتي لنفسي، فيقينًا هم سيعلمون، لكنهم لن يعلموه مثل علمي أنا التي كُشف عنها الحجاب، فرأت، أو قل هي جائزة مثلي مِمّن تحمل همَّ الرؤية في زمن أعمى، ظلّ يتكفأ على طول عمري فيحرمني ضحكة تلك الطفلة التي يحملها ابن أختي أمام مستشفى الشاطبي للولادة. هاهي الأصوات تأتي جلية؛ أصوات السيارات، وزحمة الكورنيش في الخلفية المصاحبة لحركته حين خرج من المستشفى، يحمل حقيبة من البلاستيك والقماش وبعض المطاط، تلك المصنوعة لحملِ طفلٍ حديثِ الولادة. من كان يصدِّق؟! حتى هو نفسه لن يصدِّقَ معجزتي التي كلما جاءت بها رؤيا كذّبها الأطباء، وصدَّقها قلبي. نعم أن تلد امرأة مثلي قد عقمت عمرًا، فتلك معجزة في عصرنا شحيح المعجزات. وقتها ستبدو ملامحُه حيادية للغاية؛ فسمت الرجال هنا حيادية التعابير في هكذا مواقف، لا يغزوها فرح جلي، أو يكسوها حزن قاتل. فكما قلت كُلها متشابهات، بداياتنا وحيواتنا وأشكالنا وملامحنا نحن الثُلّة الأخيرة من أبناء الصيادين وبناتهم. سيبدو ابن أختي – كما صرَّحتُ – حياديَّ التعبير حتى حين يضمُّها إلى صدره، حيث يقف ويُشير للتاكسي الذي يحملهما بعيدًا عن رائحة المستشفى التي تتعلق بأنفه. أعرف هُنا سيبدو وجه الطفلة مليحًا إلى الحدِّ الذي قد تمنيته، ورضيت به مكافأة بعدي لمن بَقِيَ منهم؛ فنحن في بلدتنا نحبُّ الأطفال ونبتسم لهم فقط، دون أن نعوضهم غياب الراحلين من الآباء والأمهات، حتى إنهم في نهاية المطاف مثلي كمثل الفقراء في بلدتنا بصمتٍ مرير يرحلون. ربما يودِّعهم مشيعٌ في أسى، وربما في صمتٍ يعقبه نسيان جاف، لا يبلل أرضه سوى قراءة السلام علينا في مرقدنا هنا حين يشيعون آخرَ يحرمونه صخبَ الدعاءِ بالرحمة لجميل صنعه، وقتها سيعلل

الرجال بأن للقبور حرمتها وللموت وقار الصمت، وهكذا يتم تفويت الفرصة على النساء متى اجتمعن من أن يذكرن بعض ما أصاب به الجيران من خير أو سوء معشر. ستكون الفرصة مهيئة لهم -هؤلاء الذين خطوا شواربهم بدقة- حين ينادون بالصمت، ويُلزمون النساء في الحي الصمت احترامًا لخروج "المشهد" من الغُسل إلى حيث مثواه الأخير. هكذا ستخسر النساء معركة أخرى، ولكن لا ضير، ففي بلدتي تعودت النساء خساراتهن والمتابعة في صمت. ألم أقل لكم هي بداية مربكة وغير عادية؟ ربما ما فيها من تلك الحركة التي أحاول وضعها هنا لأكسِّر هذا الصمت في بداياتها، وأستحث به الأحداث للبوح، أو محاولتي تذكر التفاصيل قبل مجيء من حدَّثني عنهم أبي قبل رحيله البعيد؛ أنهم يأتون لسؤالي هنا وحيدة في محبس ظلامي. أعرف الإجابات؛ فنحن حفظناها منذ الصغر، حتى إن أنكرها بعض أبناء البلدة حين ملأت جماجمهم القراءاتُ، لكنهم حين يعودون من بعيدٍ إلى هنا، يعيدون عليهم الإجابات بجلال وهيبة. ما بال البدايات عصية الآن؟! فقط شذرات حكايتي وتفاصيل أخرى تختلط! فلتكن بدايتي حين وصل ابن أختي إلى البلدة، يحمل طفلتي ليدخل حجرة أمي، الآن سيبحث عن شهادة ميلادها التي استخرجوها لها قبل أسابيع، ولن يندهش حين يرى شهادة أخرى مميكنة تحمل اسمي ورقمًا في أعلاها. ربما يجول في باله لحظتها أن الشهادتين ما بينهما تكمن حياة، أو سر الخلق في كن وكان. في النهاية سيلتفت إلى هذا الصندوق المخملي، ذاك الذي أهداه أخي "الحاج بركة" إلى أمي حين عاد من بلاد غربته الطويلة. وقد يطرق أمورًا أخرى من تفاصيله، وقد يمسك شهادة ميلادها وينظر نحوها مبتسمًا وآملًا أن تكون سلواهم عني. نعم سيبتسم؛ فحين تطرق ذاكرة ذكريات أمي وما يعرفه الجميع عن كراهيتها أن يعبث في دولابها الخاص الغرباء - والغرباء بالنسبة لدولاب أمي هم الجميع، بمن فيهم نحن وأولادنا - سيضع الطفلة بهدوء فوق سرير أمي - وهي على عكس موقفها من الدولاب كانت ترحب بالصغار على سريرها، ولو كانوا من الغرباء - سيقرأ المكتوب على الغلاف المخملي "شيكولاته سيما ١٩٨٠"، وحينها يجد ذلك

المجلّد، وقد كُتب عليه:

"نور حسن مسعود من ولد الشحات من آل صابر"

نور ابن أخي حسن، كان هنا حتى أسبوع واحد بعدما تركوني هنا، ثم ذهب إلى الكوخ الطيني الذي بناه أبو أمجد - زوج أختي نورا- على البحيرة، ثم اختفى. ستنام طفلتي في مكان أمي وعلى سريرها لساعاتٍ قبل أن ينتهيَ من قراءةِ كل التفاصيل التي يحملها هذا المجلّد، وأنا وقتها سأنشغل بسؤالاتي لهم عن الحكمة في حرماني منها، وعن مفهوم العدالة السماوية في حرمان طفل ويتمه للأبد، وأنا أجيد مثلهم فنَّ الأسئلة، فهل يملكون الإجابات؟ أم يؤجلونها كما تؤجل في بلدتنا؟

الفصل الأول

مفتاح

أول كلامي مديح الزين بزيادة..
محمد الزين كحيل العين بزيادة..
كامل وطاهر القدين بزيادة..
أولاد بنت النبي المختار وشفيعى..
جد الحسن والحسين والسيدة.. نظرة..
راضوا بعين الرضا.. يا أهل الرضا نظرة..

هنا نبت أصل الحكاية، حين تجلى صاحب النور على هذه "السبخة"، فأعطى لها من صور الحياة ما ارتبط به بدليل أو إشارة، فحطت البركة للأبد تصحبها المعرفة، وأنا منها ولدت، نعم أنا وليدة البركة والمعرفة التي نالت بركة بحيرتنا، أنا من اختارت النور والستر المبين للأبد، أنا أسطورة البيت، وتاج مملكة المعرفة فيه، صاحبة العلامات والأصوات والإشارات، تحط في جعبة قلبي كل الأسئلة في حيرتها ولهفتها، فترتد غير حسيرة، مجبورة الخاطر بالإجابات التي تريح، فأنا السؤال نفسه، وأنا الإجابة نفسها، أنا أنتم يا كل بني صابر، وأنتم أنا، فاقرؤوني مليًا وتأملوا في معرفتي، وتزوقوا خبزي المغموس بماء بركة بحيرتنا التي تمنح من روحها كل المخلصين لوعد النور، فلتزوقوا لتعرفوا، ولتتهيأوا لهم المعرفة مثلما تهيأت قبلكم. امدد يدك يا ابن أخي نحو عالمي الذي تظنك تعرفه، ولا تخجل من جهلك حين تبدو الإجابات التي تُلح في سماعها، وإياك أن تأخذني بأحكام العقل، فأسطورتي لا ينفذ نحوها إلا أصحاب القلوب المتخمة بالمحبة، وحب خلق النور. هيا يا ولدي تتبع الخُطا مهما طالت، وإياك أن تقفز فوق العلامات، وإلا حُرمت هذا الهمّ المحبب، همّ المعرفة. هيا يا ولدي استفتح الكلام، وأنا هنا سأرهف السمع للحكايات التي تضمن لنا الخلود، فلن تموت سيرة بني صابر ما دامت تجد من يحكيها على أجيالنا التي تترادف نحو النور الشفيق.

كنا قد تركنا الطريق الرئيسي بين القاهرة والإسكندرية، وأخذت سيارتنا تسرع في بداية طريقٍ دائري جانبي إلى ناحية اليمين، فسألتُ السائقَ عن الوقت، فأخبرني بأننا تجاوزنا منتصفَ الليل، وأننا نعبر الآن حدود مدينة "دمنهور"، وهكذا سنصلُ بعد ساعةٍ؛ فقررتُ النوم. في نومي جاءتني صورٌ كثيرةٌ لمطاراتٍ وطائرات، ووجهِ أبي يبتسم، ورأيتُ بيتَنا في "كيرونا القديمة" قبل أن ترحلَ المدينة إلى الناحية الأخرى من الجبل قبل سنوات. من مقعده الأمامي أيقظني صوتُ السائق، وأخبرني بأننا سنعبرُ بعد دقائق (كوبري القناطر) آخر القناطر الموجودة على مجرى نهر النيل. تعجبتُ كيف تمر الأحلام في نومنا متخمة بالأحداث، ولا تتعدَّى كونها ثوانيَ معدودة؟! عَبَر السائقُ الأمتار الأولى من القناطر باتجاه ضفة النهر الأخرى؛ فتذكرتُ العلامات التي وضعها لي أبي باتجاه البلدة، وما يتوجب عليَّ اتباعه.

- "هل مررنا بجوار كوبري للسكة الحديدية قبل القناطر؟". سألتُ السائق.

فأخبرني بأننا عبرناه منذ دقائق قليلة لا تتعدى عشرَ الدقائق:

- "كوبري عتيق يشبه الكباري التي بناها الإنجليز في مصر مع بدايات القرن الماضي". أضاف السائق.

عرفت أن الرحلة توشك أن تنتهي، فطلبت من السائق التوقف وسط كوبري القناطر حين كنا نعبره، ونزلتُ إلى ممشى القناطر. جعلتُ كوبري السكة الحديدية خلفي، ونظرتُ نحو الشمال، ثم انحرفتُ بنظري قليلًا جهة الشرق:

- "مئذنة المهدي". همستُ لنفسي.

تذكرتُ حكايته التي حكاها حول مسجد المهدي، وسخريته من هؤلاء الذين قالوا بأن الحصى والرمل يومها باركها الشيخ بنفسه؛ فبنى مسجده بالقليل وفاض. تنشقت الهواء بعمق، وزفرته ببطءٍ مبالغ فيه، وهممتُ أن أتصل بـ"فاروق" و"حميد" – هما ولدا

عمي على الترتيب، "فاروق" ولد عمي "حامد"، و"حميد" ولد عمي "مصطفى". العم الأول يكبر أبي بعامين، والعم الآخر يصغره بعامين -عدلت عن الفكرة وقررت مفاجأتهما بقدومي معتمدًا على وصفه لي. لزامًا لن يناموا حتى أصل؛ فالجميع - كعادتهم هناك - يحبون السهر. تحركت السيارة من جديد، ثم انحرف السائق، فانعطفنا يسارًا بمحازاة مجرى النيل بضع دقائق، خلّفنا القناطر وراءنا إلى الجنوب بمسافة تقارب ثلاثة الأميالِ شمال القناطر، ثم انحرف السائق من جديد إلى يمينه جهة الشرق؛ ليعبر فوق كوبري صغير، يبدو أنه تمَّ تحديثه قريبًا كما يبدو. الآن يتوازى طريقان يبدأ كلاهما بكوبري آخر يعبر فوق مجرى مائي يتوسطهما، ويتجهان شرقًا صوب البلدة، ثم يتابع طريق صغير يتوازى مع الطريق الرئيسي القادم من بداية القناطر. كانت جغرافية المكان معقدة وعجيبة؛ فهي كثيرة الكباري، كثيرة الطرق الفرعية والمتوازية مع بعضها، وفي مدخل الطريقين المتوازيين صوب البلدة لافتة شاحبة تعلن:

"مرحبًا بالزائرين الكرام"

توقف السائق أمام هذه التعقيدات العجيبة من الكباري والطرق، وسألني:

- "أيهما سنعبر إلى البلدة يا سيدي؟".
- الكوبري ذاك، على اليسار". أجبته.

في الماضي كلما سألت أبي عن سر هذا التعقيد الجغرافي، اكتفى بابتسامته:

- "نحمل هذه الجغرافية في قلوبنا وأرواحنا أينما نذهب". قال أبي.
- "وهل نحتاج إلى الخرائط كي نستدل على المواقع في قلوبنا؟". سألت أبي.

* * *

راجع معي خريطة لمداخل البلدة وطرقها حين كنا نسكن "كيرونا القديمة"، ظلَّ يذكرني بها كأنها فرض عليَّ حفظه، حتى إنه في جولاتنا بعد التهجيرِ القصريِّ إلى "كيرونا الجديدة"، اقترح رسم خريطة للمدينة الجديدة حتى نعرفها. وقتها ظل يخطط ويحدد علاماتها في دفتر مذكراته مستخدمًا قلمه الرصاص الذي لا يفارقه:

- "أتمنى أن أحب كيرونا الجديدة، وأن تسمح لي كيرونا بالدفن هناك متى مت".

كانت أمنيته الأولى في كيرونا الجديدة.

•

واصل حديثه عن بلدته البعيدة في مصر، وعن كونه لم يستطع أن يخلعها عنه طوال سنواته في السويد، وابتسم:

- "لعل بلدتي الصغيرة تمنعني حب كيرونا قديمًا". قالها وابتسم.

في مدرستي الثانوية حين خرجت مع "هنري" صديقي، علمته ما علمني من علامات المدينة وشوارعها، فانبهر، وأخرج جهاز رسامه الإليكتروني ثلاثي الأبعاد، وبدأ التخطيط عليه. انتبهت له، فنظر نحوي، وأشار أن أكمل الشرح الذي بدأته، فاستطردت أعيد ما علمني بدقة كأني أراجعه مع صديقي؛ وبمجرد انتهائي كان هنري يعرض رسمًا ثلاثيَّ الأبعادِ لخريطة أبي شديدَ الإبهار، وقد كتب عليه:

- "كيرونا الجديدة كما يراها نور حسن".

أخبرني مرة بأنني متى وصلت إلى مدخل البلدة، أن أسلك الطريق إلى "قنال البحيرة" الواصل ما بين البحيرة وبين النيل، ومن هناك أتابع الطريق لأدخل البلدة من بابها الخلفي، ويتوجب ألّا أدخل البلدة من الطريقين المتوازيين، وأحدهما ينتهي إلى المدخل الرئيسي للبلدة، والآخر إلى المدخل الجانبي للبلدة. حذرني من دخولي البلدة متى وصلت نهارًا، ولم أفلح في فهم سِرِّ هذا التحذير، لا ضير فالوقت متأخر، ويمكنني الدخول مباشرة، لكن صوتًا في داخلي منعني من الدخول، وأن أتابع نصيحة والدى:

- "كل البيوت والبلاد تُدْخَل نهارًا وليلًا من أبوابها مباشرةً إلا بلدتنا، عليك أن تتريث قبل دخولها، ثم تغافلها في دخولك؛ فالصبح أفضل الأوقات لدخول البلدة". قال أبي.

التزمت نصحه بلا مبرر غير صوته الذي تردد في داخلي. سأغافل البلدة كما علّمني، ولأدخل من مدخلها الخلفي. عَبْرَ طريق القنال الذي يدور حول البلدة من جهة الغرب ونحو الشمال، هناك ستكون علامة جديدة من علامات الطريق، قنطرة خشبية تعبر مجرى "الكنال"، هكذا تعودوا في البلدة أن يستبدلوا حرف الكاف بالقاف.

- "كوبري العوَّاد أقدم الكباري فوق (الكنال)، استخدمه صيادو البلدة كمرسى وميناء لمراكبهم قديمًا". حكى لي ذات مرة.

تابعت رحلة دخولي البلدة حسب نصيحته، ومهما كان الوقت ليلًا أو نهارًا، فلابد وأن نصيحته لها وجاهة سأكتشفها فيما بعد، أو هي واحدة من هواجسه المريرة التي تمكنت منه في سنواته الأخيرة كلما حكى عن مصر كلها، فهكذا علمتني التجربة مع أبي.

استمع السائق، وانطلق حسب وصفي. ها هو مجرى (الكنال). سنسير محاذاته على أن تكون البلدة إلى يميني ومجرى (الكنال) ناحية اليسار. دقائق ووصلنا إلى "كوبري العوَّاد". أمرتُ السائق بالتوقف، وأخبرته بأنَّ رحلتي انتهت، ويمكنه العودة إلى القاهرة. نظر السائق من حوله، وعلى الضوء المنبعث من السيارة بدا شديد العجب.

- "هل أنت متأكد يا سيدي أنك في المكان الصحيح؟". سألني السائق.

لعل ابتسامتي وحدها طمأنته بأنني في الطريق الصحيح، وأن الأمور ستكون جيدة. شكرته ونقدته المال، فرفض بشدة، لكنه استسلم وقبله نهاية الأمر مدَّعيًا الحرج. ودَّعني متمنيًا تمتعي بعطلة سعيدة، وطلب مني الاتصال بالمكتب، لتأكيد وصولي بسلام إلى

المكـان المنشـود. أدار سـيارته الـتي اسـترعت انتبـاه بعـض الكـلاب في الضـفة الأخـرى للـ(كنال)، فنبحتْ أمام كوخ أوحد يقبع في المدخل المقابل للكوبري. تنسَّمتُ الغبار كـأني أشـمُّ رائحـة عرقه التي عرفتهـا كلمـا كنـا نجري في مـدينتنا الجديـدة غـرب الجبـل. ودَّعتُ الأضواء الخلفية للسيارة وهي تبتعد في طريق العودة بنظرةٍ طويلةٍ شاردةٍ دارت في المكان من حولي، وانتهت حيث الكوخ في الناحية الأخرى من مجرى (الكنال). تذكرت كلماته:

- "بيت العوَّاد كلابه لا تؤذي. لا تجيد سوى النوم والنباح والجنس، كعادة كل الكلاب الفقيرة في بلدتنا". حكى أبي.

يعرف خوفي من الكلاب على غير عادة صبيان كيرونا، وأذكر السبب جيدًا. كنا في الصفِّ التمهيديِّ الأول، وحين ودَّعت "هنري" عند مدخل بيتنا، ظهر كلب الجيران فجأة، وزمجر بلا مقدمات، وتحفز للهجوم علي، وحين تقدَّم نحوي، بدأ صراخي يعلو، ثم أغشي عليَّ. في اليوم التالي، كان الحيُّ كله يعرف القصة، حتى كلابه المشهورة بطبعها الودود بدا كأني أثيرها بلا مبرر، وهكذا بدأ خوفي منها جميعًا. فيما بعد في صفي التاسع، حاول "هنري" أن يساعدني في إزالة هذا الخوف، وبدأ بتعريفي إلى كلبه السلوقي، فبدا الكلب متردِّدًا في البداية، وفجأة انقلب الموقف، وكاد يمزق راحة يدي التي تداعبه، فعاودني خوفي القديم، وفشلت مفاوضات الصلح بيني وبين كلاب العالم.

ينبغي سيري متعامدًا على ضفة (الكنال)، ثم السير وسط أراضٍ زراعية، وألّا أخاف من الكلاب التي تظهر في الطريق، فكلها من فصيلة "كلاب العوَّاد" تنبح وتنام، وتمارس طقس الجنس الحيوانيِّ كل ليلة حسب التعوُّد لا الحاجة. تابعت الطريق؛ وجملته ترن في أذني كناقوس عتيق:

- "اجعل مئذنة المهدي أمام بصرك على الدوام. متى فعلت فلن تضيع. منزلُ العائلةِ قريبٌ منها، وهناك سيدلُّك الجميع عليه". نصحني أبي.

نبهتني نبضات الساعة في يدي بتمام الثالثة فجرًا، فتابعت السير مخلفًا ورائي "كلاب العوَّاد" ونباحها المزيل. حركت معصمي فواجهتني ساعة يدي. نطقت اسم السائق الذي أقلني، فظهر رقم وخريطة المكتب، فحددت نوع الاتصال بالخلوي. جاءتني صورة الموظف بالمكتب تشكرني للاتصال ثم تمنَّى لي ليلة سعيدة، فأخبرته بأنني سأتصل أخرى لأحدد موعدًا لعودتي إلى القاهرة، ثم قذفت بسبابتي اليسرى صورته فانطفأت الأضواء البنفسجية التي جسدت طيفه أمامي. ها أنا الآن أدخل البلدة "منية المهدي" من بابها الخلفي أو "سكة الكنال". توقفت فجأة، وحاولت اكتشاف السر في دخول القرية ليلًا من بابها الخلفي، وفشلت. بعد خطوات اخترق جسدي إحساس بانتعاش عجيب، وزكم أنفي غبار الطريق الترابي ممزوجًا بالضباب الذي تكاثف مبكرًا؛ فعاودتني رائحة عرقه، وتساءلت كيف يمكن لإنسان أن يترك هذا المناخ الرائع، مغادرًا نحو أقصى الشمال من الكرة الأرضية؟! ما الذي يدفع بواحدٍ مثل أبي - لا ينتمي إلى طقس "السويد" - لأنْ يتركَ هذا المكان، ويقاسي برودة الصقيع وثلج السويد؟! ثم تمنيت أن أقابله في البلدة فلعله عاد. أرجو أنه قد عاد أدراجه إلى البلدة، فلربما أستريح من بحثي المضني عنه. لعل الأمل في وجوده ما أخبرني به عن أبناء البلدة وأنهم مثل السمك، مهما غيروا الماء، يومًا لابد وأن يعودوا إليها، إما أن يحملوا حقائبهم وحياتهم، وإما أن يحملَ عنهم الآخرون حقائبهم وأجسادهم.

- "في النهاية يعودون إلى البلدة مُحمَّلين أو مَحْمُولين". قال أبي.
- "وماذا إن حَمَلَ عنَّا مَن لا نحبُّ أجسادَنا وحقائبَنا، أو تورطنا في حملهم؟! ". سألت أبي.

* * *

تابعت سيري حسب التفاصيل التي تتلاحق في ذهني من وصفه لهذا الطريق الخلفي لدخول البلدة. تذكرت رسم "هنري" الذي قدَّمه لي قُبيل سفري حين كنا نبحث عنه

في "كيرونا الجديدة". قررت أن أفي بوعدي معه، فوجهت ساعتي نحو الطريق، وضغطت الأزرار كما علمني هنري، فتشكلت خريطة ثلاثية الأبعاد في وسط الظلام بألوان طبيعية جذبت بعض الهوام والفراشات، ففرحت بها، وشكرت هنري في سري، وتابعت طريق سيري كما أشار الضوء الأحمر الذي انطلق في شكلٍ سهمي من الساعة على الطريق الممتد أمامي يقودني نحو مدخل القرية. هاهي البلدة في مواجهتي كما يُظهر المجسَّم الضوئي، يزامنها أحاديثه التي تطرق أذني لتأكيد العلامات، ولاحت أمامي مباشرة بيوت "منية المهدي". خطواتي دون إرادةٍ مني تتسارع كأنها تحثني على دخول البلدة التي وُضِعَت بذرتي فيها، لكنها لم تشهد مولدي. مرَّرت يدي فوق الخريطة الإلكترونية المجسمة التي تشكلت من ساعتي، فأخذت تتلاشى بخفة في الظلام، وانطفأت أضواء الساعة.

- "حملت أمك بك ونحن في البلدة. فيها وُضِعت بذرتك، فحَمَلتَ بلدتنا في كل جيناتك". قال لي ذات مرة قبل أن يختفي.

الآن أدخل بلدتي التي لا أعرفها ولا تعرفني من بابها الخلفي. أحلم ألّا تنكرني، أنا لم أزرها سوى في الخامسة من عمري - منذ ربع قرن مضى أو يزيد - وأعود محملًا بالأمل أن يكون أبي قد عاد إليها. تقترب البلدة، وهاهي علامة "سكة الكنال" المميزة، مجموعة من أشجار التوت التي كانت مرتعًا لصباهم، وحكاياتهم العجيبة؛ ونبضات الساعة في يدي:

- "توت العكّاريين". نطقت الساعة بنغمة صوتها الكهربية.
- "شجر (توت العكّاريين) أجمل بقعة في الكون، هواؤها عليل في كل وقت حتى الشتاء". قال أبي مرةً بمرارةِ فقدِهِ الحقيقي.

قررت الجلوس بجوار شجر التوت، وقد بدت البلدة أكثر قربًا من هنا، تمنيتُ لو كان الوقت نهارًا، فأصعد إلى شجرة منها لأرى محيط البلدة وجمال المزارع هنا.

- "كُنت وعمك مصطفى نصعد لأعلى الشجرة، ونستمتع بمراقبة العالم من أعلى، كنا نشعر أننا ملاكان يحرسان ويراقبان حدود البلدة". كان قد حكى لي منذ بعيد.

خلعت حقيبة ظهري التي لا أحمل سواها معي، ثم وضعتها تحت رأسي، وتمددت مسترخيًا ومستمتعًا بهذا الجو الرائع في الليل، وحاولت تخيلهما يتصايحان من أعلى الشجرة حين ضبطا أحد الفلاحين يراود فتاة من فتيات البلدة، جاءت إلى مزرعته تطلب "حزمة البرسيم"؛ فالنساء هنا يستخدمنها في تطرية قساوة خبزهم الذي يتقدد بفعل حرارة الصيف، فيظل طازجًا أيامًا طويلة، تساعد أزواجهن الصيادين على تشمم رائحة البيوت في وسط البحيرة متى لاكوا الخبزَ الطريّ. ابتسمت حين تخيلت عمي "مصطفى" يهمس إلى أبي -كما حكى لي - ويشير نحو حقل قريب، حيث الفتاة التي تطلب "حزمة البرسيم"، تنام إلى جوار فلاح شاب في أرض الحقل، يظنان أنهما مستوران بالزراعات من حولهما، وتابعا في نشوة مقايضتهما الرجيمة، وتخيلت المسكينة تجري خوفًا من افتضاح وجهها، بعدما تصايحا عليهما كذئبين يعويان من أعلى شجر التوت. وقتها سألته سر اعتلائهما شجر التوت في غير أوان موسم التوت.

- "نحن أولاد الصيادين نؤمن أن البلدة بلدنا، وأن الفلاحين دخلاء علينا، فكنا نعتلي شجرهم ونجوس حقولهم فرضًا لسطوتنا على كلِّ شيء". علّلَ لي أبي.

زادني أن عمي "مصطفى" كان أكثرهم ثورةً وانتقامًا من هؤلاء الفلاحين، كثيرا ما يُغلظ لهم القول، يسبهم وينعتهم على الدوام:

- "أولاد الملاعين لوثوا تاريخ بلدنا، فحولونا من مزارع الأسماك إلى مزارع البهائم والبرسيم، وروثهم الذي لا يطاق". قال عمي مصطفى.

حكى لي بأن عمي مصطفى فلسف هجومه فيما بعد على هذه الفتاة، بأنه انتقام منها؛ فهي ابنة لبيت واحد من الصيادين، وأنها بفعلتها تلك قد لوثت شرف الصيادين في مرابط الحمير، وكانت نذير شؤم ببداية خروجنا كأبناء الصيادين من البلدة للأبد،

ليحتل أماكننا هؤلاء الفلاحون "الملاعين" كما تعود تسميتهم، هؤلاء الذين سمموا نخاع التمرد فيها بسكونهم وطاعتهم المريرة لذوي السلطان.

- "في بلدتنا لم نعرف الولاء تجاه (باشا) أو إقطاعي، نحن الصيادين ندين لجرأتنا وإيماننا بقوتنا فقط". علل عمي مصطفى.

فيما بعد كلما تجيء الحكاية على الذكر، يلعنها عمي ويسبها، ويقول بأنها جرَّأت أولاد الفلاحين على غزونا واحتلال مزارعنا السمكية ببهائمهم وروثهم القميء، فتجرأ بعدها جنسهم على نسائنا وذكرياتنا. ابتسمتُ حين تخيلتُ حادثتهما، وحسدتهما لإيمانهما الطاغي بهُويتهم كأبناء للصيادين، فهناك يعشقون السمك والأرز، ويكرهون الخبز الذي تُطرّى قساوته بفعل "برسيم الفلاحين". كان يفلسف لي نظرية عمي حول حماية هوية البلدة، ثم يقلد عمي :

- "أكره الأبقار، واللبن، والجبن، فكلها تشي بأننا نتحول إلى زمرة من أولئك الذين سمّموا بلدتنا بوباء السمع والطاعة". نقل أبي عن عمي مصطفى.
- "كيف وهم في النهاية بشر، وطباعهم جُبِلوا عليها، فكيف تلومهم؟". أسأله، فيكتفي بالابتسام والقول بأنه يتعيَّن عليَّ سؤال عمي مصطفى، لكني لم أسأله.

لعلي ورثت بعض جينات عمي مصطفى دون عمد؛ فحين ذهبت معها إلى غابات الشمال شعرت بانقباضٍ غير مبرَّر. كانت المرة الأولى التي أغادر فيها "كِيرِونا القديمة" باتجاه الجنوب نحو "استكهولم". عبرنا البحر البلطيقي نحو الشرق باتجاه "Turku" بفنلندا، ثم أخذنا السيارة نحو الشمال، لنصل بعد يومين مدينة "Rovaniemi"، ومنها تحركنا نحو قريتها في ريف المدينة قريبًا من نهر "Kemijoki"، وحين طالعت المزرعة التي تعيش عائلتها فيها، عرفت أنني أحمل من موروثاتهم بالبلدة الكثير فيما يبدو. يومها لم أفلح في معالجة توتري الذي بدا واضحًا لها، وتعللتُ بعلل واهية، جعلتها تتشكك في تقبلي عائلتها، ومزرعتهم وكل عاداتهم هناك في شمالهم المنعزل. وحين عدت

وحكيت لـ"هنري" عن توتري حين رأيت عائلتها هناك، انفجر في الضحك، واقترح أن نحتفل بشرب زجاجة فودكا روسي؛ فقد أعلنت جيناتي الحقيقية عن نفسها. يومها سكرنا حتى الثمالة، بينما يتملكني شعورٌ طاغٍ بأنني عمي مصطفى.

- "تحمل من ملامح وجه عمك مصطفى الكثير، ولعلك تحمل من روحه". قال أبي.
- "وهل يبرر تشابه الملامح تشابه الألم يا أبي؟". سألت أبي.

* * *

أخرجني من خيالاتي وذكرياتهما الصبيانية صوتٌ دغدغ حُجب الصمت من حولي يُلقي بتحية المساء. عجوزٌ تمرُّ إلى جواري على الطريق باتجاه "الكنال". كان ظهورها أمرًا كفيلًا بالدهشة. أجبت التحية بآلية تامة كأنني آلة ردٍّ مبرمجة. عبرتني العجوز بخطوتين ثم التفتت نحوي، وابتسمتْ عبر أسنانها الناصعة كاللؤلؤ. ذات مرة أخبرني بأن الصيادين ونساءهم في البلدة أسنانهم صفراء أو سوداء، من أثر الشاي الثقيل والتدخين المفرط.

- "النساء يشعلن نار النارجيلة على الدوام بأنفاسهن القوية، ثم يسلمنها مستعرة للأزواج المدخنين في سهراتهم العائلية". قال أبي.

حكى أن عجائز النساء يتنشقن مسحوق "النشوق"، ويُدخِّنَّ "التبغ" مع الأزواج؛ لإضفاء جو المرح على عودتهم من البحيرة بعد أيامهم العصيبة في الصيد والشتاء وسط أنواء بحيرة البرلس، لذا فقد بدا عجيبًا لي نصوعُ أسنان العجوز حين التفتت نحوي وابتسمتْ. تقدمَت العجوز بهدوءٍ نحوي، وأنا تجمدني دهشة ظهورها المفاجيء جوار شجر "توت العكّارين". لا أقوى على النهوض، وشعرتُ بطاقتي الحركية كأنها فنيتْ، فتجمدت في نصف نهوضي، ورفعتُ رأسي فقط. لا شيء مما كان في ذاكرتي استطاع

الصمود أمام ظهورها المباغت. اقتربتْ أكثر، ومدَّتْ يدها نحوي تطلب مساعدتي في أن تجلس لتستريح. يدها الممدودة نحوي تخبر بسنوات عمرها اللامحصورة. بلا إرادةٍ أمسكتُ يدها. بدتْ أظافرها طويلة ومعقوفة وملونة بلون اللمَى القاتم. الناظر نحوها يظنها سوداء، منها تفوح رائحة من عطور نادرة وغالية، تُذْهِب العقل والخيال في مساحاتٍ مديدةٍ لا يصلها البشرُ العاديون من الرضا والطُّمأنينة. كان حالها عجيبًا ومتناقضًا. اقتربتْ جواري. أربكتني أناتُها فوق ارتباكي، وزاد جمودي وآليتي برودةٌ تسري من كفها، حين أخذت بكفي لتجلس جواري. لم تكف عن الابتسام والتأوهات التي تطلقها العجائز-هنا- تعبيرًا عن المرض. في صمتٍ جليلٍ جلستْ باسمة الثغر، فتجاسرتُ واعتدلتُ. أخذتْ تنظرني بعينيها اللتين تُشْعِرانك بأنهما لا حياة فيهما؛ فلونهما الرمادي الصافي كان مهيبًا ومربكًا. بؤبؤ عينيها الرماديُّ يملأ العين بكاملها، فلا أثر لبياض فيهما. وكأنها شعرتْ بارتباكي، أخذتْ تربتُ على صدري بيدها الأخرى فوق قلبي مباشرة. نظرتْ نحوي باستدارةٍ قليلةٍ من وجهها، فبدت تجاعيدُ كفيها تناقض نَضَارة بشرة وجهها. مرت ثوانٍ كأنها الدَّهرُ وهي تتأمل ملامحي في صمت. كانت أنفاسها الحارة تعادل من البرودة التي بدأت تشمل جسدي. وبينما كفي تتجمد في كفها سألتني:

- "أنت من أحفاد مسعود ابن فريدة؟". ابتسمت العجوز.

لم يتحرك لساني، واكتفيت بهزِّ رأسي بالإيجاب، فارتبكتْ نبضاتُ قلبي وتسارعَتْ، فعاودتْ تربتُ على صدري فوق موضع القلب، فتسري نفس البرودة المطمئنة إلى قلبي فيهدأ، وشعرتُ بالبرودة في كفها تخترق عظام قفصي الصدري، فتشيع في رئتيّ إحساسًا بعطرها المسحور، وبرودة تنسيك كل شيء من حرِّ السنوات التي اختبرته يومًا، فلا خوف ولا أمل يوجد في قلبك، لا تجد إلا برودة كفها الرحيمة كنسماتٍ رطيبة. ابتسمتْ فلاحظتُ أسنانها وجمالها. كل ما فيها يخبر بأنها جميلة، لكن التجاعيد التي تملأ كفها، و"الكلف" الذي يغطي بداية معصمها يشي بعمرها المديد.

كانت مُربكة إلى الحدِّ الذي يسلمك للتشوش، لكنها لا تدعو لقلق أو خوف. تبينت أن ما انتابني لم يكن الخوف. هو الشعور بالغياب عن كلِّ شيء. قلق مجرد من ألّا تعود إلى أحاسيس البشر الطبيعية من الخوف والأمل والغضب والفرح؛ فهي تسلبك كل شعور داخلك كلما ربتت بكفها فوق قلبك، وكأنها تقرأ أفكارك وقلقك، تعاود الابتسام فتبهرك بثغرها من جديد، فترفع كفها عن قلبك نحو رأسك، وتمسِّدها من الخلف إلى مقدِّمة الرأس، لتقف في منبت الشعر عند الجبهة وتهز كفها فوق رأسك، فترى كأن أفكارك ومخاوفك تترنح أمامك، وكل ذكرياتك البغيضة يُلْقَى بها خارج رأسك، ولا تبقى بها سوى الرغبة في أن يتوقف العالم عن الدوران، وتتمنى أن لا شمسَ تسطع، ولا قمرًا يستدير، على أن تظل تمسِّد هذه العجوز فروة رأسك، ويجيء صوتها من أعماقك وأغوار عقلك البعيدة غير المأهولة بالرؤى. صوتها فراش مُخْمَلي؛ يهديك كل الراحة المفتقدة كأنك تحيا ذرة من ديباج.

- "لا تخف.. أنا جدتُك (بهلة).. لا تخف يا ابن الغالي". حاولَتْ طمأنتي العجوز.

تعود إلى ابتسامتها الصبية الطازجة، وكما ظهرت من السكون والليل، تتركني بجوار شجر التوت إلى الصمت من جديد، وتستعين بكتفي معتمدة عليها للنهوض، وتهم بالانصراف، وتحدثني بجملتها العجيبة:

- "من يُردْ أن يعرف ينبغِ أن يتحمل مسئولية ما سيعرف". قالت العجوز بهلة.

ثم تسير كأنها لا تحركُ قدميها. ملابسها السوداء المطرزة بما يشبه العملات الذهبية والفضية، وفصوص البلور الأحمر والأخضر والأصفر، تجلجل في سيرها بنغم دقيق متوازن كمن يعزف مقطوعة موسيقية شديدة الروعة والبراعة، تنسيك كل الأصوات التي سمعتها من قبل، فلا يبقى في ذاكرتك سوى نغم جلجلة ثوبها. من الخلف يجيء طول شعرها الأحمر القاني ووهجه كأنه عمود من ياقوت أحمر؛ فيسلب كلَّ الألوان من عينيك، فلا يبقى فيهما غيره، وتعميان أن تريا غيره. كانت "الجدة بهلة" تسلبك بعطرها كل العطور

التي تشممتها طيلة عمرك، وبكفها يتصاغر كلُّ العطف الذي مر بك يومًا، وبتمسيدها تكتشف كل التحنان قبل تمسيدها هو عين القسوة، وبصوتها كل العصافير التي غردت يومًا، وبنغم ثوبها كل موسيقى الكون، ولا تُبقي لك سواها بكل ما فيها، فتملأُ الروحَ والعقلَ والقلبَ فيوضٌ من الطمأنينة والاندهاش العجيب. يكيها الأوكسجين كلما ابتعدت، فينسحب من الجو، فتسلبك قدرة التنفس، وتصارع كي تحيا لأجل نفس آخر من جوها المسحور. حين اختفى طيفها في ضباب الطريق وأتربته.الندية، اختفى كلُّ رائع في الكون، فغبتُ عن الوعي مثل حبةٍ سقطت من منقار عصفور في جوِّ السماء.

- "هنا حين جئتُ السويد لأول مرة، شعرتُ روحي تُسحب من جسدي". قال لي أبي مرة.
- "وهل لا وجود لأرواحنا إلا في الجسد يا أبي؟". سألت أبي.

لا أعرف عدد الساعات التي غبت فيها عن الوعي. انتبهتُ لشمسٍ وحدُّها حارقة تكاد حرارتُها تخترق مسامَّ جسدي، فتحرق عظامي التي لم تألفْ هذه الحرارة. بعد أيام من انتقالنا في صيف عام (٢٠٢٠) إلى (كيرونا الجديدة) في غرب الجبل. أخبرت أبي أن حرارة الجو ارتفعت هذا العام لتصبح ١٧ درجة مئوية، وأن ذوبان الثلج قد زاد معدله هذا العام، فضحك بهيستريا، ونعتني باعتباري الأوربي بوصف عجيب:

- "أنتم (فراخ بيضا). وما العمل لو سافرت إلى صيف مصر والبلدة، أو رأيت شمس الصعيد؟".

حاولت أن أنبهه أن العالم يتآكل، وأن فوضى الصراعات المنفجرة بالعالم تلهب حرارة الكرة الأرضية، وبارتفاع حرارة الأرض فالعالم كله طبقًا لذلك سيتحول إلى "فراخ بيضا". بالأمس فقط في الليل وصلت إلى القاهرة. كانت السيارة في انتظاري. حملتني وانطلقت إلى أقصى الشمال نحو البلدة، تلك التي شهدت وَضْعَ بذرتي فيها، فحملتُ جين الحنين إليها على البعد، كبقية أولادها المبعدين عنها لظروفٍ متباينة. الآن أتابع

الرحلة هنا تحت شجر "توت العكّاريين"، ليغشى عليَّ في ليلةٍ عجيبة، فأفيق مع الصباح، والشمس تحرق بحرارتها كل ما يظهر من جسدي. بصعوبة فتحت عينيَّ أتأمل الصباح. كنتُ كمن يراه لأول مرة، شجر التوت يضفي بعض الظلال، وكثرتها تلطف الجوَّ قليلًا، فتسمح بعبور نسماتٍ طازجةٍ تذكرك بمقولته عن هذا النسيم، حين حكى عن ذكريات صيدهم في "كنال البحيرة"، فترى وصفه دقيقًا، حين يتحدث:

- "تتنفس نسيم الصبح، فينعشك كونك أول من يشم هذا الهواء قبل دخوله البلدة، حين يختلط بروائح الصيادين وشباكهم اختلاطًا يغالبه روثُ بهائم الفلاحين في الصباح أثناء رحلتهم اليومية نحو المزارع".

استمتعت بكوني أول من يتنفس الهواء في رحلته نحو البلدة عبر البحيرة و"الكنال" والمزارع، ليتوزع بين حواريها وأزقتها، فيصطبغ بلون البيوت فيها هناك. ذهني شديد الصفاء كأنه مخمل ممرد يكتسي بلون المزارع حولي وروائح النسيم المنعش لنباتات عديدة، فسألت نفسي عن سر الإلحاح الذي يدفع البعض للسفر عن هذه الأماكن السعيدة بالهدوء والمزارع، ويقاوم الرغبة في العودة كلما طاوعته نفسه، ويستسلم لثلوج السويد وشمسها التي تستحي حرارتها أن تغضب، فتُبقي المرء - ممن هم أمثال أبي - يعانون على الدوام من هذا الطقس الذي لم يألفوه طوال سنواته الثلاثين في"كِيرونا" أو "استكهولم". تُرى ماذا قدمت هاتان المدينتان الثلجيتان لأبي ليقايضهما بلون المزارع الخضراء، وينزع من رئتيه كل ذرات النسيم الذي يتنفسه لأول مرة بشريٌّ هنا على "سكة الكنال"؟ عجيب أمر هذا الرجل!

- "قابلت والدتكم في استكهولم بعد شهور قليلة من هجرتي، وهربي من المهاجرين العرب بمالمو في الجنوب". قال مرة.

ليتني أجد هنا في البلدة ما يفسر لي سر هذا البعد المتعمد، أو سر هذا الاختفاء المفاجئ العجيب، ساعتها ابتسمت حين جاءني صوته الضاحك وهو يحكي لي عن

عمي "مصطفى" الذي راودته الأسئلة العجيبة، والأفكار اللاعقلانية متى سارا على "سكة الكنال"، أو صعدا أعالي شجر "توت العكّاريين"، وقاما بمراقبة الكون من قمتها. قال لي بأن عمي ذات مرة، حين تسابقا للصعود نحو قمة "شجرة التوت الغبشاء" وصل قبله إلى أعلى الشجرة، وحين اقترب منه أبي، طرح عليه تساؤلًا عجيبًا:

- "هل خلق الله المجرات السماوية ومجرتنا في نفس الزمن؟ وما دامت تفصلنا سنوات ضوئية بالآلاف عن هذه المجرات، ولن نصل إليها، فلماذا أوجدها؟ وما الفائدة من خلقها في رحلتنا البشرية هنا على سطح هذا الكوكب، هل تستفيد بلدتنا من هذه المجرات؟ وهل منع وجودُها هؤلاء "الملاعين" من نشر رائحة روثهم في الكون؟ ألا تُعَجِّل كثرة الزرائب بدمار الجنس البشري؟". تساءل عمي مصطفى.

نظرت إلى أعلى شجر التوت الذي استقبل أشعة الشمس الأولى في حبور، وتخيلتهما هناك في أعلى الشجرة يتجاذبان الحديث، وكيف جاء الفلاحون والصعايدة من الجنوب، هؤلاء الذين قدموا وحوَّلوا أرض البحيرة، وما يحيط بها من برية إلى أراضٍ زراعية، كلهم يمثل احتلالًا سافرًا لثقافتهم كصيادين منذ الأزل قد سكنوا هذه البلدة.

- "أخاف أن يجيء اليوم فأصحو على نهيق حمار في زريبة أسفل بيتنا". قال عمي.
- "ربما كان يبالغ في عداوته مع هؤلاء الفلاحين" قال أبي.

كان كلما يذكر هذه الحكايات عن الفلاحين يضحك، ويلعن شخصًا نعته بـ"الخروف"، حتى تحمرَّ عيناه ويسبّ.

- "لعنك الله يا "خروف". أورثت مصطفى عقدة نفسية تجاه كل فلاح في الأرض".

كان عمي "مصطفى" لا يفارق أبي على الإطلاق، وفي يوم قرر جدي "مسعود" أن يصطحب عمي "حامد" وأبي في رحلة تدوم أسبوعًا، فيها يقضي بعض الحاجيات المتعلقة بالصيادين وبالعمل في شركة "المصايد الشمالية للصيد ومعداته" في شارع فؤاد

بالإسكندرية، التي يعمل بها أمينًا لمخازنها، وسيقوم بزيارة أخته الوحيده هناك وسيأخذهما معه لزيارة عمتهما وأولادها هناك. قرر أن يترك عمي "مصطفى" لصغر سنه. في سفرهم بات "مصطفى" كاليتيم بدون "حسن" - أبي - فقرر التسكع مع أولاد الشارع، أو القيام بزيارات للزملاء معه في المدرسة. في أول يوم أرهق نفسه باللعب والتسكع، وافتعال المشاجرات مع أبناء الفلاحين ممن مرَّ بالشارع، بعدها قرر أن يخرج كنزه الذي صنعه وأبي. كان كنزهما تمثالًا من الطين. ذهب إلى البيت الخرب المجاور لبيت العائلة، وخلف الفرن البلدي الذي يجمع نساء الصيادين في "ساعة الضُحى" للخبيز أو الشواء. كان وأبي قد حفرا ما يشبه السرداب في كومة التراب المتخلف عن حرق القشّ في هذا الفرن، والذي تكلّس بفعل الماء الكثير الذي تصبه النساء عليه حتى لا يطير، فيلوث عجينهم أمام الفرن.

- "كنا نتبارى من منَّا يمكن لبوله أن يحفِر أعمق في جبل التراب خلف الفرن". ابتسم أبي.

ذهب عمي إلى مخبأ كنوزهما، وأخرج مجسماتٍ لسياراتٍ مصنوعةٍ من الطين، وشخوص إنسانية تشبه تلك التماثيل التي شاهداها في كتاب التاريخ الخاص بعمتي "نورا" التي تحب أن يناديها الجميع بـ"كاندل"، وأخرج ما يشبه التمثال بحجم كف اليد، مصنوعًا من الطين، له عينان من الزجاج الملون، يكتسى بلون الطوب المحترق بعدما وضعاه في مجمَرة الفرن بعد انتهاء طقس الخبيز والشواء اليومي لنساء الشارع. كانا يتفقان فيما بينهما على أن يرغما كل أبناء الفلاحين الذين يمرون من شارعهم على السجود لهذا التمثال؛ فهو رمز الصيادين. تمثالهم الطيني يمسك بيده اليمنى سمكة "القريصة"، وباليد الأخرى يمسك بفرع صغير من البردي. قال بأنهما كانا يشترطان على أبناء الفلاحين تقبيل تمثالهم، حتى يُسمح لهؤلاء باللعب في شارعهم شارع الصيادين، وأنهما حذّرا صغار الشارع كله:

- "من يرفض السجود، فسيأتيه هذا التمثال في نومه، ويذبحه كما تُذبح خراف العيد". هدّد أبي وعمي الصغار في شارعهما.

يومها أخرج عمي هذا التمثال الطيني، وأمسك غصاة وربط بطرفها قطعة من حبل شبكة قديمة للصيد، ثم أمر كل الصبية في الشارع بالسجود أمام التمثال، وتمادى في الادِّعاءِ يومها:

- "هذا التمثال منذ اليوم هو ربُّ اللعب في شارعنا". صرَّحَ عمي بالسرّ.
- "ثم أخبرهم مصطفى بأنه الوحيد الذي يمكنه أن يفهم كلام هذا الرب". قال أبي لي، واستطرد:
- "حتى عمك صِدِّيق لم ينجُ من السجود لهذا التمثال الذي جعل المنطقة في خلفية الفرن معبده وضريحه". ترحَّم أبي على طفولتهما.

في آخر اليوم أمامهم يخفي تمثالَ ربِّ اللعب، بعد أن خافوا مجرَّد الإفصاح عن هذا السرِّ، أو التسلل فُرادى إلى مخبأ التمثال دون عمي مصطفى، وإلا بطش بهم هذا الربُّ وملاكه الذي يتلبس جسد عمي "مصطفى" كما صرح لهم متأخرًا في هذا اليوم وهو يحكي حكاياتِ ربِّ اللعب العجيبة للجميع. في كل مرة يحكي أبي عن ذلك ينهي حكايته بأن الحادثة ولَّدت التمردَ في عمي مصطفى.

- "مصطفى أدمن تمرير رسائل ربِّ اللعب إليهم". قال أبي.

مرَّ يومان، وعمي يتسلى بالأطفال المريدين لهذا الربِّ الذي صنعه هو وأبي من الطين، حتى جاءت طفلة من قرية مجاورة تزور بيت جدها "عبد الوافي" جارهم، الذي تحول من الصيد إلى الزراعة بعدما قامت حركة الضباط الأحرار بقلب نظام الحكم في مصر في يوليو ١٩٥٢ من القرن الماضي، فحولت كثيرًا من الصيادين وغيرهم إلى فلاحين في الأرض التي تملكوها.

- "لعل تغير البنية الاجتماعية للمجتمع المصري الخطأ الفادح في هذا الانقلاب الذي تسبب في تدمير المجتمع فيما بعد هناك". فلسف أبي ذات مرة وهو يشرح لي قصة هؤلاء الضباط الأحرار.

كانت "عفاف" شديدة الجمال، ملامحها شديدة البراءة، حذر عمي الأطفال:

- "جدها لصٌّ، يسرق لون المزارع ويكحلها به، لذلك فعيناها خضراوتان كالبرسيم". يبتسم أبي وهو يحكي.

- "تأتيني تبكي في الحلم حين أنام حتى الآن". شكا عمي مصطفى لأبي في كيرونا القديمة.

يومها أقنعهم عمي باستدراج الفتاة، فأحضروها للعب معهم، والاطلاع على سرهم، وعلل بأنهم سينشرون هذا الربَّ في كل البلدان المجاورة للبلدة، حتى يقوم بحمايتهم من "العفاريت" التي تملأ المزارع وبرية البحيرة، متى أراد الصغار اللعب. وحين جاءت، أمرهم أن يصنعوا دائرة وأن يجعلوا وجوههم إلى الخلف؛ لأن الربَّ يريد أن يخبر"عفاف" أمرًا سريًّا، لتصبح بعدها خادمته في بلدتها.

- "من أين كانت تأتيكم كل هذه الأفكار الغريبة والمجنونة يا أبي؟!". سألته مندهشًا للغاية.

تحلّق الأطفال كما أمرهم، وأعطوا ظهورهم لعفاف ولعمي وللتمثال الطيني، وهنا قرَّب عمي التمثال، من أذنه ثم أمر "عفاف" أن تغمض عينيها، وتستمع بهدوء إلى ما يطلب هذا الربُّ التمثال، وهمس بأذنها فاحمرت وجنتاها وابتسمت، وأخذت ترفع ذيل ثوبها. طفل واحد تجرأ يومها على أن يلتفت إلى الدائرة فرأى ما يحدث، وهدَّد بعدها "عفاف" بأنه سيخبر جدها بالأمر إن لم ترضخ له، وترفع ذيل ثوبها كما رفعتْه لعمي. كان "المسيو صِدِّيق"- كما يحب أن ينادوه حين تخرج في الجامعة - حتى إنه هدَّدَ عمي "مصطفى" هو الآخر:

- "إن لم تُعطني من نشوق الجدة وتبغها الذي تسرقه، سأخبر الجميع بما فعلت مع عفاف". هدَّد عمي صِدِّيق عمي مصطفى.

استسلم مصطفى الذي زهد في اليوم التالي ما يفعله، كما استسلمت "عفاف" للأبد. هكذا تبدأ رحلة استسلام نساء البلدة هناك.

- "ألا يعرف الرجال في بلدكم كيف يحملون الألم مرة؟!". سألتُ أبي.

أخبر الأطفال بأن "صِدِّيق" سيحل محله مع التمثال، ويخبرهم بما يقول به، وأنه يتعيَّن على "عفاف" أن تنتظر "صِدِّيق"، ليحل محله وسط الدائرة التي حوَّلها صِدِّيق وأبي فيما بعد إلى واحد من طقوسهم العجيبة. جاء "صِدِّيق" يتبختر كذكر أوز روميٍّ، يخبر "مصطفى" بما فعله مع "عفاف" التي تكبره بعام واحد، يومها صاح فيه:

- "أهذا ما يجعلك منتفخًا كالديك؟".

منذ يومها وعمي "صِدِّيق" يحمل هذا اللقب "الديك"، الذي تحول إلى "المسيو" ثم "الديك الكبير" بعد ثلاثين عامًا حين جاء ولده "الديك الصغير"، أو "محسن صِدِّيق".

مرَّ اليوم الرابع كئيبًا على عمي الذي قرر التسكع على "سكة الكنال". لم يعبأ بحدَّة القيظ. تحرك وأخبر الأطفال بأن "الديك" هو المكلف بالوصاية حتى يعود. خرج يهيم على وجهه، لا يعرف وجهته. هل سيكمل حتى "القنال"، ويذهب إلى "العمة سعدية" زوج "العوَّاد" ليتمتع بحكاياتها الجميلة عن ست الحسن والجمال، والشاطر حسن، وأثناء حكيها سيستمتع حين يتركها تعبث برجولته التي تنمو سريعًا قبل الأوان، أو ينتقم من "الديك" ويخبر والده؟

- "كل النساء تستحق ما يحدث لهن". تمتم بها مصطفى.
- "في بلدتنا لا تملك النساء غير الارتكان للقدر والقسمة والنصيب، وتبقى تعيش". قال أبي لي مرة.

قرر "مصطفى" في النهاية أن "سعدية" التي يسميها العمة، تستحق رجلها "العواد" الذي يحبسها هناك على ضفة القنال جوار كلب نباحه هزيل، ثم يتركها ويعود كل ليلة إلى مقهى الصيادين، يدخن الحشيشة ويشرب البوظة المقيتة، وأن "عفاف" تستحق ما يفعله الديك بها لأنها استسلمت.

– "هكذا مصطفى دومًا يتناقض ويهرب". أسرَّ لي أبي.
– "ألَا يتحمل الرجال في بلدكم يومًا؟!" سألت أبي في نفسي حين كان يحكي.

حين حاول أبي أن يخفف من ثورته تلك ضدهن، والتي تعوَّد أن يمزُجها بثورته ضدَّ ما يسميه "احتلال الفلاحين" للحي، يأتي رده وفلسفته العجيبة:

– "كلهن جئن من بيوتات الفلاحين الملاعين؛ ليفسدن حياتنا نحن أولاد الصيادين. فليذهبن إلى الجحيم مع ذويهن". قال مصطفى في غضب.

طلبتُ منه أن يُكمل لي بشغف، فأخبرني بأن عمي "مصطفى" توقف عن السير حين قابله ذاك الولد المسمى "الخروف"، كان ممن سكن الشارع في حملة احتلال الفلاحين للشارع كما يسميها، ثم تركوا بيتهم، وانتقلوا إلى بيتٍ بناه والده من اللبِن في وسط مزرعتهم قرب "الكنال". تصافح "مصطفى" مع "الخروف" الذي ظلَّ يعتلي حماره، مما زاد تبرم عمي منه، لكنه فاجأه بعرض سخي، حين عرض عليه ركوب الحمار خلفه، وأن يقضي بقية النهار معه في دارهم الجديدة، ويراهم وهم يزرعون الأرز في مزرعته.

– "ويمكننا أن نتسابق سباحةً في مصرف المياه أمام بيتنا". قال الخروف.

رحب "مصطفى" بالفكرة، وبمساندة "الخروف" ركب رديفًا له. انطلق الحمار مسرعًا، ووصلَا بيته بعد دقائق. نزل مع مضيفه، وجاءت أخته بعينين بلون الصفصاف، وثوب مزركش بوَردات كبيرة فاقع لونها ومختلط.

- "يسرقون ألوان الطبيعة وجمالها، ليزينوا صور أولادهم وبناتهم". قال مصطفى في نفسه.

تعرَّف إلى العائلة، وتناول – ولأول مرة في حياته – الجبن الطازج، وعبَّ من اللبن الذي قُدِّم إليه، كما لَاك خبزهم بشهيةٍ رائعة. وقتها خجل من حملته على هؤلاء الذين لا يسميهم إلا "الفلاحين الملاعين".

- "من لم يذق خبز الفلاحين، ما تلذذ بطعوم الخبز الأخرى". رواها أبي عن صديق له.

يومها سألته عن معنى الجملة، فاكتفى بابتسامة عريضة وجملة واحدة قالها بصوتٍ طفوليٍّ، متباكيًا بشكلٍ دعاني للضحك:

- "كل هذا لا يعنيني؛ فقط أريد الأرز والسمك".

حاولت الاستفسار منه كعادتي حين يحكي لي عن جملهم التراثية هناك، أو حين يخبرني بواحد من مصطلحاتهم شديدة الخصوصية، فعاد إلى الابتسام، وأخذ يشرح لي كيف لا يحب أولاد الصيادين غير الأرز والسمك على الموائد، وأن الطعام في بيوت الصيادين محض كلمة إذا خلَا من الأرز والسمك، وحكى أنهم حين كانوا صغارًا في المدرسة، أراد زميل لهم أن يعلن عن رفضه لمدرسهم الجديد الذي ينتمي إلى بلدة مجاورة كلها من الفلاحين، فكانت إجابته حين سأله:

- "فلاح يزرع خمسة أفدنة، ينتج الفدان سبعة قناطير من القطن، فكم يكون إنتاج الفلاح؟".
- "ما ليش دعوة؛ أنا عايز رزّ وسمك". أجاب التلميذ.

ضحكت معه، ورحت أتعجب كيف استطاعوا منذ الصغر إيجاد طريقهم الخاص في إعلان تمردهم، أو اعتراضهم الدائم.

- "هكذا كُنا هُناك نُحيلُ (التهيس) إلى أفكار جادة ونطوره". قالها بفخر ومرارة ممتزجين.

عُدت أسال عن الكلمة "التهيس" فابتسم، ثم استطرد يشرحها، ويعزي لها فضلَ تسمية بلدتهم بمسمى "العاصمة السرية" في واحدة من جولات "التهيس" تلك.

بالعودة إلى عمي "مصطفى"، فقد عرض عليه "الخروف" أن يخلع حذاءه، ويسير معه في وسط الأرض التي تستعد لزراعة الأرز. رحب بالفكرة، بل لم يمانع حين طَلَبتْ منه تلك التي تسرق لون الصفصاف في عينيها، أن يتخلص من بنطاله وقميصه كي لا يتسخا، وشجعه فعل الجميع ذلك، راقه ألوان أجسادهم البرونزية، التي تلونت بفعل الشمس، كلهم تخففوا من ملابسهم، وأحنوا ظهورهم يغرسون شتلات الأرز في الماء والطين. فرح بكونه يتعلم غرس الأرز مع تلك الأسرة التي تتخفف من ملابسها بلا حرج، وكثيرًا أخذ يختلس النظر نحو جذع الصفصاف الغضّ الذي ينبئ عن شجرة مستقبلية متينة.

- "أولاد الصيادين ينضجون جنسيًا قبل الأوان. لعل صحبتهم للكبار في البحر أو البحيرة سبب ذلك؛ فلا تسلية لهم هناك سوى حكايات النساء والجنس". علق أبي.

هكذا استغرق في انكفائه معهم بسعادة. مرت ساعة وجاء صوت ينادي. عرفه حين ظهر صاحبه، هو ابن عم "الخروف"، جاء من البلدة يزورهم، يراه كلما ذهب إلى البحيرة مع جده أو عمه، يعيِّره أطفال الصيادين بالاسم "زنّار".

- "هو إشارة إلى جزء من مركب الصيد". علمني أبي عن الاسم.

لا يُعرَف لِمَ يغضب ذاك الـ"زنّار" كلما نادوه به. سريعًا تخفف من ملابسه مثلهم، وتابع رحلة الانكفاء مثل الجميع في الطين غرسًا. مرت ساعات تمنى أنه يصعد في نهايتها شجرة الصفصاف؛ فهي تلاحظه وتبتسم في خفية من الجميع، حتى إنه لما تخلف

عنهم في غرسه جاءت تساعده، وتعمدت أن تنحني أمامه، فينكشف برونز فخذيها الباهر، فيتعجب كيف يخدع النساءَ جسدُه الفائر بنضجه واكتماله قبل الأوان فلا ينتبهن لعمره الحقيقي.

- " إلى هذا الحدّ يسيطر الجنس هناك يا أبي؟". سألت أبي.
- "سل من حصر الإنسان هناك فيما بين السرة والركبتين فقط يا ولدي". أجاب بمرارة.

مصطفى يظن النساء كلهن لهن نفس الأفخاذ البيضاء التي تروح وتجيء بدور الصيادين في الحي، فهو يتابعهن في أثناء جلوسهن ينسجن غزل الشبّاك أمام البيوت في كل الشارع. كثيرًا ما أزاح الهواء أطراف أثوابهن فرأى الأفخاذ بيضاء رجراجة، فعجب حين كاشف تلك البرونزية، وفُتحة صدر جلبابها البالي حين تلتفت إليه في انكفاءتها، يشع منها الضوء الوهاج ببرونزية صدرها.

- "لابد وأن الفلاحين يعانون أمام هذه الأجساد البرونزية المتينة". قال يومها.
- "لهم الأرض ومناجم البرونز الوفيرة". استطرد.

ضحك أبي، وشرح لي تعليق عمي على الحادثة فيما بعد:

- "لعل سر القساوة التي تعلو وجوه الفلاحين، ترجع لعجزهم عن صهر هذه التماثيل البرونزية، فلنحمد الله نحن الصيادين، نساؤنا من اللحين الرقيق، وأطفالنا يصبحون رجالًا قبل أوان الرجولة بكثير". ضحك أبي.

راقت عمي نساء الصيادين من صاحبات الأفخاذ والأثداء البيضاء.

- "هُنَّ من ريم البحيرة وخيرها". يحكي الصيادون هناك.

في نهاية اليوم حاول أن يرفع قامته لكنها استعصت عليه، فظل منكفئًا، وطفق يبكي ألما. حملوه على الحمار، واصطحبه "زنّار" في رحلة العودة، ومال عليه "الخروف"،

ووضع في جيب قميصه ورقتين من فئة خمسة القروش، فتعجب عمي. هو لا يعمل لديهم!! جاء عن طيب خاطر. في طريق العودة، أخبره "زنّار" بفجيعة.

- "عمي لصّ وبخيل ملعون، يعطينا ربع الجنيه للواحد فقط -كأجر لنا عن يومنا - ونحن نستحق نصف الجنيه". تبرم "زنّار".

لحظتها استبد به البكاء، وراح يتعلل بصداع رهيب يفجر كل أوصاله، وطلب إليه أن يتوقف، فأخرج ما في جوفه من اللبن والجبن والخبز، ولم يجرؤ على إخبار "زنّار" بأنهم أعطوه عشرة قروش فقط. منذ يومها وهو يكره الصفصاف والبرسيم في عيونهم المخادعة.

- "لذلك أكره الذهب الأصفر، يذكرني بألوان أجسادهم". حكى عمي لهم منذ زمن.

استطرد أبي يحكي بأن عمي "مصطفى" لا يحب سوى الأعين بلون ماء بحيرتهم وليلها الأسود، ويجزم بأن الفلاحين أخبث أهل البلدة. حين أفاق بعد أسبوع كامل من الحمى التي طرحته الفراش، أعلن الحرب على أولاد الفلاحين في الحيِّ والشوارع المحيطة، وبدأت تتجذر قصة عداوة عمي لجنس الفلاحين، والتي أخذت تتراكم على مدار سنوات. بعدها أسرَّ إلى أبي بما كان، فانفجر يضحك.

- "في بلدتنا يؤمنون أن النساء كالبلطية أو شجرة الصفصاف". حكى أبي.
- " هكذا فقط لحم وظل؟! وروحها ألَا يؤمنون بها؟!" سألت أبي.

* * *

كانت الذكريات التي تستدعيها تأملاتي الصباحية تنسيني الوقت ورحلتي، وأن الجميع ولا شك سينتابهم القلق؛ فموعدي في الوصول إلى البيت مضى منذ ساعات، ولا شك أنهم اتصلوا بالمكتب، وأن لغطًا كثيرًا حدث، فهممت بأن أرتب ملابسي،

وأستعد للحركة نحو مدخل البلدة الخلفي، ومبتعدًا عن "توت العكّاريين". نظرت نحو ساعتي لثوان، فأضاءت ألوانها البنفسجية ونطقت الثامنة وعشرة دقائق، بعدها نظرت ثانية ونطقت اسم "فاروق"، فبدأت صورته تتجسد أمامي نائمًا في سريره، فحركت بسبابتي طيفه البنفسجي المجسم المصغر وناديته، فلم ينتبه، فحاولت مع حميد فلم ينتبه أيضًا، فمررت بكفي على الطيفين النائمين بلون البنفسج، ومسحتهما برفق حتى تلاشيا في ضوء الشمس.

- "أحب تقنية الاتصالات المجسمة الحية تلك". قالها "هنري" حين كنا نخرج من البار في كيرونا الجديدة.

عجبت أني لا أرى الفلاحين كما توقعت، فلعنت التكنولوجيا والميكنة التي ساعدت كما قال عمي "مصطفى" عنهم حين استخدموها:

- "ينامون حتى الظهر، وأراضيهم ترويها لهم الماكينات التي تطارد نومنا".

مرَّ رجل لم أستطع تحديد عمره، يتدثر بعباءة وحطة، ويلتحف فوقهما بالطو شتويًّا قصيرًا، فبدا غريبًا في هذا التوقيت الصيفي بملابسه الشتوية تلك. كثيفة لحيته البيضاء وطويلة، مغبّرّ، يسوق ثلاث نعاج أمامه، يضع عصا خيزران رفيعة فوق كتفه، ويسند ذراعيه إليها لتواجه كفاه الأرض كأنها ترصد وتسجل آثار خطواته وراءه، ينشد بصوت عذب ما حفظته عن أبي مذ طرق سمعي، فكأن صوته ينقش في ذاكرتي ما غنى به:

يا ريس البحر.. خدني معاك..

أحسلي..

أتعلم الكار.. بدل العار..

أحسلي..

أول ما قال.. قال اطلع الصاري..

لقيت العويل.. أطول من الصاري..

رميت المداري.. وقلت البر..

أحســـــلي

ابتسمت حين توقفت النعاج، وأخذت في ثغائها وهي تنظر نحوي تتقافز وتقترب مني، فنهرها بكلمة لم أفهمها:

- "هووووورس".

استمرت تثغو، فزاد في نهرها، وأشار اليها أن تسير نحوِ الأمام باتجاهٍ يعاكس رحلتي منذ وصلت كوبري "العوّاد" وحتى "توت العكاريين"، واستمر يغني لها. كأنه ينقصني- بعد ليلتي العجيبة- رؤية هذا الراعي في الصباح، والذي يخاطب نعاجه بلغةٍ لا أفهمها، فلا تستجيب، وحين يخاطبها بلغة البشر تنصت. يغني لها فتتقافز في طرب. نظر نحوي وبدون مقدمات ألقى تحية الصباح من بين أسنانه الخربة. كان صوته يأتيني دون أن يفتح فمه، لا شيء سوى ابتسامته، فعجبت كيف يفعل هذا؟ يحادثني دون أن يفتح فمه، ودون أن تتوقف ابتسامته العطوف، أردف مستفسرًا:

- "أنت غريب! لست من البلدة؟ من أنت أيها المحترم؟". سألني الراعي مبتسمًا.

أخذت النعاج الثلاث تثغو حين ابتعدت خطوات عنّا، فأمرها بالسكوت بنفس الكلمة العجيبة:

- "هووووورس".

ما هذه البداية العجيبة.في الليل عجوز ليست بعجوز تخبرني أنها جدتي "بهلة"، وهذا الأشيب - المجنون كما يبدو- ينهر نعاجه بكلمة عجيبة، ويسألك ولا ينتظر إجاباتك، إنما يسرع فيجيب عن سؤاله بسؤال جديد.

- "أنت من بيت مسعود الشحات؟". سألني الراعي.

نجحت هذه المرة في أن أسبقه، وجاوبت بأول جملة علّمها لي في العربية:

- "أنا نور حسن مسعود الشحات صابر".

قلتُ الجملة في سرعة البرق، كأنني أريد أن أقطع عليه طريق سؤالاته وإجاباته، فابتسم:

- "أنت من بيت صابر إذن".

ثم دعا بالرحمة لجدي "مسعود"، ولجدنا الأول "صابر".

- "مسعود بن الشحات إنسان رفيع - ككل آل صابر - وأولاده ورثوا سمت معرفته وصفاء قلبه". قال الراعي.

لا أعرف أيّ صفاء قصد؛ فأبي وعمي مصطفى، تخبرني حكايات صباهم بالعبث اللامتناهي والانحراف اللامحدود لطفلين في مثل عمرهما، وما تلك المعرفة التي يظن أن الجد ورّثها أولاده، حاولت تغيير ما يستدعيه فكري، فسألته، ما بدا تافهًا:

- "هل البلدة بعيدة؟ وكم يلزمني من وقت للدخول؟".
- "بل، هل دخلتها كما ينبغي ووقتما ينبغي للبلدة الدخول؟". قالها كقول حكيم عظيم.

بعدها، ابتسم ثم أشاح بوجهه نحو بيوت البلدة القريبة، ثم نادى نعاجه، وأخبرني بأن الوقت يتسع لدخول البلدة، وأنني سأدخلها في الساعة الموعودة، حين يأذن سيد البلد. ساعتها تأكدت أنه مخبول؛ فليس من سيد يملك البلدة. ابتسمت دون تعقيب، فجاوب دون أن يكف عن هذا الابتسام، ودون أن تتوقف نعاجه عن الثغاء:

- "تظن أنك تعرف أيها الغريب، وأن دخولك إلى البلدة يسير، وأن البلدة لا سيد لها!

رحم الله جدك مسعود، أحبَّ على الدوام أن يعرف أكثر". قال الراعي.

ثم طلب يديَّ، فترددت، فابتسم وعاود الغناء. كيف غنى هذا المقطع الذي أعرفه؟! غناه لي أبي حين أهداني أول سيارة ركبتها في كيرونا الجديدة. يومها لم أكن أعرف مقدار حبي لجبل كيرونا، فساعدتني جولتي بها على اكتشاف ذاك الحب، حتى إن "هنري" يومها صعد إلى قمة الجبل الأبيض، وظل يعب من زجاجة الفودكا الروسي التي لا تفارقه، وأخذ يغني لبحيرات "كيرونا" والشمال كله بصوت مخمور.

– "يا حاملة النور الفضي.. في الظلام الطويل". غنى هنري.

لم أتردَّد في مشاركته الأغنية القديمة التي تمجد "سانتا لوسيا"، وغنيت معه، فقال:

– "هيا.. لنغنِّ لسيدة النور وحاملته", صاح بها هنري منتشيًا.

انشغل بالغناء بينما كنت أصنع من الثلج نجمات وشخوص خادمات "سانتا لوسيا" ويدها حيث تحمل شعلة النور. لحظتها تاقت نفسي إلى الربحة المخمرة ومقرمشات الخبز، فأغمضت عيني كأنها في فمي، حتى سمعت صوتًا يغني:

"افرد كفوفك.. تزين الحنة يا غالى..

يا جسم طاهر..

ومتربِّي على الغالى.."

ناولته كفي باستسلام، تأملها قليلًا، ورحتُ أراقب كل التعابير التي أخذت تختلف على قسماته العجوز، وحين تركها، وجدتها كأنها تخضبت بلون ورائحة الحناء المصرية المشهورة هنا في مجتمع الصيادين.

– "تترك يد الزوج من الصيادين بلون غروب الشمس البرتقالي السعيد". وصفها أبي لي يومًا.

دهشت لذلك، وابتسمتُ محاولًا الكلام. لم أقدر على النطق، فانصرف وتابع سيره وكلامه إلى نعاجه في هدوء. نظرت إليه فجاءني صوته دون أن ينظر خلفه، وأخبرني الصوت من جديد، نفس ما أخبرتني به العجوز "بهلة"، بأن من يريد المعرفة فليتحمل.

- "المعرفة حمل ثقيل لا يحمله سوى القليل يا ولد الغريب عن أرضه". قالها وهو يغادرني.
- " يا جد من أنت؟". ناديته.
- "عبد العلام، طالب عفو ربه، إن شئت قلت لبيت مسعود بأن الراعى ببيت (الحاج قطب سلطان) قابلك، امضِ يا ولدي لعل الله يرحمك من همّ المعرفة". أجاب دون انتباه لندائي المتكرر.
- "يا جد؟". كررت له النداء.

فجاءني صوته واضحًا رغم بون المسافة بيني وبينه، واختفى في زوبعة من التراب أثارها هواء الصباح:

- "أنا عبد العلام ولد المعرفة، من يحمل الرب في قلبه، أنا ابن البِشارة، أنا من يدلك على المكان، أنا من يهديك المعرفة في هذا الزمان، أنا ابن فعل النفخة الأولى من الحبِّ الرباني الجليل، أنا صاحب العلم والسلطان بأمر سيده الإمام القطب، وأنا من يأخذ يدك إلى حيث المقام". سمعتها، ثم اختفى تمامًا.

جمعتُ شتاتي الذي أحدثه ذاك الراعي، من يحدث نعاجه بلغة البشر فتنصت، ثم نظرت إلى كفي، مدهوشًا بلون الحناء الذي أخذ يتلاشى شيئًا شيئًا. وحين اختفى عبد العلام كانت الحناء اختفت من كفي تمامًا، وعلقت رائحتها بي. انطلقتُ في طريقي إلى مدخل "منية المهدي" الخلفي، حريصًا على اتباع العلامات التي حددها لي في هذا الجزء من وصف الطريق، ومطبقًا نص النصيحة بعدم الدخول إلى البلدة مباشرة في الليل أو

النهار، وأنه يلزمني مغافلة البلدة في دخولي الأول إليها، ولا أعرف كيف أغافل البلدة لحظة دخولي، لكني مضيت نحوها منشغلًا بالرسم الطيفي المجسم لخريطته حيث ترشدني العلامات التي تلونت بألوان فسفورية يمكن رؤيتها في وضح النهار..

- "استفتِ قلبك يا ولدي". قال أبي.
- "وهل تُستفتى القلوب في قدرها يا أبي؟!" سألت أبي.

الفصل الثاني

إشراق

قال له مين اللي جابك أرضنا..
يا أهبل..
تخشّ بيت السُّبعة وتمشي فيه...
يا أهبل..
يا أهل البلد اسمعوا راجل عاقل..
مهوش أهبل..
لو المغني أهبل يبقى المستمع عاقل..
مهوش أهبل.

كيف يجيء القدر لك كل هذا يا ولدي؟! كيف للسماء أن تظل على حالها في الحياد وتتركنا نخلط بين ما نجهل وما نعرف؟! فلترحمك مما نذرتنا له بقدر، ولتمضِ حيث شاء الطريق لك أن تخطو يا صغيري، فهنا نراكم ونسمعكم، لكننا لا نمضي للأمام أو الخلف. ما أتعس السجن هنا ولو كانت ما يوعدون من الجنان! وأنت يا ابن أختي تابع القراءة جيدًا، ولا تنس "شمس" المهدرة إلى جوارك تحمل في جيناتها كل ما حملته من جدكم وعن آبائكم وأمهاتكم يا آل مسعود صابر. تابع يا ولد أختي القراءة، ولا تنشغل ولا تتوقف، فقط انتبه للنور متى تحلق حولك في دوائر تتغشى ابنتي. لا تخف، هو رفيق شفيق رؤوم، لا يراه غير محظوظ اصطفاه صاحب النور الأول. تابع يا أمجد القراءة وأسرع قدر المستطاع، فها هم القادمون نحوي بدا لي نورهم من بعيد، اقرأ، وخلِّ بيني وبينهم، ويا ليتهم يجيبون أو يحملون معهم علل الأحداث، فأنا - الموصولة بالنور - لم أكتشف كيف بدأ النور القديم؟ ولا كيف مرت الأيام حين لم يكن النور. اقرأ يا ولدي وتابع، وانتبه.

- "لا نعرف من حمل النور قبلًا هو أم هي". قال أبي.

- "ألا يكفيكم وفقط ما نالكم منه؟! وهل يفيد لو تعرفون؟!". سألت أبي.

ظهرت ملامح البيوت التي تعطي المزارع خلفيتها، يداعبها النسيم، وهواء المزارع المخلوط بروائح الروث والعفن. نظرت نحوها، فوجدت أكثر من مئذنة. تحيرت أي المآذن هي مئذنة "المهدي"؟! حين نظرت كانت في أقصى غرب البلدة مئذنتان رفيعتان متجاورتان، وفي وسط البلدة مئذنة متوسطة الطول، وفي أقصى الشرق قريبًا مني مئذنة لم أميِّز لونها ما بين الأبيض والأصفر. نظرت إلى ساعة يدي ونقرت نقرات خفيفة فظهر المجسم الطيفي الذي نفذه "هنري". كانت الأخيرة أقربهم للوصف ضخمة وشاهقة، لها حلقتان خارجيتان، يعلوها هلال مهيب لامع. قررت أن أعيد ترتيب العلامات، ومراجعتها كما كان يرسمها في دفتر مواعيدي أيضًا قبل أن يختفي. طابقت العلامات في المجسم مع علامات الدفتر، ورحتُ أبحث عن الساحة، وعن البيت المسور في مواجهة "سكة الكنال"، فلم أجد الساحة، لكن في نهاية الطريق بقايا سور تهدم، وعلى جانبي الطريق في مدخل البلدة بيوتات كثيرة لم يرسمها لي.

- "كل ذكرياتنا تسرقها البيوت الجديدة يا حسن، لم يبقَ لنا الكثير". حدث عمي مصطفى أبي منذ سنوات.

الآن اختفت العلامات ولا يرشدني رسمه، غابة الأسمنت تزحف على الزراعات وتُغيِّب العلامات، حتى ساعتي لم تفلح في تحديد الكثير من البيوت حولي، فقط علامات قديمة تظهر في الخرائط التي تجسدها أطياف الساعة، فعرفت لحظتها أنه لا مفر من السؤال عن البيت اختصارًا للوقت. سمعت صوتًا كأنه ثغاء نعاج الراعي، فضحكت ونظرت خلفي فلم أجده، لكن الصوت في أذني يبدو واضحًا، فتوقفت وابتسمت، ورددت في همس:

- "يا ريس البحر خدني معاك.. أحسلي".

نظرت خلفي مرة أخرى حين تكرر الصوت في أذني، فلعل ذاك الراعي "عبد العلام" أقلَّ إلى البلدة، فيخبرني بالطريق، لكن لا أثر لمخلوق على الطريق، وثغاء النعاج

يعلو في أذني. حاولت الهدوء وتبينت الأصوات، جاء صوت "عبد العلام" جليًا في أذني كأنه لم يغادرني:

- "هووووورس".

فأضاءت كلمات أبي:

- "متى اختلط عليك الأمر في نهاية "سكة الكنال"، فاتجه نحو اليسار، حتى تجد المدرسة الإبتدائية، واجعل سورها إلى يسارك وتابع سيرك حتى نهاية السور".

على الفور أخرجت دفتر مواعيدي الذي يحمل خرائط العلامات التي رسمها بيديه، وتذكرته وهو يخطها، ويتحدث عن عمي "صِدِّيق":

- " المسيو أكثرنا براعة في رسم خرائط الأمكنة، للديك الكبير موهبة في تشخيص الأماكن لا تقارن".

تغيرتْ كل الملامح الجغرافية للأماكن التي رسمها، فجعلتني أجتهد في تحديد موقعي في المدخل الخلفي للبلدة. وهاهي الآن المدرسة الإبتدائية علامة تظهر في خرائطه اليدوية ومجسم هنري وخرائط تحديد المواقع التي تنشرها الساعة في مجسمات طيفية فسفورية اللون. أعرف أني ورثت هذا الجين الوراثي في الشغف بالخرائط المرسومة للأماكن بخط اليد- عن هذه العائلة التي أنتمي إليها، وأعيش غريبًا بعيدًا طوال سنواتي الثلاثين عنها - للدرجة التي جعلت هنري يراهن الطلاب في الجامعة على رسمي خرائط يدوية للجامعة تفوق المجسمات الإلكترونية الطيفية. وتذكرت يوم بهرتُ "سارة" برسمي التخطيطي لموقع بيتها في الشمال الفنلندي، حين رسمت لها معالم الطريق من كيرونا - مدينتي السويدية - حين عُدنا من زيارتنا الأولى هناك. كان نهمهم في رسم هذه الخرائط يعود إلى عمي "صِدِّيق" الذي أصبغهم جميعًا بهذا الجين العجيب، فلا يتحركون أو يصفون الأماكن دون رسم خرائط توضيحية تفصيلية للمكان. في"استكهولم" وقت

دراستي الجامعية، دون وعي لهذا الجين الوراثي كنت أزوِّد زملائي بالخرائط المنتمية لهذا النوع، وعلّمتها كيف ترسمها بدقة، مثلما علّمها والدي لأمي في لقائهما الأول في نفس الجامعة منذ عقود، كأنني أعيد تفاصيل لقائهما وأقارنها بتفاصيل لقائي بها بعد عشرين عامًا من لقاء أبي بأمي، وأذكر كيف كان فخورًا حين كُنا في رحلتنا إلى "أوسلو"، وفقدت طريقي معهم، تمكنت من الرجوع إلى الفندق حيث نزلنا قريبًا من دار الأوبرا هناك، وأذكر كانت دهشتهم لتمكني من العودة، وجعلي من رخام دار الأوبرا الأبيض الناصع دليلًا ومركزًا لحركتي، واكتشاف مكان الفندق.

- "أنت من بيت مسعود الشحات حقًا". قالها أبي مبتسمًا وفي فخر.

هُنا في مدخل البلدة، تبينتُ أن العلامات التي رسمها على الخريطة قد دَرَسَتْ معظمها، أو تبدلت ملامحُها بفعل السنين، لكن تابعت قدر الإمكان، فانحرفتُ في نهاية "سكة الكنال" نحو اليسار حتى وجدت المدرسة بعد أمتار قليلة، فالتزمت سورها- القديم المتهالك -كما نصح، وغمرني شعور بالسعادة، كَوْني أنتمي لهذه العائلة التي تعرفها عجوز ليست بعجوز، ويمدح رجالَها راعٍ يتكلم دون أن يفتحَ فاه، ويحادث النعاج بلغة البشر فتنصاع لكلامه، وفي النهاية ولعهم برسم الخرائط التوضيحية للأماكن التي يقررون زيارتها أو يصفونها للزائرين.أخذتني العلامات إلى نهاية السور، ثم عادت تختلط من جديد، فلجأتُ إلى الدليل السحري:

- "اجعل مئذنة المهدي دليلك". دومًا ينصحني بها.

قررت السير نحو المئذنة، وعند ساحة المسجد يمكن أن أسأل عن بيت العائلة. بهرتني ألوان البيوت وعجبت لتلاصقها الحميم. حين ابتعدت عن السور وجاوزت أول مدخلين من ناحية اليمين، وجدت العلامة قبل الأخيرة واضحة. دلتا من البيوت الصغيرة.. شارعان كنهر النيل بفرعيه، وعليَّ أن ألزم جهة اليسار:

- "كما لو كنت بفرع رشيد". هكذا وصف لي أبي.

دلفتُ إلى الشارع المقصود، فجاءني صوته بوضوح:

- "في النهاية وإلى جهة اليسار قليلًا، ستجد البيت في قمة الشارع المنحدر من موضع البيت حتى الشارع الرئيسي".

أخرجت دفتر مواعيدي، ونظرت فيه ثم حددتُ العلامة الأخيرة:

- "نهاية الشارع يكون البيت منتصبًا في جهة اليسار". قال أبي.
- "ما بال الجهة اليُسرى في خريطتك يا سيدي؟". ابتسمتُ وسألته.
- "لا تنس يا رجل، بيتنا بيتٌ يساري". عقَّب عليَّ مازحًا.
- "كم أفتقد ما سماه سخريته ونكاته تلك التي تميزه". أقول في نفسي الآن في طريقي نحو بيت العائلة.

قفزتْ إلى ذهني صورُ البيت التي رأيتها معه مرارًا كلما رمموا البيت أو استحدثوا فيه أمرًا. بيت ملون بالجير الأبيض غبَّره تراكمُ السنين عليه. متى أصلْ موضعه، فسأجد بوابته الحديدية إلى اليمين، يسبقها خمس درجات رخامية، وإلى اليسار درج رخامي درجاته تتخطى عشر الدرجات، يُفضي إلى الباب الخشبي الذي يتوسط ما يُشبه "التراس". هنا كانت جدتى، وهذا هو البيت. توقفتُ لحظاتٍ أمامه، وتأملتُ علاماته الخاصة التي حددها لي في دفتر مواعيدى، وطابقتها مع واقع المكان، ونظرت نحو البيت الأبيض أيضًا المقابل:

- بيت "المسيو صِدِّيق"، وهذا بيت عمتي "إشراق" إلى جواره، لا شك هو بيت العائلة إذن أمامي، بيتي هذا إذن". قلتُ لنفسي.

صعدتُ الدرجات المتتابعة، وطرقتُ الباب طرقاتٍ متباعدة، فلا مجيب. كررتُ الطرق بشكل أقوى قليلا، فجاءني صوتٌ يسأل:

- "من الطارق؟ أنت على الباب؟".

تراجعت إلى الوراء، ونظرتُ إلى الأعلى، فلم أجد أحدًا، وعاود الصوت:

- " أنت.. أنت يا أستاذ؟".

بحثتُ عن مصدر الصوت. كانت امرأة في أواخرالخمسينات، تجاهد من خلف عدستيْ نَظارتها الطبية الرقيقة؛ لتدقق الملامح في هيئتي، تقف في شرفة البيت المؤشر له بعلامة عمتي "إشراق"، هي عمتي لا شك.

- "كلنا تركنا البيت وارتحلنا، وحدها عمتك وقفت تراقب وتدافع عن البيت يوم غبنا عنه أيام الحادث المشؤوم". قال لي ذات مرة.

ابتسمتُ، وقلت بعربيتي الضعيفة لكنها مفهومة:

- "أنا نور يا عمتي إشراق".

- "من؟! نور!! نور حسن!! يا ضناىَ!!". شهقت عمتي.

اختفت داخل بيتها. مرت لحظات قبل أن تظهر من جديد، أظنها طارت عبر بوابة بيتها، فسرعتها بدتْ عجيبة إذا ما قورنت بسنواتها التي تدنو من الستين في عمر امرأةٍ في البلدة.

- "متى تتحقق بشارتك يا أختاه؟ ومن منّا سيراها؟!". قال أبي مرة شاردًا.

حكى لي كيف تأكل بلدتهم نساءها بشراهة، فتمضي الواحدة منهن إلى شيخوختها سريعًا، وفي نهاية المطاف، ترحل في صمت وستر.

- "الفقر ليس وحده ما يأكل نساء البلدة يا مصطفى". قال أبي له مرة حين ناقشه بأمر زيجته الأخرى.

جاءت عمتي تبكي، وتتحامل على عصاها الأبنوس السوداء. تركتُ حقيبة ظهري، ونزلتُ الدرج نحوها، وقبل أن أصلها فتحتْ ذراعيها، وأجهشتْ بالبكاء، فأسلمت

جسدي المرهق إلى حِضنها فاعتصرتني بين ذراعيها:

- "يا نهار أبيض.. نور!! يا حبيبي، ياغالي.. يا ولد الغالي". قهرها دمعها والحنين.

ساعتها، تذكرت حين كان يشرد ويحكي عنها، وعن حبها للجميع، وكيف فرّطوا في هذا الحب ببعدهم عنها كل هذه السنوات. كثيرًا حكى لي عن حبها لي و لأختي "ليلي"، رغم أنها لم ترنا سوى مرة في عمرها.

- "في رحلتنا البشرية لا نختار من نحبهم". قال أبي.

- "وهل نختار من يحبوننا إذن؟". سألتُ أبي.

* * *

أخبرني بأن جدي أسماها "إشراق"، لأنها وُلدت في صباحِ يومٍ جميل من أيام حرب أكتوبر في العام ١٩٧٣، ووجهها قد فاض بالنور مثل الصبح، فاستبشر الجد بها.

- "هي إشراق مصري بطعم الكفاح". قال جدي.

ومنذ يومها تحمل اسمها المركّب "إشراق مصري"، لكنهم يكتفون بالمقطع الأول فينادونها "إشراق". شرح لي مفهوم الاسم المركب في ثقافتهم المصرية، وكيف اتخذ البعض هذه الأسماء موضة في تسمية المواليد.

- "المشكلة ظهرت حين استغل البعض ذلك للتلاعب بالمواريث والعقود، فمنعت الحكومة تداولها". حكى لي يومها.

في واحدة من جلساتنا الأخيرة - منذ خمس سنين - حين زرته في المستشفى النفسي بـ"كيرونا الجديدة"، كان يبكي، ثم قال:

- "إشراق ليست أختنا، هي أم للجميع، لكنها مرصودة بالمعاناة والفجيعة، متى رأيتها،

فلتقبلْ يدَها وتنادِها بأمي". فنفذتُ وصيته بحبٍّ جمّ.

أخرجتْ عمتي ميدالية بها مجموعة من المفاتيح، أخذت تدقق فيها وتباعد بينها، تنحني برأسها قليلًا لتحدد المفتاح:

- "كلها مفاتيح البيت، كلّما أتمُّوا طابقًا، أعطوني مفاتيحه، إلا مفاتيح الحاج بركة، أقسمت ألّا أمسها للأبد". قالتها وابتسمت.

وأشارت بالمفاتيح تحدد أصحابها، هذا لحامد، وهذا لمصطفى، وهذا لعمك أسامة، ثم ابتسمت كمن وجدت كنزًا، ومن دون أن ترفع عينيها عن مكان إيلاج المفتاح، قالت:

- "أخيرًا هذا مفتاح حسن. جدتك قالت بأن مكانها سيكون مكان حسن بعدها متى جاء، فكلهم بنى هنا إلّا حسن".

تبدلت ملامحها فمحا الحزن كل أثر للابتسام كان قد علاها، بعد أن جاءت على ذكرهم، وسألت اللاشيء، كأنها تعودت مثل هذا الطقس من الحوارات بينهما:

- "لماذا سافروا جميعهم، ومن سيحمل مفتاح بيتي حين أسافر، لطفك يا رحيم". مسحت دمعة.

البيت - أو كما تسميه عمتي "الدار" - صالة فسيحة، في مواجهة الباب الخشبي، إلى اليمين حين تدخل تجد غرفة، وفي آخر الصالة طرقة توزع إلى المطبخ ودورة المياه، يواجههما في الطرف الأقصى يسار الصالة ممرٌّ يفضي إلى غرف النوم. أدخلتني عمتي غرفة إلى جوار الباب، متوسطة الحجم، تلف جوانبها أرائك وثيرة، يفترش أرضيتها سجادة قديمة، احتلها الترابُ بلا مقاومة، فنَعِمَ بها، تتراص صور الجميع فيها في أيام شبابهم، وفي الحائط المواجه لبابها صورة كبيرة لجدتي بملابسها السوداء ترفع علمًا في وسط حشود غفيرة، وعيناها خلف عدسات نظارتها الطبية شديدة الفرح، وإلى جوارها

عمي حامد يتأبط ذراعها بينما يحمل فاروق فوق كتفه، وقد كُتب فوق زجاج الصورة بقلم فسفوري:

- "ليلة التنحي ١١ فبراير ٢٠١١، ميدان التحرير/ مدخل كوبري قصر النيل".
- "نورت دارك يا نور". بادرتني عمتي.

عمتي إشراق يروون عنها في البلدة حكايتها العجيبة.. أنها تمشي في نومها، وقد خرجت يومًا ليلًا، ثم فتحت باب البيت واتجهت نحو برية البحيرة. ظلت تمشي وتمشي حتى وصلت إلى مكان يحب البعض تسميته "إثلة مريانة"، وفي الصباح كانت غارقة في النوم، وقد بللها حيضُها الأول بغزارة. وحين تزوجت وبدأت تسقط حملها عامًا بعد عام، حتى عقمت، قالت زوجة العواد إن روحًا من أرواح البرية قد سكنت رحمها فحرمت عليه الحمل، فبكت عمتي وظلت تبكي حتى انهزم بصرها، فألزمها طبيب ارتداء نظارة طبية تساعدها في تصحيح الإبصار.

- "ما شاء الله!! عشنا وشوفنا". قالت الجدة أمينة خالة أبي حين شاهدت إشراق لأول مرة في نظارتها الطبية.
- "ضبطتُها مرة أمام المرآة تخاطب نفسها (حضرة المهندسة إشراق مسعود)". قالها عمي أسامة حين زارنا في كيرونا الجديدة منذ سنوات.

يحكون عنها كيف جاءت إلى الجد في عيادة طبيب الولادة، حيث وضعت الجدة عمي "أسامة"، ثم أخضعها الطبيب لجراحة قيصرية لأمر ما، وفاجأتهم حين أخبرت الجد أنها لن تعود إلى المدرسة مرة أخرى، مهما كلفها الأمر.

- "أمي ستحتاجني يا أبي بشدة في أيامها القادمة". قالتها بحزم.

يقولون بأن محاولات عديدة مارسها الجميع معها للعدول عن قرارها، لكنها كانت تُصر:

- "هذا قدري، لستُ بدعًا بين بنات الصيادين". كانت تدافع عن موقفها.

حتى إن ناظر المدرسة حين أبدى عجبه من موقف الجد الذي رآه سلبيًّا، وستدفع "إشراق" ثمن ذلك ندمًا حسيرًا حين تكبر، إلا أن الجد يكتفي بنفس الرد:

- "أعرف تفوقها، لكن من يعلم الغيب؟ ربما اختار الله لها علمًا غير علم المدارس".

وحين حاول أخوها بركة، وعمي حامد إقناع جدي بعودتها للمدرسة، وحاولوا أن يمنوه وهي معه، بما ينتظرها متى عادت إلى المدرسة، واستكملت حلمها في دخول الجامعة في القاهرة البعيدة، أجاب منهيًا كل النقاش:

- "لعلها حملت عنكم يا أولادي. لعلها ضحت لأجل أمها وأجل الجميع. لها الله ابنتي".

أخبرني أبي أنه كلما كانوا يذكرونها بالحادثة، وكيف أصرت على ترك الدراسة، وكيف كانت ستكون أولى فتيات البلدة في كلية الهندسة التي تمنتها صغيرة، كانت تبتسم:

- "منذ متى ونساء البلدة يحلمون، في نهاية الأمر نتزوج، ونبهج الرجال، بينما لا يعرف الرجال كيف يبهجوننا. سرير واحد يا إخوتي ستتساوى عليه كل رأس في النهاية".

الآن إلى حواري عمتي "إشراق"، التي حملت عنهم الكثير، حتى في تَرحالهم عن البلدة، كانوا يتركون لها أوجاعَهم حين يجتمعون معها في تلك الحجرة على مرِّ سنوات.

- "حجرة الشباب؛ خلت من الشباب". مصمصت شفتيها في عجبٍ وحزن.

حكى لي بأنهم حين قرروا بناءَ البيت في البلدة، أوكلوا المهمة إلى أقاربهم؛ فكلهم خارج البلدة. تطوع خالهم الأكبر، وعمي المسيو صِدِّيق، وأخذا يُنَظِّران لتقسيم البيت هندسيًّا، فلم يعجبهما التصميم الهندسي الذي قدمه مهندس البناء، وأعادا من جديدٍ هندسة البيت، وتكلف "المسيو صِدِّيق" بتحديد الحجرات، واستنادًا لتفشي موهبة رسم الخرائط بينهم، أعادا هندسة البيت، وعَيَّنَا هذه الحجرة "حجرة للشباب". حين عادوا

إلى البلدة بعد البناء، تميزوا غيظًا، فقد تبدلت هندسة بناء البيت تمامًا، واندلعت حربٌ كلامية بين الخال وبينهم، في حين لاذ عمي "المسيو صديق" بالصمت. في النهاية سلموا بأمرهم الواقع، وحولوا القضية إلى نادرة يضحكون كلما تذكروها، فأعلن "المسيو صديق" أنه من اقترح الاسم على الخال الأكبر. هكذا صارت "حجرة للشباب" سببًا كافيًا لإطلاق ضحكهم الصافي، ورمزًا دقيقًا لموهبة عمي صِدِّيق التي خانته في الرسم الهندسي، بعكس رسم خرائط الأمكنة والشوارع الذي تميز به.

ضربت عمتي براحتها إحدى الأرائك، فتصاعد التراب يهرب نحو شعاع الشمس المتسرب إلى الغرفة إثر فتح شباكها الفرد، ولاذت جيوش من الغبار نحو الخارج.

- "لمْ أدخل هنا منذ سافرت عمتك نورا". اعتذرت عمتي.

ربتت على كتفي، وتابعت:

- "كنتُ قد حرَّمت الدار على نفسي، لكن لأجلك يا نور أحنث اليوم بقسمي، وأدخلها".

ثم التفتت نحو الشباك وقالت بحسرةٍ بالغة:

- "لينتقم الله منها، من فرّقت شباب الدار، لولا فِعالها ما كان هذا الخراب".

جاءت تساؤلات عمتي تترى، تارة عن أسرتنا، وتارة عن "ليلي" - أختي التي ينادونها هنا "لولا" كعادتهم في إطلاق الألقاب- وكأنها تريد أن تكتب سيرة حياتنا هناك، أو أن ألخصها لها. طمأنتها بأن الأمور على ما يرام، وأن الجميع بخير. كنت أكذب، فلا أمورنا على ما يرام، ولا جميعنا بخير، فأبي لا نعرف عنه منذ شهور، وأختي "ليلي" لا أراها سوى في مناسبات خاصة، وقد سكنت بيت الأسرة في "كيرونا الجديدة" قبل أن تغادر نحو صحراء الأمازيغ في أفريقيا مع "آغ مسعود"، وأنا في "استكهولم" وحيدًا، بعد موت جدتي لأمي، التي كنت أعيش معها هناك حتى جنازتها، حيث قررت

الانتقال إلى "استكهولم"، بعد ما كان من صديقتي "سارة"- الفنلندية - وخلافنا الذي انتهى بترك شقتنا المشتركة قرب الجامعة. أظن أني لن أحكي لها ما كان من أمرنا، فلأرحم شيخوخة هذه العمة التي تحب أن نناديها بـ"ماما إشراق".

تركتني في "غرفة الشباب" وجاءني صوتها من الداخل، لا تكف عن السؤال:

- "أتمنى أن أرى أختك "لولا" قبل أن أرحل، أظنها صارت جميلة مثلكم أيها الخواجات".
- "سأهاتفها، وأجعلكِ تشاهدينها، وتتحدث إليكِ ريثما أرتاح". أجبتُ عمتي.

أخبرتني بأن فاروق وحميد ينتظران منذ الأمس اتصالي، ولما تأخرت اضطرا للاتصال بالمكتب الموكل بسفري من المطار حتى البلدة، وأن المكتب أكد لهما اتصال تأكيد بوصولي، فأكلهم جميعًا القلقُ والحيرة، وكادوا يخرجون في الليل للبحث عني، وتفتيش الطرق ومداخل البلدة، وكيف سهرت الليل بلا نوم متقلبة بين وساوسها. ابتسمتُ واعتذرتُ عما سببته لهم من القلق، وأخبرتها بما كان في ليلتي، فهرعت نحوي في فزع تحمل منشفة بيضاء كبيرة:

- "بهلة؟! يا ربي؟ من ذكَّرها بنا؟! أهي موجودة في الجوار؟!". صكّت وجهها.

ترحمتْ على جدي "مسعود"، وأمرتني أن أندس في حضنها، ففعلت، فتمتمت بكلمات سريعة، أظنها من القرآن، تبينت بصعوبة جملة حفظتها مرة في مسجد "كيرونا الجديدة" التابع للمجمع الإسلامي هناك، حين ذهبت إليه في المرات القليلة التي زرتها مع أبي مؤخرًا قبل أن يختفي، وقت طلب مني أن أذهب به إلى هناك، وبعد أن انتهى من شكواه إلى المعمم في المسجد، وضع يده على رأس أبي وتمتم بها.

- "نرقيك من كل عين لامَّة". تمتمت عمتي.

أخذت تمسح على شعر رأسي، وتتضرع إلى ربها أن يحفظني وأولاد أعمامي، وولد

عمتي "نورا"، سألت نفسي وهممتُ بسؤالها، لكن توقفت عن المقاطعة:

- "أليست عمتي نورا مسافرة؟". هكذا تسمي الموتى عمتي.

أوقفتْ طقسها الدعائي هذا فجأة، وسألتني:

- "ما هاتان الخصلتان من الشعر الأبيض أيها الصبي؟".

أجبتها بأن شعر رأسي لا يوجد به خصلات بيضاء، فأشارت نحو رأسي في إصرار، فابتْسمت لأنها تركت كل ما كانت تنشغل به، وتُصرّ على أن خصلتين من شعر رأسي ملونتان بالأبيض، فقررت مجاراتها، فلربما تختلط الألوان في عينيها، لكنها عادت تتساءل في عجب وإرباك، وأصرت:

- "أنت في عزك يا ولدي، فمن أين يأتيك هذا الشيب؟!".

وإذا بها تجذب شعيرات من رأسي، لتضعها أمام عينيَّ، فيأخذني عجب من لون الشعيرات الفضي، فانتبهت ووضعت كفي على رأسي مندهشًا، فإذا بها تنهض فجأة، وتأخذ بيدي آمرةً أن أتبعها، فدخلت بي إلى الطرقة التي تفضي إلى المطبخ ودورة المياه. أمرتني بالنظر في المرآة الموجودة، فهالني منظر الخصلتين اللتين مال لونهما إلى الفضي أكثر منه إلى اللون الأبيض، وصحت في عجب:

- "oh! ما هذا؟ ماذا حدث لشعري؟!".

سألتني أن أقصَّ عليها بتفصيل ما كان في ليلتي الماضية، فأعدت تفاصيل الحكاية منذ تركني السائق بجوار "كوبري العوَّاد"، ومقابلتي"بهلة" ثم "عبد العلام" الراعي.

- "قم يا ولدي، لتغتسل، وليرحمنا الله". أمرتني مذعورة.

كانت كمن يحاول دفع شر بجملتها هذه:

- "بعد اغتسالك، توضأ، ثم تصلي الصبح والضحى؛ فالشمس ارتفعت، وبدأ النهار".

عقّبت عمتي.

بعدها حذرتني إن كنتُ تكاسلت عن الصلاة، كما يفعل الآخرون. هو الآخر كان يحكي لي عن طفولتهم وكيف كانوا يعاقبون على الصلاة، ويتعجب كيف تبدل الحال بهم حين كبروا، ففرطوا وتكاسلوا؛ ويجيب في عجب حين كنت أسأله في كيرونا القديمة عن سر صلاته لما يُسميها "صلاة الفجر"، فيبتسم ويجيب:

- "باحبها، أيوه صلاة الفجر لا يُمكنني تفويتها، أحبها وفقط".

حين كنت مع سارة في استكهولم وحكيت لها عن حبه لصلاة الفجر، ابتسمتْ وقالت رأيها الذي أظنه كفيلًا بإثارة المعمم في مسجد كيرونا الجديدة لو سمعه:

- "صلاتهم تتشابه وصلاة بوذا". قالت سارة.

يومها لم أفهم إشارتها التي كانت تحاول تمريرها إليّ، وإيمانها بأن كل الديانات لابد لها من أصلٍ واحد.

- "كل هؤلاء يوسوسون لفكرة الخلود، التي استمدوها من الإله الذي يعبدونه". قلتها حين ناقشتْني.

حين كنت أنقض فكرتها، كانت تنفعل، وتعتقد أني أهاجم ديانتها البوذية - قبل أن ترجع إلى مسيحيتها ومذهبها الخمسيني - حتى إنها غالت في ردة فعلها مرة، وأخبرتني بضرورة الانفصال؛ فلن تترك بوذيتها التي اعتنقتها بعد زيارتها للهند، فكانت سببًا كافيًا لطردها من عائلتها التي تعتنق المذهب الخمسيني قبل أن نتقابل بالجامعة في استكهولم، وأنا كما أنا بين المسلم والمسيحي، بين بين، بلا استواء تام أو انتماء حقيقي لأحدهما. وفي النهاية عادت إلى مسيحيتها، وتركتني وبوذيتها وحدنا.

- "أتعرف كيف تُصلي يا خواجه؟". ابتسمت وسألتني عمتي.

تركتني لأغتسل، واختفت في المطبخ تعد الفطور. كان يخبرني - بين الابتسام

والمرارة- بأن عمتي "إشراق"، يمكن لها أن تمضي النهار تحكي مع الجارات في كل الأمور، وتقلب محطات التلفاز، لكنها لا تنشغل أبدًا عن صلاتها، وتستمر بنصحهن ألا يقطعن صلاتهن، وكثيرا ما كان يعجب من سيطرتها عليهم هناك، وكيف لامرأة مثلها بلا ولد أن تتسيَّد المشهدَ النِّسْويَّ في الحي، فتأتيها النساء في الاستشارات الزوجية، والمشورة الاجتماعية، بل إن بعض النساء كنَّ يخبرنها بتفاصيلهن الخاصة وعَلاقاتهن.

- "كان لها مريدات كثيرات.. كأنها عالم عظيم". كان يحكي لي ويبتسم.

عمتي إشراق حين كانت تغضب، تخافها النساء، بل يُقسم على رهبة الرجال غضبتها؛ فهي لا تحب تسلط الرجال ولا غرورهم الفارغ كما تسميه. يحكي بأنها مرة استنجدت بها امرأة في سوق البلدة حين تحرش بها أحد الباعة الذين يسمونهم في البلدة "الغرَّابة"، فتقدمت إليه، وفي هدوء تحركت نحوه، وفجأة أمسكت به من خصيتيه بقوة، وجعلت تصرخ في السوق وهي تلوح بيدها الأخرى حيث رفعت سوارًا من ذهب:

- "من يعطيني شفرة، وله هذا السوار". ظلَّت تكررها بغضب.

حين استطاعوا أن يفلتوه منها، سألتها النساء إن كانت حقًا ستقطع قضيب هذا "الغرَّابة"؟!، وكيف جاءتها الجرأة لفعل ذلك؟! ثم ضحكن معها حين أخبروها عن تبوله في مكانه، وأن الرجال أمروه ألا يظهر في البلدة للأبد.

- "لعل الرجال من نوعه حين يُقطع قضيبهم، يرون فينا غير ما بين فخذينا.. اتفووو!!". بررت عمتي إشراق لعفاف حين جاءت تدعوها لزفاف أخيها.

- "أصلي لأحفظ الشعرة بيني وبين السماء أن تنقطع". قال أبي.
- "وهل نحتاج إلى شعرة أن تربط بيننا وبين السماء؟!". سألتُ أبي.

الفصل الثالث

منية المهدي

أدلم من نسل الملاح يا هنَاك..

من سجرة عالية..

وكان القلب رايق لك..

والربّ راضي عليك..

والرب رايد لك..

أن يعرف عنك ويراقبك هو وحده ما يشعرني بالارتباك. هو يعرف أني مثل أمي أكره عبث الغرباء، لكنه ليس بغريب. وكيف لي أن ينمو في داخلي مثل هذا الذي تنامى، ويعرف أنه قد يقضي علي؟ كيف طاوع خططه وألزم نفسه بحق نصرتها، فأعطاها اسمًا بيننا عرفناه بالقضاء والقدر؟ أجبني يا صاحب البدء والنور الأول! كنت تعرف كل شيء وتراقب، ألا تتوتر الإرادة بفعل المراقبة بعض الشيء؟! كنت تعلم أني أراقبك مثلما كنت تراقب حال وجودي ضمن خارطة حياتهم هناك وسط البيوت التي تجاورني. كيف أطلعتني على هذا الأمر؟ وكيف وضعت كل تلك المعرفة في طريق جدنا الأول؟ من منا تستثنيه من هذا الهم الذي يحسدنا عليه الساكنون تحت مجلسك المهيب؟ من كان قبلنا حين كان النور محررًا من تلك الخطط التي ارتسمت بسر الحرفين بين كاف ونون؟ من يا سيد النور الجليل كان يرضيه أن يمنح الآخرين ما لا يملك؟! من يا سيدي العظيم؟؟ وأنت يا ابن أختي هل تعرف كيف تراقب تلك الممددة إلى جوارك تحمل مثلي حين النور؟! لتقرأ يا ولدي عند رأسها كل الحكاية، ولا تنشغل، سيسمعها قلبها الصغير، ولا تعجب متى رأيت سيد النور الأعظم هو الآخر يسعى إلى قلبها الصغير، فتلك خطته القديمة أن يعبر نحو قلوب الصغار حين الحكايات تزخر بالنور وتختلط فيها مشاعر وأمور، فقط أكمل يا أمجد، واستمر تقرأ على قلبها السعيد.

أنا لا أعرف إن كنت مسلمًا خالصًا، أم مسيحيًا خالصًا. في الماضي ذهبت قليلًا إلى المركز الإسلامي في "كيرونا الجديدة" مع والدى، بعدما انتقلت المدينة قسرًا حين هددتْها أنفاق مناجم الحديد. ومع زيادة المسلمين في المدينة بعد نزوحهم من "مالمو" في الجنوب، أقامت الحكومة هذا المركز لهم. تعلمتُ الصلاة في الجُمَع والأعياد، وتلوثُ التكبيراتِ حين ذبحوا الأضاحي في عيد المسلمين، وكثيرًا ما نمت قبلها في صلاتهم الطويلة التي يصلونها في شهر رمضان. أمي المسيحية لم تعترض، والحال مع أبي لم يعترض حين كنت أزور القُدَّاس في الآحاد مع جدتي في "استْكهولم" حين نزورها في الإجازات الطويلة. ولما شبَّ عودي، بدأت أرى الاختلافاتِ جلية بين جُمعة "كيرونا" وبين القداس في آحاد "استكهولم". أحبُّ جدتي، ولم أعارضها في كل ما قالتهُ لي حول ربها ومخلصها يسوع، حتى إني جاملتها كثيرًا، فكذبت ذات مرة وأخبرتها حين حَجَزَنا الثلجُ، فلم نذهب إلى قداس ليلة الميلاد. قلتُ بأن "يسوع" قد جاءني في نومي، وأهداني كتابًا بالرموز اللاتينية.

- "قال لي: هذا كتابك، ثم ابتسم". يومها سعدت جدتي.
- "يسوع لا يزور سوى هؤلاء الأصفياء". قالت جدتي بغبطة.

وراهنتْ بأن مستقبلي سيكون في التبشير، أو دراسة التاريخ القديم. كانت تؤمن بالبشارات، لكن اليوم أرى كل بشاراتها قد جانبها الصواب؛ فدراستي الجامعية انتهت في مجال الفيزياء النووية، وعملت بمفاعل كيرونا السلمي، ولا عَلاقة لي بالتاريخ أو كتبه، سوى لقاءاتي مع "ليلي" التي تخصصت في دراسة التاريخ الحديث لحركات التمرد في منطقة الصحراء الأفريقية لمن يعرفون بالأمازيغ من "طوارق أزواد". أرى شيخًا في المسجد، فأعجب للحيته الكثّة، وتغريني حلواه في أعياد المسلمين، وكذلك أرى "الأب" في القداس، فترهبني لحيته الكثة - أيضًا - وتسعدني هداياه في عيد الميلاد. وما بين اللحيتين عشت الرهبة والسعادة. أعترف لنفسي بأني كذبتُ مع جدتي؛ فحتمًا "يسوع" لم يزرني في منامي، كما لم يزرني نبيُّ المسلمين، لذا فكلاهما متعادلان في تلك

النقطة. وحين كنتُ أستشير "الأب" في ذلك عملًا بنصيحة جدتي، فيخبرني بأنه لا ضير.

- "أردت إدخال السعادة على قلب الجدة، والربُّ يُحب إضحاك العجائز". قال "الأب" في كنيسة استكهولم.

وفي كيرونا الجديدة ومسجدها، أبكي في آخر شهر الصيام معهم في ليلتهم المسماة "ليلة القدر"، مدعيًا بُعْدِي عن الدرب، فيلملمني الشيخ.

- "الله يفرح بعودة عبده الضال إليه". قال الشيخ بالمسجد في "كيرونا الجديدة".
- "أين مُصلّاي الحقيقي؟". رحتُ أسأل نفسي.

في سن الجامعة، وكلما تواجدت في القداس، شعرت بغرابة قليلة تتسرب إلى ذاتي، لكوني موجودًا وسطهم. نفسه ما غمرني في المسجد. في القداس أسمع القسَّ، حتى إني شكوت إلى هنري ذلك.

- "أما ولادة يسوع فكانت هكذا لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، وُجِدت حُبلى من الروح القدس".

وحين أكون في المسجد أتخيلهما مع قراءة الشيخ بلكنته السعودية - وأنا لا أحب لُكْنَةَ القُراء السعوديين حين يتغنون بالقرآن.

- "قال إنما أنا رسول ربِّك لأهبَ لكِ غُلامًا زَكيًّا".

نهاية الأمر تركتهما - فما عدتُ أذهب في الآحاد أو الجمع - واكتفيت بمسافةٍ متوسطةٍ، حين شكا كلاهما - الشيخ والقسُّ - مني، وخوفهما من أفكاري المجنونة.

- "تمنحنا السماء خياراتنا يا ولدي". قال أبي باستسلام.
- "ألا تحيِّرنا الخيارات أكثر يا أبي؟!".سألتُ أبي.

* * *

دخلت دورة المياه، وتركت الماء ينساب، واستمتعت بالماء كعادتي الأوربية. حين خرجت وجدت فاروق وحميد بانتظاري؛ فصراخ عمتي عليهما في الهاتف الداخلي الموجود بالمطبخ كان كفيلًا بإرغامهما على النزول، والاستعداد للفطور بصحبتي. رحبا بي، وتبادلنا التحية؛ فكلاهما قابلني منذ أيام في شقة جدتي بـ"استكهولم"، حين كانا ينهيان إجراءات عودتهما إلى مصر، وهما من نصحا لي بضرورة العودة، وتمضية هذه الإجازة في مصر. حميد ينهي دراسته للبرمجيات في"هلسنكى" بجامعة التكنولوجيا الفنلندية، وفاروق ينهي أطروحة ماجستير في علاجات إصابات الملاعب والعمود الفقري بميونخ في ألمانيا، وكنا نتواصل باستمرار، وقررنا أن نقضي شهرًا كاملًا هنا في استكهولم قبل عودتهما النهائية من جامعتيهما، وقليلًا ما تصحبنا "ليلي" لُبعدها في كيرونا شمالًا. كُنا في زيارتها بعدما قدمَ فاروق من ألمانيا لمقابلتنا يسبقه حميد من فنلندا، وفي كيرونا تجمَّعنا قبل سفرها بأيام قليلة، وشاركنا صديقُ "ليلي" الأمازيغي الأصل "آغ مسعود"، وأخبرتهما عن اختفاء أثره منذ فترة ليست بعيدة. يومها اقترح فاروق وحميد فكرة سفري إلى البلدة، وأن نخفي الأمر عن عمتي إشراق إلى أبعد مدى.

– "ربما فكر (عمي حسن) بالعودة إلى البلدة؟". قال فاروق.

– "كانت عمتي ستخبرنا ساعة وصوله". عقَّب حميد.

ساعتها حسدتني "ليلي" التي تصغرنا بعامين، وقالت بأنها ستغادر بعد أيام إلى المغرب، وبأنهما سيعبران الحدود باتجاه شمال إقليم أزواد حيث قبيلة "آغ مسعود" المسماة "إِشَرَمَّاتَنْ"، وسيعلنان زواجهما من هناك، لكنهما فاجآنا بالزواج في اليوم التالى.

- "أحمد آغ بهانغا ولد عمي أخبرني بصعوبة ذلك بعد تهديدات الفيلق المغربي الجهادي لأزواد". علل آغ مسعود زواجهما السريع ليلتها.

كنتُ أكبرهم سنًّا. قال حميد بأنني وُلدت بعد "علياء" أخته بشهور خمسة، وأنه يكبر فاروق بشهور ثلاثة، إلا أن فاروق يسبقه فعليًا في دراسته بعام، ولا يكف عن الضحك:

- "ليست مشكلتي، أنا أكبر منك يا حميد بعامٍ دراسيٍّ والحكومة المصرية لا تكذب". نضحك جميعًا.

سألته مرة عن سرِّ ذلك، وكيف يتقدم فاروق في دراسته على حميد، فأسهب في شرح سياسات وجدتها رديئة عن خطط التعليم في مصر.

- "يا ولدي إنما تحبسنا أقدارُنا". قال أبي.
- "ألا تحررنا أقدارُنا يا أبي أبدًا؟!". سألت أبي.

* * *

حين رجعنا من كيرونا إلى استكهولم، أمضينا أسبوعين هناك، وأخبراني فيها عن أشياء كثيرة تخص البيت، أو هكذا قالوا عن العائلة. كانا يحبان تسمية الجميع بالبيت لا العائلة. طلبت منهما أن نحتفل بأيامهما الأخيرة في السويد، وأن نذهب إلى واحدٍ من المطاعم الأسيوية التي تقدم الطعام النباتي، فضحك حميد، حتى احمرت عيناه، وحكى لنا عن زيارة عمي مصطفى إلى برلين، وأنه تناول العشاء ذات مرة في مطعم فيتنامي، ثم بعد العشاء أخرج ما في جوفه قرفًا من الطعام، لذلك فهو يريد "الحلال"، يقصد اللحم، فقصدنا واحدًا من المطاعم الكردية التي تقدم الطعام الكردي والتركي، وهو يشبه الطعام المصري إلى حدٍّ بعيد.

- "هكذا يكون الطعام. يحيا صلاح الدين الكردي، فلتذهب النباتات إلى الجحيم". قال حميد.

ضحك فاروق:

- "حميد ورث أكل اللحوم عن عمه حسن". حكى فاروق عن جدتي.

وحكى لنا ما يعرفه -من الجدة حين لازمها في سنوات عمره الأولى- وكون أبي كان يصر على تناول اللحم متى تواجد في ثلاجة البيت، ويتعلل بأن اللحم يفسد بالثلاجة، ولا مكان له أفضل من المعدة، فضحكنا جميعًا، وسهرنا حتى وقتٍ متأخّر على غير عاداتي. وهكذا اكتسبت عادتي الجديدة في حبِّ السهر، تمامًا كواحْدٍ منهم، ونسيت كوني واحدًا لم يعرف السهر يومًا غير الجمعة كمعظم الأوربيين، حيث ألفت السهر والشرب حتى وقتٍ متأخر. في الليلة التي سبقت سفري معها إلى عائلتها في فنلندا، سهرتُ معها ومع هنري وصديقته الجديدة "فيكي". ليلتها أفرطت في الشراب فوق المعتاد، وحين ركبنا في المقعد الخلفي لسيارة هنري في طريق عودتنا إلى شقتنا، قبلتها حين نامت على صدري، وداعبت خصلات شعرها التي قصتها "جرسون" مؤخرًا وغيرت لونه إلى الأحمر القاني، وتمنيت في نفسي لو أنها لم تقصره.

- "أخاف أن أفقدك يا سارة!". قلت لنفسي لحظتها.

الآن أجلس معهم أمام خشبة مستديرة. عمتي قالت بأن هذه "الطبلية"، لم تُمس منذ سافرت عمتي "نورا". كنتُ أظنها ترفض فكرة موت عمتي الصغرى، وأنها مصابة بخلل نفسي؛ فأعوامها الأخيرة وما اصطبغت به من القساوة جعلها شديدة الاضطراب، فلا يمكن أن تحدد ما إن كانت تعيش واقعًا ما حولها، أم نسجت لنفسها عالما من واقعٍ خاص تتعلق به وتعيش فيه. كل الذين استندتْ إليهم نخت سِنوهم أمام الموت، فرحلت جدتي، وأتبعها زوجها- زوج عمتي إشراق- ثم ضُربت بثالوث من الحزن المبرح. مات عمي مصطفى، ومن بعده حامد كضلعَيْ ثالوثها القائمين، ثم جاءت عمتي نورا

برحيلها لتكمل هذا الثالوث، فيطرحها الحزن كمدًا. حدثتني فيما بعد، ولا ضير في سرد جملتها هنا:

- "رحيل عمتك نورا أطفأ أكبر شمعة تنير حياتي". قالت باستسلام.

لعل استسلامها هذا يخالف نوعًا آخر من الاستسلام الذي عاينْته بنفسها حين سألت عفاف عن حالها مع زوجها، وكيف ترضى بهكذا حال، ونصحتها بالخلاص منه في أقرب بالوعة.

- "لتُبْرِي ذاك الخنوع، ولتأخذي طفلتيك في حِضنك". نصحتها عمتي بصدق.
- "فلتدعي لي رب السماء يجعل ما في بطني ولدًا يا إشراق". قالتها عفاف برجاء.

تبرمت عمتي، ولعنت جنس الرجال من أمثال زوجها. تلك عادتها حين تتبرم تبدأ بصبِّ اللعنات، ثم تهدأ وتشتكي بمرارة وانكسار. هكذا ما كان حين جاء ذكر عمتي نورا، لامت عليها رحيلها.

- "دومًا هي كذلك، تنفرد بقراراتها ولا تستشيرني رغم كونها الصغرى". اعترضت بإشارة من يدها، ووارت دمعة.
- "ألا تعلم يا ربِّ أنها كانت آخر من أستند عليه في منية المهدي؟!". شكت، وكادت تبكي.

هي عادتها حين يتملكها طيفٌ من أحزانها؛ فتغرق في حواراتها العجيبة التي تلومهم فيها على استعجالهم الرحيل قبلها، وتركها هنا نهبًا للكمد.

- "حتى أنت يا مصطفى يا حبيبي، وعدت بالشمس تأتي، وقد مرت السنون ولا يبدو أن شمسًا لي ستشرق". تعاتب مصطفى منذ مات دائمًا.

حين كُنتُ وفاروق وحميد في استكهولم، شكا لنا فاروق خوفه عليها، بعدما انحنى ظهرها، لإصرارها أن تعتمد على عصاتها في كل حركة تقوم بها إثر تجبير ساقها بعد

سقوطها، قال بأنه يوم رحلت العمة "نورا" سمعها تحدث نفسها في حجرة الجدة التي أغلقتها وتوارت فيها وحيدة يوم العزاء، ورفضت أن تقابل الجميع:

- "أنا أمكم، وأنتم أولادي، أليس كذلك؟! فلِمَ يرحل الصغار قبلي، ويتركون لي الحزن والكظم أسير بهما أينما تحركت؟!". كانت تبكي وقتها عمتي إشراق.

يومها علق حميد بأن عمتنا "إشراق" صاحت يوم خرجت من عزلتها بعد رحيل العمة"نورا":

- "من سمح لكُنَّ أن تعبثْنَ في حاجيات أمي يا نجسات، كلكن تعرفنها، تكره أن تمتد يدٌ إلى دولاب ملابسها، كيف تجرأتُنَّ؟!".

صرخت في النساء عمتي حين انتهى "حارس الشعلاني" من قراءة سورة "مريم" التي تحبها يوم اجتمعت لديها النساء في الليلة الأربعين بعد رحيل عمتي "نورا".

أخبرنا فاروق بأن الحضور من نساء العائلة في البيت يوم رحيل العمة "نورا"، كنَّ يبحثن في دولاب الجدة عن ثوب الكفن، وأنها لم تنس ذلك مطلقاً؛ وهو الأمر الذي استدعى إلى عقلها - المضطرب في ليلة الأربعين - حادثة جرت على البيت كله الخراب - كما قالت - وأقسم أنه يوم ماتت الجدة، وأحضروها إلى البيت لتُغسَّل، ثم تكفن، دخل إلى حجرة الجدة التي كانت جثتها مسجاة في وسطها، فصرخت فيهم العمة إشراق بجنون مبالغ فيه:

- "من سمح لكُنَّ بالتفتيش في ملابس أمي يا أولاد القحابي".

أخبروها أن الحاج "بركة"- عمنا الأكبر- سمح بذلك، فصرخت:

- "وهل خبأت أمي "ذهب الملك" في ملابسها؟!! أكان يرضيه أن تفتشها السخيفات حيَّة ليسمح لكُنَّ بتفتيشها ميتةً يا أولاد الكلاب؟!!".

يومها لامها الجميع، لكنها ظلت تلعنهن، واستمرت تصرخ:

- "قتلها من فتَّش ملابسها قبلًا. دسوا لها ولنا أعمالهم السحرية السفلية، فجلبوا الخراب علينا".

واستطرد يحكي ويوثق لنا بأن الجدة، حين وجدت قبل مرضها في دولاب ملابسها ورقة مطوية بعناية ومكتوبة بلون أحمر، استدعت على الفور "إشراق"؛ فهي تُجيد القراءة والكتابة؛ وحين لمحتها شروق، تمعَّر وجهها، وأخذت تتشممها:

- "دم نجاسة يا أولاد الحرام.. ألا تخافون الله؟!!". كررتها وهي تصك وجهها.

أسرعت بعدها تملأ طاسة نحاسية قديمة بالماء وأفرغت فيه حبات ملح خشن، وأخذت تتمتم بكلام غريب، وآيات من القرآن، ثم أخذت ترش الماء في أرجاء البيت وأركان الحجرات.

- "استر يا صاحب الستر.. لا تفضحنا كما فضحت زليخة.. نجنا كما نجيت أبانا إبراهيم ويونس ويوسف الجميل.. نجنا ولا تكتب علينا ما كتب على نسل يعقوب الكظيم".

مرت أيام قليلة، وإذا بهم في البيت يجدون الجدة جثة هامدة، وإلى جوارها أفعى ممددة وجامدة. صرخت ساعتها "إشراق"، فهرع الجيران إليها، فوجدوها تلف الأفعى حول رقبتها وتندب:

- "يا ليتني ما غادرت حجرتك الليلة الماضية. انفردت بك وقتلتك يا أمي!!".
- "ماذا حدث؟". سألها بركة مذعورًا.
- "اسألها يا حاااااااج.. اسألها لم قتلت أمك يا حاااااااج!!".

أخبرتهم بأنها رأت زوجة بركة في الرؤيا تطعم ثعبانًا وتحدثه. حاولوا إقناعها كثيرًا بأنها كانت أضغاث أحلامها وفقط، لكنها كانت تُصِر.

- "ما أراه في منامي، لا يكذب أبدًا".

- "أظننا فضلنا في النهاية أن نتكتم الأمر، وألّا نتحدث فيه فيما بعد. ومن يومها انقطعت علاقتنا بزوج الحاج بركة حتى الآن". حكى لي أبي حين كنا في رحلة صيدنا الأولى في كيرونا الجديدة.

وأضاف حميد أنه سمع الحادثة بتحليل العمة "نورا" الذي نقله إليه "أمجد الجِنّي" ولدها الوحيد، بأن الجدة أخبرتها أنها رأت في أسفل الدرج ما يشبه جلد الأفعى، وحين أرادت تنظيف المكان وجدت شقًا كبيرًا يمتد إلى البيت المهجور في الخلف.

- "ابنة الفلاحين أحضرت الأفاعي إلى بيت آل مسعود". قال عنها عمي مصطفى يومًا.

سألتهم عن ولدَيْ عمي "بركة"، فأخبرني حميد بأنهما يعملان في مملكة السعودية الشرقية"، ثم اعترفت لهما أني لم أكلمهما – أمين وسعيد- سوى مرات قليلة للغاية، وأن شعورًا بالنفور تملكني حين سألني ابنه الأكبر"سعيد" في إلحاحٍ أن أساعده في الهجرة إلى السويد، وأن "أمين" ولده الأصغر كان أخف روحًا من "سعيد"، وأنهما بالكاد يعرفانه.

- "يسكنان في بيتٍ بعيدٍ عن بيت المسعوديين الآن". عقب فاروق.

أنهيت إفطاري بشهية عجيبة، وأعجبني خبز عمتي كثيرًا، فمازحتهم بسؤالي:

- "هل يشبه خبز الفلاحين خبز الصيادين؟".

ضحكت عمتي، وتباهت بصنعتها الخبيرة في تحضير هذا النوع من الخبز الذي يعشقه رجال الصيادين، فأخبرتها بما قاله أبي لي، وأن أشهي طعوم الطعام في بيت الجدة، وكأنَّ للبيت روحًا تتلبس الطعوم، فتسحر كل صنوف الأكل فيه، فيلذ ويطيب.

- "نورا ورثت عن أمي (أكل البندر)، لكن عمتكم تفوقهما في طعام الصيادين". قالت عمتي إشراق.

ابتسمتْ في كبرياء حين تحدثتْ عن خبرتها حول موائد الصيادين وطعامهم، ورأيت فيها ما يحكيه أبيفي مذكراته عنهم، فوصفها بأنها أقربهم شبهًا إليه، ببشرتها البيضاء وشعرها الفاحم المتدلي في يسر حتى حدود خصرها، وفخرها بمهارتها في إعداد طعام الصيادين، وأنها تملك ابتسامة كانت تكفي بأن تسعد قلب رجل يحبها حتى نهاية عمره، لكن الشيب والسنين غيّرت الكثير في هذا الوصف الآن.

- "ماما إشراق، هل لديك صورة قديمة؟". سألتها في تردد.
- "أحفظ في بيت أكتوبر صورًا عديدة لعمتي في يوم زواج عمي أسامة". أسرع فاروق يجيب.

كان ذكر اسم عمي أسامة كفيلًا بأن يفجر ثورة غضب محببة إلينا، لا تخبر سوى عن حب عمتنا الزائد لآبائنا ولنا –نحن– كامتداد لهم، وقالت بغضب مصطنع ونحبه:

- "أسامة! هذا الولد العاق، (البرّاوي) الذي لم يأت إلى البلدة منذ شهور، وكأن صورته التي تحدثني في الهاتف تكفي أو تعوض غيابه، متى يكلمكم فأخبِروه بغضبي".

ضحكنا حين قالت لحميد الذي واساها بأننا من حولها عوضًا:

- "لا أحد يعوضني غياب أولادي عني". ثم كابدت دمعة كادت تنفلت.

كانت دومًا تتكلم عن آبائنا بأنهم أولادها، وأننا أولادها أيضًا:

- "أنتم أيضًا أولادي، أعز الولد ولد الابن". قالت عمتي.

تعرف عمتي كيف تجعلكَ تشعر بأمومتها التي حرمها القدر من ممارستها، فأعطت لنفسها من الأولاد ماشاءت ممن أشعرتهم بأمومتها، واستراحت من هواجس النساء العقيمات.

شكرتُ عمتي، وأخبرتها بأن فطورها أشهي ما تذوقت منذ سنوات. من المطبخ جاءني صوتها مختلطًا بأصواتِ إعدادِها أكواب الشاي، وأبدت حزنها؛ فأنا – من وجهة

نظرها – لم أتناول ما يكفي من طعام الفطور:

– "ألا يعجبك طعام عمتك العجوز أيها الخواجة؟". سألتني عمتي بابتسام.
– "أرجوكِ يا حاجّة؛ الشايّ المسعوديّ الممتاز". تصايح حميد.

تطوع فاروق؛ وشرح لي مصطلح "الشايّ المسعوديّ"، مؤكدًا أن البيت ورث عادة شرب الشايّ الثقيل قليل السكر ساخنًا بعد الأكل مباشرة عن الجدّ الراحل "مسعود"، والذي ننتمي إليه. جاءت رائحة الشايّ تسبق عمتي. طبيعتي لا تتناول هذا النوع من شايهم الثقيل، ولا تستسيغ هذا النوع من السكر، لكنني قررت مشاركتهم في طقس شرب الشاي، حتى إني أظن لن أمانع التدخين معهما متى طلبوا ذلك، ضاربًا عهدي بالإقلاع عنه منذ سنوات عُرض الحائط كما فعلت معهما حين كانا معي في استكهولم، لا بل سأطلب إليهما –فاروق وحميد – أن أمارس طقس شايّهم بكل تفاصيله، حيث مرارة لونه الأسود، ونفثهم سحب دخان سجائرهم بكثرة. ترك فاروق سيجارته، ونهض نحو عمتنا يحمل الأكواب عنها، فربتت عليه، وأظن أنها لم تمانع دمعة تستحي الظهور بعينها، فلمعت في ضوء النهار:

– "ورثت ذوق الدكتورة رحمها الله يا حبيب عمتك، لعل الله يتوب عليكم من هذه الملعونة ودخانها، وأنت يا دكتور تدخن؟!". قالت عمتنا.

خجل فاروق، وفي أدبٍ جمٍّ أخذ يدها وقبّلها، وهنا أسرع حميد يتدخل بينهما، حين انخرطت عمتنا في وصلة دعاء خالص وخاص بفاروق:

– "يا حاجة شوق، وأين نصيب الغلابة؟". سأل حميد.
– "أنت يا ميدو بِرّاوي، وقلبك حجر، تمامًا كوالدك". أجابته عمتي.
– "عمتي هل أبي حقًا كان قلبه من الحجر؟".سأل حميدفي سمت من جدية مفتعلة.
– "لو كان كذلك ما انتهى إلى ما انتهى إليه يا ولدي.. آآآهٍ". قالتها عمتي بمرارة.

أخذت عمتي تتحسر بآهتها على ماضي البيت الجميل، واسترجعت أيامهم الخوالي فيه.

- "المرحوم مصطفى كان دائم السفر بعيدًا عن البلدة، كأنه يهرب مِمَّا لا نعرف، فقلنا بأن قلبه من حجر، أعرف أخي جيدًا، له قلب طفل تزدحم فيه الأحلام".

تابعت تسرد بأنها تعرف من الأعذار ما يبيح هذا الفعل؛ فقد دفع ثمنه في بعاده الدائم عن البلدة، ثم جلست وبكت في هدوء، وأخذت تترحم على جدتنا، ومن بين دموعها التي نزلت كأنها قدر من الغيم على جلستنا فصمتنا تمامًا.

- "أمي حكت لي عن سر هروب أبيك يا حميد ذات يوم". قالتها وغالبت دمعة تتحدر.

أخبرتنا أن الجدة ذهبت إلى عرَّافٍ قرب "رأس الرمل"، يعيش وسط عرب البحيرة في الجهة البحرية، فأخبرها بأن ولدها مرصود بالسفر والغربة منذ الحادثة الأولى بعد موت جدنا بأيام قلائل، سيطارده قدره ويجوب خلفه بلدانًا كثيرة، وأنه موصول بالنور الأول الذي اصطفى به الرب "آل مسعود صابر".

- "ومنذ الحادثة الأخرى، عرفنا أنه لن يرتاح يومًا، وأنه يحمل في داخله طيفًا ممن نخاف ذكرهم".

واستطردتْ تُعلل غربته عن البلدة، والسر الذي يدفعه للسفر على الدوام، وكيف أنه محكوم بألا يعود إلى البلدة متى خرج منها، ولا يبيت فيها لأكثر من ثلاث ليالٍ، إلّا حين يعود بلا إرادة. ثم ترحمت على من سافروا كما تحب تسمية موتانا، وعقَّبت:

- "مسكين، لم يكن يصدق العرَّاف، ووحده من تحمَّل عن الجميع، و قَبِلَ أن يحمل ما حمله أبي وحده؛ ليحمينا، وأنا حفظت السر بعد أمي وحملت منه ما قُدر لي، واليوم أبوح به بعد سنين طويلة، فليغفرها لي". مسحت عمتي دمعتين.

حكت لنا كيف قابل الجد "مسعود" صبية مليحة في ليلة شتوية ممطرة، وطلبت من

الجد أن يصحبها إلى دارها حيث تسكن، وأنه حين طالع وجهها فرآه يشبه القمر في ليلة البدر، سبَّح باسم من خلق الجمال وأبدعه:

- "تبارك الخلاق فيما خلق!!". قال مسعود بهمس.

في اليوم التالي، وفي نفس المكان والموعد، إذ امرأة عجوز تناديه في سكون الليل، فاقترب منها، وألقى السلام عليها:

- "ما بالك يا خالة هنا في الظلام والمطر؟!". سألها مسعود.

مرَّ أسبوعان وأتمَّ "مسعود" ولد "صابر" عامه العشرين، حين خرجت الرجال في البلدة ترى الطائرة الإنجليزية التي سقطت في حرش البحيرة، وحين وصل معهم إلى مكان سقوطها، وجده قريبًا من المكان الذي أوصل إليه العجوز والصبية من قبلها، لكن لم يكن لبيتهما من أثر. في اليوم التالي اكتسحت الحمى جسده، وظل يتحدث عن صبية مليحة تشبه البدر، تحمل النور في وجهها، وتشرق الشمس من شعرها الذهبي. في الليل جاءت "كودية الزار" وغنت عند رأس "مسعود" ولد "صابر" لهؤلاء الذين سكنوا البرية قبل أن يطأها البشر. نادتهم بأسمائهم مباشرة، عسى أن يساعدها "كورش" و"يَوْرَا"، أو يتوسطا لأجل هذا المحموم، الذي ينادي ويكرر:

- "بهلة.. بهلة.. يا شفاء القلب العليل". كررها مسعود محمومًا.
- "في صيف هذا العام تم زفاف جدكم مسعود، ودخل بأمي عروسًا له". قالت عمتي إشراق.

ثم حدثتنا عن ذاك الطيف الذي تلبَّس عمي، وهام به في بلدان العالم كما قالت، فأضفت جوًّا من الحزن علينا، وانقبضت روحي كأنني من يتحدثون عنه، وبلا إرادةٍ رفعتُ يدي اليسرى إلى رأسي أتحسس الموضع الذي مسدته "الجدة بهلة"، وشعرتُ بصداع رهيب، وتذكرتُ وقتها كيف كانت تستهويني طريقة عرضه للحكايات عن

البحيرة وأساطيرها، فتمنيت في قرارة نفسي أنْ أرى هذه البحيرة العجيبة التي لا تتوقف عن إدهاشك متى خبرتها.

- "لا يمكن لأي شيء أن يغلب من يحمل روح الله في طيات روحه". قال أبي.
- "ألا يغلبه الموت يا أبي؟!". سألت أبي.

* * *

حالة من التعب والإرهاق تسيطر على كلِّ جسدي، وللحظاتٍ تحسسته وحاولت التعرف على حرارته بملامسة رقبتي بظاهر يدي كما تعلمت منه هناك، لحظتَها شعرت بتعبٍ شديد، فخرجت "آهة" رغمًا عني، فلفتت انتباه عمتي، ففزعت، وهرعت تحتضنني:

- "ما بك يا ابن الغالي ونور قلب عمتك".

أخبرتهم بأن الصداع قد يكون من أثر السفر، ولعله يرفع حرارة جسدي قليلًا، فأسرتني بين ذراعيها، وأمرت فاروق وحميد أن يقتربا منها، وشملت ثلاثتنا بذراعيها، وأخذت ترتل:

- "أنتم أولادي.. الحمد لله أنه أبقاني.. وأن عيونكم تسعدني حين أراها وتراني.. وعوضني غياب أولادي بأولادي..ليقر قلبي وتخف أحزاني".

حاول حميد - أو ميدو كما يلقبونه - أن يغيِّر هذا الجوَّ بقليلٍ من المزاح، لكن بكاء فاروق الذي تحول إلى نحيب مكتوم جعل من الصعوبة فهمي لكلامه، فلم أتبين سوى جملته:

- "أشتاق لرؤيته يا عمتي". ثم قبَّل يدها، وأبكانا جميعًا.

فعاود ميدو - حميد - يُطيِّر المرح وسط جو الغرفة التي ثقلت بذكرياتهم ومشاعرهم الحزينة، وأظنه خبيرًا في اكتشاف مثل هذه الأسئلة التي تعودوا عليها، سأل:

- "ماذا أيتها الجميلة! هل ينفع البكاءُ مع فرحتنا بعودة نور؟".

ثم هبَّ واقفًا أعلى الأريكة يصيح:

- "الشعب يريد السؤال المعتاد.. الشعب يريد السؤال المعتاد".

فبدَّدت ضحكاتهم كل الحزن في الغرفة.

- "يااااه.. من ذكرك يا ابن مصطفى بهذه الكلمة؟!". قالت عمتي.

دار حديث سريع عن الثورة المصرية في يناير ٢٠١١، وأذكر بعض المسميات التي ذكرها حين كان يحكي ويشرح تاريخ الثورة المصرية إلى "لِيلِي"، أذكر بعضها الآن.

- "محمد محمود، وماسبيرو، والعباسية، والاتحادية، والمقطم، ورفح، وبورسعيد، والنصب التذكاري، جامعة القاهرة، رابعة، وبولاق، وكرداسة، الشيخ زويد، الإسماعيلية، رفح، العريش".

كلها مسميات سمعتها بين أبي وأعمامي في عام ٢٠١٣.

- "صدقني يا حسن هو عام للحزن.. أراه كذلك". قال عمي حامد لأبي.

لا أذكر دقائق التفصيلات، لكنها كانت كلماتٍ تتكرر كلما شرح لها الصراع السياسي في مصر وقتها على الحكم في مصر، ولا أنسى تلك الجملة التي كان يقولها بسخريته التي أحبها:

- "أول رئيس مدني منتخب، أتى بالصندوق ولن يغادر إلا بالصندوق، تبًّا لهكذا صناديق". قال أبي.

يومها ظل يضحك بشكل مبالغ فيه، وسألنا - أنا و"لِيلِي"- كمن يملك

الإجابات:

- "ما بالهم بالصناديق؟! ألا تكفيهم صناديق الموتى؟!". قالها ثم شرد.

في الجامعة سألت البروفيسير الذي يدرسنا كورس الأطياف الضوئية والحزم الحرارية المصنعة معمليًا عن سرِّ تكالب العالم على مثل هذا النوع من الأشعة، ولِمَ يحرصون على تطويره إلى هذا الحد الملح؟

فطلب من زملائي تخمين الإجابة، فتكررت التخمينات والتوقعات، ثم عقب عليها جميعًا:

- "حقًا؛ يبدو أن دم الإنسان كله لم يعد حرامًا لدى قادة العالم!!".

يومها قابلت "هنري"، وكان في مزاج سيء للغاية على غير عادته، فسألته فأخبرني بأن الجامعة رفضت طلبه الذي قدمه للحصول على إذنٍ بتجريب برنامج الدمج الإلكتروني الذي أعده لمنح أجساد الموتى في مستشفى كيرونا الجنوبي حياة اصطناعية إلكترونية، بفضل برنامجه الذي يعمل عليه لسنوات ثلاث بجهد.

- "لا يوقف الألم سوى البتر يا نور.. البتر للعضو الفاسد ضرورة؛ فهو يخون الجسد". قال أبي.

- "ألا يمكن اعتبار الجسد قد خان حين تركه يفسد بلا دفاع مستميت عنه؟!". سألتُ أبي.

* * *

حين عرضنا على "ليلي" السفر معنا إلى مصر، اعتذرت لارتباطها بالسفر مع "آغ مسعود" - زوجها الآن- إلى "أزواد" حيث قبيلته هناك بعد أيام، لكنها عادت تؤكد أنها ربما تحاول الحضور مع "آغ مسعود" إلى مصر بضع أيام سريعة، في طريق عودتهما

إلى السويد. ضحك ميدو وقال:

- "إذن ستذهب زرقاء اليمامة إلى الصحراء؟!".

فابتسمت، وقالت:

- "يا رفيق ميدو، أنسيتَ أن أبي كان أول من وضع الشفرات السرية في هذه العائلة؟".

فضحكنا، وسألته عن هذا الاسم، فأخبرني قصته، وأنه رآه مناسبًا جدًا لها باعتبارها قد صارت من "الشعب الأزرق" وتزوجت منهم. تعجبتُ كيف عرف حميد هذه التسمية للأزواديين من "كل تماشق" قبيلة "آغ مسعود"! وكيف تنتقل تلك الموهبة في إطلاق الأسماء الحركية على الموجودات من جيل إلى آخر بهذا الشكل؟! كان من عادات أبي التي تبعه فيها عمي مصطفى أن يطلقا الألقاب على صغار البيت، ففاروق هو روقة، وعلياء هي "النجمة" وحميد هو ميدو، وأمجد ابن عمتي نورا هو "أمجد الجِنّي"، ومحسن ابن عمي صِدّيق هو الديك الأصغر، و"كاندل" هي عمتي "نورا"، حتى الكبار من البيت لم يفلتوا من هذه الألقاب الحركية التي وزعوها بانتظام طوال حياتهم - حتى نالني منها لقبي وقتها - ونادينا "لِيلي" بلقبها الجديد "لولا" دائمًا. هكذا تجد ألقابًا كثيرة يتداولونها مثل "نفنف"، و"البركة"، و"الأستاذ المتَّشَه"، و"المفاوِضاتي"، وغيرها من الألقاب التي أطمع في لقاء أصحابها أو التعرف عليهم والسماع عنهم في رحلتي هذه.

حين سألتنا عمتي عما نودُّ لطعام الغداء، انفجر روقة وميدو يضحكان، فنهرتهما بحب، وحاولت أن ترسم العبوس، لكن ملامحها المحبة خانتها:

- "لا دخل لكما، سأسأل نور حبيبي، نور ماذا تريد طعامًا للغداء؟".

سألت نفسي أين يختبئ كل هذا الحزن في بيت العائلة؟ وأين يتوارى كل هذا الفرح بالبيت نفسه، وكيف لا يخرج حزنهم بلا عودة أمام جبروت فرحهم وضحكهم الصافي؟!

الآن لا أذكر سوى هذا الفرح الذي أفلح أن يُجمِّعنا من بقاعنا الشتيتة، حيث الغرفة التي لم تفلت من حصاد التسمية الحركية، فصارت "غرفة للشباب"، وعمتي التي تلهج بالدعاء كلما ضحكنا، وبالرحمات على من رحل، وتُنْهِي إلى دعاء واحد:

- " اللهم اجعل هذا الضحك خيرًا".

وكأنها تترحم على البيت وأسماره، وعلى ثوَّائه الذين ما ملَّ منهم البيت يومًا، ولا ضاق بأسمارهم.

- "يااااه.. منذ زمن لم يسمع هذا البيت الضحك الحقيقي، لله دَرُّك يا بيت مسعود صابر". ترحمت عمتي على البيت.
- "الله يا شوق يا عسل، يا جوهرة الزمن الجميل". قال حميد.
- "عمتو.. هذا الأفّاق يسخر منك". قال فاروق.

كأنهم سمعوا تضرعات حوائط البيت كي يستعيد ذكرياته مع آلِ البيت في السمر والضحك، وعمتي كأنها تحاول ألا تُفلتَ الذكرى من رأسها:

- "في الجيران قديمًا من قال مَرَّةً بأن بيت الصياد الذي لا تتراقص جنباته من فرط السمر والضحك، هو زريبة من زرائب الفلاحين، هو بيت كئيب". قالت عمتي.

لا أعرف كيف يتلون هذا البيت بهذه السرعة؟ فمنذ قليل كاد الجميع يبكي، بل ويتشنج، الآن يضحكون كأنهم لم يحزنوا في عمرهم قط. كانوا رائعين في حزنهم كما ضحكهم، فعادت عمتي من جديد تتندر على بيت العائلة، وما شهد من خوالي الأيام.

- "بعد أن يستريح نور، سأحكي لكم عن بيتكم وكيف عادت غرفة للشباب تخلو من الشباب".

قالت جملتها وكادت تبكي، فألحَّ حميد عليها، لكنها رفضت متعللة بحاجتي أن أستريح، وأتخلص من آثار السفر وتعبه، ثم قامت ونفس الدعاء تكرره في طريقها إلى المطبخ:

- "اللهم اجعل هذا الضحك خيرًا". ثم تركتنا واختفت في داخل البيت.

فعُدنا إلى حديثنا، ثم حكانا فاروق:

- "أحتفظ بلوحة علياء التي تُخضبها دماء محمود زوجها يوم مقتله في حادث مقهى الحرية في وسط البلد". أضاف فاروق.

أذكر هذا اليوم جيدًا في خريف ٢٠٢٧ كنتُ في مقابلة ميونخ لبحث خطةِ تمويل أطروحتي حول قدرة الأطياف المجسمة في إمكانية نقل المادة من مكان إلى آخر. يومها اتهمني البروفيسير "شيلكه" بأنني بصدد الجنون، وأن الجامعة ربما لن تمول ذلك.

- "ألم تكن فكرة استغلال المجال المغناطيس في النقل الفضائي والطيران مجرد فكرة مجنونة لصاحبها يا سيدي؟". عقبت على كلامه.

وفي صالة المطار حين ظلت ساعتي تطلق وميضها وتظهر اسم علياء، ضغطت بعض أزرارها، لتظهر صورتها الطيفية تجري وسط فوضى عارمة، وتظهر إشارة بمكانها:

- "مقهى الحرية/ باب اللوق/ وسط القاهرة/ مصر".

على الفور اتصلت بحميد وعرفت بانفجار قنبلة في مقهى الحرية، ومقتل محمود زوجها.

- "ذكرياتنا هي أثمن ميراث يرثه عنا الأبناء". قال أبي.
- "وهل نرث الفرح أم الحزن عن الآباء؟". سألتُ أبي.

* * *

كانت عمتي تتحرك بسلاسة في البيت، كنا نسمع وقع دقات عصاتها على الأرض كلما تحركت، ونسمعها تحادث نفسها، وتدندن بين الحين والحين، وفجأة وجدناها تقف أمام باب الغرفة تتساءل:

بالعودة إلى الديك، فقد جاءنا وبين أصابعه سيجارة ملونة الفلتر، عيناه مؤطرتان بهالتين من السواد القليل، وشديدتا الاحمرار، كمن يصحو من نومٍ سرمديٍّ مرغمًا. حين شاهدنا، فتح ذراعيه على امتدادهما، وأخذ يضرب بقوة على أعلى ظهري حين سألته:

- "كيف الحال يا محسن صِدِّيق؟".

أنقذني حميد حين قال:

- "إف.. أف.. رائحة الحشيش تفوح من سيجارتك يا ملعون".

ضحك الديك وقال:

- "اصطباحة.. الله يكرمك.. يكفيني شرطة مكافحة المخدرات بالأعلى.. اكتم".

فابتسم فاروق:

- "يا ديك عمتك الحاجة تريدك، سَمِعَتْكَ يا بطل، اذهب وخذ ما فيه النصيب".

لكن الديك صاح مباشرة بصوت عال للغاية:

- "يا حاجة.. سأنهي إفطاري وأحضر". صاح الديك.
- "جبان حقيقي". علّق حميد.
- "هذا أفضل، وإلا جاءت وأقامت الدنيا فوق رأسي.. هيا أسرعوا قبل أن تخرج إلى الشارع.. نورت يا نور.. تعالوا يا رجالة". خفض الديك صوته وابتسم.

صعدنا إلى الطابق العلوي مع الديك، ثم دلفنا إلى الداخل، فأشار نحو حجرةٍ إضاءتها خافتة وشُباكها الأوحد شبه مغلق، في أقصى ركنها إلى اليسار سرير خشبي، إلى جواره مقعد مدولب تجلس عليه سيدة طاعنة في السن، تنظر بحدة نحو ضوء الشمس الذي تجرأ على اقتحام خلوتها، قال محسن صِدِّيق - المشهور بالديك -:

- "جدتي.. لا تتكلم كثيرًا، لكنها ستتعرف إليك يا نور، فقط ينبغي أن ترفع صوتك قليلا لتسمعك".

طلَّ علينا من شباكٍ علويّ الديك - محسن- يرتدي "تي شيرت" بلا أكمام، يخرج نصفه الأعلى من الشباك، حليق الرأس تمامًا، في مطلع العشرينات، لا تختلف صورته كثيرًا عن تلك التي كانت تأتيني كلما حادثني هاتفيًا أو من خلال "الشات"، يلوك بقايا طعامٍ في فمه، يغمض عينيه قليلًا تحاشيًا لضوء النهار الفِجِّ في الشارع، دقق قليلًا ثم صاح:

- "مَن؟ نور؟ انتظروا يا شباب". ثم اختفى.
- "وبخكَ الله يا ديك.. عادتك السيئة كل مرة". ضحك حميد.

ثم تابع ضحكه وشاركه فاروق، فابتسمتُ دون فهمٍ لأسبابِ ضحكهم.

- "حميد.. أرجوك لا نريد نقاشكما المعتاد الآن". علق فاروق.

أذكر أنني في ليل جمعة ما، كنا نحتفل مع "هنري" و"فيكي" بعدما تمَّ قبولُ تصميمه لإنشاء الكوبري المعلق الرابط بين أفريقيا وأوربا في منطقة جبل طارق، حيث استخدم تقنيات التجسيم الطيفي في نموذجه المقترح بشكل دقيق ورائع، وحين كان يشرح لنا التصميم على المجسم الذي أطلقه من قلمه الإلكتروني الذي لا يفارقه، بدا الكوبري في مجمله كجسم مركب يحمل على حوافه المسافرين، فسألته عن فلسفته في ذلك التصميم؛ فأجاب:

- "تخليدًا للذكرى العاشرة لآخر قوارب الهجرة غير الشرعية".
- "Hiii، ليلة السبت يا شباب لا عمل لا أفكار مجنونة، فقط المشروب والمرح". قالت فيكي.

غيرنا مجرى الحديث قليلًا، ثم سألني عن انطباعي عن غابات الشمال الفنلندي، بعد عودتنا من بلدة "سارة"، فهززتُ رأسي دلالة الإعجاب. كنت أعرف أني أكذب.

- "نور حبيبي، أظن غابات الشمال أعطته سر قوتها وجمالها". قالتها سارة، وتأبطتْ ذراعي، وتمسحت بصدري.

- "ماذا حدث؟ ماذا حدث؟".

ارتبكتُ ساعتها؛ فقد اعتقدتُ بأنها تعاني نوعًا من الاضطراب أو الهلاوس، فلهفتها وفزعها حين طالعتنا فجأة كان يشي بذلك.

- "لاشيء يا حاجة". قال حميد.

لكنها عادت فنهرتهما بشدة، وأمرتْ بالإنصات. همَّ فاروق بالكلام، لكنها أشارت بإصبعها الذي وضعته متعامدًا على فمها علامةً للصمت، وظلت تتسمع، ثم أخذت تهز رأسها من أعلى إلى أسفل.

- "كل ما نزرعه نحصده!!ولا بد وأن تُردَّ كل الديون يومًا مهما طال الزمن". كررت عمتنا.

انتبهنا في صمتنا، فسمعنا صوت جلبة بالخارج، فآثرنا السكوت، وقطع حميد حاجز صمتنا:

- "ألا يكتفي هذا الولد بما يفعله كل يوم؟! كان الله في عون عمي صِدِّيق".
- "كأس ولابدَّ وأن تُملأُ لك كما مَلأتَ لغيرك.. ليهدِ الله هذا الديك الصغير". علّقت عمتنا.

ثم أمرت حميد وفاروق:

- "خذا نور معكما، وأحضروا لي هذا الولد. ألا تكفيه معاناة والده؟! لك الله يا ابن عمي".

نزلنا درج البيت، واتجهنا إلى البوابة الحديدية للبيت المقابل، ودق فاروق جرس الباب.

- "عمي صِدِّيق.. يا ديك". نادى فاروق.

تقدم ثلاثتنا منها بينما وقف الديك عند باب الغرفة. لا يبدو من ملامح صورتها التي عرفتها في كيرونا سابقًا، وكان أولنا فاروق الذي رفع صوته بتحية الصباح، ثم انحنى يقبل يدها المرتعشة:

- "أنا روقة.. فاروق بن حامد يا جدتي". حياها فاروق.

حولت نظرها نحوه في هدوء، وتبدلت ملامحها الحادة إلى الحنو، وربتت على رأسه، فتابع يخبرها بوجودي وحميد، وأننا جئنا لرؤيتها وعمي صِدِّيق، ابتسمت ثم قلَّبت نظراتها بيني وبين حميد، وفي بطءٍ شديدٍ فتحت كفها فتباعدت أصابعها في ارتعاش، وحاولت أن ترفع يدها الأخرى كأنها تريد أن تحتضنني، فأسرعت إليها وتركت نفسي لأغوص بين ارتعاشات ذراعيها، فأخذتني من رقبتي، وحطت عند صدرها، وبالكاد كنت أشعر بضمتها الضعيفة التي لا تخلو من تحنان وشوق بدا لي غريبًا، قالت بوهن:

- "كيف أنت يا حسن الصغير؟". سألتني الجدة، فابتسمت لها.

الجدة هي خالة أبي، وزوج عمه الكبير، حدثني عنها أبي كثيرًا.

- "ظلت خالتي تبكي محسن ابنها كأنها لم تنجب سواه". حكى أبي.

سنوات عمرها التي قاربت المائة تبدو في كل ملمح من حركاتها، ونبرة من صوتها، وارتعاشات جسدها. أخذت تبتسم وتتململ في جلستها ثم تساءلت:

- "لماذا يتعجل أولاد هذا البيت الرحيل المبكر؟!". وقالتها وظلت تهز رأسها.

لحظتها عرفتُ أن الجدة قد تحكي لي ما لن يحكيه غيرها إن أسعفتها الذاكرة في مثل حالتها، بعدها نادت ميدو باسم عمي :

- "وأنت يا مصطفى.. متى عُدت؟". سألت الجدة.

هنا ضحك الديك وهو يشعل سيجارة جديدة:

- "صباح الزهايمر.. تفضل. أجب يا سيد حميد، أقصد يا عمي مصطفى، أجب سؤال خالتك".

تبدلت حالة الجدة الهادئة وتعكر مزاجها، وصرخت:

- "أخرجوا هذا الولد من حجرتي.. هذا الولد مثل أمه، يتعمد إغاظتي". صرخت الجدة.

فدخل الدْيك، وهجم على يدها بعدما جثا على ركبتيه، وأخذ يقبل يدها:

- "لماذا يا أجمل الجدات؟ ألا يرضيكِ أن أخذت لك بثأرك من قتلة الأنبياء هؤلاء الشعالوة، عائلتك درة بلدتنا إلى آخر الزمان؟". قالها الديك ساخرًا.

فزاد هياج الجدة، لكنه اختلط بضحكها الغابر، وأخذت تلعن هؤلاء الذين أسماهم لها بقتلة الأنبياء، وأخبرتنا بأنها تعرف كل ما يدور حولها، لكن جسدها لا يقوى على الحركة وفقط.

- "انتقم الله مني حين لم أرضَ، فأخذ روحي منذ سنين، وترك لي هذا الجسد المتعب بالحزن والندم، ألا تصدقون؟! أنت يا ابن حسن.. أبوك بخير، أنا أراه يرعى هناك الجميع، اطمئن، هو بخير، لا تقلق، يخبرك بذلك، وأن تساعد الصغيرة أختك في القادم". ثم تابعت تهز رأسها.

تدخّل لحظتها حميد، ليغير الموضوع؛ فهم يعلمون أن والدي قد اختفى منذ شهور، ولا نعلم أين ذهب، ولا دلائل تشير إلى مكانه بعد مغادرته السويد، أو تدل على عودته إلى مصر، وأطمع في رحلتي هذه أن أصل إلى نتيجة من بحثنا المضني عنه طوال الأشهر الأخيرة، ثم تصنع الجدية:

- "ديك.. لا داعيَ لإثارة الجدة.. كلنا نعرف أنها من بيتنا". قالها حميد بين الجد والهزل.

- "تركت بيت البشعالوة في سن الثانية عشرة.. أنا جدتكم يا أولاد.. إياكم أن تدفنوني جوار هؤلاء المناكيد يا ديك". ردَّت الجدة من بين نوبة سُعال ونوح تمكنتْ منها.

استدار فاروق نحوها واحتضنها في مقعدها وردد:

- "حاضر.. حاضر يا جدة، وسنخرج لك هذا الولد الديك حالًا".

فزعت الجدة، والتفتت نحو فاروق في دهشة:

- "من أنت؟". تساءلت الجدة.
- "قلت لكم صباح الزهايمر، فأردتم ضربي، هيا بنا يا شباب". قالها الديك بحياد.

خرجنا وأنا لا أعرف إن كانت الجدة تعاني من الزهايمر أم لا. هي تناديني باسم أبي، وكذلك تنادي حميد، وتكني الديك بكُنية عجيبة، وأظنها تسبُّه حين تركناها:

- "اخرج يا ابن الصُبيَّة". صاحت الجدة على الديك محسن.

لكنها تعرف فاروق باسمه، ثم تعود فتسأله في فزع:

- "من أنت؟".
- "ما هذه الرسالة التي تحملها إليَّ، وكيف ترى أبي؟!محيِّر هو أمر الجدة" قلتُ لنفسي.

ظنوني بأنها تعرف الكثير مما يمكن أن تخبرني به، جعلتني أميل إلى كونها ستكون أكثرهم وأثراهم في معرفتي حول تاريخ العائلة، أو لعل روحها المطلقة كما قالت تساعدنا في الوصول إلى مكانه.

- "فلتتذكري أيتها الجدة، وليَنعش الإله الرحيم قلب ذاكرتك التي أحتاج إليها". أسررت لنفسي.

حين أخذ على زياراتي في أحلامي يأمرني بالرجوع إلى هنا، وأن أتبع العلامات، حتى يرتاح، وأنا أحاول أن أصل إلى خيط يدلني على مكانه، وحتى الآن لم تعرف عمتي

بأمر غيابه، ولا أعرف كيف سأخبرها، فكثيرًا ما طلب مني في شكل التوسل ألا أخبرها بموته مباشرة، وأن أُدرج لها الأمر حتى تتهيأ له، فهي لن تحتمل.

- "عمتك إشراق ليست بالقوة التي أحكي لك عنها، في داخلها براءة ليلي أختك تمامًا". قالها في المستشفى حين عاد إليها بعد رحيل أمي بقليل.

أخبرنا الديك بأن العم صِدِّيق -المسيو أو الديك الكبير كما يُلقب في العائلة- ينتظرنا في البلكونة؛ فهو يتجهز لطقسه الصباحي حيث القهوة وقراءة الجريدة الإلكترونية. من خلف باب زجاجي كبير رأيته جالسًا على واحد من مقاعد الخيزران التي تنتشر إلى جواره، يرتشف فنجان القهوة؛ وحين دخلنا وقعت عيني على رواية "إله المتاهة"، وإلى جوارها "اللامنتمي" وكلاهما لنفس المؤلف "كولن ولسون". الشيب زحف على جانبيْ رأسه. سيجارته مشتعلة بين إصبعيه. نظارته الطبية تتدلى في سلسلة فضية على صدره المشعر. ابتسم ونهض لتحيتنا، بادرني:

- "نور.. أيها البطل". ثم احتضنني.

وفيما كنتُ بين ذراعيه أكملَ:

- "نحمد الله على سلامتك أيها السويدي".

في مرةٍ حين أخبرتُه برغبتي في زيارة مصر، والتعرف عليهم، قال بأن الأوان لم يحن بعد، وأني متى عُدت فسأشعر كأنني مولودٌ هناك؛ فحميميتهم لن تشعرني بأني غريب.

- "أجمل ما في بيتنا أنه مثل الماء، يمنح الحياة دومًا". قال أبي.
- "إلى هذه الدرجة تحبون البيت؟ فكيف ابتعدتم عنه؟!". سألتُ أبي.

الفصل الرابع

الديك

هيلا.. هيلا.. هيلا
غني يا سكينة
هيلا.. هيلا.. هيلا
طبلي يا سكينة
هيلا.. هيلا.. هيلا
خلي السمك يجينا
هيلا.. هيلا.. هيلا
يا وله.. يااااا ابن الصيادين
بحرنا.. رزقنا.. يا صيادين
هيلا.. هيلا.. هيلا.....

من يحمل عنا أسرارنا، فيحررنا ويحرر ظلنا الذي تركناه منذ آلاف السنين هناك ينتظر؟! من يأتينا بخلاص من عبء المعرفة التي أورثتنا كل هذا الألم؟ من يمنحنا القدر إياه ليشاطرونا كل هذا الحزن الذي حملناه عن أحبتنا وتعزينا به؟ من يخبر عنا الحكاية، وكيف بدأت بفعل المحبة ما بين النار والنور؟ من يسرد التفاصيل غير منقوصة يا ابن أختي الذي يقرأ الآن؟ ومن يحتمل تصديق ما ينكشف حين تجلّي الحقيقة؟ من يدنينا أكثر وأكثر من خطط السماء القديمة التي استخدمتنا لأجل إرساء حكمتها على الأرض حين تريد أن تُوصف بالحكمة؟ من يخبر عنا ولا يوارب أو يغفل شعوره بأنا تلبسناه كما تلبسنا هذا النور ودوّخنا؟ من يجيب أسئلتي يا كائنات النور الواجمة هناك غير بعيد من مرقد جسدي هنا؟ من يخبر صاحب النور بكل حزني منه حين استلبوهم مني ترفيقاً لخططه وحكمته المموهة حتى حين الكشف المبين؟ يا كل أسئلتي استريحي، فحتى هؤلاء لا يملكون الإجابات التي تريح، ويا ابنتي التي تحلم في سرير أمي، تمتعي بالأحلام قبل أن تأتيني حيث لا حلم ولا خيال.

حتى هذه اللحظة كان داخلي لم يألف بعد المكان ولا الشخوص. أشعر بأنني غريب، أجيء من أقصى شمال الأرض، فأهبط على تلك البلدة في شمال دلتا النيل بمصر، وإلى الجنوب الغربي من حافة البحيرة، ينتابني الشعور بأنه واحد من أحلامي التي لم تنقطع في الفترة الأخيرة؛ فمنذ تحدثت مع "ليلي" - "لولا" كما ينطقونها هنا - وقالت بأنها تود المجيء إلى مصر، ورغبتها في إشباع اللهفة المسيطرة عليها لتشاهد وتسمع ذكريات أعمامنا في الثورة المصرية وما بعدها من أحداث- يوم كُنا صغارًا في مطلع العام ٢٠١١. أخبرتني بأنها تحتفظ بمقالاتٍ نُشرت تضم قصائد لعمي حامد و عمي مصطفى، وأنها صنعت أرشيفا لتحقيقات أصغر الأعمام عمي "أسامة" -المسمى هنا "غاندي العظيم"- حين عمل مراسلًا لجريدته من ميدان الثورة -ميدان التحرير بالقاهرة - وكتب في صحفٍ مصريةٍ عديدة.

- "الحسيني أبو ضيف في ذمة الله، قتلوه بدم بارد". تتابع القراءة في قصاصة أقدم.
- "ميلشيات تحاصر المحكمة الدستورية، وتمنع القضاة من الدخول". صحيفة أحرار الوطن.
- "القبض على شبابٍ تجمع توقيعات ضمن حملة تمرد بجامعة القاهرة". صحيفة صوت الحرية.
- "مصادر مطلعة تنفي نية الرئيس الترشح لفترة تالية". صحيفة المواطن العربي.

ثم غنت بعربيتها الركيكة من أغاني التراث المصرية بصوتها الذي أحبه حين تغني:

- "كلمة حلوة وكلمتين.. حلوة يا بلدي..".

أختي مفتونة بالشرق كله، وبتلك الفترة التي عصف فيها إعصار التغيير في الشرق الأوسط وحول ما تلاها من حوادث هزت تاريخ المنطقة، و تجهِّز في أطروحتها للماجستير فصلًا حول الجمهوريات الجديدة التي ظهرت في أعقاب حرب القبائل فيما

كان يعرف باسم الجماهيرية الليبية منذ عقدين.. لعل هذا دفعها إلى الارتباط بـ"آغ مسعود"، وما عرفت عن تاريخ قبيلته من أمازيغ الطوارق، أو اسمه الذي تصادف واسم الجد، وما لعبته القبائل التماشقية في الصحراء وسيطرة أمازيغ "الكُفرة" على المنطقة. كانت تحفظ في شقتها بـ"كيرونا الجديدة" صورًا كثيرة للعائلة في مصر، وقامت بإعادة تكبير لبعض صور أعمامي وهم وسط الثورة المصرية، حين وصلتها هذه الصور بالبريد الإلكتروني منذ سنوات عن طريق علياء أخت حميد، وهي لا تنفك تخبر الجميع بأن أعمامها شاركوا في هذه الثورة. أذكرمنذ عامين حين اتصلت بي صديقتها يوم كنت أزور كيرونا الجديدة لأمر طارئ، وطلبت مني الحضور فورًا؛ فقد كان مزاجها سيءَ الطقس، فأفرطتْ في تناول البراندي والويسكي حتى ثملت، وأخذت تلعن صديقها الذي تخلى عنها، وذلك قبل أن تقابل "آغ مسعود الأمازيغيّ"، وظلت تردد طوال الليلة:

- "نعم..أنا من أصول شرقية و مسلمة.. وأبي من عائلة مصرية.. فلتذهب عصبيتكم العمياء إلى الجحيم.. أنا مصرية.. لستُ سويدية.. أنا لست مسيحية ولست يهودية ولا حتى مسلمة.. أنا إنسان وفقط.. ألا يكفي العالم ذلك؟! أنا تعبت.. تعبت".

ظلت تكرر كلمتها "تعبت" حتى انهارت وسقطت. وفي المستشفى عرفنا أنها فقدت جنينًا، وهناك قابلت "آغ مسعود" طبيبها - الذي أصبح زوجها فيما بعد - لأول مرة. الآن هنا أحدث نفسي بأنها هي من تستحق هذه الرحلة، وهي الأجدر بالتعرف على هذه العائلة التي لا تعرفهم سوى من صورهم الأرشيفية وحكايات أبي عنهم، حتى محادثاتها لهم عبر الهاتف الطيفي أو غيره، لم تكن تُرضي لهفتَها لرؤياهم بشخوصهم. فكيف استطاعت أن تجد هذا الرابط الذي يجعلها تتعلق بهم إلى هذه الدرجة، وهي التي لم تر مصر سوى مرة واحدة حين كانت في الثالثة من عمرها؟ والآن في عامها الرابع والعشرين أظنها كانت ستسعد بكل ترحابهم هذا. أذكرُ حين فزعت في زيارتها الأولى تلك حين قبّلتها العجائز من نساء العائلة اللاتي سقطت أسنانهن، يومها كانت جدتنا تغمزني في أسفل رئتي اليسرى وتمازحني:

- "يا مُفتاح.. أنت أيها المفتاح الإنجليزي".
- " أنا نور يا تيته.. لستُ إنجليزيًّا". أجيب في عصبية وعربية ركيكة.

فيضحك الجميع، وتبكي "ليلي" حين ترى أسنانهم الصفراء، والفراغ الذي يتخلل ما بينها معلنًا عن فوات الأوان لمعالجة هذه الأسنان، حتى أمي كانت تضحك، وهي وقتها لم تكن تعلمت العربية بعد، لكنها تضحك لضحكهم، أذكر- قبل أن نعود إلى السويد في زيارتنا تلك إلى مصر- قول أمي:

- "يا حسن.. عائلتك رائعة! كيف جرؤتَ على مغادرتها؟!". تحتضنه بحب.
- "غادرت مصر لأجدك يا حبيبتي". يجيبها، ثم يقبلها.
- "أحبهم.. وأتمنى لهم السعادة.. من فضلك أخبرهم بذلك في الصباح". قالت أمي.

أظن "ليلي" في الصحراء الآن مع "آغ مسعود"، ويجب ألّا أنسى الاتصال بها، وأن أعرف أخبارها. تذكرتُ أمي التي خاضَتْ تجربة ابنتها قبلها بعشرات السنين، حين أحبت هذا المصري القادم من هذه البلدة. أين هي الآن أمي التي أحبتهم وأحبت ضحكهم؟ وأين هذه السعادة التي بكت أمي حين رأتها تشمل الجميع هنا؟ أين أنت الآن يا أمي لأخبرك بأن سعادتهم هذه تلاشت، وأنهم ما عادوا يضحكون كما كنتِ تصفينهم كلما تطرقنا إليهم؟ أين أنتِ لأخبرك أنني جئت هنا كي أعرف ما أريد، فما وجدت ممن يمكنهم إخباري كل الحقائق سوى جدة تعاني خللًا في الذاكرة تقول بأن الرب عاقبها فأطلق روحها وترك لها جسدًا هرمًا؟ وهذه العمة التي ينهشها الحزن كظيمة، حتى هذا الذي يشرب القهوة، والذي وصَفَهُ أبي:

- "المسيو.. هذا شخص لن تكفَّ عن الضحك معه".

تراه أين خبأ ضحكه الذي حدَّث عنه أبي وأسهب؟. لماذا تعجلتِ الرَّحيل أنت الأخيرة؟ هل لحقت بك عادةُ هذه العائلة كما قالت الجدة وعمتي:

- "هذا البيت سُحِرت كلُّ امرأة فيه، ليكن الله في عونِ بناتنا". قالت الجدة فيما مضى.
- "العائلة نساؤها مرصودة ومحبة للرحيل وتسرع نحوه، كأن قدر نسائها إما الموت هنا، أو الحياة غريبة وحيدة". قالت عمتي حين هاجرت علياء بعد مقتل زوجها.

لماذا لم تتريثي، فتأتي لتتأكدي بنفسك، ولتريْ شاهد قبره إن كان قد عاد ودفن هُنا؟ تعجلتِ يا أمي، تعجلت السفر! الآن يأتيني حديثه عنهم وعنك، فيزيدني همًّا على همي حين غاب.

- "في بلدتنا يشتهر الرجال بالعطاء والمنح". قال أبي.
- "ألا يدركون في بلدكم ما تمنحه النساء؟!". سألت أبي.

* * *

ما بال هذه العائلة مولعة بتقبيل أيادي نسائها؟! يقبلون يد عمتي إشراق، ثم الجدة أم عمي صِدِّيق، ثم الخالة هالة زوج عمي صِدِّيق. يهرعون إلى اليد اليمنى فيقبلونها في انحناء ووقار غريب. في السويد نقبل أيادي النساء، لكن هنا يأخذ تقبيل الأيادي سمتًا خاصًّا وهيئةً وقورًا، وكان عجيبًا أن أقلدهم، لكنها أصبحت واحدة من عاداتي التي اكتسبتها هنا بسرعة البرق، بل وفعلتها بحبٍّ ووقارٍ لكل من قبلت أيديَهنَّ من نساء البيت مِمَّن قابلت، ولعل أحبها إلى نفسي قبلة اليد لعمتي إشراق، والتي تنتهي عادةً بحِضنها الذي اكتشفتُ فيه تحنانًا عجيبًا يبدو أني أفهم سره، و يشعرني بأمان وسلام تامين.

كان عمي صِدِّيق يحرك إصبعيه اللذين يمسكان بسيجارته بطريقة عجيبة، فيمدهما بشدة فيزيد طولهما كثيرًا أو تخال ذلك، ثم يرجع رأسه للخلف ويطلق صاروخًا من الدخان إلى الأعلى دفعة واحدة؛ فتشعر بالتوتر. رائحة دخانه المختلط بمخدر الحشيش

تعبق المكان، فيضحك الديك ويقول ممازحًا:

- "يا مسيو.. الحشيش في الصباح مزاج العظماء يا بطل".

فيسعل بافتعال واضح، ثم ينقلب الأمر فيخونه الافتعال فيعاود السعال بشدة ويحمر وجهه، وتجيء كلماته المتقطعة من بين واحدة من نوبات سعاله التي عرفت أنها تنتابه باستمرار. أجتهد في فهم ما يقول. تأتي كما كان يصفه أبي - في مذكراته عنهم- وهو يحدثه على الشات منذ سنوات، وتنتابه تلك النوبات:

- "كلماته كحُمر وحشية فرت من قسورة أو تمساح وقت طلبت الشرب في حرِّ يومٍ طويلٍ، فلا تتبين إلا الغبار، وتختلط الحوافر فتختفي تفاصيل المشهد الدقيقة لكنها لا تطمس جوه العام". فأفهم بصعوبة.

يطلب أن نحكم إغلاق باب البلكونة، وإلا ستقبض عليه -والديك- شرطية المكافحة بالبيت.

علاقة عمي صِدِّيق والديك فريدة. هما أقرب إلى صديقين من كونهما أبًا وابنه. حين خرج محسن "الديك" ليحضر الماء، عاتب"حميد" عمنا "صِدِّيق"، إذ يمعن في تدليل الديك بما أفسده، سأله في عجب:

- "أيرضيك أن يدخِّن الحشيش معك يا عمي؟! ألا تراه أمرًا مستهجنًا؟!".

تتوتر سحابة الدخان التي يحرِّرُها عمي صِدِّيق من فمه وأنفه، فتسرع إلى فضاء الشارع نحو السماء، ثم يرفع عمي صِدِّيق حاجبه الأيمن، ويضغط عينه اليسرى فتغمض قليلًا، ويصمت ثوانيَ فتحط الطيرُ فوقنا، شرر عجيب يتطاير من عينه اليمنى يطارد سحابة أخرى من الدخان الذي فرح بالتحرر من سجن السيجارة. أُقسم أنني سمعت دقات قلوبنا لحظتها، ثم تجيء جملته من بين ابتسامة منكسرة للغاية، وحركات يديه العصبية التي اشتهر بها حين يتحدث أو يصف الأشياء.

- "ليجرب يا حميد بنفسه، هذا حقه، وهو يستحقه، أنسِيتم حامد؟! عفوًا يا فاروق، أنسيتم لأجل ماذا تم اغتياله؟ فلينعم بها أولادنا، ولنتحمل تبعاتها يا ولدي أيما اختلفنا معها". ثم أطرق.

حاول أن يشرح لنا طبيعة عَلاقته مع الديك، وأنهى وصفه لعلاقتهما بجملته:

- "لا حاجة لكل (كلاكيعنا) يا ولدي. ليفعلْ ما يحلو له، وأنتم لتفعلوا ما ترغبون بفعله، ولتتعلموا تحمل العواقب وحدكم".

على الدوام تعود أبي في أيام العطلات أن يتمشى معي، يحكي لي عن البيت هناك، يخبرني بأن قدر أولاد البيت عجيب وأن عَلاقاتهم بالأخوال فيه لها نمط عجيب؛ فهم يحبونهم ويحترمونهم، وعلى الدوام يختلفون معهم، فقد كانوا رمزًا لديكتاتوريةٍ أحبوها.

- " في بلدتنا القطط مشهورة بحب خانقيها". قال أبي.
- "وهل يدرك هؤلاء الخانقون هذا الحب أو يقدرونه؟" سألت أبي.

* * *

"المسيو" أو عمي صِدِّيق رجل عجيب، سنواته تقترب من الخمسين، بينما ملامح وجه الرجل كأنه سبعيني. يصمت لفترات طويلة كأنه لا يعرف شيئًا عما نتكلم فيه، لكنه متى تكلم يدهشك بكم مرعب من التفاصيل الدقيقة حول كل شيء، ثم يعود إلى صمته الطويل من جديد. أول مرة سمعت عنه، كان أبي يصفه لعمي مصطفى في واحدة من جلسات "الشات" بينهم.

- "غير معقول! كيف سافر إلى إيطاليا هذا المجنون؟!". يعجب أبي، ويزيد:
- "لتتركوه، سيخوض التجربة، وستعلمه ما لم يعلمه عمك وخالتك له، صدقني ستربيه الغربة من جديد".

هكذا عرفت عن عمي صِدِّيق لأول مرة، بعدها وبربع قرن وفي استكهولم، وقبل أيام من قدومي إلى هنا، وفي السهرة التي قضيتها مع فاروق وحميد، وفي مراجعة كل أفراد العائلة وعلاقاتهم الأسرية ومواقفهم، أخبرني فاروق بأن عمي صِدِّيق يلوذ بالصمت بعد موت "منصور" أو "الألماني" كما يسمونه.

منصور هو ابن أخته، عاش سنواته الثلاثين في نفس البيت - تقريبًا - مع خاله صِدِّيق وجدته. كان "الألماني" - أو منصور- بعد سنوات من السفر في بلاد الخليج العربي، يعود إلى البلدة في ربيع ٢٠١٣صموتًا أكثر مما كان يُشْتَهر عنه، يزيد نفورًا وانعزالًا عن كل البشر، يعزف عن كتابة الشعر الذي كان عالمه الخاص.

- "منصور سافر من جديد بعد تنحي مبارك بقليل، ثم عاد بعد عامين وشهور". قال المسيو صِدِّيق.

قيل إنه في اليوم الثالث بعد عودته كان صامتًا للغاية، يدخِّن بشراهة غير معتادة عنه. فتح التلفاز يتابع قناة أخبارية تتحدث عن استمرار أزمة الاستقطاب في الشارع المصري. يومها – فجأة - يثور ويسب ويلعن الجميع بالتلفاز، وجملة واحدة يرددها بعصبية وغضب:

- "لماذا يا دكتور برادعي؟!! لماذا يا بوب؟!". ثم ينهار ويغشى عليه.

حين يفيق يذهب إلى حجرته في الطابق العلوي يخرج كل أشعاره ثم يبدأ في إحراق مدينته الفاضلة التي عاشها في دفاتر أشعاره، ولولا الإنقاذ القدري بواسطة العم "ماجد" الملقَّب بمستر "فيكس"- وهو ابن خال العائلة- لهذه الأشعار، حين أقنعه بكتابتها على الكمبيوتر الشخصي خاصته قبل فترة وحفظها، لكانت ضاعت إلى الأبد. عرفنا من الديك بعدها بأن "الألماني" نفسه طلب منه أن يكتب له الديك أشعاره، ويحفظها قبل قليلٍ من عودته إلى البلدة في سفره الأخير. ثم يسافر للمرة الأخيرة في ديسمبر ٢٠١٤، وتنقطع أخباره لسنوات، وقبل ثمان سنوات يفاجيء الجميع بعودته - بمعرفة السلطات

المصرية – مصابًا بحالة من الاكتئاب النفسي الحاد، على إثرها لا ينطق بكلمة.

- "كان فقط يبتسم، ثم يغيب عن كل ما حوله". قال الديك.

زاد الديك حكاية عنه، بقصة زواجه السري هناك في سفره الأخير، وكيف دخل عليه ليلًا حجرته وطلب منه:

- "أيها الديك لا تخطئ كما أخطأنا في حق خالي منصور، فأضعنا أشعاره ولم نسجلها، فاحتفظ بأشعاري، فمتى أمت، فربما يقرؤها أحدكم عند قبري أو مسامع أمي". طلب منصور – الألماني – من الديك.

كانت وصيته – منصور – قبل وفاته منذ عامين، كفيلة بأن تجعل الديك يترك كل مذاكرته في ثانويته العامة ليتفرغ لها ولكتابتها وجمعها.

- "يا ديك.. أشكرك لكونك اخترت أشعاري بديلًا عن حلم كلية الهندسة. أتمنى أن أستحق وأشعاري جهدك العظيم". قال منصور الألماني لتكون آخر ما كلم به الناس.

يومها أصرَّ الديك في الليل على أن يسجل ما يمكنه من هذه القصائد بصوت منصور نفسه، فاختار بعضها وأحبها إليه، كما حكى في التسجيل الذي أسمعنا محسن الديك إياه فيما بعد وفاته عبر رسائل إلكترونية بعث بها إلى كل من عرفه، ووعد الديك بأنه بعد أيام سيكمل معه. هكذا قرَّب منصورالألماني ابن خاله –محسن الديك– إليه وكأنه ولدٌ له أو صديق.

- "قدر هذه العائلة عجيب في عَلاقة أولادها والأخوال". ابتسم المسيو صِدِّيق.

وتابع يسرد أنهم حتى اللحظة لا يعرفون كيف للألماني أن يقرأ ويُسجل كل أشعاره بصوته، ويرسلها برسالة إلى بريده الإليكتروني؛ ليحفظها الديك الذي يتندر بقوله:

- "من يدري يا منصور؟ ربما يكون لها ثمنٌ بعد سنوات؟ مَن يدري؟". قال محسن الديك.

ذات صباح بعدها بأيام، يدخل عمي المسيو صِدِّيق إلى غرفة الألماني- الذي رفض الطعام قبلها بيومين - فيرى ما لا يفارقه بقية عمره. جسد منصورالألماني متدليًا من سقف الحجرة، وقد عرى جسده تمامًا، وقد أزال كل الشعر في جسده، فبدا كقطعة لحم صفراء خالية من الشعر والزغب، كتب على صدره بيتًا من أشعار خاله الراحل منصور الذي تسمى باسمه تبركًا به، ويحمل الكثير من ملامحه كما يحمل موهبته الشعرية. منصور الكبير هو عمي أيضًا، وهو من تبكيه الجدة - في بيت المسيو - حتى هذا اليوم، وباتت تبكي الألماني إلى جواره:

- "(إنا لله وإنا إليه راجعون). كأنك يا ولدي تتعجّل فعل خالك فترحل! لا عجب؛ فأنت أقربنا إليه، أخبره كل الشعر والحكايات التي تثير خلافاتكم أنتم أيها المتعلمون". تبكي الجدة.

بيت الشعر الذي كتبه الألماني تحفظه العائلة، ويقترن بذكر الراحل عمي منصور الكبير، كتب بالحبر الأسود فوق جسده الأصفر:

إن كانوا بيسألوا الليل ده عني..

عرفيهم يا أمه إني..

بموووووت..

لأن موتي حياة

تحتها وبخط رفيع كتب فوق منطقة البطن:

- "تخلصتُ من كلِّ الشَّعر والشِّعر؛ فأنا أكره الجلاقين وثرثرتهم التي تذكرني بثرثرة الشعراء.. آسف يا خال صِدِّيق لم أعد أحتمل".

ظل الجميع يحاول أن يعرف سرَّ الجملة الأخيرة، وعن أسفه وعدم احتماله، وما علاقة العم صِدِّيق بذلك الاحتمال؟ لكن أحدًا لم يعرف يومها.

سألني عمي صِدِّيق إن كنتُ أُدخن الحشيش أم لا، فابتسمتُ، فردَّ ابتسامتي إليَّ، وقال لنا أعجب ما سمعت منه من بين الكثير الذي حدثني به:

- "مَنْ لم يُدخن الحشيش، فما استحق أن يُولد".

بعدها انبرى في وصلةٍ من الحكي الفلسفي حول فهمه لتدخين الحشيش، ثم أفضى إلينا بخلاصة تجربته الطويلة التي تناثرت شظاياها في جلستنا هذه. قال عمي بأن الحشيش كإله معبود، له مؤمنوه وخواصه الذين يفيض عليهم بتجلياته فيمنحهم ما يريدون، وأن حكمته وعدله، يعجز عن مثلها كل سادة العالم وكل المتنطعين بالحقوقية والعدالات المختلفة في العالم.

- "كلهم فشلوا أمام حكمة وعدالة الحشيش". قال المسيو صِدِّيق.

إبّان نظريته التي تلخصت في كون الحشيش هو الإله الذي يرحب بكل من يأتيه طواعية، وأنه يقدِّر كلَّ مريديه من البشر، فلا يبخل عليهم؛ فمن أراد رجولة وفحولة فله ما شاء، ومن أراد البوح والحكي فلينطلق لسانه فصيحًا بلا خوف ولا جزع، ومن أراد صمتًا فلينعم بالهدوء وسط المعمعة، ومن أراد الضحك والسعادة فهنيئًا له بأتُّون المرح الذي يقذف بنفسه إليه.

- "يكفي أنه يساوي بين الغني والفقير، المسلم والنصراني، بين البحراوي والصعيدي، بين الريفي وابن المدينة، هو سيد العدالة الاجتماعية، ففي حضرته الكل باشاوات وأساتذه، وتحيتهم يوم يدخنونه مساء الخير". أضاف المسيو صِدِّيق.

أفاض في شرح كيف يعطي ويوزع الحشيش الأحلام، فيساوي بين الجميع بلا تمييز.

- "لا فرق بين الوزير والغفير في السحب والأنفاس، الكل سواسية أمام سيدنا الحشيش". منطَق المسيو نظريته.

كان الديك قد دخل أثناء شرحه لفلسفة تدخين الحشيش، وأعطاه كوبًا من الماء

فتجرعه على دفعات بين جمل كلامه وحركاته التشخيصية، والديك يراقب بابتسام كل كلامه، ولا يبدو عليه العجب من غرابة الفكرة، كما هو الحال مع فاروق وحميد، بل زاد أن أقره فيما قال، وأيده:

- "الله أكبر.. أنت مدرسة يا مسيو". عقّبَ محسن الديك على أبيه.

كلاهما - الديك والمسيو - يلعب ألاعيب نفسيةً تجاه الآخر، يتعللان بصداقة ناشئة، بصلة الدم بينهما، يبرر الديك فيها بأنه يجاري والده في آخر أيامه، بعدما ساءت أحواله الصحية في الأشهر الأخيرة.

- "عمكم المسيو.. فقط يحتاج لمن يستمع ويقتنع بكلامه.. هذه مشكلة أبي".

في المقابل كان عمي "المسيو" يبرر بكلمة واحدة.

- "يكفيني من فقدت". قالها وقد شعرت بأنها كانت ستكون أنسب الجُمل حين نصحني "هنري" بالبحث عن صديقة جديدة بعد انفصالي عن سارة.

ذات مرة تحدث إليَّ عن طفولته هناك، حين ماتت أختٌ لهم صغيرة، وكيف تعجب عمي مصطفى الذي يكبرها بعامين حين حملها الجد "مسعود" جسدًا مُسَجًّى في قماشة بيضاء، وكيف طاوعه قلبه أن يُهيل التراب على وجهها بعدما كشفه في داخل حفرة صغيرة في مقبرة البيت، ولِمَ لا يُفتح لها باب المقبرة مثل الجد؟!، وقال بأن عمي مصطفى ظل يصرخ أسبوعًا كاملًا يسأل عنها.

- "الحزن قرين الرحمة يا نور، به ترق قلوب المحبين". قال أبي.
- "ألا تقسو بالحب القلوب كذلك يا أبي؟". سألت أبي.

* * *

الآن يحق لي أن أتحدث وأحكي عنهم بألقابهم، وكذلك سأنادي نفسي بلقبي الذي منحوه لي قبل ربع قرن؛ فهو أول ما يجعلني أشعر بالألفة معهم. الآن أتمنى لو أن جدتي لم تسافر - أقصد ترحل - فتناديني "مفتاح"، ليصير لقبي إلى جوارهم، المسيو، والديك، وميدو، وروقة، والألماني، ومستر فيكس، والجني، وكاندل، والفيل، ونفنف، والبركة، وغاندي العظيم، والمتشه، والمفاوضاتي، وحتى هذا اللقب العجيب "رويترز"، كلهم يحملونها هنا، ألقابهم وبها يسعدون ويغضبون، فلم لا أختبر السعادة ذاتها معهم؟ لا ضير؛ فحين أزور قبور الآفلين منهم، سأستأذن جدتي في استخدام لقبي الذي منحتني إياه. سأكون ساعتها "مفتاح" لا "نور"، بل أنا منذ اللحظة "مفتاح".

- " مفتاح حسن مسعود الشحات آل صابر".

أنا امتدادٌ لهم. أنا منذ اللحظة فرد من هؤلاء المولعين بالألقاب، وبرسم الخرائط التوضيحية للأماكن متى يسافرون دون اعتبار لما قد تقدمه التكنولوجيا من مجسمات طيفية رقمية.

- "في بلدتنا يحمل كل لقب حكاية، ويختصر وصف حلم وحياة صاحبه". قال أبي.
- "ولِمَ يختصرون الأشخاص وحيواتهم؟ ألا تحبون التفاصيل وجمالها؟!". سألت أبي.

الفصل الخامس

بخور

استقصر احسن

وهاتها البَرّ أحسلك..

وامشي ف طريق الهدى والبِر..

أحسلك..

هو انت فاكر ما يُوْجَدْشِي أحد غيرك..

طرْق الزمان صعب..

ياما بهدل ألوف غيرك..

وحُسن سيرك مع المخاليق..

أحسلك..

لهزا العالم طقسه العجيب، ومعاييره التي يضعها بنفسه، فأنا الممردة هنا لا أختلف عنكم كثيرًا حين تتمردون مثلما تمرد ابن أختي يقرأ الآن. لعلكم مثله تحاولون تصور المشاهر بحيويتها وشفوصها التي عاشت، وستفلهون. حتى هؤلاء الزين قر يقرؤون لا لشيء غير تمرير الوقت على فراغ أيامهم سريعًا، هم مثلكم سينالهم من الفيال والصور بعض الأشياء. هزا ما أحسركم عليه الآن يا سارة، فهنا لا وقت للفيال ولا للأحلام. هنا الحقائق تأتي جلية وواضحة إلى الحر الزي يحول بينك وبين الفيال. هنا تُنزع عن أرواحنا قدرتها على الحلم والفيال، ومن جاوبهم إجابات تشفي صرورهم يعوضون عليه بالكشف المبين لكل ما غاب من حقيقة، ويا ويل من لا يعطيهم الإجابات المُثلى. يكفي أن يمنحوه الصور من ماضيه تمر أمامه، فيررك كم هم مقربون إلى النفس هؤلاء الزين خلفهم وراءه هناك. سيراهم ويسمعهم، لكنه أبرًا لن ينبه واحرًا منهم إلى خسارته لصحبتهم ولوجوره إلى جوارهم. وأما الآخرون الزين ابتسم لهم أصحابُ النور، هؤلاء سينشغلون للغاية بصورهم الجريرة التي رضوا بها، تلك الصور التي لا فيال فيها ولا حلم. هنا إما أن تتعزب بالفقر والمعرفة والرؤية، وإما أن تنعم باللا خيال واللا حلم، وهو عزاب لا يرركه البعض بل به يفرحون.

حين رجعنا إلى البيت كانت عمتي إشراق قد حولته إلى كتلةٍ من الدخان، تشبه الخلوات الصوفية التي قرأت عنها.فيما مضى، وحين أردتِ فهم هذا الأمر، وسألت أبي، فشرح لي الهدف من إطلاق البخور، واعتقاد البعض بأن البخور يساعد الجسد في التحرر من كل العلائق، ويُسَهِّل له حالة الخلاص. يومها تطرق حديثه معي عن ذاك الشيخ الذي جرى – وبقية البلدة – إلى بيته الذي سكنه منذ عشرات السنين. لم تكن تتجاوز سنُّه الثامنة، حكى بأنهم في المدرسة الإبتدائية، أمر ناظر المدرسة الجميع بالخروج لمشاهدة الحدث الجليل الذي تشهده البلدة، حيث فاضت روح الشيخ "علي بن الشيخ زايد" المشهور في البلدة بلقب "السنحاري الصغير"، ذلك الذي قارب عمره القرنين أو يزيد، ومنسوب إلى الشيخ السنحاري الأول ولد مريانة.

- "الشيوخ في بلدتنا كانت تستغلهن الأمهات في تخويف أولادهن متى امتنعوا عن تنفيذ ما يطلبن منهم القيام به لأجل بيوتهن". حدثني أبي.

وقتها كان يكفي كل أم أن تقول لولدها متى اعترض على أمر:

- "سأذهب إلى الشيخ السنحاري أو الشيخ علي زايد؛ وأشكوك". تذكر أبي وابتسم.

للشيخ السنحاري سطوة عجيبة على أرواح البلدة. أطفالها يحبونه أو يخافونه، أو ربما الأمر مختلط، لكنهم في النهاية، يشعرون بالرهبة متى واجههم. الشيخ السنحاري – أو الأوّل– هو ابن لكل أمهات الصيادين؛ ورغم كونه منسوبًا إلى الخالة مريانة التي لم تلد يومًا، ولا يعود إلى أصلها، لكنه مشهورٌ في كل البلدان حولهم باسم "الشيخ السنحاري ولد الحاجة مريانة"، تلك التي لم تحج يومًا أو تُصلِّ. الجميع يعرف قدره وحاله الذي يسلب العقول بكراماته وعجيب فعاله. ربما يخلطِ البعض بين الشيخ "على زايد" السنحاري الصغير، وبين الشيخ السنحاري الأول ولد مريانة. فلا تُعرف الحكاية حين يتسامرون بها عن أي السنحاريين تكون، لكنها تُحكى بلا تمحيص عن صاحبها، أهو السنحاري الأول أم السنحاري الصغير. الفلاحون الملاعين في البلدة أطلقوا فِرية ملعونة

تُطَيِّر بأنه ابن الشيخ "عابدين" نفسه، ابن صاحب الحظوة في كل منطقة بحيرة البرلس.

- "ابن الذي يخشاه الجميع، إنس وجان في منطقة البحيرة، وما حولها من بلدان". قالت الفِرية.

يخبرون بأن والده المزعوم - القطب عابدين- هو صاحب العهود السليمانية والدعاوى الجلجانية، هذا الذي سُخرت له الجن ودانت ممالكهم السفلية لعلمه الذي لديه من الكتاب، والمعرفة بسر الاسم الأعظم لِرب السماء والأرض، فصار مُظهر الكرامات في حرش البحيرة و كل برٌ اتصل بها، والكل يعرف قدره وجلاله.

- "تجد مقامه رابضًا على حافة البحيرة في أقصى جنوبها الغربي، يحرسها ويحرس الصيادين، متى ذهبت هناك تَرَهُ شامخًا". قال أبي يصف مقام القطب عابدين.

عجيبُ فعلِه شاهدُ صِدْقٍ لقدراته وكراماته. يُروى منذ القدم بأنه وفي الناحية المقابلة من شاطيء البحيرة، عاش عجوز يخدم مسجد ومقبرة الشيخ "يوسف" - وهو أحد الأقطاب الذين سكنوا بحيرتنا وحرشها الشمالي الغربي - ومقامه المعروف ومسجده، ذات مساء خرج ذئب من البرية في وقت الجفاف. لم يكن الذئب سوى أحد مردة الجن، أراد أن يمكر بالعجوز خادم مسجد "الشيخ يوسف"، لكن القطب عابدين من طرف البحيرة الآخر رآه، فصاح على الشيخ "يوسف" الذي مات وقُبِر منذ قرون، أن ينجد خادمه من المفترس، فإذا بالذئب يتجمد حجرًا، وتبقى فروته من الشعر كما هي في واحدة من أعجب كراماته، هكذا تكون كرامات الشيخ عابدين في أدناها إبهارًا.

- "أتمنى أن أرى الذئب الممسوخ حجرًا يا أبي متى زرنا البلدة". طلبتُ من أبي يومًا.

كانت فِرية الفلاحين التي طيروها حول مريانة - تلك المنسوب إليها السنجاري الأول - تسري في البلدة كالنار في الهشيم، وحين اعترض عليها الصيادون، كادت تُزهَقُ أرواحٌ عديدة يومها في البلدة، فاكتفوا بالاحتكام إلى أمه مريانة التي جاءت به إلى

الصيادين تحكي لهم حكايتها وكيف جاءت به.

- "يومها وضعته في خُرجها أرضًا، ثم أشارت إليه". حكى أبي.

كل صياد يعرف الحقيقة. أولئك الفلاحون يريدون أن يشوهوا صورة الحاجة مريانة التي يحبها الصيادون؛ فهي على حد قولهم:

- "وجه السعد والخير". يصفها الصيادون على الدوام.

تسير كهمزة الوصل بين الصيادين وذويهم في البلدة. تروي لهم أسرار البيوت، وتعود بخُرْجِهَا من حلقة السمك بطانًا، يمتلئ بالأسماك والشباك. تُغَنْونُ طرود الأسماك والشباك. لا يُعرف أنها أخطأت يومًا في مهمتها، فيصل من خير البحيرة إلى أكواخ الصيادين رزقٌ يكفل أولادهم ويستر نساءهم ويساعدهم في تحويل الكوخ إلى بيت دافيء، بعدما سلَّمت الصيادين طرودًا تنوء الأنف بحمل روائح طعامها الزكية، ومما طبخت لهن الزوجات من الطعام. الجميع يُقَدِّر الخالة، ويربي أولاده على حبها واحترامها، لكن الملاعين الذين سكنوا البلدة مؤخرًا، لم ترق لهم الخالة مريانة يومًا، فهي تترك بغلتها العرجاء تهيم على وجهها في حقولهم القريبة المقتطعة من برية البحيرة، ومتى اعترضوا، صاحت فيهم:

- "هذه أرض بحيرتنا يا أولاد الثعالب، حولتم بيوض السمك فيها إلى بيوض الدجاج".

فلم يكن عجيبًا أن طيَّروا تلك الفِرية الملعونة، فأنكروا عليها طفلها المبروك الذي جاءت قومها تحمله، ولم يكن سوى"الشيخ السنجارى" ذاك الذي عالج المرضى وأجاب الحاجات يوم عاد إلى البلدة في اليوم المشهود. حين نمت فِريتهم في رحم الزرائب بأطراف البلدة، ورعت بهائم الملاعين أحراش البحيرة، فعادت تُسمن جوع نميمة سقيفتهم ومرابضهم، وعلى الفور نهقتها حميرهم، فأنكرتها مراكب الصيادين، وبكت حين تصايحوا عليها باتهاماتهم التي تشبه روائح زرائبهم:

- "ربما واقعها واحد من الصيادين الذين تدخل بيوتهم". قال فلاح.

- "أو ربما شيخ الصيادين نفسه". افترى آخر.

يومها انساق المعمَّم "شعلان" - الذي لا يتعدى كونه يغسل مراحيض "ميضة المهدي" - خلف فريتهم. وفي البلدة يصفون "شعلان" بأنه أنكر الأصوات حين يتنطع ويؤم - بصوته النشاز - الناس في صلاة التراويح في رمضان.

- "هو أشهر المتحوِّلين بالقرية من البحيرة إلى الترع والقنوات". أوضح أبي حقيقة شعلان.

يقولون بأن المعمَّم ذاك، حين فشل في امتهان الصيد، تحوَّل إلى الزراعة بتأثير من هؤلاء الفلاحين الذين استجلبهم "الباشا" يفلحون أرض الوسيَّة التي استقطعها من ماء البحيرة، والجميع يعرف أن الخالة مريانة رفضت الزواج به، بل يتندرون بمقولتها حتى الآن في البلدة، متى تجرأ أحد هؤلاء المنتمين إلى الزرائب وحصائر الجبن، فتقدم للزواج من بنات الصيادين، دومًا تكرر نساء الصيادين جملتها التراثية بينهم:

- "أعيش العمر فوق صواري المراكب، أهون من أن أعيش يومًا في مزاود الزرائب". قالت مريانة.

بل زادت بأنها ترفض مجرد التفكير في واحد من هؤلاء الذين ينزحون المراحيض في المساجد، في إشارة إلى وضاعة شعلان وحقارة عمله.

- "ألم يبق غير شعلان البِصْبَاص؛ ليطمع في مريانة ابنة أمهر قلفاط في البحيرة؟!". علّقت مريانة.

كان قد حكى لي عن شعلان، وعن عائلته الأولى كما تُروى قصتُهم بالبلدة، وكيف قابلهم الرحالة العربي المشهور "ابن فضلان"، ووصفهم بأنهم أقذر خلق الله.

- "ألا تبالغون يا أبي في عداوتكم تلك لشعلان والفلاحين على السواء؟!!". استوقفت أبي وسألته مندهشًا.

ورحت أعجب من هجومهم غير المنطقي على الفلاحين في البلدة، وكيف يمكن لحادثة بسيطة أن يحولها الناس في البلدة إلى طقسٍ من الكراهية تنز به أجيال بعدهم. ربما لأني لم أكن أشعر بهذا الكم من النفور من الفلاحين، حتى وإن ارتبكت حين قابلت أهل "سارة" الخمسينين يوم زرناهم، لكني عرفت أسبابًا أخرى لما وترني يومها، وليكن أبسطها تحفّظهم من وجود شخص مثلي لا ينتمي إلى عقيدتهم، وتأتي به ابنتهم التي انفصلت لسنوات عن مذهبهم، ثم بعد عودتها خمسينية تود أن تتزوج به للأبد.

تابعتُ الحكاية معه، وكيف أن الباب العالي في إسطنبول قد استقدم "الشعالوة" ليدسهم على جيوب المقاومة في برِّ مصر. يومها كانت بذرتهم الأولى تكبر في جبال الأناضول الشمالية، ثم هاج طرح شجرة الخبث، فارتحلوا إلى أرض فلسطين بأمر سلطاني، ثم سكنوا غزة منها، وعبثًا حاولوا الانتساب إليها بكونهم غزيين حين هبطوا البلدة لأول مرة مرورًا عبر "بوغاز البرلس"، وأبواب البركة السابعة من البحيرة في يوم كان شره مستطيرًا، وظلت الناس تنسبهم إلى المعمَّم شعلان، فاستوطنوا البلدة وحملوا إليها بذرتهم تلك. ودومًا يختتم بمقولة كلما كررها زادت غرابتها ودهشتي منها، قال:

- "آه.. الشعالوة (قتلة الأنبياء). نسبهم يعود إلى عشيقة يهوذا الإسخريوطي السرية التي هربت بعد خيانته للمسيح، واتجهت شمالًا، فوضعت جدهم الأول، ومنه جاء نسلهم في الأناضول يحمل جينات الخيانة ويورثها لهم، وهم من أقدم من سكن البلدة من بني البشر". قالها بحياد جملته الأخيرة، وضحك.

لم يتعجب الصيادون حين نشر ذاك الـ"شعلان" فِرية الفلاحين ضد الخالة مريانة، بل استماتوا تحليلًا ودفاعًا عنها، فحاولوا تخريج الفِرية على وجوه عِدَّة، أو ذبحها في أحراش البحيرة إن لزم الأمر؛ فإن صدقت تحليلاتهم، فستكون ضربة غير متوقعة في مشيخة "شعلان" الزائفة.

- "في مصر قدرنا أن لكل بلدة شعلانها وفريتها". قال أبي.

- "ومن بشرِّهِ هيًّأ لوجود شعلان وفريته يا أبي؟!". سألتُ أبي.

مريانة نافرة النهدين، مقبولة الجمال، من هؤلاء اللائي يستخدمن الغمزات واللمزات في تسهيل كل أمورهن، لكنها أبدًا لا تعرف الفُحش أو الرجال بغير شرع الله. تزوجت زوجين في صِباها وشبابها، وكلا الزوجين ماتا في البحيرة غرقًا، وحرقًا بالبرق في شتاء تلو الآخر، دون أن تنجب. وهبت نفسها للبحيرة؛ فيوم جاء الزائرون لـ"مقام المهدي"، أخبرتها امرأة كانت تضرب الحجر والأصداف، بأن روح البحيرة تحبها، وأنها يومًا ستعوضها بالخير الكثير، وهاهي الآن تودِّع شبابها في صمت، تُدكُّ هضابُها بفعل القهر والتعب. كم تمنت أن تصير هذه الهضاب عهنًا ينفشه مجداف صياد شجاع. ظلَّت تستسلم لقدرها الموعود كما أخبرتها العرافة التي ضربت الحجر والصدف، وكلما تأخر، تستفيق من أحلامها بسؤال يضرب قلبها:

- "أنَّى لك هذا يا مريانة، ولم يمسسك رجلٌ بعد وفاتهما؟!". قالت لنفسها مريانة بيأس.

لكنها تحب البحيرة، وتثق في نبوءة العرافة، وتنتظر. وفي يوم من قلائل الأيام التي ترضى فيها السماء، حين خرجت قبيل فجر ذاك اليوم، سمعت تواشيح الشيخ "سالم" فوق مئذنة "المهدي". استبشرت الخير كون يومها لم يبدأ بصوت تواشيح شعلان المنفرِّ، وولَّت وجهها شطر المسجد، فصلَّت ركعتين- وهي التي لم تحرص على صلاة يومًا - لكنها اجتهدت كي تصلي كما تعلمت صغيرة؛ ففي البلدة مشغولون بأمر صلاة الفجر، وإن لم يصلوا في يومهم، أو لعلها قضت حاجتها على مهلٍ، ثم انطلقت على أن تركع الصبح -أيضًا- في حلقة السمك مع دخول الصيادين، وهو ما يبدو عجيبًا على عاداتها؛ فمنذ فارقها زوجها الآخر، قررت ألّا تدعو السماء وألا تُصلي، وتبرر حين تلومها النساء من عجائز المصليات:

- "كيف بالسماء أن نصِفَها بالرحيمة، وهي ترصدني، وتأخذ مني من أحب، فأبقى وحيدة للأبد".

- "هو اختبارٌ لك فاصبري يا مريانة؟". تنصحها العجائز.
- "ولم لا تختبر السماءُ سوى الضعفاء والفقراء؟!". تعود وتسألهن.

زوجها الأول تزوجها بنت الثالثة عشرة، وغرق في نومه بالبحيرة، بينما كانت تعاني آثار فضِّ عُذريتها ليلة العُرس، والآخر حين ضربه البرق كانت تناهز الخامسة عشرة، بعدها ودَّع فخذاها طعم الرجال، وطالت لياليها تتمنى ماء رجل. وحين أخبرتها العرافة بوعدها كانت ابنة العشرين، فلما فرت السنون منها، قاطعت السماء للأبد، ووهبت نفسها للبحيرة ولطرود الصيادين تحملها مع خالتها وزوجها، حتى قضت خالتها نحبها، وبعدها زوج خالتها قضى كمدًا على ولدهما الوحيد الذي ابتلعه هويس الترعة في مدخل البلدة قبل أن تُكمل ربع قرن في الدنيا. ليلتها رأت في منامها أن خالتها وزوجها يسلمانها البغلة والخُرج، فأدركت أنها منذورة للبحيرة ولروحها العظيمة، فقامت على استحياء بتأصيل مهنتها وخدماتها في فن نقل الطرود بين البيوت والبحيرة فيما يسميه الصيادون "البشاوة". حين كانت في مرحاض المسجد قبل وضوء الفجر، لمست شقها المرجاني، فاقشعرت حزنًا على ضموره؛ ففي مولد المهدي الماضي أتمت الأربعين، لكن جسدها يحتفظ بهمة الأنثى النافرة بكل مهيجات الشبق عند الرجال، ولا أمل في أن يُعاد اكتشافُ بكر كنوزها التي لم تعرفها البلدة بعد. ربما كانت تتغافل حين يلكزها كوع رجل في ثديها بين العمد والمصادفة، فتنتصب حلمتها تصرخ فيه أنها موجودة، وأنها اشتاقت لماء الرجل حين يدفق في داخلها لحظة النشوة. يومها استعدت لركوب بغلتها العرجاء، ولمحت نظرة الانتقام والجبن في عين شعلان الذي تعرف - رغم زواجه مرتين - بأنه يراقبها. بعد انطلاقها حنَّت إلى صنف الرجال للمرة الأخيرة في حياتها، وشردت في فحولتهم، بل إنها لم تطرد فكرة جالت بخاطرها وتبسلت في غبشة الفجر إلى ذهنها، واعترفت ساعتها حيث قبض اليأس على روحها وتمكن منها، أنها تسرعت برفض شعلان:

- "صاري مراكب الصيادين يحتاج إلى صبية عفية تجيد الصعود والهبوط، وربط الفايات

ما بين الشراع والدفّة، فما كان يضير لو ارتضيتُ أوتاد البهائم". لامت نفسها فيما بعدها، واستغفرت ربها.

أسرعت حتى ولجت مشارف البرية التي تنتهي في أقصى طرفها الشمالي بالجزيرة حيث أُقيمت حلقة السمك. ضرب الصمتَ من حولها بكاءُ طفلٍ رضيعٍ بين الأحراش. كانت صرخاته يشق صداها قلبَ البرية بالأسى. راعها الأمر. أحست بأن السماء تعاقبها لخواطرها السيئة منذ خرجت من حيث كانت في مسجد سيدها المهدي فجرًا. ندمت كونها لم تكثر من الصلاة في ميضة "المهدي" قبل تحركها نحو البحيرة. حاولَت السيطرة على روعها، لكنها جفلت ثم نادت أسياد البحيرة القدامى بأسمائهم كما علّمها زوجُ خالتها منذ زمن قبل رحيله. حتى فارس البرية المزعوم خاطف النساء القديم، مَن عاش قبل طوفان نوح العظيم على هذه الأرض، نادته هو الآخر. رددت دعواه كما حفظتها عن خالتها. نادت باسمه الذي لا يستحب ذكره بلا مبرِّرٍ قوي، حتى إنها نادت "دميس"، واستعاذت بـ"دشيمة" سيد الكوم الأحمر والجن في منازلهم المشهورة بالطرف الجنوبي الشرقي للبحيرة، ومخالفة لما تعلمته لم ترَ حرجًا أنها نادت مارد البحيرة "وُحَيش" ذاته على خلاف عادة الصيادين، وانتهت إلى القطبين يوسف والمهدي. بدأت ريح البرية الصباحية تزمجر، فصفرت شجيراتُ الأثْل، وعوت الثعالب والذئاب، فتسلل إليها الخوف والذعر، حتى أنسياها ذكر القطب الأعظم "عابدين" أو التعوذ به في دفع ما تخشاه. رأت أن الموقف لا يحتمل غير أن تنادي وتتوسل كل من تسيَّد المكان يومًا من عصاة وأتقياء. حين ذكرت هؤلاء الأسياد والأقطاب والجبارين من الإنس والجن حول البحيرة ممن سكنوا البرية أو البلدان الواقعة حولها، ارتد خوفها خاسئًا حسيرًا. أقسمت وهي تحكي بصعوبةٍ وتبكي للصيادين في حلقة السمك يومها، أنها حين تذكرت الشيخ "عابدين"، وبمجرد ذكرها اسمه، رأت الشيخ بذاته، طلعته كما سمعت، وجه أبيض تكسوه حمرة الهانئين، ولحيته البيضاء اللامعة تضفي سمتًا من الوقار البالغ، بردته الخضراء يخطف حريرُها الأخضرُ الأبصار. وحين تجلى لها، غَشِيَ المكانَ

لونٌ أخضر رائع، جاءها يشق الحرش حاملًا ذاك الباكي الرضيع - فاختلط الخوف بالسعادة والانبهار- جاء يحمله بين جناحين نَبَتَا للشيخ "عابدين" عِوضًا عن ذراعيه اللتين فقدهما يوم حارب الكفار المستوحشين الذين جاءوا في مراكبهم من بلاد الكفر، يرفعون الصليب فوق صواريهم، فتصدَّى لهم إلى جانب إخوانه الأقطاب من تلاميذ سيدها المرسي أبي العباس الذين انضموا إلى الشيخ العز بن عبد السلام في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، حيث حارب إلى جوار أخيه "سيدي أبي الحسن الشاذلي" في مخاضة فارسكور، ووسط شوارع المنصورة، وعاد بلا ذراعين إثر مبارزته المدعو بالكونت "أرتوا" ذلك الفرنسيسي الكافر.

رأته مريانة يقترب، تحوطه هالة من نور، حتى وقف قيد ذراع منها، فغرقت في النور. أقسمت عليه بالأيمان ألّا يؤذيها لأجل خواطرها حين كانت بالميضة منذ قليل، واعتذرت له بأن الخطأ والرجوع من صفة المؤمنين.

- "لا تفزعي أو تحزني". طمأنها.

أخبرها أنه الشيخ "عابدين"، وهو رسول إليها من روح البحيرة المهيب، من لا يُصَرِّحُ للبشر بذكر اسمه أمامهم. ألقى السلام وأذِنَ لهالة النور التي تدور من حوله أن تهدأ، وليخفت نورها قليلًا، فانصاعت هالة النور لإذنه، وأفسحت المجال لنور جناحيه الأخضر أن يُشع كإستبرق مُخْمَلي، حوَّل البرية من حولها إلى سندس أخضر، يسرُّ الناظرين سناه المخدِّرُ للتَّعب، فمن رأى النور الأخضر لا يَرَ الكون بعدها إلّا بهذا الهدوء الصافي، والسُّكون الأزلي المبين. مدَّ جناحيه نحوها بالطفل الرضيع الباكي، وسألها أن ترضعه.

- "أنَّى هذا ولم أكُ يومًا أمًّا؟!". جاوبت مريانة.

لكنه أمرها أن تحمله عنه، وأن تنتبذ به جهة الغرب خلف شجرة "الأثْل"، وحين مدت يدها كأنها خارج إرادتها، مسَّت هالة النور التي رأت حبل الطفل السُّري مربوطًا

بها، فإذا بشعاع نور أخضر يتلوى فوقها ثم يهبط إلى أسفلها، شعرت به يدغدغ شقها المرجاني، ثم شعرت بثقله في رحمها، فتأوهتْ عجبًا وخوفًا، وأقسمت أنها شعرت بآلام كأنها مثل التي تعرف من حكي النساء عن الحمل ثم المخاض، وخلف شجرة "الأثّل" أخرجت ثديها الذي تعرفه، وتعلم كمَّ القهر الذي يعانيه من فرط العوز إلى شفاهٍ تعصره. شعرت بالحرج حين انزوت. تمنت ألّا يخذلها هذا الثدي الرابض في النسيان منذ زمن.

- "يا ليتني مِتّ قبل هذا". قالت في نفسها خوفًا أن يرى ثديَها القطبُ عابدين.

مدت يدها اليمنى نحو صدرها، ورأت شعاع النور الأخضر يخرج من رحمها ويصعد إلى ثديها، وينساب كنهر من النور الأخضر من حلمتيها، فتزداد عجبًا وتأوهًا لما تراه يتدفق من خلال حلمة ثديها، فأشاح القطب عابدين وجهه بعدها، وابتعد. فنبهها الدفءُ الجليُّ الطافح من فتحة الجلباب. لامست راحتها ساحة الرجراج في نهدها، واستقبلت حلمتا الثدي كفّها بانتصابٍ يعوض سنوات الركود في سفح صدرها. أخرجته مدهوشة من أمرها، فرأته كما مصباحٍ من نورٍ لجيّ، فاسترضعت الطفل النور الذي صار فيضًا من الحليب. شعرت بتدفقه في عروق ثديها، ورحبت حلمتها بمقدمه السعيد، فانفرجت فُتحتها واستدارت كما لو كانت كوة المقام بمسجد المهدي حين تفيض بنور أو نسيم في الصباح، فالتقمها الباكي بين يديها، ثم سكن، وهي مأخوذة بفعل الامتصاص الغريزي من فم الطفل العجيب، ومداعبة أناملة الرقيقة لساحة الرجراج، وكسا البريةَ من حولها فرحٌ جليل. عجبت في نفسها، فجاءها صوت القطب عابدين:

- "هو من فضل الله عليك، ولا يناله إلّا الصابرون".

أرادت أن تنظر الشيخ تستفسره، فنبهها صوتُ الشيخ عابدين يحذرها أن تسترق النظر خلفها نحوه، مهما سمعت أو شاهدت مِمًّا لا يراه غير المحظوظين من جنس البشر.

عادت تتأمل حالَ الرضيع، وحدثتها نفسها بأن ترى وجه السعد، وجه طفلها المبارك، وطفقت تكشف عن وجه الرضيع ورقةَ اليقطين التي لُفَّ فيها جسده الضئيل، فرأت وجهه كأنه وجه سمكة القريصة الأخضر القاتم، فصكت وجهها، وأرادت أن تنادي الشيخ، فحدثها وجه السمكة:

- "لا تخافي يا أم.. لا تحزني يا أم". همس الرضيع.

وكلما نهم من ثديها الحليب الدافق تبدَّلت ملامحُه إلى ملامح وجه الرُّضَّع من بني البشر، فأخذت تحث ثديها على المزيد حتى استوى بشرًا سويًّا، فتبارك وجه الرضيع في عينها. ساعتها سمعت أنين بغلتها يشبه الرعد، فأرادت أن تنظر، فعاودها التحذير:

- "إياكِ والنظر يا أم، فتحزني". همس رضيعها من جديد.

لكنها سبقت بسيف قدرها نصيحة رضيعها، فرأت ما ذهب بعقلها حتى يوم مماتها. أقسمت للصيادين في حلقة السمك على ما حدث، وأشارت نحو وجه السمكة الذي صار من وجوه البشر، وكشفت عن وجهه لهم وهي تتلو من القرآن "فتبارك الله أحسن الخالقين"، وسألتهم أن يسألوه، فحزنوا لأجلها ظنًّا منهم بأنها فقدت عقلها.

- "كيف نكلم هذا الرضيع في مهده الذي لا يتعدى كونه ورقة من شجرة يقطين؟!". تعجب الصيادون يومها.
- "مسكينة مريانة.. نادتها روح البحيرة". قال صياد عجوز.
- "ربنا يلطف بك يامريانة". دعا صياد ربه.

أخذت تقسم أنها حين نظرت خلفها مخالفةً النصيحة، رأت القطب عابدين يرفع ذيل جلبابه، ويتحزَّم به، ويرخي سرواله لينبلج عضوه الذكري شعاعًا من النور، راح يولجه دبر بغلتها العرجاء، فأخذت البغلة تنهق بصوت هو الرعد، فصكت وجهها، فانتبه إليها الشيخ وقال بصوت هو قدرها المحتوم:

- "من يَرَ شعاع نوري، لا يَرَ النور بعده". أقرَّ لها القطب عابدين.

بعدها بأيام خبا نور عينيها إلى الأبد، وكلما أرادت أن تُعيد ما كان، يعجز لسانها عن الحكي حتى انتهى إلى الصمت التام، فخرست للأبد. قبل خرسها بقليل، أفلحت في أن تشرح لبعض الصيادين ممن تحلقوا حولها في اليوم السابع للواقعة ما كان من أمرها. يومها استعانت بحركاتٍ وإيماءاتٍ من جسدها يعرفها الصيادون تمامًا، فما عجز لسانها عنه أو تلكأ به. تسارعت به حركات جسدها التشخيصية، بعدها وفي تمام مغرب ذاك اليوم فقدت النطق، ولم تتمكن من أحرف اللغة سوى بالنذر اليسير على فتراتْ متباعدة، وصارت تنادي صياديها كل صباح بقولها:

- "بَخْ.. إبيير".
- "صباح النور يا خالة". يفهم ويرد الصيادون.

تعلموا معها لغتها الجديدة نادرة الأحرف؛ فقد مالوا إلى إشاراتها التي تحمل الغمز واللمز أكثر من لغتها، مما حفزهم على الحديث المكشوف معها، وهي الأخرى في المقابل لم ترَ غضاضة في ذلك ما داموا يثقون في طرودها ومهمتها العظيمة في توثيق صلاتهم بذويهم بالبلدة، والائتمان على الأسرار بين الرجال من الصيادين وزوجاتهم، وزادها قربًا إلى قلوب الصيادين ونسائهم أن فقدت نور بصرها. يومها وحين سألوها عن اسمه، ذاك الذي لم يفارقها حتى ماتت بعد سبع سنين ليكمل بعدها ذاك الطفل مهمتها في نقل الطرود لأربعين ليلة بعد سن السابعة، ثم يختفي للأبد وبغلة مريانة دون أن يعرف يومًا أين اختفى. يومها عجزت أن تنطق سوى أحرفها المعجمة التي اشتهرت بها فيما بعد بينهم.

- "التا.. كا.. لى". كررت الأحرف، وهي تشير نحو الرضيع.

حتى إنَّ وضْعَها هذا، وتأتأتها جعلهم في حلقة السمك، ينادون كاتب الحلقة "صابر"، لعله يساعدهم على الفهم، فهو أوحد في القراءة والكتابة بينهم يومها، ويحفظ

من القرآن الكثير، وهو ما أَهَّلَهُ لما كان فيما بعد في البلدة وتاريخها الساحر.

- "في بلدتنا يثق الناس بالمتعلمين ورأيهم، وفي الحَفَظَة وشرعهم". قال أبي.

- "وهل تنحصر الثقة والرأي عن سواهما في بلدكم؟". سألت أبي.

* * *

صابر الكاتب متفرد في مزيته التي سما بها عنهم؛ فهو فردٌ في القراءة والكتابة بعموم البلدة كلها، ولا يعرفون عن "أبي الفضل" والده الكثير. فقط هبط ذات يوم إلى البلدة واستوطنها؛ ولأن بلدنا يحب الغرباء ويستقبلهم بحفاوة، أسكنوه البلد. قالوا بأنه هارب من ثأر تورطت فيه قبيلته الهوارية في صعيد مصر، ظل سنوات قبل أن يغيب عن البلدة عامًا كاملًا، لا يُعرف عنه كلما سألوه عن بلده غير إجابة واحدة:

- "جار سيدي القنائي".

عاد "أبو الفضل" ومعه زوجته، وقد انتفخت بطنها، وحين سألوه الخبر، وسر الغياب.

- "قدمت كفني والدِّيَة، فقُبلتْ، لكن حكموني بالتغريب، فعُدت".

بعدها غابت الزوجة عند أهلها قرب مقام القنائي بصعيد مصر، لتنكص من جديد إلى البلدة، ومعها رضيعها، وبعد أعوامه الثلاثة الأُوَل. عاودت الكرَّة، فسافرت من جديد، لتغيب سنواتٍ سبعًا، زارت البلدة فيها على فترات متباعدة وحدها، إلى أن عادت ومعها طفلها ابن العاشرة يدندن بالقرآن وبعض مبادئ الحساب والقراءة. يومها أخذه الحاج مصطفى البرلسي صاحب الحلقة، ليسجل حركات البيع والشراء، ويعمل إلى جوار أبيه - أبي الفضل - الذي يخفر حلقة السمك ليلًا، حتى مات وقُبر غريبًا عن أهله خلف مسجد المهدي.

روى لي أبي عنهما أطرف حكاية سمعتها منه في بدايات حكيه عن البلدة. حكى

أن البرلسي كان قد نذر بناء مسجد للصيادين متى رجع ابنه "حُسني" عما في رأسه من أفكار المريدين بعدما رأى سيدي المهدي في منامه المتكرر يأمره بالخروج لطلب العلم في بلاد الشام التي نهبها الفرنج الكُفار. يومها خاف أن يغيب ولده عنه في واحدة من البلدان البعيدة التي يسمع عنها الأعاجيب، ومن يدري؟ ربما يذهب إلى تلك البلاد التي حولوها إلى الكُفر تلك التي سكنها الصليبيون، فتخطفه النساء ولا يعود لحِضنه، أو يسافر نحو حميثرة قرب طريق الحجيج البعيدة، حين قرر أن يطلب مقام "أبي الحسن الشاذلي" في جبال عيذاب البعيدة، فيموت ولده ولا يراه. وحين علم بأن ولده قد صرف النظر، وقرر الوجهة إلى القطب "ياقوت العرش" بأرض ثغر الإسكندرية فكانت البُشرى له، وشرع الحاج مصطفى البرلسي في بناء المسجد، وأسند إلى صابر – الذي كبر وشبَّ – دورًا إضافيًا بتأديةِ شعائر الأذان والإقامة. وفي افتتاح المسجد المجاور لحلقة السمك حتى الآن – على حد قوله وقتها – خطبهم صابر وهو ابن الرابعة عشرة، عن العطاء وتوفية النذر لله، وضرب المثل بنفسه وكونه منسوبًا إلى "هوارة" بأصله، وكيف رفض العودة بعد وفاة والده إلى بلدته في جوار "العارف بالله سيدي القنائي" في أقصى الطرف الجنوبي لبلاد مصر، ليأتي موفيًا نذره بالبحث عن هذا الموعود في بلاد الدلتا، هذا الذي سيحمل البشارة لكل أهل مصر يوم يشتد الكرب ذات يوم، ذاك الذي أخبره بقرب موعده سيده القنائي حين زاره في رؤياه يوم كان صبيًا يحفظ القرآن في صحن المسجد هناك، ثم حدثهم عن ثواب الله وكيف كافأ والده بالسُكنى هنا جوار مسجد المهدي، فأبدله الأمن مكان الخوف والغربة، وحثهم على التراحم بين الناس، وكال من الحسنات لهذا البرلسي. تصادف أن يحضُرَ تاجرُ الأسماك المنوط به شراء الأسماك من حلقة البرلسي – ويُدْعَى إبراهيم –وضيفٌ غريبٌ يُدْعَى موسى، وهو قائد من رجال أسطول السواحل الجديد المنوطة به حماية الشواطئ المصرية من هجمات الفرنج الذين يرفعون الصليب أعلى صواري مراكبهم التي حاصرت دمياط قديمًا، فخافوا أن تعود بعد هزيمتهم في مخاضة فارسكور، وطردهم نحو البحر، فقرر موسى أن يطوف

على بلدان الصيادين يختار منهم من يتطوع للجهاد في سبيل الله، ومن هنا توطدت صلته بالبرلسي والبلدة. يومها في صلاة الجمعة وعند الركعة الأولى جاء صابر على تلاوة قوله:

- "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم".

حتى انتهى إلى الآيات:

- "وهبنا له إسحاق ويعقوب كلًا هدينا ونوحًا هدينا من قبلُ ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين".

فصار يَسْعُل مصطفى البرلسي كلما ذكر صابر اسم واحد من الرسل والأنبياء، حتى ظنَّ صابر أنه أخطأ، فعجَّل بالركوع، وفي الركعة الآخرى، ختم بسورة الأعلى:

- "إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى".

فزاد سُعال مصطفى البرلسي، وصمت صابر فترة ليست بقصيرة، بينما استمر السُّعال والنحنحات تصدر عن البُرلسي.

- "الله أكبر". ركع صابر.

حين انتهى من التسليمة الأخيرة، انفجر فيه البرلسي ينعته بأقذع الشتائم وأفدحها، وطفق يضربه بكل ما يقابله من أحذية وقباقيب، حتى أدماه، ولا يُعرف السبب، وظنَّ بعضهم أن الأفيون الذي يمضغه البرلسي ربما سبب له لوثة ما. وحين هدأت ثورته، وحاول الرجال معرفة أسباب هياجه، أخبرهم بأنه حين بدأ "صابر" - كاتب الحلقة - يسرد أسماء الحضور وأولادهم من أمثال التاجر إبراهيم الإسكندراني وولديه سليمان ونوح، وكذلك القائد موسى وولده داود، أخذ ينبه صابر إلى اسمه لعله نَسِيَ أنه صاحب المسجد ومن بناه، ولما تكرر النسيان في الركعة الأخرى، فاكتفى بذكر إبراهيم وموسى دون ذكره - وهما لم يشاركا في بناء المسجد - استشاط غضبًا:

- "لقد تركته في الركعة الأولى حين أغفل ذكري مع من أنعم الله عليهم؛ فأنا لست فقيرًا، وفي الركعة الأخرى كنت أقف ما بين الاثنين، إبراهيم وموسى؛ فكيف تسنّى له أن ينساني هذا الناكر للجميل؟!". تساءل البرلسي غاضبًا.

عاتبوه لذلك، فحكى لهم صابر من معجزات أصحاب تلك الأسماء من الرسل والأنبياء، وأن لاعلاقة لما يعتقده الحاج مصطفى البرلسي بما قرأ، ومن يومها تحول صابر إلى "مفتي الصيادين" في الدين وكل شيء، فلا أحد من قبله في البلدة عرف عن معجزات هؤلاء الأنبياء والذين أسماهم للبلدة.

- "هم أولو العزم من الرسل". قال صابر.

حتى إن شعلان نفسه غار منه ومن عِلمه الواسع - على حد وصفهم - حين طلبوه أن يخطب البلدة كلها في جمعة عيد مولد المهدي، بل راح يسخر من بشرته السمراء، ويتهمه بأنه من هؤلاء العبيد الآبقين كأبيه.

- "إنما هو عبد ابن عبد. يتلو القرآن كأنه موال يغنيه. سحنته كالغراب ستجر الهلاك على البلدة كلها". قال شعلان متميزًا غيظًا.
- "أول من علّم الإنسان كان غُرابًا ريشه أسود". أخبر صابر الصيادين بعد صلاةِ عصرٍ ما.

بعدها بات الجميع يسمع أم صابر تفاخر بكونه تعلم على يد أحد تلاميذ القنائي العارف بالله في بلدهم قنا بصعيد مصر، وتكثر من حكي رؤياه في المنام للعارف بالله القنائي وتبشيره له بالخير. ومن العدل أن أذكر واقعة حكاها لي يومًا عن الشعالوة وأصلهم ونوادرهم، وذلك متى أتيح المقام، وفيها ربما أفهم سر العداوة بين الشعالوة وبني صابر، وكيف لا يقبل الشعالوة علم صابر، ولا يؤمن آل صابر بمشيخة الشعالوة.

- "في بلدتنا تنشأ العداوات وتكبر، ولا يُعرف السبب". قال أبي.
- "وماذا عن المحبة والوُدِّ، ألا يكبر أو يزيد يا أبي؟!". سألت أبي.

* * *

بالعودة إلى مريانة وطفلها، فقد كانت الحادثة التي جعلت من صابر مفتيًا للصيادين، هي ما حدا بهم يتنادون عليه ليفسر لهم ما تحكيه مريانة، ويكشف بعلمه ورأيه في هذا الأمر وأمر الرضيع؛ فهو الوحيد المؤهل لفك شفرات لسان الخالة مريانة؛ فمجتمع الصيادين هناك يؤمن بما توارثته أجيالهم، وتعي حكمتهم الدرس الذي تعلمه النبي موسى، في رحلته مع العبد الصالح حين حكى حكايتهما صابر.

- "من يعلم يعلُ على من يعبد". قال شيخ الصيادين يومها.

استمع لها صابر جيدًا، وأرهف السمع. أنصت إلى الأحرف والحركات. كانت تحاول أن تشرح له، بأن ذاك الطفلَ عطيةٌ من رُوح البحيرة المهيبة لها، عوضًا عمَّنْ فقدت. لم يفهم ما تريد، فأنصت أخرى إلى مخارج ألفاظها حين نطقت.

- "التان.. كا... لي". تلفظت مريانة.

تابعت إشاراتها نحو البرية، جهة مقام الشيخ عابدين القابع بالطرف الآخرِ من البحيرة، لكن عبقرية صابر تفتقت عن هذا الفهم لما تقول.

- "آآآخ... فهمت.. اسم الرضيع هو السنجاري". صاح صابر فرحًا بفهمه.

وأخبرهم بأنها تريد القول بأن طفلها يُدْعَى "السنجاري"، وهو اختصار لروح البحيرة المهيبة وساكنيها العِظام، وأنها تُسميه "السنجاري" تيمنًا بأكلة الصيادين المشهورة في المنطقة كلها. وكما روى لي أبي أن ما فاق عجيب حكاية مريانة والرضيع، هو تصديقهم لهذا التفسير من فهم وأقوال صابر هذا اليوم.

واستطرد بأنَّ صابر قد صار متحدثًا باسم البلدة، وبأنه لما مرت الأيام وماتت مريانة بعد بضع سنين، واختفى السنجاري من البلدة طفلًا في السابعة، من دون أن يُعرَف

كيف؟ أو إلى أين ذهب؟ البعض يقول بأنه غرق في البحيرة، وآخرون يقولون ربما قتلته الذئاب في البرية، أو اختطفته الجن في الكوم الأحمر حين سبح إلى هناك في يوم نفرتهم التي يخشاها الصيادون كل عام. مرت بعدها سنوات قبل أن يقسم صابر بأنه يراه يعبر فوق الماء ليلًا سائرًا يرعى أسراب البوري والسقساق، ويسوق ترزينة من بُلطي "القريصة" تسبح أمامه، فاتهموا عقل وعين صابر بالبوار.

- "مسكين صابر، كلما تحبل زوجته، تسقط حملها، فجُنَّ الرجل".

وأشاعوا بأن أرواح البرية سلبت صابر عقله لمبيته في ليالي الشتاء وحده بحلقة السمك، بل عادوا للتمحيص في أصل السنجاري الذي مرَّ على ظهوره بينهم ما يقارب العشرين عامًا، منذ ظهر أول مرة في البرية مع مريانة، فاجتهد البعض في تكهناته، وغالوا في التفسيرات:

- "السنجاري ملك كريم من روح البحيرة المهيبة". قال مُفسِّر منهم.
- "أُجزم بأنه ابن الشيخ عابدين ذاته، الذي تحكي عنه الأساطير بأنه ثمرة زواجه بعروس البحرالمالح الكبير بحر الإسكندرية". فسَّر ثانٍ.
- "السنجاري ابن الجن الذين حفروا البركة السابعة في بحيرتنا، وقد خلَّفوه وراءهم قبل أن يرحلوا، ولأنه من الجنِّ فلم يمت، وعاش يطعم أسماك و"أفراخ الأرز" في البرية لآلاف السنين، حتى قابل مريانة في الحرش". قال ثالث.

لكن صابر استمر خمس سنوات يذكر حديثه عن رؤيته للسنجاري، ثم بدأ يبشر بقدومه، ويؤكد أنه سيعود سيدًا كاملًا إلى البلدة، لا يشتهي من نساء الفلاحين الذين اتهموا أمَّه بالبِغاء، وسيعيد العدل إلى البرِّية و الدنيا كلها. كذلك لن تشغله بنات الصيادين الجميلات من صاحبات الجدائل الطويلة الكثَّة؛ فقد تزوج "بهلة" أجمل جنية في البحيرة كلها، ابنة الشيخ عابدين الجميلة التي لا تموت إلّا حين تجف بحيرتنا للأبد. نصفها بشري ونصفها من الجن، وهي تتشكل في تلك البلطية الجميلة التي تسبح جواره

حين يراه سائرًا فوق صفحة البحيرة في منتصف الليالي. قال بأنه سيعود وسيعطي صابر من نورهِ مالا ينبغي لأحدٍ من أهل البلدة، ولن يحكم في البحيرة بعد ظهوره سواه. سيعود فوق البغلة المباركة التي نالت من شعاع النور الذي مسَّها يوم قابلت مريانة الشيخ عابدين في الحرش على طرف البحيرة. سيعود بخرج مريانة وسيوزع الحلوى على أطفال البلدة، لكن وحدهم أطفال الصيادين ممن آووا مريانة وصدقوها من سيعرفون لذة طعوم حلواه، وسيُحرمها أولاد الفلاحين والشعالوة ممن افتروا على أمه قديمًا، وأنه قبل ظهوره ستسبقه علامات واضحة.

- "بهلة تلك التي رآها جدك لليلتين، فأحبها، وأحبته". قال لي أبي مرة غير مقتنعٍ بالرواية.

في عامهم ذاك حين فاض النيل، وأغرق العديد من أراضي الفلاحين، وغرقت بقرة الشعلان في بئر الساقية، صاح صابر في البلدة، يبشر بانجلاء العلامات:

- "الزمن الطيب سيجيء.. الوعد الحق اقترب". صاح صابر من فوق سطح حلقة السمك.

ماجت البلدة، وانتظرت عودته المزعومة، ما بين مصدِّق ومشكك في روايات بشارة صابر ورؤياه كلها، لكنها ما جاءت. تزامن ذلك مع إجهاض زوجته لمرة جديدة، فهام صابر على وجهه في البرية، يسأل العصافير عنه، حتى قيل إنهم رأوه يحادث أسراب الطوبار المتجمع في صفحة الماء على ضوء "روّاش الحلقة" في ليالي الصيف، حيث يبيت في الحلقة التي استغنت عن كل خدماته، لكنها لم تمنعه من المبيت فيها أو أن يخطب ويؤم الناس في مسجدها للصلاة. حتى كانت ليلة من ليالي الصيف الحارة، والزائرون لضريح المهدي أخذوا في التوافد، فالليلة الكبيرة بعد غدٍ، فإذا بصابر يعتلي مئذنة المسجد، وينادي في الناس بصوت طليق:

- "يا معشر الحُجّاج.. أخبروا سيدي السنجاري أن يأتي، ويُحْضِر الزمن الطيب معه،

وأن الحُزن تملك قلب صابر كما تقدر على قلبه الحزن".

يومها أنزلوه بأعجوبة من المئذنة، لكن العُجاب حين عاد الحُجَّاج، وأقسموا أنهم سمعوا صابر يناديهم في ليلة مبيتهم قبيل دخول مكة المكرمة عند المغرب، وأنهم في فجر تلك الليلة ضلت قافلتهم، فرأوا شيخًا مهيبًا يرعى نعاجًا ثلاثًا، وينشد بجلاله للنعاج بكلام البشر من أغاني الحدي التي يعشقها الصيادون في أسمارهم وأفراحهم. ينشدهم دون أن يفتح فمه، فتُصغي لحديه النعاج الثلاث، وتتقافز طربًا، وإلى جواره شابٌّ فتيٌّ حسن الطلعة، يفيض النور من حوله في بردته الخضراء، يناديه "سيدي"، وينشد من حديهم أيضًا ما يحفظون:

أنا بِدِّي أسافر وأزور برزخ عمود الدين..

وأقلع عذاري وأقعد في الحرم مدَّاح..

أديني مدحت النبي..

ومدح النبي مشكور..

كن معنا يارب لوقلنا الكلام مشكور..

وأنه لولاهما لما رُشِدوا إلى ممر مكة المكرمة بأرض الحجاز، ولا اعتمروا ولا حجوا. وفي طريق عودتهم حين توقفوا للتزود بالماء، فانفلتت البعير التي تحمل طعامهم، نادى الحاج عيَّاد السلطاني - وهو من أعيان البلدة الذين منَّ الله عليهم بحج بيته في عامهم هذا - وزعق بصوت هزَّ الجبلَ صداه:

- "أغثنا يا سيدي المهدي يا كبير".

فإذا بالدابة يعود بها سيده "المهدي" بذاته وشخصه، وقد أمسك بعقالها، يأتيهم في الهزع الأخير من الهلاك والليل، ويخبرهم أنهم إن أرادوا الاستعانة، فلا يليق بهم إزعاجه وتعطيله عن عمله في خدمة قوافل حجاج بيت الله، وأنه يتعين عليهم منذ الليلة أن

ينادوا باسم سيد البحيرة الجديد وقطبها المنير "سيدي السنجاري"، ربيب وصهر "سيدي عابدين"، من أرشدهم في طريق الذهاب إلى ممر مكة المكرمة، ذاك الشاب في البردة الموشاة بمخمل الإستبرق الأخضر، من يلازم هذا الذي يرعى الأجنة السَّقْط في صورة النعاج. هكذا تهيأت البلدة فما كانت لتكذِّب الحجاج الذين أقسموا على ذلك، والحجاج في البلدة دومًا غير مكذبين حين يعودون من مكة، حتى إنَّ الحاج "عيَّاد السعدي" عزَّز رواية الحاج "قطب السلطاني" حين روى الواقعة، وأخذ يُعيد دهان بيته من جديد، ويزركش أوسع الحجرات في بيتْه، ولا يقطع عنها مجمرة البخور المكي المبارك، وهكذا عرف البخور إلى بلدتنا طريقًا.

- "هنا سينزل الشيخ ضيفًا على بيتي.. هنا سيبيت سيدنا السنجاري". قالها "قطب السلطاني" بفخر وتقرير.

وأخبر الحاج "عيّاد السعدي" البلدة كلها، بأن الحاجّ "قطب السلطاني" قد أخذ العهد لبيته بإقامة الاحتفال في بيته كل عام، احتفالًا بذكرى هذا اللقاء المقدس في البلد المقدس، وأن مِنْ نسله سيجيء رجلٌ يرى بشعاع النور، ويرعى النعاج الثلاث في طرف البلدة ويحرسها من كل شيطان وجنّ مارد، وسيدفع عن أولاد الصيادين مكر الجنيات، ويمنع خطفهن لقلوب وعقول رجال البلدة، فبات الجميع يغبط البركة التي حطّت آل الحاج "قطب السلطاني"؛ فهو يعود لا كَيَوْم ولدته أمه بريئًا من الذنوب، بل زاده صاحب الفضل هذا التجلي السَّنِيّ بحضرة الأقطاب الأجلاء. لذا لم يكن عجيبًا أن يصعد صابر المئذنة بعدها بعامين بعد أن حبلت زوجه للمرة الرابعة وأوشكت على تخطي الموعد الذي يحدث فيه السقط في كل مرة. كان قد هدأ من تبشيره بقدومه، وأتمت زوجته أشهر حملها الستة الأولى، بعد سقطها في العام الماضي - وفي نفس الموعد من الليلة الكبيرة لمولد المهدي - ومن فوق مئذنة مسجد المهدي العتيقة، أخذ يتصايح ويتقافز حين رأى النور الأخضر، ويشير نحو السماء، وقت انتهى المصلون من صلاة المغرب، وأخذ يتقافز كالملدوغ، وتدور رأسه في دورات كالمجاذيب، تلك الدورات الواسعة

في جو الفراغ من حوله، ويصرخ بصوته كالنفير، يزف البشرى إلى البلدة:

- " جاااء.. جاااء.. جاااء.. النورجاااء.. صاحب النور حضر.. مدااد يا سيدي السنجاري مدااااااد".

ظل يتصايح ويتقافز، ورأسه ترسم دوائرها المفرغة إلا من الحبور والنشوة، فاسترعى انتباه الجميع ممن حضر الليلة الكبيرة لمولد المهدي. ظلَّ على حاله حتى زلت قدمه، فهوى من أعلى المئذنة إلى التلة أسفلها في طرف المقابر، ففزع إليه الجميع بين الصراخ وعويل النساء. كانت نافورة الدم تندفع من رأسه، و تنزف أنفه فتخضب فمه المحطم تمامًا، بينما عظامه قد اخترقت اللحم والجلد في الكوع والفخذ الأيمن، ومبتسمًا بصعوبة غابت في ارتباك صدمة الجميع به، أخذ يشير بسبابته اليسرى إلى أعلى مثل هؤلاء الذين يُصلُّون في قراءتهم للتحيات وتلاوة الشهادة، فنظروا نحو إشارته، فبهرهم النور الذي يغزو السماء ويتقدم نحو البلدة، فبهت الجميع، واستطلع البعض الأمر، وعادوا يخبرون وحالهم بين الفرح والوهم، يسبقهم الحاج "قطب السلطاني".

- "موكب عظيم يأتي من ناحية برية البحيرة وعلى أبواب البلدة.. مداااااد". أعلن الحاج "قطب السلطاني".

فزادت انتفاضات صدره المحطم، وازدادت دفقات الدم الخارج من فمه وأنفه، وضاعت حشرجاته وسط صراخ زوجته التي انتفخت بطنها على غير عادة حملها كل مرة، فأشار إليها بصعوبة، واضعًا سبابته فوق فمه المحطم والمكسو بالدماء، وأشار عليها أن تقترب منه، حيث أسرَّ لها ما لا يعرفه أحد من حولها.

- "هوششششش.. سيد البلد جاء، وسيعطيك من نوره للأبد". أمرها، ثم سكن جسده في هدوء.

انطلقت زغاريد زوجته أمام جثته المسجاة؛ فقد تحققت بشارته لها أنه يولد له وريثه في عام مقدم سيده السنجاري، بعد عشرة أسابيع من دخوله البلدة في يوم مولد

المهدي، والذي سيتوافق مع نهاية رسالته في أرض البشر وعالم الأجساد المقيدة الحركة. انتبهت النساء إلى زغاريد المرأة فاطمة زوج صابر، فجاوبنها بأحسن منها أو رجّعن بمثلها، وعلى عاداتهن في إطلاق الزغاريد من دون سبب متى سمعن جارة تزغرد، حتى إن النساء لم يتكلفن سؤال أنفسهن عن سر فعل فاطمة، بينما زوجها يغرق في الدماء، واكتفين بتكرار ما يفعلنه حسب العادة، فقد كان في الحين يدخل الموكب الجليل البلدة، متقدمًا نحو الحشود، يشع النور القدسي المبارك من حوله. في مقدمته جاء الشيخ السنحاري على بغلة مريانة - التي كانت يومًا عرجاء ضعيفة - متشحًا ببردةٍ خضراءَ تشبه ورقة شجرة اليقطين، تشع النور، مرسل الشعر وفاحمه كالليل، لامعًا كحد السيف، أمرد إلّا من شعيرات طالت في أسفل فكه السفلي، وإلى جواره الشيخ عابدين بذاته، في أول رؤية حقيقية لأهل البلد له، فانشغل الجميع من البلدة والزائرين لمقام المهدي - في ليلة مولده الكبيرة - بمشهد دخول الموكب المقدس إلى البلدة، وما بين البكاء والصراخ والزغاريد، اختلط زيتهم بخلهم بلا وعي. تغشتهم سكينة ربانية من سمت الرضا الأزلي. تحلق البعض حول الحاج "قطب السلطاني"، وتصايحوا في حديهم من ورائه:

- "الله.. الله.. الله.. مدااااد ... الله حي.. السعد جاااااي"

كانت جذوعهم تطوف بلا كلل أو فتور، ترسم هالات من الحضور التام لمعنى الصفاء، وترتبط بمعنى الخلود لا الفناء، ونسوا من بشرّهم بكل ما يعاينونه من الوَلَهِ والسكينة، حتى إنهم تركوا صابر الغارق في دمائه جوار المقابر، وراحوا يراقبون تقدم الموكب الذي توقف قُبالة المهدي تمامًا؛ وكلما تقدم ظلتهم النور الأخضر. نظر هذا الذي يحمل وجهًا يفيض بالخير، من كان كوجه سمكة القريصة المائل بطنها إلى الاخضرار القاتم يوم رأته مريانة. نظر بابتسام نحوهم، وجاء بصوت هو السحرالعظيم، فاشرأبت الأعناق نحوه، وتاقت اللمى إلى لثم سنبك بغلته.

- "الله.. حي". قالها بنغم أسكرهم.

بعدها دار رأسه مغمضًا عينيه، ورافعًا يده اليمنى نحو السماء، وكف يده اليسرى تمتد إلى الأرض حيثما تحرك، فدارت البغلة في حلقات ودار الجمع معها في دائرة النور، وتتابعت آهات الوله والتجلّي، وغشيهم ما يمكن أن يتغشي الأرض حين يلامسها المطر، فتخضر وتمري.

كأن المشهد حين حكاه استدعى زيارتي معها لأهلها في شمال فنلندا، وحين كنا في الغابة سألتني:

- "هلّا تقبلني ثانية يا نور؟". طلبت مني وهي تستند إلى جذع شجرة القضاب حين كنا في زيارة بيتها في الشمال.

قبلتُها، وشبكت أصابعي في أصابعها، وصرنا ندور في دوائر، فدارت أشجار القضاب الفارعة معنا واكتسى عالمي بلون أخضر جميل، وبدأ بيتها والبيتان القريبان منه هناك في الدوران معنا حتى تلاشى كل شيء، فكان لا وجود في العالم غيري واللون الأخضر.

حين توقف السنجاري عن الدوران، تساقط الكثير حوله وحول بغلته وقد زال عنهم كل ألم خبروه يوما، فناداهم:

- "أين صابر؟ أين هذا المريد السعيد؟". سأل الشيخ السنجاري.

هنا ساد لغط، وتداخلت الأصوات، فتقلبوا أمام عينه، تقلُّب الملتاعين شوقًا إلى السكينة والبراءة من كل سوء، بينما فتشت عيناه تبحث عن صابر في الحضور وتناديه من جديد:

- "يا أيها المريد السعيد.. لا خوف ولا حزَن عليك بعد الساعة، أين أنت؟ أَبِنْ يا صابر القلب الطيب!! يا من صدَّقت ببشارتي يوم كذَّب الجميع!! يا من أعطاني الاسم المجيد يوم فسرتَ كلام الأم والحرف العقيم!!". زعق بها.

كان الجمع الغفير مشدوهًا بعذب وسحر الصوت متى تلفظ، بينما جسد صابر المدرج في دمائه مسجى طرف المقابر، فلم يحفلوا بالبحث عنه، أو الإشارة نحو موضع جثته، آملين لعل أن يأخذهم صوت السنجاري من جديد إلى العالم الذي عاينوه متى تكلم، حيث لا خوف ولا رجاء، حيث السكينة المطلقة. تمنوا لو أنه ظل يردد السؤال، فيمكثون الدهر في شعورهم بهذا العالم الرائق من حولهم، لكن اليوم يوم البشارات والأمارات التي لا تنتهي، فإذا بهم يسمعون صوتًا يعرفونه ويميزونه منذ سنوات.. صوتًا ما انفك عن التبشير بقدومه الجليل، صوت صابر الذي اعتلى مئذنة المهدي من جديد، وكأن عقارب الساعة عادت به وحده إلى شبابه أيام نضارته، ويرفع كالديك آذان العشاء كأنهم يسمعون السحر يغشى ما بقِيَ من عقلهم الذي غاب في الملكوت.

- "الله أكبر.. الله أكبر".

يومها بكت البلدة أنهم عاشوا بعد هذا اليوم، وعرف الزائرون لمولد المهدي بأنهم أولو حظوة لكونهم شهدوا المعجزة. وحين تصايحوا عليه، أشار نحو شيخه عابدين الذي تحرك نحو التلة، وفي نفس الموضع الذي تخثرت فيه دماء صابر حيث سقط، ترجل الشيخ عابدين، ثم الشيخ السنجاري عن بغلتيهما، وبلا إرادة من البلدة تحركوا خلفهما، فوقف القطبان جوار بقعة الدماء الكبيرة، ونادى الشيخ عابدين بصوت يشبه أصوات القمريات واليمامات التي تكاثرت تحلق فوق الجمع، تعلو وتهبط:

- "يا أيها الموعود بالسعد.. يا صابر.. يا صاحب الحظ الألمعيّ".

ثم أشار إليه، فحطت القمريات وبعض اليمامات، إلى جوار صابر، ثم طارت به من أعلى المئذنة، وسط الزغاريد والتكبيرات والتسابيح التي صدعت جو السماء، وحطت به إلى ما بين الشيخين القطبين، و ملأت الآهات حناجر الحضور وفضاء التلة في طرف المقابر، وخلف مسجد المهدي، فأشار إليه الشيخ السنجاري، فأتاه يسعى، وانكبَّ يقبل يد الشيخ، فطبع من بركته على جبينه، فنام كما كان إثر سقوطه، وعاد

ينزف الدم من جديد.

- "في نفس البقعة تفوح رائحة المسك حتى الآن". قال أبي.

حين عاد إلى حيث سقوطه، شمله الشيخ السنجاري ببردته الخضراء، والجمع لا يتوقف عن التهليل والتكبير، ووسط طقسهم المعجز هذا، يرفع عابدين القطب ذيل جلبابه، فيبدو شعاع نوره من جديد، هذا الذي أنكروه على مريانة حين أخبرتهم، وأخذ يولجه دبر البغلة التي كان يركبها، فعاد الهرج والمرج، واختلط الناس حابلهم بنابلهم؛ فالمشهد غاية في التناقض، فوسط زخم المعجزات المقدسات، يأتي الشيخ عابدين بهذه الفعلة الشنعاء على الأشهاد، وإلى جوار مسجد وضريح المهدي، فبهت الحضور، وأطبق الصمت، بينما استمر الشيخ عابدين في إيلاج عضوه النوراني في دبر بغلته التي كانت يومًا بغلة مريانة، تحفظ الطريق بين البيوت والحلقة وسط دروب الحرش بالبرية. وقتها تجرأ واحد من الحضور، فعلا صوت سِبابه وإنكاره لما يفعل الشيخ عابدين، فتبدل صوت السحر الذي نادى صابر منذ قليل، وصرخ عليه الشيخ السنجاري بصوتٍ، الرعد شيء من تفاصيله الصغيرة:

- "أنْ يا ملعون أنت وذريتك يا شعلان، يا أخبث بني البشر، تجرؤ!؛ تسب الشيخ القطب!!".

صمت الجميع؛ فالمشهد يزداد غرابة وتعقيدًا، وانكشف عن شعلان الجمعُ الذي احتمى في جرأته بهم، فهمس أحد الفلاحين - زوَّار مقام المهدي - الحاضرين للواقعة بالبلدة، ممن يظنون شعلان شيخًا لا يُشق له غُبار:

- "المشايخ وقعوا في بعضهم البعض.. سلم يا ربّ سلم".

فصابر مات، ثم يحيا، ثم يعود للموت، ويغطيه السنجاري ببردته الخضراء فيشع نورٌ من تحتها، ويناديه السنجاري بصوت هو السحر، لا يناقض صوت عابدين الذي نادى

صابر به، فأنزله طائرًا بين القمريات واليمام من فوق المئذنة حيث تمدد كما كان ينزف، ثم يولج عابدين البغلة قضيبه الذي يشبه شعاع النور، فينكر الحضور فعلته، ويسبه شعلان، فيعرفه السنجاري، ويصيح به بصوت يلقي في قلوبهم الرعب، يفضح خوفهم، وكذب حواسهم:

- "أنتم لا ترون سوى دواخلكم الرجيمة! ماذا تظنون معلمي وشيخي فاعلًا؟ شحًا.. شحًا يا بلدتي إلا من آمن". قال السنجاري.

ثم يشير إلى البغلة التي انتهى منها عابدين وسط الخوف الممتزج بالذهول والعجب والبكاء. تتحرك البغلة. تجلس على أرجلها الأماميه كأنها ناقة تخت، يشير نحو جثة صابر الممددة، فتعود الحياة إليه من جديد، لكن البردة الخضراء تغطيه كاملًا، فيتقدم الشيخ عابدين ويتحدث إلى البغلة، فتضبح مثل عادية تستعد للانطلاق، وتنقر بسنبكها الأرض، ويتتابع ضبحها ويعلو، ثم يربت عليها، ويقترب السنجاري من جثة صابر المتشحة بالبردة الخضراء، ويعود صوته كأنه السحر يهمس من جديد:

- "السلام يا أيها المريد.. السلام أمانة إليهم أجمعين.. السلام إلى العارفين الطامعين والراجين عفو المولى الأمين، قيوم السماوات والأراضين، السلام على أهل الجنة الآمنين، ولا تنسَ الخالة مريانة صاحبة الوعد المتين".

فيهزّ جسدُ صابر المغطى تمامًا بالبردة الخضراء رأسَه بالإيجاب، وينحني مقبلًا يد السنجاري، فيسحبها، ويطبطب عليه، ثم يعتلي صابر ظهر البغلة، والنور الأخضر يفيض من تحت البردة فينشر طحلب السكون على المقابر من حولهم، بينما انشغل الشيخ عابدين يهمس في أذن البغلة بعدما اعتلاها جسد صابر، فيعلو ضَبْحُها من جديد، فيعود القطب عابدين إلى دبرها، يخرج ريشة من فضة من بين وشاحه، يستخدمها كمخراز، فيهمز البغلة بها، فتنهض وتدك الأرض بسنبكيها من جديد، وفجأة كأنها الريح تنطلق، والجميع يتراجع أمامها، لكنها لفرط سرعتها - وقبل أن

تخترق الجمع المذهول - ينسكب النور من بردة صابر كأنه النيل يجري، فتضربه سنابك البغلة، فتشتعل طاقات عظيمة من النور حولها، وتكاد تخطف الأبصار لشدتها، فيرى الجميع جناحين من نور فضي يبرزان في جانبي البغلة، وتبدأ في التحليق الوئيد، فتدور حول الجمع الحضور دورة أو دورتين فوق الجميع، بينما عابدين الذي مازال ممسكًا بالريشة الفضية، إذا به ينفضها فيحولها سوطًا من لجين، يمسك به في يده، فيضرب به الهواء ضربة كأنها الرعد، فتتململ البغلة في الهواء ثم تحط على الأرض في سلام كما القمريات واليمامات، ويضرب بالسوط من جديد، فينبت لها جناحان رائعان آخران يكبران الجناحَين الأولين اللذين رآهما الجمع ينبتان من النور، وترفرف بأجنحتها الأربعة، فيضرب بالسوط الفضي يستحثها، ويضرب من جديد فيتناثر السوط من يده خلف البغلة التي طارت إلى بعيد، فتتبعها شظايا السوط الفضي، وقد تحولت إلى نجمات سبع، تعلو حتى تتلألأ في السماء، وتظل إلى آخر العمر تظهر هذه النجمات السبع في سماء البلدة، وفوق برية البحيرة في نفس اليوم من كل عام.. هذا اليوم الذي سمعت فيه البلدة كلها من السماء صوت صابر الذي عرفوه وخبروه من قبل حين بشرهم وكذّبوه، وتبقى إلى الأبد تدلّهم في ليلهم إلى بلدتهم، ولا يراها إلّا ولد الصيادين، ومحرم رؤيتها على أولاد الفلاحين أو المعممين من بني شعلان ذي الأصل الرجيم:

- "أنا من يموت ويحيا بأثر النور وفضل الكريم". قالها لهم صابر يومًا، فكذبوه.

علت الزغاريد من جديد، ما بين مكذِّب لما يرى وبين مصدِّق لا يملك من الأمر ناقة ولاجمل. يومها أعطى الشيخ السنجاري للحاج "قطب السلطاني" ما وعده من البركة والحظوة، وتناثرت الكرامات على الحضور من الجمع السعيد، فهذا يُشفي ولده الضرير، وتلك تُبشر بالولد، وهذا يُقضى دينُه، وباتوا كلهم في جنة أحلامهم التي وعدهم بها الشيخ، إلا شعلان وحده الذي طاشت أحلامه فظل وكل بنيه من بعده يرزحون في اللعنة التي ألقاها عليه الشيخ السنجاري يومها، فحرمت على آل بيته إلا من رحم رب السماء والأرض من بني الشعالوة، حيث يأتي ولدٌ من صُلبه خرفًا وبه كشفٌ

عظيم، ويحمل من الخير اسمًا، محبوبًا بين البلدة ومكروهًا في آل شعلان أنفسهم، ذاك المدخر كآخر الفرص لبني الشعالوة في التوبة عن إثم جدهم شعلان الأول شرط أن يصدقوه متى ظهر لهم، حين يكونون قد تحولوا إلى فلاحين يهابون البحيرة وحرشها العظيم، يركنون للتسليم في كل حين، ويخافوا تصديق كل من دعاهم يومًا إلى الثورة ضد الظلم أو التغيير.

- "في بلدتنا نثق في ماضينا والغيب كثيرًا". علّق أبي.
- "وحاضركم.. أليس هو الأولى بثقتكم تلك؟!". سألت أبي.

* * *

لا أعرف - بعد أن حكى لي- وصف الشعور الذي تملكني، ولا كم الأحلام السعيدة التي راودتني ليلتها في منامي، لكني لأفهم، هل ما حدثني به حقيقة أم أسطورة يحكيها القدماء؟ فبعدها ظل يتردد في أذني قول السنحاري لهم، حين سبَّ شعلان القطب عابدين، وأنكر فعلته مع البغلة المباركة، ولم أتخلص من قوله بسهولة، ولا أعرف كيف توقف، ولا متى يعاود الظهور من جديد. يرن في أذني كل عام في نفس الموعد ليلة مولد المهدي في منتصف شهر يوليو:

- "ترون في شيخي ما في دواخلكم الرجيمة، فخلصوها واصبروا كما فعل صابر، فنال الأجر والثواب".

قبل عام بينما كنت في شمال كيرونا في مركز تحكم إطلاق الصواريخ التجريبية حيث انتقلت للعمل هناك، تلقيت اتصالًا من "هنري" - الذي يعمل في محطة الاتصال الفضائي - يخبرني بطرده من العمل. ساعتها اجتهدت للتخفيف عنه، وانتهينا إلى اللقاء في ليلة السبت في بارنا المعتاد وسط كيرونا. في البار ظل يعب من الفودكا

وزجاجات نبيذ. حين تخطى الوقت منتصف الليل عرض عليَّ جولة بالسيارة في الطرق إلى الشمال حيث منطقة المناجم، وجبلها المدرج. تحركنا بالسيارة بهدوء نتمتع بجمال الشمس التي لا يغيب نورها في مثل تلك الليالي، صعدنا الجبل وكنا قد أنهينا زجاجاتٍ أربعًا من الڤودكا أحضرها معه حيث توقفنا لأكثر من مرة لنستمتع بهذا الليل المنير. كنا كمن يكتشف مناخ كيرونا لأول مرة، وكنا قد وصلنا إلى درجة من السكر لم نصلها من قبل. أوقفنا السيارة قرب المنجم القديم، وبدأنا الصعود باتجاه قاعدةِ هوائي الإرسال في أعلى الجبل. في القمة نظرنا إلى كيرونا القديمة التي تلاشت معالمها إلا القليل، وتحدثنا عن خوفنا من تلاشي ذكرياتها من قلوبنا وعقولنا.

- "متى نَسِيَ الكيرونيون الجدد كيرونا القديمة، لحظتها ستموت للأبد ذكرياتنا هناك". قلت بهدوء، ثم صمت.

قطع صمتنا وتأملنا للمنظر الرائع من أعلى قمة الجبل، جملة هنري:

- "هيا معي، سأذكرهم بكيرونا القديمة، وسنرى إلى أي مدى أفلحت عشر سنوات في محو كيرونا القديمة، هيا نذكرهم بها يا رجل". قال هنري بحماس.

أحب تسميته ووصفه بعبقري الاتصالات وبرامج الاتصالات الطيفية المجسمة. أعرف كيف يمكن لمجنون مثله أن يغير شكل العالم متى انطلقت أفكاره، لكن لأول مرة لا أخاف جنونه، فطاوعته وتحركنا باتجاه قاعدة الإرسال والهوائي المنتصب. بدأ هنري بالعبث في أزرار ساعته الرقمية، مرت دقائق دون أن أفهم ما يفعله.

- "إذن؛ ليرَ كل سكان كيرونا الجديدة مدينتنا القديمة التي قتلها المنجم.. استمتعوا بليلة السبت أيها العالم". قالها هنري، وجلجل يضحك.

كان قد أعد مجسمًا طيفيًّا لكيرونا القديمة بصورها وأماكنها، وكل ما يعرفه عنها أهلها القُدامى، وبدأ في بثه إلى كل الأجهزة التي يمكنها تلقي بثّ فضائيٍّ في محيط

كيرونا الجديدة والجبل.

- "لا تموت الأماكن يا نور ولا تشيخ إلا بموت ذاكرتنا". قال أبي مرة.

في الليالي الأخيرة من شهر يوليو من كل عام تأتي ذكرى مولد المهدي، ومنذ حادثة صابر والشيخ عابدين والشيخ السنجاري، تعودت نساء البلدة أن يطلقن البخور في بيوتهن، فيعبقنها بتلك الرائحة التي أحبها الشيخ عابدين، فيأتيهن كلما تصفو نواياهن، فيفيض على أرحامهن ويطوف عليهن بشعاع نوره المبارك، ويخلفُ قبسًا من أثر كراماته، فتفيض بيوت البلدة بصرخات المواليد الجديدة كل عام، فأحببن كلهن شعاع نوره، وأخذن من فيوض كراماته السنية، فنال ذرياتهن بركة مقدسة وحين مبارك أينما حلَّ في ذُكرانهن أو إناثهن، من أجنتهن التي فاضت الأرحام بها، فأخذت تنمو البلدة يومًا وراء الآخر حتى كانت ما عليه الآن.

بَقِيَ أن أختم هنا بمثل ما كان يختم به معي كلما حكى الحكاية:

- "جدنا الأول هو هذا الذي ركب البغلة في بردة السنجاري، فنحن أبناء عائلة صابر، هذه العائلة التي صارت مباركة أينما حلت، فسلام على صابر ووالديه، وكل آله المباركين الذين عادت أصولهم إلى هذا النسب الجعفري الشريف الذي حملوه معهم من أرض الجزيرة إلى جوار مقام القنائي في صعيد مصر بقنا، حتى استوطنوا بلدتنا هذه، وسلام على النور الأخضر وصاحبه ومن استرضعته أمه النور من ثديها فحملناه في دواخلنا إلى الآخرين". قال أبي.

هكذا كانت بداية عائلتنا في البلدة، فجدنا ولد صابر الذي تركه في رحم أمه ورحل على بغلته في برده الأخضر نحو السماء، ووضعته أمه يتيمًا بعد سبعين يومًا بالتمام، واكتفت القرية بمجرد ضريح خشبي في طرف تلة المقابر، يزوره الجميع من كل صوب وحدب؛ فهو بقعة مباركة بفعل القطبين عابدين والسنجاري، ونفس البقعة التي تجلت فيها بغلة لجدك بحقيقتها لأول مرة حين كان يزور الصالحين في ليلة مولد سيد النور

"سيدي السنجاري" حين نذر النوم سبع ليال هناك متى يهزم الله أحزاب اليهود والفرنسيس والإنجليز في سيناء وبورسعيد وكان ذلك في القرن الماضي من العام ١٩٥٦.

- "تحفظ قلوبنا خرائط أعمارنا ونستفتيها يا ولدي". قال أبي.

- "ألا تثقون في العقل، وتستفتونه يا رجل؟!!" سألت أبي.

الفصل السادس

القطب

اسعَ وصلِّ.. ع النبيّ
ع النبي صلِّ.. ع النبيّ
يا رب حنن.. والنبيّ
رزق لعيالنا.. يا نبيّ
البحر عالي.. يا نبيّ
صوتنا أعلى.. يانبيّ
بالصلاة تحلى.. ع النبيّ
اسعَ وصلِّ.. ع النبيّ

أعرف أنني مختارة، لا أملك من أمري شيئًا، لكنها روحي التي تتوق للخروج من هذا الجسد هي ما تدفعني بما رأت وعرفت، وبما ورثت من النور الذي صار قدرًا لا يغالب، ولا يدفعه تخطيط أو احتياط. كيف ستحتملين يا ابنتي تكرار الحكاية؟! أم تراها ستبني لنفسها أسطورة نور جديدة، تعرف فيها كيف تعلّم صغارها الذين يحملون منها مثلما حملنا عن آبائنا النور، تعلمهم أن يتعلموا حب الذي سكنهم، وتقدير من اصطفاهم، وكيف يعودون كلما ابتعدوا، وألّا يحيدوا أبدًا عن معنى النور فينا. هيا يا ابن أختي اقرأ ما شاء للنور أن يتحلق في هالة مقدسة فوقها حيث تنام، وحيث كان العهد بالولاية بين امرأتين، كلتاهما أخذت من النور نصيبًا. هيا.. هيا أيها السرّ ترفق نحو نومها برفق. وأنتم أيها الواقفون هناك على أبواب محبسي هنا، لم يعد يشغلني سرّ وقوفكم ولا صمتكم العجيب الآن، فلا تشغلوني عن مراقبتها في نومها، حيث تُصغي روحها إلى قراءة ابن أختي، فيتعلم قلبها ويأخذ من حكايتنا نصيبه.

حين يحكي، كانت حالة من الإجلال الخفي تتلبسه، فتضبطه في احترام تام لكل هؤلاء الشخوص الذين أبهجوا أيام العائلة، أو شبابها على وجه الخصوصية. تلك الأيام الخوالي التي جمعتهم في بيتهم – بيتنا – قبل موت الجدة لديغة بسم أفعى. تلك الحادثة التي يؤمنون بأن زوج الحاج بركة – عمي الأكبر – دبَّرتها، والتي لا أفلح في تذكر اسمها الحقيقي، ولا أعرف السبب، لكن أعرف أنها تنتمي إلى بيت الشعالوة هناك، فقط يؤمنون بأنها استخدمت سحرًا خاصًّا لتفرِّق شمل الجميع، ويجعلون من الورقة التي وجدتها الجدة ومكتوبة باللون الأحمر شاهدهم الوحيد، وبه أفلحت أن تقتلع مئذنة مسبحة العائلة التي تضمن بقاء الحبات في خيط واحد، فما إن أفلحتْ في سرقة هذه المئذنة، حتى تهاوت حبات مسبحتهم واحدة تلو الأخرى. وعلى الدوام حاولت أن أتفهم كيف لهم أن يبنوا حياة كاملة من العداء على مجرد اعتقاداتهم التي ربما طالها الوهم والخرافة في الكثير. كان يكتفي بالإشارة إلى قلبه.

- "مادام هذا لم يأنس، فلن يأنس الجسد كله يا نور". كان يعلل.

لعل ذلك كان أعجب ما كان منهم؛ ففي كل حكاياته لم يأت على ذكرها إلا نادرًا، وكأنهم حكموا عليها ألا يُذكر اسمها صراحة في أحاديثهم، وكأن الإشارة إليها تكفيهم.

- "في بلدتنا نتحمل شوك الورد متى كنا نحب الورد ذاته". قال أبي.

هكذا عرفتهم يتذكرون في حكاياتهم ومحادثاتهم ولقاءاتهم المتكررة والمثبتة بالتواريخ في دفاتر مذكراتهم التي ورثناها عنهم – نحن الأبناء – يتذكرون هؤلاء الذين أبهجوا طفولتهم بالحكايات الجميلة وماضي البلدة العجيب، هؤلاء الذين رأوا رجلًا مارس الجنس بصحبة بغلة على الأشهاد. رأوه قطبًا مباركًا، وصاحب كرامات، بل يغالون في الاحتفال بهذه البغلة في كل حكاياتهم التي نسجوها عنها، وأورثوها عقيدة خالصة لأبناء البلدة وحدهم، كأنها حظوة تمتعوا بها دون غيرهم. وبالغوا حين أخبروا بأن بغلة

السنجاري تمر في الليل الساكن على باب صاحب الوعد، تضبح أمام بابه، فإذا خرج إليها بما يرضيها من طعام البهائم، تركت له حملين من الخير بما لا يوصف من الأنعم، وقليلون من أسعدهم حظهم ونالوا شرف زيارة البغلة المباركة تلك في بلدتنا.

أعرف كوني امتدادًا لهم، أبتهج بحكاياتهم كلما قصَّها على مسامعي ولو بغرض التسلية وتمضية الوقت، وأذكر أمي حين كانت تسمع هذه الحكاية، وكيف تعجبت وتساءلت عن الكيفية التي تقنع بها النساء أنْ تتعرّى في ظلام البرية المتاخمة للمقابر، اعتقادًا منهن أن سيِّدَ شعاع النور سيأتيهن، ويتجلى على أرحامهن بشعاع نوره المقدس، فيشفي عقمهن، ويزور كل من باعدت بين ساقيها في ذات ليلتها، ليخلف لها أثرًا من فيض نوره المبارك، فترى النساء بالأحمال التي تنوء بها بيوتاتهم الصغيرة، فيضربن في الأرض وينشرن نوره الجليل في برِّ مصر، وما سواه من بلاد الله التي يوجد بها خلق الله من هؤلاء المحظوظين الذين يتقابلون مع أحد هؤلاء الأبناء الذين حملوا الجين المقدس عبر أجيالهم، فيأتي اليوم ويحكون عن سيد المكان وتلميذه. يحكون أسطورة القطبين؛ فهما صاحبا العقد والحل في هذه المنطقة، فلا يكاد يخلو من ذكرهما بلدٌ وَطِئَه قدمٌ لابنٍ من أبناء البلدة؛ فأينما توجهوا، فثم وجه أو أكثر من حكاياتهم تدفع بهم إلى حكي سيرة القطبين الجليلين "عابدين" و"السنجاري"، هذين اللذين لا يجزم أحدٌ بموتهما في البلدة، رغم وجود ضريحين موسومين بعلامات غير مفهومة، وعلى جدرانهما كتب بحروف جصية بارزة ورائعة:

– "هنا رقد جسد الإنسان، لكن الروح لا تنام".

وعبارة تثير الحيرة في أيهما صاحب القبر الأول؛ فالعبارة على القبرين تقول:

– "عابدين أو السنجاري، كلاهما عبد من العبادِ".

حتى أبي نفسه لم يجب أمي وقتها، ولا استطاع أن يحدد القبرين ومن بداخلهما، فقد أكد لي:

- "لا مخلوق في البلدة يعرف من دُفِنَ في هذين القبرين، وإن كانا لهما، فلا يمكن تحديد قبر لأي منهما!"

البلدة تكتفي بأن القبرين يحل في داخلهما كنز من البركة الأبدية، التي تُشع على البلدة بين الحين والآخر.

- "في حرب النكسة١٩٦٧، يقولون بأن الأضرحة حمت البلدة من قنابل طائرات اليهود". قال أبي.
- "وهل يحمي الأموات في بلدكم الأحياء يا أبي؟". سألت أبي.

* * *

غشيتني رائحة البخور التي أطلقتها عمتي إشراق في البيت، فأخبرتهم بأن والدي تعوَّد أن يطلق أعواد البخور في أمسيات عديدة، واستحضرت مقولته:

- "دخان البخور يزيد الألفة بالمكان، كلما زاد زادت الرغبة في السكن والهدوء".

لعلني هنا أخالف ما كان ينصحني به على الدوام.

- "إياك أن تقوم بالتحليل الشخصي للمواقف حين تدوين المذكرات". نصحني أبي.

لذا أعتقده أراد توثيق علاقته بمدينة "كيرونا القديمة"؛ فحين أغرقها في دخان بخوره، تعوَّد أن يفلسف أفعاله التي تناقض حاضر وواقع مدينتنا القديمة في شمال الكرة الأرضية.

- "أنا ابن صيادين، نحبُّ البحر والماء، ولا نحب الثلج والبرد، كلاهما في بلدتنا يقتل السمك". قال أبي.

هكذا حاول أن يخلق صلةً ما تربطه بالأماكن هنا حيث جبال الثلج والبحيرات، ولون الربيع الأخضر، فأكثرَ إشعالَ أعوادِ البخور التي تحمله إلى البلدة فوق سحابات

دخانها، أو تحمل الذكريات إليه حين تنعش الأبخرة ذاكرته، فتحضر البلدة بحالها، وتتلبس كل زوايا "كيرونا القديمة" وشوارعها الجميلة وأبنيتها الهرمية السطح. جدتي- هي الأخرى - أحبت أعواد بخوره خلاف عادة السويديين، عوَّدها أن يهديها أعواد البخور الشرقي كلما كنا نزورها فبيتها باستكهولم. في واحدةٍ من زياراتنا لها، أشعلت أعواد البخور التي جعلت رائحة الصندل الزكية تعبق البيت كله، فشعرت ساعتها بحالة من الرضا التام عن كل شيء، لتبدأ قصة حبي - أنا الآخر - مع أعواد البخور الشرقي، يومها استنشقت جدتي على فترات كما لو كانت تبحثُ عن شيء خاص. تتالت الشهقات ثم لحظات احتبست الهواء داخل رئتيها، ثم أغمضت عينيها وشهقت الهواء بنسبة أكبر وأطول هذه المرة، ثم أمالت رأسها إلى الخلف في هدوء، وتركت عضلات رقبتها تتحرك بفطرتها، فمالت نحو اليسار جمجمتها، ثم أطلقت ما يشبه الصرخة المكتومة، والمصحوبة برعشة الانتشاء.

- "ohhh!".

كانت مشبعة بالانتعاش الواضح، ثم أردفت بسويديتها الرقيقة تهمس:

- "vad är det fint!".

ألقت بنفسها فوق المقعد القريب خوفًا ألّا تتحمل ساقاها هذا الخدر اللذيذ، وما تملكها من إحساس بالانتعاش الذي سببه العطر المدَخَّن حال جلوسنا، وأغمضت عينيها مرة أخرى، وهمست لنا:

- "كم هي عبقرية أشجاركم يا حسن.. هذه أعواد سحرية".

فابتسمت أمي وتقدمت بإعجاب نحو مقعده، وطوقته من الخلف، فأمسك بذراعيها وقبَّلَ ظاهر يدها، ثم تركت قبلةً - هي الحب - بين خصلات شعره الطويل، وقالت بانتصار:

- "حبيبي هو أطول فرع في شجر الشرق، وأجمل عطر فيه".

ثم نظرتْ نحو جدتي، وقالت:

- "ماما.. أحب رجل البخور، هذا الشرقي، فاشهدي، وأنتما يا ولدينا".

الآن أظنني من هنا فقط، عرفت سر صداقة "ليلي" و" آغ مسعود"؛ فهو الآخر يعشق إطلاق البخور في البيت.

- "في بلدتنا لكل شيء نكهته ورائحته المميزة". قال أبي.
- "ألا توجد في البلدان الأخرى نكهاتها الخاصة يا رجل؟!!". سألت أبي.

* * *

نادت عمتي"محسن الديك"، الذي جاء معنا، وحين اقتربنا، أمرته في تصنُّعٍ جليٍّ لدور الخبير، حيثُ تبدلت ملامح صوتها، ثم أمسكت شحمة أذنه:

- "إن لم تكف عن سخافاتك معهم، سأُضطر أن أعاقبك بنفسي، أفهمت؟". جعلت تنهره.

ابتسم "محسن الديك"، ونظر نحونا وكأن خشوع العالم ينبع من بين حاجبيه:

- "أنا آسف يا حاجة، لن أكرر ذلك، وأعدك أمام الشباب وفي حجرة للشباب بذلك". قالها بتصنع بيِّن.

ابتسم حميد وفاروق، بينما انشغل بتقبيل يدها، وجعل يكرر:

- "عَفَوْنَا عنهم جميعًا لأجلك يا شوشو".

قبَّلَ يدها من جديد:

- "أنتِ تأمرين.. وكلنا ننفذ يا سيدة الكل".

ساعتها لم يتمالك حميد نفسه فصاح:

- "أفّاق كبير".
- "خسرك المسرح العالمي أيها الممثل القدير". أضاف فاروق.

مطّ "محسن الديك" شفتيه مضمومتين نحو الأمام، وأغمض عينيه، وفي حركة مسرحية انحنى كمن يقدم تحية الجمهور في أواخر القرن الماضي كما اشتهر، وحين رفع رأسه غمزت إليّ عينه اليمنى، فلم أفهم ما يريد. تابع حديثه نحوها بنفس درجة الخشوع العجيب الذي تلبسته فجأة أمام عمتنا، ابتسم، ثم أمال رأسه نحو اليمين قليلًا، وأضاف في تصنعه وقارًا جمًّا، وخشوعًا مبالغًا فيه:

- "أترين يا سيدة الدنيا، هذان الولدان يجتهدان لإفساد عَلاقتنا الوطيدة، فلتأكلهما نار الغيرة".

لم أتمالك نفسي وابتسمت، حين تخيلته على خشبة مسرح، ويؤدي دور الابن البار. كان الأداء رائعًا ومتقنًا للغاية، ورغم كثرة التشخيص في حركات يديه كلما تكلم، استمتعت بمراقبتهم ورصد ردود أفعالهم، وحسدتهم على روحهم المتفائلة، وعجِبتُ كيف أفلح الحزن في الولوج إلى كيان العائلة التي تنجب هؤلاء الأولاد من خفيفي الظل أمثال "محسن الديك"، ولباقة فاروق، وشجاعة حميد. تساءلتُ عن مصدر قوتهم التي تجعلهم يسخرون من كل الأسى الذي انطبعت ملامحه على الجدران، وفوق عدسات عوينات الكبار ممن رأيتهم حتى الآن؟ ومن زرع داخل عمتي بأن لأعواد البخور قدرتها العجيبة على محو جبال الهموم عن عتبات دارهم، وكيف لها أن تخفف عنهم؟!

- "يقول أهل بلدتنا بأن كثرة الضحك تُميت القلب". قال أبي.
- "إذن، فالحزن تحيا به القلوب؟!". سألت أبي.

أذكر يومًا في "كيرونا الجديدة"، وقبل أن يختفي بكثير، كنتُ أزوره في الفترة التي ألزمه فيها الأطباء البقاء في المستشفى، رأيته فتألمتُ لحاله، وأوشكت أمي على البكاء حين دخلت الحجرة القابع فيها. نظر نحوها بابتسام عجيب تناقض مع مرضه واكتئابه الحاد الذي ألزمه المستشفى بعد شهرين من انتقال الجميع من "كيرونا القديمة"، وسألني:

- "أنت أيها الرجل، هل لاحظتَ "فيرنا"، تلك الموظفة بالاستقبال في الأسفل؟".

ساعتها تبدلت ملامح أمي، وبدا أنها تسيطر على غضبها بصعوبة، فنظرت إليها مواسيًا ومتعللًا بمرضه.

- أهلًا بابا.. نحمد الرب على سلامتك أيها الدونجوان". قلت في نفسي.

كثيرًا ما أخبرني بأن رجالات تلك العائلة دومًا يضعفون أمام النساء جميلات الروح أو الجسد.

- "لولا هذا الضعف، ما ظهرت عبقرية هذه العائلة". قال أبي.
- "نساؤنا حين نضعف، يرين جمالًا في ضعفنا، ويعرفن كيف يستثمرنه لصالح أسرهن". زاد أبي قولًا.

ثم أشار إلى عَلاقاتهم بالنساء التي لا تنطوي على الجمال وفقط؛ فهي في واحدة من أسوأ ما حدث لهم، حيث يعريهم ضعفهم هذا أمام النساء، وهو ما لم أفهمه وأعجب منه، فمتى يكون الحب ضعفًا يستهجنه الرجال؟!

- "ذاك الضعف كان سببًا مباشرًا في أزمة بيتنا". أخبرني في حزن، فاستنكرت حزنه.
- "ومن الحب ما قتل، هكذا علمتني". زادها أبي.
- "لولاه لما تجرأت علينا، سامح الله قلوب الرجال حين يرققها الحب، فلا ترى حقائق الناس". قالت عمتي حين حكت لي عنهم.

كانت حكاياته ترسم لي تفاصيل جديدة من شخصية ذاك البيت ورجاله، وكيف

تحايلوا على قلوبهم التي سُحِرتْ بالحب على الدوام، فأحبت لأجل الحب كل من تودَّدَ لها أو اقترب منها قيد أنملة، وكيف حولوها إلى مادة للمزاح والتندر العجيب؛ حتى نوادرهم القريبة منهم أحبوها للأبد؛ وأذكر حكيه لي يوم وفاة جدتهم، وحين خلصوا إلى المسجد خلف الجثة للصلاة عليها ثم دفنها، وحين كان الجميع في مزاج من الحزن، قرر وعمي مصطفى ألّا ينضما لهذا الطقس الجنائزي المبالغ فيه كما اعتقدا:

- "جدتك تعدت المائة بعشرين سنة أو يزيد، والنساء ببيت خالك يبكينها، وينعتن الجدة بأنها خُطِفت.. هههههه.. أفّاقات نساء بيت الشعالوة". علّق عمي مصطفى.

طلب منه أبي أن يصمت، وإلا سيتم معاقبتهما بشدة متى لاحظهما خالهما، لكنه استمر في قراره، وتابع الكلام دون توقف:

- "منذ مات أبوك، قررت ألا أحزن سوى لموت أمي، حتى أنت لن أحزن حين موتك يا حسن".

حاول أبي أن يثنيه عن الكلام، فهو يعرف عمي مصطفى وضعفه عن احتمال الصدمات التي تتعلق بالموت أو الفقد. قال بأنهم حين ذهبوا به إلى الطبيب بالإسكندرية، أخذ يسألهم على مدار جلسات طويلة عن تاريخ عمي، حتى أطلعهم في النهاية.

- "تُرِك دون علاج حقيقي". قال الطبيب.

كانت الجدة قد اضطرت لإجراء عملية جراحية بالثدي استدعت إبعاده في السنة الأولى من مولده عن ثديها، وكان عليه أن يستبضع اللبن من أثداء نساء الحي كله، وكان دائم البكاء، وكلما اقترب منها، حاول الوصول إلى ثديها أبعدوه عنها. قال لي بأنه لا يحب تحليل هؤلاء الأطباء النفساويين.

- "يرهقون مرضاهم بالتخلي عن أوهامهم هم، لا عن أوهام المرضى". كان يكرر لي أبي.

أظنه رآهم بشكل عجيب، لا يقل في عجبه عن الفكرة التي أراد أن يشغل بها ذهن عمي مصطفى في المسجد، حين بدأت تتكرر تساؤلاته وتعلو كلماته، والتي قد تحول مشهد تشييع جثمان الجدة إلى فوضى عارمة.

- "خشيت أن ينهار نفسيًّا". قال أبي.

قرر أبي أن يشغله عن الموقف، فمال عليه وهمس:

- "مصطفى، أرجوك فكر بدقة، هل يدخل الشعالوة الجنة؟".

نظر نحوه وحاله يخبر بنجاح خطة أبي في إلهاء عقله عن الحدث، وأفلح في صرف تفكيره عن حدث موت جدتهما.

- "صحيح؟! هل بالجنة متسع لهؤلاء الشعالوة؟ سؤال غاية في الصعوبة؟!". تساءل عمي مصطفى لحظتها.

استمر أبي بهمسٍ يُصر عليه أن يفكر ويفكر حتى يجد الحل، وحفَّزه حين أخبره بأنه متى دقق فيمن حوله من شخوص فقد يجد الحل. انقضت صلاة الجنازة، وذهبوا بالجثة نحو المقبرة. جلس مجموعة القُراء - ممن ينتمون إلى الشعالوة - يقرؤون في سورة "يس"، وفجأة مال عمي مصطفى ناحيته:

- "أعلن استسلامي، فما الإجابة؟". همس إليَّ أبي.

ابتسمت عينا أبي - كما قال - وأشار بحاجبيه إلى الأعلى كعادته، فنظر عمي مصطفى حيث أشار عليه، وعاد أبي يضم شفتيه ثم يمطُّهما باتجاه القُرَّاء. هناك نسل شعلان الأول في البلدة، وجُل رجاله امتهنوا تنظيف المراحيض بمساجد البلدة كجدهم الأول، معللين بأنها - وعلى حد قول بعضهم -:

- "سبوبة للأولاد.. تسند الحال إلى جانب القراريط".

فعاد يستفسر في همس:

- "ولماذا؟ وما علاقة قتلة الأنبياء بالجنة؟!". سأل مصطفى.
- "لن يوجد في الجنة مساجد، وإلا لدخلها هؤلاء لتنظيف مراحيضها، والجنة لا تغوط فيها ولا بول، فلا داعيَ لوجودهم إذن، فليدخلوا الجحيم، لا حاجة إليهم في الجنة". همس بها إليه أبي.

نظر مصطفى نحوهم في الوقت الذي مطَّ كبيرهم رقبته كابن عرس في مدخل المقبرة:

- "يأتيك ملكان في هذه الساعة ويسألانكَ يا عبد الله.." دندن الرجل عند المقبرة.

تغشت عمي "مصطفى" موجة من ضحك هيستيري، فتوقفت مراسم التلقين للموتى التي يمارسها هؤلاء القُراء عند قبور العوام، وصار لغط بين الجمع من المشيعين للجنازة؛ فقد أخذت عمي نوبات من الشخر والضحك المتقطعين، وهو يشير نحو القُراء:

- "ليست مذكرًا يا أبلَه.. أيها الملقن!! جدتي من ماتت وليس جدي". صاح مصطفى.

يومها وبالكاد سيطروا عليه إلى خارج المقابر، وقد ظل أبي لسنوات يخاف وشايته به، فأبي من فجر كل هذه الفوضى بكلامه.

- "حسن ومصطفى كلاهما بئر، الآخر يشرب منه، ويواريه متى لزم". قالت لي عمتي حين كانت تحكي لي عنهم.

هكذا تشاء الظروف أن تدفع بي نحو عالمهم المجهول، نحو هؤلاء الذين قطعت المسافات لأجل رؤياهم؟ من هؤلاء البيت؟ وكيف اجتاحتني الرغبة للحضور إلى هنا؟ وما بالي مأخوذًا باللامبالاة لكل ما يحدث، وكأنني خبرته من قبل! ليتني تعاودني تساؤلاتي التي تشعرني بالوجود! كيف فقدت هذه القدرة على لعب لعبة الأسئلة والأحاجي التي لا حل لها أو مناص من الانشغال بها؟! سأجرب استراتيجية جديدة،

لعلها تساعد في فهم موقفي العجيب هذا. سأرتب الأفكار من جديد. نعم، هي عادتي التي أجيدها. الآن يمكن أن أبدأ بهدوء.

- "اطرد كل ما في بالك من هلام لا قدرة لك على تحديد كنهه. تمدد الآن ولا تقاوم. تهيأ للحظة الخروج المشرقة لكل هذه الأسئلة، وابدأ الترتيب من جديد" تُخبرني نفسي.

استسلمت لهذا الشعور بنبت الأسئلة وتتابعها على ذهني، وتركت لخيالي العنان بانسجام، فقفزت إلى ذاكرتي صورته قبيل رحيل أمي، وكيف ظل يبحث في بيت كيرونا الجديدة عن شيء ما، ويكرر بصوته لنا جميعًا:

- "أين هو؟! أين اختفى؟!". كررها بهيستريا وعصبية.

لا أحد منا يعرف، ولا يعطينا إجابة شافية عما يبحث عنه، حتى انتهى به الحال، أن توقف فجأة، وأغمض عينيه، وظل صامتًا كحجر.

- "أين يا حسن؟! أين وضعت البلدة؟ أين تركتها؟". ظل يهمس بها في هدوئه.

وإذا به ينطلق نحو الحديقة الخلفية للبيت، يبحث في غرفةٍ ملحقةٍ بالحديقة، وينتهي إلى ما كان يُسميه "برطمانًا". احتضنه والفرح يتطاير من عينيه، ثم عاد إلى غرفة الجلوس، مد يده إلى داخله، فأخرج قطعة من القماش ملفوفة بعناية، بدأ في فتحها، فإذا بحفنة من تراب عجيب له لون التراب الذي جاسته قدمي حين تحركت نحو البلدة بعد مقابلتي مع عبد العلام صاحب النعاج الثلاث. بدأ في تمسيد التراب بكل مساحة قطعة القماش، ثم خلع نعليه، ووقف فوقها بهدوء، وشهق براحة عجيبة.

- "المنية!! يااااه.. أخيرًا عاصمتنا السرية". قالها كمن غاب في عالم آخر.

بعدها بدا متفائلًا إلى الغاية، ثم أعاد حفنة التراب إلى مكانها في البرطمان، ووضعه بعناية في واحدٍ من أدراج المطبخ، حتى كان بعدها بثلاث ليال، ودون أن أنتبه، طاشت

يدي فأسقطتُه فانكسر زجاجه الهشّ، وتطايرت حفنة التراب بعدما انفتحت قطعة القماش، وحين هرع نحو المطبخ، ورأى الأمر، كان كمن لدغه عقرب.

– "لا.. لا.. لماذا الآن؟!! كنت أحسب الوقت لم يحن بعد". قالها وظل يبكي.

لم ينطق كلمة واحدة بعدها، ولملم التراب بعناية، ثم خرج إلى الحديقة الخلفية للمنزل، وبدأ بدفن التراب في الحديقة، بينما استمرت دموعه تنهمر بلا توقف، وأنا مصدومٌ مِمَّا يحدث، ولا أفهم الأمر. خرج بعدها نحو المستشفى حيث ترقد أمي، وفي الليل هاتفنا يخبرنا الأمر.

– "نور، ڤكتوريا ماتت، ماما ماتت يا نور".

بعدها بشهور دخل المستشفى، ثم اختفى للأبد؛ وحين أخبرت فاروق وحميد عن الحادثة، أخبراني بأن والديهما كانا يحملان مثل هذا "البرطمان"، وكان مقدسًا إلى حد غير معقول، وأن عمتنا وحدها من ستملك الإجابة. بالأمس أخبرتنا بأن الجد كان يحمل في جيبه كيسًا من القماش به ترابٌ من أرض البرية الفاصلة بين بلدتنا والبحيرة، وأنها سمعته يقول للجدة حين سألته عنها:

– "في أسفاري حين أشعر بالخوف والوحدة، أقف فوق تراب بريتنا فأشعر أني في أرضنا وبلدتنا، فيطمئن قلبي".

علل الجد يومها بأن البرية وترابها فيهما من رُوح البحيرة الممزوجة بالنور الأخضر الأول، وفيها من روح البلدة ممن نحبهم ونعرفهم، وأننا نحملهم معنا في أسفارنا، حتى نلوذ بهم متى يتخلى عنا كل هؤلاء في غربتنا طالت أم قصرت.

– "الموتى يشعرون بنا، هكذا أخبرونا في بلدتنا هناك". قال أبي.

– "ولماذا لا نشعر بهم نحن، ونظل معذبين إلى أين انتهوا؟!". سألت أبي.

* * *

الآن في أقصى الأماكن التي تخيلتها بعدًا – في صغري – عن بيتنا بالسويد، هنا في بلدتهم المنسية التي صارعتْ لأجل البقاء، هنا سكنت روحي، تُساق بلا رغبةٍ مني، تساهم رهبة خفية في تهيئتي إلى شيء ما، مدفوعًا بحبيبات رغبتي الفوارة في كشف حقيقة الأمور من حولي، تلك التي لا تسمح أن تخيِّرني ما بين العودة وما بين الاستمرار في رحلتي المجهولة. أظنه قدرًا يفوق قدرتي ويدفع بي نحو الاستمرار وسط حكاياتهم، ومشاهداتي العجيبة لهم.

– "منذ متى تؤمن بهكذا قدر؟!". تسألني نفسي.

ربما وحده النوم يُميط لثام الإجابات، فتترى كل الملابسات التي لا أفهمها. ليكن النوم وحده، لا ينبغي سوى القليل من الجهد لاستدعاء النوم بعد هذه الرحلة، تلك التي انتهت بي حتى لحظتي هنا في غرفة بالأدوار العلوية مما عُرف ببيت "آل مسعود ولد الشحات من ولد صابر". أشعر به يأتيني على مهل. أحب إحساس الهزيمة في جفوني أمام سطوته. هيا أيها النوم العتيق، اخلع عليَّ من بُرْدك اللطيف، ها أنت يا سيد الأحلام، ومتنفس اللاوعي من المتنامي في كل دواخلي. ها أنت تجيء بدفءٍ عجيبٍ، كأني أول مرة في عمري أخبر الدفء.

– "هنيئًا يا جمجمتي التي دغدغتها الحوارات من زمن." أقول لنفسي.

الآن لتهنأ بالنوم يا جسدي المتعب. لتنمْ وتحلم ما شاءت لك الأحلام أن تتيح، وقدر ما يشغلك من تحققها، فلعلك تراه أو تجد خيطًا في المنام يرشدك إلى حيث اختفى.

– "كنتُ أحسدهم كلما حدثوني عن أحلامهم في النوم". قال أبي.
– "وهل كنت تحلم في غير النوم؟". سألت أبي.

* * *

ما بعد النوم، أسمع صوت عمتي تنادي. لحظات ويدق باب الغرفة التي استقبلت جسدي وأفكاري وتساؤلاتي المتعبة، وصوت فاروق يسأل إن كنتُ مستيقظًا، فأجيبه إعلانًا عن يقظتي، وفور إعلاني له بأنني مستعد، أسمع صوت "محسن الديك" قبل أن يفتح الباب بعد نقرتين سريعتين:

- "أيها الذكي، كيف سيجيبك وهو نائم؟".

ابتسمت لهم جميعًا، ولمحت بطرف عيني - وأنا أخرج من دورة المياه -"محسن الديك" وقد تمدَّد على السرير مكاني، وطفق في إشعال سيجارة لها سمت عجيب من الطول والضخامة.

رحبت بنا العمة حين انتهينا إلى "غرفة للشباب"، ولم تنتظر، فسألتني:

- "كيف كان نومك؟".

شكرتها، وأخبرتهم:

- "كما لو كنت لأول مرة أكتشف الفعل الإنساني المسمَّى بالنوم". شكرت عمتي، وأخبرتهم.

كنت سعيدًا باكتشافي الذي صرَّحت به، فضحك الشباب الثلاثة، وعلَّق "محسن الديك" بقوله:

- "يا سيدي الأوربي، هنا بلاد النوم، فاغتنم الفرصة".

رغم محاولته التنكيت والسخرية، لكن مرارة دفينة لم تندمل في ثنايا جملته كانت واضحة. ربتت عمتي على كتفي، وتمنت لي السلامة في بدني وكل حياتي، واستمر

دعاؤها مصحوبًا بطبطباتها وتمسيدها لفروة شعري.

- "ابعد يا نور.. ابعد يا نور". صرخ الديك فجأة.
- "فيه إيه.. فيه إيه؟ ماذا به يا نور؟". أجابت عمتي في ذعر.
- "أخاف عليه يا عمتي من العدوى بالمرض". قال الديك مبتسمًا.
- "مرض؟!" تعجبت عمتي وزاد ذعرها.
- "بعيد عنكم يا أحبتي، أى مرض تقصد يا ولد؟".
- "مرض الطبطبة الذي يملأ العائلة وينتشر فيها يا عمتي". قالها بخبث.
- "منكم لله يا بُعَدَة.. أوقعتم قلبي". قالت عمتي

شرع حميد في تفسير نظرية "مرض الطبطبة"، وكون العائلة كلها مدمنة على هذا الفعل بتحنان مبالغ فيه، لكن "محسن الديك" قاطع تفسيره وشرحه، ومن بين شخيره وضحكه الذي تواصل، نظر نحو العمة وقال:

- "هاتِ له بلحة يا حاجة".
- "بلحة؟! أتريد أن تأكل البلح يا نور؟". سألتْ عمتي بطيبة خالصة.

كلهم يعرف أصل الحكاية، وما يعرفون عن إيماءاتها الجنسية - كما عرفتُ فيما بعد - والتي أعطوها هي الأخرى لقبًا كعادتهم في تسمية كل شيء، بينما استمرت عمتي في نحرهم بحب فائض، وأنا بينهم أكتفي بابتساماتي التي بدت بلهاء؛ فأنا لا أفهم ولا أعرف، وهو ما أشعرني بالحرج الشديد، فأخبروني بأنهم سيحكون لي أصل الحكاية فيما بعد، وأنه عليَّ ألا أتعجَّل الإجابات. خرجت عمتي، وتطوع حميد يشرح أصل تلك "البلحة"، فيحكي عن كل ما جرى من أصل الحكاية؛ حين كاد عمي "صديق" أن يتوقف قلبه حين تعاطى منشطًا جنسيًا يوم قرر أن يبيت ليلته عند "عفاف" تلك التي رفعت ذيل ثوبها في صغرها له من قبل، وحين عجز عن الكلام، وبدأت عيناه تسرف في الدموع، جاءته بسذاجة تحاول فهم ما يحدث له:

- "أنت مالك؟ أجيب لك ماء ورد مسكر؟!". سألتْ عفاف بسذاجة وصدق.
- "هاتِ لي بلحة". قالها عمي صديق بدلالة جنسية لم تفهمها، فسألته:
- "أجيب لك بلحة؟!". عادت تستفسر بنفس سذاجتها.

حين أعادوا الحكاية بتفاصيلها الجنسية البدائية، دفع بهم الحكي إلى جزيرة الضحك التي أوجدوها في بحر الحب المتمدد بمحيط الغرفة، وتطوع "محسن الديك" وحكى لي أكثر وأكثر في تفاصيل الحكاية، لكن – للحقيقة – لم أفهم، فابتسمت، فبادر فاروق:

- "المعلم نور لم يفهم، ويجاملنا يا شباب".

فضحكت معهم هذه المرة بقلبٍ مفتوح، وأكمل حميد معلقًا:

- "حسبك أنفاس قليلة من أحد (الصواريخ) التي يدخنها الديك".

فخرجت صيحتي الأوربية بلا إرادة:

- "wooow". أثنيت على الفكرة، فضحكنا من جديد.

عادت عمتي لتسأل عن طعام الغذاء الذي نقترحه، فبادرها فاروق بأن كل ما تجود به من طعامها الجميل، هو موضع الترحيب، وزاد حميد:

- "محشي يا عمتي.. محشي إشراق عمتنا، الغارق في الشطة".

فوافق الجميع، وزاد الديك في الشرح:

- "الله يكرمك يا حاجة، نريد طعامًا مما يُعلِّي معنا".

لم أفهم الجملة، لكنهم عاودوا الرسو من جديد على جزيرة الضحك في الغرفة.

دومًا كان يحدثني عن إدمان البيت عندهم للطعام الحريف، وأنهم اكتسبوا هذه العادة في طعامهم من جدتنا. حكى لي يومًا بما أسكرني، بأنهم ذات يوم جاءت جارتهم تطلب من الجدة أن تحفظ لها قطعة من اللحم في ثلاجتهم، فهي بانتظار بعض

الضيوف غدًا يأتون بيتها، لأجل خطبة ابنتها. كانا - أبي وعمي مصطفى - يعرفان بأن "حنان" ابنة جارتهم، تحب ابن خالتهم "السيد"، وبأنه فور انتهائه من الخدمة العسكرية سيتقدم لخطبتها، لكن الجارة تسعى لتزويجها واحدًا من أقاربها في بلد بعيد، لا يعرف أهله عن الصيد والبحيرة سوى شراء الأسماك وأكلها. حينها قررا أن ينتقما من جارتهما، ووضعا خطتهما الصبيانية.

- "ما الخبر يا معلم ديشة؟ هل سنترك هؤلاء يزوجون حنان بغير السيد؟". سأل أبي.
- "لا أدري، لابد من من خطة تنفرهم منها للأبد، فلنفكر سويًّا ولكن بحرص شديد". أجاب مصطفى.

في ساعة العصر، خرجا للتمشية على (سكة الكنال)، وعند شجر "توت العكاريين" جلسا يقترحان الخطط، حتى هداهما عقلهما إلى خطة بالغة الصبيانية، لكنها لا تخلو من الشر المضحك. قررا أن يحقنا قطعة اللحم بمحلول مركز من الشطة الحريفة التي تشتهر الجدة بصنعها. سريعًا عادا أدراجهما نحو البيت. ذهب عمي لشراء "سرنجة" من صيدلية البلدة. انتظرا في مساء اليوم ذاته. أخرجا قطعة اللحم من الثلاجة، ومعها ثمرة من البطيخ البرلسي اللذيذ، وطفقا في حقنهما بمحلول الشطة الحريفة، ثم خلدا إلى النوم. في الصباح الباكر، أخذا سنارتيهما وانطلقا نحو "الكنال" بحجة الصيد، وتغيبا طوال النهار، وفي طريق العودة، تقابلا في مدخل البلدة مع المسيو صِدِّيق - في نفس المكان الذي دخلتُ منه - وأخذ يحكي لهما، بأن معركة شعواء كانت مشتعلة طوال النهار، بين أمهما والجارة، التي قدمت الطعام للضيوف، فاستشاطوا غضبًا، واحترق فم العريس المنتظر بالتقرحات، إثر كمية الشطة المبالغ فيها؛ ولسوء حظه كان يعاني من حساسية نادرة تجاهها.

- "العريس كاد أن يموت، وخرج يصرخ مع أمه، وهي تسب وتلعن". أخبرهما صِدِّيق.

يوم حكى لي ذلك ختم الحكاية بجملة لا تخلو من الشعور بالذنب، تجاه هذا

العريس المسكين، الذي خرج محمولًا إلى الطبيب في مستشفى المدينة القريب، والذي اضطر لإعطاء العريس محلول الملح وإجراء غسيل معدة سريع:

- "لو كانت حنان تعلم بأن السيد سيغادر البلدة إلى العراق، وستنقطع أخباره، لكانت قبلت الولد المسكين، وما انتظرت". قال أبي.

ما كان يُشعره بالذنب هو زواج حنان - ابنة الجارة - من ابن خالتهما الأكبر محمود، رغم علمه بحبها لأخيه "السيد"، ومات عنها بعد بضع سنوات من زواجه بها، ليتركها ترعى طفلتين في أسى.

- "الغائب لابد يومًا وأن يعود، هكذا الرجال في بلدتنا". قال أبي.
- "وهل يعود الرجال لهم أرواحهم التي غادروا بها يا أبي؟" سألت أبي.

* * *

كلما يحكي لي عن البلدة وأولادها العشاق، يذكر كيف يقتلهم العشق، كما حدث مع " منصور" - الملقب بالألماني - الذي قتل نفسه بسبب العشق؛ فعندما ضبط خاله المسيو صديق مُنعمًا في طول "زينات" بنت الجيران التي يسمونها "زوبة"، كره النساء والعشق، ثم علق جسده في حبل تدلى من السقف. أنا الآخر راودتني فكرة الانتحار حين انفصلت عنها، وبعد فشل محاولات هنري معي في بدايات الانفصال في أن أنساها للأبد، وحين كان يخبرني بقرار زواجه من فيكي، نصحني أن أبحث عن امرأة جديدة.

- "يتزوجون في بلدتنا بفعل النصيب". قال أبي.
- "هل أحببتَ أمي، أم هو نصيب بلدتكم؟!". سألت أبي.

الفصل السابع

بهـلة

ما كُنتش أعلم بإن الوداد له حبل..
بيتأثر..
لكن العشم خاب مع الأحباب..
يا خسارة..
هو كان جرى إيه بيبعد ليه..
ويتأثر..
دا لو شكيت لحجر صوان..
يتأثر
قَصده يشمت فينا العُزَّال.
يا خُسارة.

لماذا لا يجيبون أسئلتي التي كنت أتجهز لسؤالهم عنها؟! وكيف لا يدركون لغة الفقد التي تترجمها دموعي التي لا أذرفها؟! من علمهم كل هذا الحياد البغيض؟! أنا الأخرى لن أجيبكم يا كائنات النور، أنا التي تملك الإجابات وزيادة، يحق لي أن أستثني يومي هذا من همّ الحقيقة؛ فمهما حادثتكم بها، فأنتم لا تملكون ما يشفي صدري. أنتم لا تعرفون لوعي وحزني، فهل جربتم من قسوة صاحب النور حين يقسو، وحين يخطط للقسوة كيما تغزو كل تفاصيل حكايتي؟! أنتم لا تجيبون وأنا لن أجيب. لن أصرخ حتى أو أنادي بما علمته وعرفته عن تفاصيل حروف اسمه الذي لا يخيب به من ناداه. أنا أعرف أكثر مما تعرفون أيها الصامتون بالحسنى. أنا صاحبة المعرفة التي تعجزها الآن الإجابات والحكمة عنها تغيب، وهي التي لازمتني طوال حياتي بينهم. أنا الآن مثلكم سألوذ بالصمت حتى يناديني بنفسه من يعرف كيف يخرج من أغواري إجاباتي، فيعلمني الحكمة في صمته حين أشكوه إليه، ويبتسم في انشراح فيبين ثغر النور لي، ووقتها سأسامح وأتنازل عن كل الإجابات.

جلستُ مع عمتي، فسألتني عن الجدة عند عمي صِدِّيق، وهل رأيتها؟ فحكيت لها عن زيارتنا السريعة بالتفصيل، وأخذت تكرر عليَّ أن أحرص على برِّ الجدة؛ فهيَ آخر من تبقى من جيل الآباء الأوائل، فطمأنتها بأني سأعودها كل يوم مدة إقامتي بالبلدة، وأسررت لها:

- "الجدة يا عمتي ستخبرني الكثير عنكم، لا شك".
- "خالتي تعرف الكثير عنا، لكن احذر حكاياتها، فهيَ تشطح في الحديث على الدوام". قالت عمتي.

كُنت على يقين بأن جدتنا - أم العم صِدِّيق - تدّخر في جُب سنواتها كثيرا مما أريد. لا شك أنها تعرف حكاياتهم، ولعل الرب أبقاها حتى قدومي، لتفرغ صندوق الحكايات التي تُتخم سنواتها - التي تقترب من المائة - بالحوادث والتفاصيل البعيدة. حين همَّت عمتي بالانصراف، قامت وربتت على كتفي الأيسر بهدوء، لكن شعورًا بأنها مطارق تضرب كتفي تملَّك مني، فجفلت وتأوهت رغمًا عني، فانتبهت وذعرت:

- "هل بك من ضرر يا نور العين؟". سألت عمتي بقلق.

أخبرتها بما شعرت به من ألم إثر ربتها على كتفي، فتعجبَتْ لكونها كانت مجرد لمسات، وفي فزع سألت بعدما همَّت بالانصراف:

- "أرني كتفك يا ولدي.. اللهم اجعله خير". قالت بفزع عمتي.

وبدون انتظار راحت تكشف عن كتفي، فتفاجأتُ مثلهم بهالات حمراء، تملأ كتفي حتى موضع القلب، وقد بدا كأن أصابع يد من نار قد وسمت فوق موضع قلبي مباشرة. راحت تضرب صدرها وتتمتم وسط ذهول حميد وفاروق ومحسن الديك، الذين تعجبوا مثلها مما شاهدوا:

- "شُلت يدك يا بعيدة!! لينتقم منك الله، حتى أنت يا نور تختارك هذه الشقية!". قالت عمتي بغضب.

لم يعرف واحد منا من هي هذه "البعيدة"، ولا سر هجوم عمتي عليها، وما دخلها بالعلامات التي ظهرت على جسدي:

- "ما هذا؟ ومن تلك التي تستحق كل هذا الغضب يا عمتي؟"سأل فاروق.
- "نعم، من البعيدة يا حاجة؟". أردف الديك يسأل.

فأجابت في آلية، كأنها تتوقع منا معرفة كاملة بهذه البعيدة، وتلوم علينا كيف لم نفطن مثلها بأنها من تسبب في هذه العلامات على جسدي:

- "بهلة.. بهلة بنت الزّرق.. منها لله".

فتساءل ثلاثتهم عن صاحبة الاسم الذي بدا لهم غريبًا، وبدا عليهم بأنهم يسمعون الاسم لأول مرة، فجاء تساؤلهم في توقيت واحد:

- "بهلة؟ من بهلة؟".

فأجبتهم بآلية قبل عمتي، وأخبرتهم بما حدث لي في طريق دخولي البلدة بالأمس، وحددت لهم موعد ومكان لقائي بها عند شجر "توت العكاريين"، لكن عمتي أسرعت كمن وجد طوقًا للنجاة:

- "الحمد لله أن عبد العلام كان في إثرها، فأفسد فعلتها. نحمد الله يا ولدي". قالت عمتي.

قبَلَتْ يديها بين الظاهر والباطن، وظلت تكرر الحمد والشكر، وتدعو لهذا الراعي "عبد العلام"، ليعود حميد فيسألها:

- "ما الحكاية يا عمتي، ومن هذا الآخر؟!".

أسرعت عمتي بالخروج من الغرفة، وهي تتمتم:

- "كونك من ولد مسعود الأخيار.. الملعونة الكاذبة.. بعد كل هذه السنوات تعود لترصدك يا ولدي".

حين تكررت لقاءات جدي مسعود ببهلة، وبعد أن تجلت له، وعرف من تكون، صار معروفًا عنه في البلدة كلها ميله إلى السكون وحب الليل والسهر، وكثيرًا كان يشاهده الصيادون حين يبكرون إلى البحيرة وقد نام في ظلال شجر الأثل، أو في بقايا القلعة المتهدمة في كوم دشيمة، وحين خافت أمه عليه الضياع للأبد، قررت مع زوجها تدبر أمر زواجه.

- "لا علاج لولدكم سوى الزواج، امرأة تحبه، وتستعد أن تشاركه قدر النور الذي يحمله يا أولاد صابر الأول". قالت عرافة البر البحري لأمه.

بحثت الأم، فلم يكن سوى ابنة "رضوان الشعلاني" التي تحمل نفس اسمها فاطمة، نعم ربما يكون له من اسمها حظه من أمه من الحب والخوف عليه، وبدأت تراقب العروس المرتقبة، من تختارها لتحمل مع ولدها قدره العجيب.

- "لكن يا أم مسعود؛ فاطمة بنت رضوان من بيت الشعالوة!". قالها الأب مستنكرًا.
- "عرافة البر البحري أخبرتني بأن علاجه في زواجه منها".

يومها أخبرت الجدة فاطمة زوجها الشحات تفاصيل ما رأته العرافة في زجاجتها، وبما نصحتها النجوم السبعة المباركة، وكيف لا يحميه سوى الزواج بواحدة من بيت "شعلان"، فلعل ما لحق بنسله من لعنة الشيخ "عابدين" والشيخ "السنجاري" هو ما يدفع عن ولدهم. وتابعت تحكي العلامات التي اشترطتها في اختيار الزوجة، وأن ابنة رضوان هي المقصودة.

- "قبل ثلاث سنوات، وقبل أن تسكنه سألني عنها في إشارة لخطبتها، فصرحت له أنها من بيت الشعالوة ولا يمكن أن تقبل". قالت فاطمة لولدها مسعود.
- "فليتزوج ابنة الشياطين، لا يهمني، فقط أريد ولدي الوحيد كما كان، مهيبًا يسُد عين الشمس". قالها الشحات.

هكذا جاءت فاطمة من بيت الشعالوة إلى بيت آل صابر، وربطتنا بهم للأبد، فصاروا أخوالنا، بينما استشاطت بهلة غيظًا حين تمكنوا من إبعاده عنها، فقررت ألّا يهنأ أولاد فاطمة التي حرمتها مسعود الذي أحبت، لكنهم لا يصرحون لأحدٍ بلقاءٍ بين بهلة وفاطمة بعد رحيل الجد مسعود في حجرة الجدة، عقدت فيه اتفاقًا معها لا يعلمه غير إشراق التي علّمها والدها الكثير من تحصينات وأحراز تفسد الكيد، وتدفع به عن إخوتها وأمها.

- "ربما علمها جدك هذا الأمر دوننا عوضًا لهاْ عن الولد". قال لي أبي.

حكى لي رواية عمتي إشراق له عن بهلة التي تضطرب لأسابيع كل عام حين يأتي مولد سيدي السنجاري، ويوم تأتي ذكرى لقائها الأول مع الجد مسعود.

- "أظن الحزن جمعهما، بعد أن فرق بينهما حب الرجل نفسه". حكى لي أبي مرة.

بعد أن تمتمت بكلمات غريبة، تركتنا عمتي، وتمتماتها تنتشر في داخل البيت، وتركت العديد من التساؤلات ترتسم على وجهنا جميعًا، ولفّتنا دهشة كاملة الجوانب لما تفعل وتتحدث، فيبدو أنها تعرف ما لا نعرف. غطيت كتفي، ونظرت نحوهم، فأراد "محسن الديك" فكَّ هذا السمت المندهش الذي سيطر على جو الغرفة:

- "لعلك تعاني حساسية يا نور جرّاء تغير الجو؟".
- "هذا احتمال كبير، ووارد" زاد فاروق.
- "أو لعلها حشرة أو ما شابه". قال "محسن الديك".
- "نعم، من يدري؟ فالشقة حيث نمت مغلقة منذ سفري". قال فاروق.

طفق فاروق ومحسن الديك يضعان الاحتمالات وسط صمتي، وحالة من الذهول انتابت حميد الذي سيطر عليه الصمت، وبدا كأنه غير موجود معنا، ولم ينتبه لنظراتي الدهشة نحوه، بينما ظلَّ يغرق في بئر صمته، الذي نالنا منه حظنا، ليلف الجميع في

حجرة الشباب. عدت أكشفت عن كتفي، ورحتُ أُدقق في صورة الكف والأصابع الحمراء التي انطبعت على جسدي، وتحسستها، وكذلك تحسست تلك التي ظهرت على صدري فوق منطقة القلب، بينما انشغل فاروق والديك بنظراتهما المندهشة، وظلَّ حميد على حالته من الشرود، ثم عاد "محسن الديك" يبدد صمت الغرفة من جديد:

- "هل يفهم أحدكم ما يحدث؟ أم أنا نائمٌ؟".
- "لم أرَ الحاجة بمثل هذا القلق من قبل". علق فاروق.

وإذا بحميد يُخرج لسانه من وسط شروده الواضح، ويعقب:

- "لعلها تذكرت ما يزعجها". زاد حميد.

راحت الأسئلة تنهب رأسي، وأظنها تمكنت من فاروق والديك مثلي، بينما حميد عاد إلى حاله، وبدت عيناه تتحركان حركات عجيبة وسريعة يصحبها توترات لعضلة الرقبة بدت واضحًا للغاية، فلاحظه فاروق، وسارع يسأله في فزع شابَة فزع عمتي المنصرم:

- "حميد؟ ما بك؟ ميدو.. ميدو".

انتبه حميد إلى فاروق وفزعه، وببطء شديد رفع رأسه، وتأملنا بعين زائغة، ثم أخذ نفسًا عميقا، وضغط فكيه بوضوح، وأخذ يُمسد فروة رأسه، ثم ذقنه:

- "أنا بخير.. لا داع للقلق".
- "الله يكرمك يا ميدو.. لسنا في حاجة إلى قلقك الآن.. يكفينا قلق الحاجة". قال الديك بتوتر.

عادت عمتي إلى الغرفة حيث كُنا، يسبقها سحابات من دخان مبخرتها، وحين دلفت إلينا، كانت مقطبة الحاجبين، وقد تغيرت ملامح وجهها الحنون فشابها شيء من التوتر والخوف والغضب، فبدت سنوات الشقاء والتعب على تجاعيدها التي لاحظتها

لأول مرة، ولم يفلح دخان مبخرتها في ستر ارتعاشات يدها الأخرى، أو التوتر الذي سيطر عليها باستفاضة تامة، ولعله أصابنا في الحجرة فبدا التوتر على الجميع شمس كأنها لن تغيب. لاحظتُ أننا يعلو ملامحنا الغضب والعصبية، وتتقلص المسافة بين الحاجبين في وجوه الجميع، لا أدري كيف يحدث هذا؟ هل نوع من التخاطر الذهني مارسناه دون وعي؟ وما سر هذا الشعور الذي طغى على عمتي واعتلى كل قسمة من وجهها؟ عمتي كمثل محارب سلتي قديم، قُدر عليه قتال لا مناص منه. وجهها شديد الاحمرار، بشرتها البيضاء التي تاهت وسط التجاعيد والتوتر، ما هذا المناخ الغريب؟ وما سر صمتهم؟ وأين تعليقات محسن الديك التي تفلح على الدوام في إزاحة التوتر؟ وأين ملاحظات فاروق الواعية؟ ولماذا تتصاعد عصبية حميد وحركات عينه توترًا؟ وما هذه الكلمات الغريبة التي ترددها عمتي:

- "بهودرن.. بهودرن.. بهودرن.. بهودرتشين.. بهودرتشين.. بهودرتشين". كانت تكرر عمتي.

على الرغم من غرابة الكلمات فإنني كمن سمعها من قبل، لكن أين لا أدري! القلق بدأ يسيطر عليَّ تمامًا كلما دارت عمتي في دوائر مبخرتها في الغرفة، وشغل ذهني استمرار ترجيعها لهذه الكلمات الغريبة، فحاولت التركيز على شيء آخر خارج هذا الجو كي أخفف من حالتي المضطربة، لكن دورات عمتي وحركة دخان البخور في الغرفة، وتلك الدوَّامات الهوائية الصغيرة التي بدت تتشكل، وقفت في جانب التوتر الذي تملك الجميع، وأخذ يتصاعد مع الدخان، ويتسارع مع تسارع خطوات عمتي في الدوران، ومن بين الدخان الذي غشي الغرفة تمامًا، سمعت كلمات عمتي التي تأكدتُ أني سمعتها من قبل:

- "يا ساكن الأرض البعيدة البعيدة.. يا من لا يعرف الخوف ولا الأمل.. يا من يجلس في اليأس والرجاء جلوس الأسود.. يا سيد الجزائر والبحور يا هصور.. يا جُلجانيّ.. يا سُليمانيّ.. يا قاضي المحكمة.. يا حاكم الشّداد.. يا سيدي "يورا".. يا زعيمي..

يا "يكورش".. يا أيها السيد "أتى".. احضر.. احضر.. احضر أيها السيد".

- "نعم.. نعم.. الآن تذكرت. تلك كلمات أبي التي رددها حين دخلت والدتي المستشفى أول مرة". جاوبت نفسي.

أخذت عمتي تردد تمتماتها التي تدحرجت بين اندهاشنا وتوترنا، وأعجب من صمتنا واستسلامنا جميعا لما يحدث، وكيف يُطبِقُ الصمت والثقل على جو الغرفة؟ وبلا مقدمات - ومع كثرة الدخان ودواماته في جو الغرفة - لفَّ الغرفةَ صدى صوت عميق غير زاعق، أتى من زمن غابر. صوتٌ عرفه كل البيت ممن رحلوا وممن غادروا البلدة. صوتٌ لا تنكره عمتي، لكن أربعتنا لا نعرفه، وبدأ الصوت يتحدث بعمقه الجليل:

- "تريد أن تعرف يا ابن البيت أيها الغريب! من يعرفْ يَشْقَ بمسئولية معرفته". قال الصوت.

نفس الكلمات التي حدثني بها "عبد العلام" راعي النعاج الثلاث. صوت جدنا "مسعود" كما عرفت فيما بعد من عمتي التي قالت عن ذاك اليوم:

- "كان صوت أبي يتردد في أذني وفي الغرفة كلها".

بالعودة إلى جو الغرفة والبخور الذي غطى برائحته ودخانه كل الغرفة، طاشت المبخرة من عمتي، وتفاداها الديك بأعجوبة، وسرعة رد للفعل مذهلة، يصيح فزعًا:

- "أسرع يا ميدو، ارفعها معي.. الحاجة وقعت.. ارفعها معي إلى هذه الكنبة".

ساعدهما فاروق، وحملوا عمتي إلى فوق الأريكة حيث مدَّدوها، وبدأ ميدو في اطفاء جمرات البخور التي تناثرت في الغرفة، في حين انطلق الديك نحو المطبخ، وعاد من فوره حاملًا كوبًا من الماء، بينما أخذ فاروق يفتش جيوب عمتنا:

- "تحمل أقراص دوائها في جيبها على الدوام". قال فاروق.
- "ألا زالت تأخذ هذه الأقراص؟". سأل حميد.

جاوب فاروق بأنه حين عرض حالتها على أستاذٍ له في برلين، ورأى صور الأشعة السينية التي اصطحبها معه بعد آخر زيارةٍ لمصر، نصحه بأن تحرص على التزام هذه الأقراص في حالات النوبات المفاجئة، وأنه هاتفها، وشدد على ضرورة التزامها، وفيما بعد عرف أن علياء - أخت فاروق التي لم أقابلها قَطّ بشكل مباشر- عوّدتها قبل سفرها الأخير أن تجعل الأقراص في جيبها دائمًا.

- "أنا هاتفت كل من يعرفها، وأخبرت الجميع بأن أقراصها ينبغي ألا تغادر جيبها، متى ستعودان؟". سألتْ علياء.
- "سنعود في مطلع الصيف القادم، في نهاية شهر مايو". أجاب فاروق.
- "كنت أتمنى مقابلتكم قبل سفري، لكن سأغادر بعد إجازة منتصف العام، ارتباطات العمل" قالت علياء.
- "اتفقنا أنا وحميد ونور على زيارتكم في شارلوت الصيف القادم، بعد زيارتنا للبلدة قبلها ما لم يمنعنا طارئ". أخبرها فاروق.

أذكر حكايات حميد عن علياء، وكيف انتهت إلى مدينة في الجنوب من الولايات المتحدة.

- "تعمل في الجامعة بمدينة شارلوت". أخبرني حميد.

حدثني بأنه شعر حين غادرت إلى الولايات المتحدة بأن قلبه هُصر إبان توديعها لهم من خلف صالة المغادرة في مطار القاهرة حين سافرت للمرة الأولى، وطفقت تتداعى الحكايات على لسانه حول علياء وزواجها الغريب ثم مقتل زوجها في حادثة تفجير مقهى الحرية ٢٠٢٧، وحتى الآن لا يعرف كيف طاوعتها نفسها على هذه الغربة البعيدة. حميد يدعي أنها - وهي فنانة تشكيلية ومحاضرة بكلية الفنون التطبيقية - ضحت بموهبتها وكل أحلامها في سبيل الخلاص من الحياة في مصر، أذكر جملته جيدًا:

- "لو كان أبي موجودًا ما سمح لها بهذا السفر أو الزواج" حكى ميدو يومًا.

- "أظنها كبيرة بما فيه الكفاية لتتحمل خياراتها". علقتُ على كلامه.
- "إنها تهرب يا نور.. تهرب.. في زواجها وفي سفرها، أتفهم معنى ذلك". قال حميد في حسرة شديدة.

ثم تابع يحكي لي عن فشلها، وإحباطها الأخير بعد رحيل والده – عمي مصطفى – ومن بعده محمود – زوجها – فقررت الهروب إلى شارلوت.

- "وأظن الأوضاع القائمة في مصر ساعدتها على ذلك". قال حميد.

حين قابلت علياء محمود للمرة الأولى في بهو كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية، كانت أوضاع مصر السياسية غاية في الارتباك، بعدها قابلها عدة مرات، ثم تزوجها في عامها الثاني بالجامعة. انتقلت معه إلى القاهرة، وظلّا هناك بعد ايقافه عن العمل في الجيش.

- "جاءني مندوب من المخابرات العسكرية إلى مكتبي بالكلية، يخبرني أن محمود قُتل وهو على قوة الجيش، فليس هناك ما يفيد فصله من الجيش، لم أعد أفهم شيئًا". قالت علياء لحميد.
- "أتقصدين أن محمود لم يُفصل من الجيش وكان..". سألها حميد.
- "حين اتصلت بالعم ماجد فيكس، أخبرني كل شيء. أظنه هو الآخر لم يُفصل من الجيش". قالت علياء بيقين مطلق في ظنونها.

هكذا تحولت علياء إلى أرملة ضابط بالجيش المصري، حتى قررت في نهاية ٢٠٢٧ الرحيل إلى شارلوت.

- "كان صديقًا لعمنا ماجد فيكس، شاب من هؤلاء الذين أحبوا هذا البلد بعمق، وصدقوا بإمكانية التغيير، في النهاية دفع حياته ثمنًا لذلك، قابلها في عامها الأول في الجامعة خريف ٢٠٢٢.". تحسَّر فاروق.

حين اجتمعنا في كيرونا، حكى لي فاروق عن علاقة علياء وأمجد الجني التي امتدت لسنوات، ولا يُعرف كيف انتهت بزواج علياء من الضابط محمود، لكنها تركت جرحًا عميقًا لدى أمجد.

- "علياء بطبيعتها انفعالية، أو ربما غيرتها حياة الجامعة، فقررت الزواج به". حاول فاروق التفسير.

بدا لي الوضع غير مفهوم، فكنت أكتفي بهز رأسي بالمجاملة حينًا، وبالعادة حينًا، في النهاية ربما علاقاتهم المتشابكة تحتاج إلى فهم ورؤية من زوايا أخرى جديدة لا أعرفها ولا أتفهمها حتى الآن.

- "في بلدنا يختار الناس الشيخ أو الجيش؟". قال أبي.
- "ألا يملكون خيارات أخرى هناك؟!". سألتُ أبي.

* * *

حين أخذ الديك يبلل فم عمتنا برشفات الماء، ويجتهد وفاروق لإفاقتها أو إنعاشها، بعدما يئسا من إيجاد دوائها المزعوم، بدا كأنها تستعيد وعيها ببطء شديد وتثاقل عجيب، ثم فتحت عينيها، وكانتا جمرتين من نار، وأخذت تتحدث من جديد بهدوء عجيب، وتضغط الأحرف في فمها قبل أن يأتينا صوتها. أعرف هذا الصوت تمامًا حين تكلمت به، بينما حميد عاد إلى شروده من جديد، وفاروق والديك يبديان عجبهما من تغير طبقة الصوت حين تحدثت، وأنكروه، لكني كنت أعرفه تمامًا، هو الذي ظل يناديني لسنوات طويلة في"كيرونا القديمة". صوت أبي الذي أعرفه؛ ولا يمكن أن أخطأه متى تحدث، هو صوته، يحدثني بلغته السويدية التي تعلمها، تلك المهجنة بلكنة الأجانب في "مالمو"، قبل أن يتقنها لأجل والدتي التي تعود أصولها إلى مدينة استكهولم العاصمة.

أظنني قاومت اندهاشي بصعوبة؛ فأنا لا أفهم كيف تتحدث عمتي بصوت أبي، ومن أين لها أن تتمثل لكنته السويدية الأولى في الحديث، ومتى تعلمت السويدية بلكنة المهاجرين في "مالمو"؟! تسارعت الأسئلة نحو حدقتي عينيّ، فكانتا تتسعان من فرط الغرابة التي سيطرت على هذا المشهد؛ ولعل ما زاد الموقف غرابة، ظهور ابتسامة ترتسم على شفتي حميد دون أن ينطق، ولمعان بعينيه بدا متشكلًا وواضحًا للغاية. أخذ فاروق ومحسن الديك نوبة من الاندهاش الذي سلمهما - ولا أدري كيف - إلى الصمت ثم النوم التامين. عاد الصوت يحدثني من جديد.

- "هو أبي لا شك، نعم هذه نغمة صوته التي لا تغيب عن ذاكرتي ما حييت". قلت لنفسي.

ما بالها الآن تتغير نبرتها، فتتحدث بجملة الراعي صاحب النعاج الثلاث، فزادت وضعي ارتباكًا ودهشة، ولا أمل في "محسن الديك" أو فاروق اللذين سكنا سكون أشجار القضاب في شمال فنلندا التي زرتها مرة أخرى في ليالي كانون الثاني. حميد على حاله العجيب، وأنا وحدي فريسة للعجب، وصوت أبي يعاود الكلام على لسان عمتي التي بدأت تختلط الأصوات في فمها، فاختفى صوته، واختلطت أصوات عديدة ولهجات ولغات لم أميزها.

- "تلك سويدية أبي". أحدث نفسي.
- "الفنلندية".
- "الآرامية".
- "العربية".
- "العبرية".

كنتُ أعدد اللغات التي أفهمها من الأصوات والعبارات التي اختلطت في فمها، ولا أجرؤ على مجرد الحركة، وزاد أن خانتني ساقاي فهبطتُ إلى الأرض جاثيًا، كمن يقرأ

التشهد في صلاة المسلمين، وبلا توقع في وسط هذه الفوضى المربكة من الأصوات، يخرج صوت حميد:

- "أظنهم جاءوا جميعًا.. أظنهم جاءوا جميعًا.. عمتي نورا، الجدة، عمي حامد، أبي مصطفى، جدِّي مسعود، الضابط محمود، ها.. ها.. عمي حسن!!، آه..آه.. منصور "الألماني". قال حميد.

حين انتهى من تعداد الأشخاص الذين تحدثوا جميعهم على لسان عمتي لحظتها، وإلى أن انتهى بإعلانه عن الألماني، أخذت عمتي ترتل مقطعًا من الشعر، كنت أحفظه من مراسلات "محسن الديك"، الذي تبرع لتعريفنا بأشعار الألماني بعد رحيله مباشرة. جاءني صوت عمتي، الصوت الذي سمعته في التسجيل الذي أهدانا إياه "الديك" بصوت الألماني نفسه، وهو يقرأ من أشعاره قبل أن يرحل، نعم الآن عمتي تقرأ بصوت الألماني الذي تذكرته، هاهي تتلو المقطع المحبب إلى قلبي:

يا ابنتي التي لا تحمل جيناتي..

ولا لقبي...

غدًا تكبرين، وتسرعين نحو الأم...

تختارين من بين العروض المقدمات عرضًا..

يشبه عرضي..

تذكِّرِينَ الأمَّ ساعتها بهاتفها واستحالات عديدة

كان حميد مشغولًا بترديد المقطع خلف صوت الألماني الذي تنطق به عمتي، وحين انتهت اختفت ابتسامة حميد، وتركت وجهه كمن لم يختبر المشاعر الإنسانية مرة، لا يعرف الرجاء ولا اليأس، مجرد ملامح بشرية تخبر بوجوده وفقط، لتعود عمتي - من جديد - تتحدث بلسان أبي الفنلندية التي بدأ يتعلمها، يوم قرر دراستها في كيرونا

القديمة قبل انتقالنا، وبعد تأكدنا من خبر نقل المدينة بأكملها نحو "كيرونا الجديدة"، حيث اقترح انتقالنا إلى شرق فنلندا، والعبور نحو مدينة تامبرا هناك.

- "Olet..Ooutoa, haluat tietää, niin he kärsivät sydän tietoa".

نطقت عمتي.

أي معرفة تلك التي قد يعانيها قلبي؟ ومنْ هذه العمة التي تحدثني بلسان الراحلين من أهل البيت وبعض سماره؟! من أين تأتّى لها أن تتحدث بلسانهم، وكيف عرفت بجملة الراعي فنطقتها بفنلندية أبي الركيكة التي أميزها؟! ولِمَ غاب الديك وفاروق عن الوعي؟! وما سر هذه الحالة التي ارتسمت على كيان حميد؟! هكذا كانت التساؤلات تتزاحم في رأسي، ولا يملك الإجابات غير عمتي.

رائحة البخور ملأت الغرفة (حجرة للشباب) بكل كبير، ولا أظن واحدًا منهم قد رآها من قبل في مثل هذه الحالة، علامات الدهشة ما عادت تكفي أن تعبر عن حالنا، ووضعهم خير دليل على عجزهم عن تقديم إجابة شافية لما يحدث حولنا، وأنا - الأخير - عاجزٌ عن الفهم، وعمتي ظلت على حالها، حتى عاد الصوت يخرج من جديد من جوفها، يجيء هذه المرة بصوتٍ أنا وحدي بينهم من سمعه يومًا، ليس بالبعيد، بالأمس فقط سمعت هذا الصوت.

- "بهلة!!". عرفتُ الصوت.

كانت صورتها على ملامح عمتي بدأت في التشكل، فما عدت أجزم بأنها تلك الشاخصة أمامي.

- "من هذه؟ عمتي أم بهلة؟!". سألت نفسي.

الملامح بينهما أخذت تتداخل بشكل يثير الحيرة، كلما أحاول التركيز كانت تبدو ملامح عمتي جلية، ومتى أخذتني الدهشة أرّ وجه بهلة التي قابلتها بالأمس جوار شجر

"توت العكارين". أذكر كلمة قالها لي في كيرونا القديمة، وحين كنت صغيرًا ومتلهفًا إلى سماع قصصهم العجيبة في بلدتهم وقت طفولتهم البعيد:

- "النصيحة التي نصحنا أبونا، أن نظل متيقظين قدر الإمكان، حتى لا نغول فتخطفنا الجنية القاطنة هناك جوار منزل المراكب في (الكنال)". قال أبي.

استعنت بهذه النصيحة في موقفي هذا، ورغم إيماني الراسخ بأن عمتي ليست بجنِّية، لكن حين بدأت تتداخل ملامحها وملامح العجوز بهلة، أخذت أعالج التركيز الحثيث، وأحثُّ ملكات ذهني على اليقظة، لكنها كانت تخونني. شعرتُ بدوار عجيب، جعلني حين نظرتها وهي تتفرسنا في الحجرة، أراها بوضوح لحظتها.

- "بهلة!! أيتها الحبيبة!!". همس جدي مسعود بلساني.

- "يا عشقي الممدود". قالها حميد بحب.

أخذت تتفرسنا واحدًا تلو الآخر. شعرت أن قوة خارجة عن إرادتي هي التي تُملي عليَّ كلَّ أفعالي، فأنفذها بانصياع تام، أو هكذا بدا الأمر حين جلست القرفصاء إلى جوار حميد الساكن تمامًا عن الحركة، وقتها عادت تتأملنا من جديد. أخذت - وبهدوء عجيب - تدور سحاباتٌ من دخان البخور المعبق لجو الغرفة في أركانها، ثم تسارعت حركة دورانه بعض الشيء فزكمت رائحة البخور أنفي من جديد، وسمعت شهيق حميد المبالغ فيه حين حاول أن يملأ رئتيه من البخور، ودون وعي، وجدتني أدور مع دوراته تمامًا. بعدها رأينا -أنا وحميد - عمتنا/ بهلة في سمت جلستها بهدوء تعلو عن موضع جلوسها الأخير حين أنهضها "محسن الديك" وفاروق قبل أن يغيبا عن الوعي بشكل كامل، ثم أخذت تطير بنفس الهيئة وعلى جلوسها العجيب، كانت تدور مع دوران سحابات دخان البخور، وهي تتمتم بعبارات غير مفهومة، تبينت منها بصعوبة:

- "يا أبناء السبعة الجبارين....... ويا خُدَّام (المذهّب، مُرة، الأحمر، بَرقان، شمهورش،

الأبيض، وميمون)..... يا صاحبة المهابة، يا أيتها الجدة (لالة مِيرة)...... يا سكان قمم جبال توبيقال، وقاع البحيرات الأطلسية، وعمار سطح الماء منها...... يا كل الحاصدين في موسم السمائم من كل عام، يا أبناء (ميمون الكِناوي)، يا من تطلبون نقوش الحناء الصفراء أو الحمراء، يا من تشتهون لحم الديك والعنزات، يا من تحكمون سكان البحار من لدن (سيدي حمو، وسيدي موسى، ولالة ميمونة، وجميلة، وعيشة، والحبيبة رُقية)....... هاك الجاوي، هاك البخور، هاك الجاوي هاك البخور، لتتحلىٰ بركتكم وحضوركم على جسدي الضعيف.. فلتستمتعوا بالرائق الأبيض، والنعناع الحبشي المقدس". تمتم الصوت.

توقفت عن الحركة الدائرية، فسكن كل ما كان يدور معها من أثاث الغرفة (غرفة للشباب)، وتبينت وجه عمتي، ثم نظرت نحو جسد "محسن الديك" الغائب عن الوعي، وأشارت بصوتها:

- "لستَ من أولاد مسعود، لستَ منهم". قال الصوت بلسان عمتي.

وعادت تدور في صمت مهيب، ليدور معها من جديد كل أثاث الغرفة، حتى الأرائك التي جلسنا عليها أخذت تدور، ثم تعلو عمتنا من جديد في جو الغرفة قليلاً، ثم تهدأ حركة الدوران، فإذا بوجه بهلة لا وجه عمتي ينظر نحو فاروق، ثم قالت مبتسمة:

- "أنتَ مِنَّا.. ابننا.. صاحب القلب المفطور منذ الصغر.. لكنك لن تراني". كرر الصوت.

يوم التقيتُ حميد وفاروق في استكهولم، أفلحت في إقناعهما بالشرب حتى سكروا للغاية، يومها تحدثنا عن أحلامنا بين السكر والانتشاء، وأخبرنا فاروق بأنه يحلم أن يصل العلمُ – قبل أن يموت – إلى اختراع يوقف الوقت، ويمكنه أن يُعيد الوقت إلى الماضي بدلًا من دفعه للأمام.

- "آلة للزمن. نعم، ياليتهم يفعلون.". قال فاروق.

- "ولماذا لا تتقدم في الزمن، الماضي مرٌّ يا روقه". سأل حميد.

- "ساعتها قد أرى وجه أمي مرة أخرى". قالها ثم بكى.

لحظتها لم يجرؤ أحدنا على الكلام حتى انتهى من بكائه، ثم عاد ينظر نحو حميد، ويبتسم:

- "عمي مصطفى أعطاني البديل منذ الصغر". قال فاروق.

- "كيف يا دكتور؟". سألتُ فاروق.

- "قال لي يومًا: فقط ثق في قلبك أنه يستطيع أن يسمعها ويراها". حكى لنا فاروق.

عادت الغرفة إلى الدوران من جديد، فعاد وجه عمتي من جديد يتشكل، وبعدها تسارعت هذه المرة في حركة دورانها عما سبق، وعادت تعلو في جو الغرفة من جديد، حتى كادت يلامس رأسها سقف الحجرة، وأخذت عمتي تتشكل بهيئة جديدة وملامح مباينة لما كانت. كانت بملابسها وهيئتها كلها تأخذ شكل العجوز بهلة لا وجهها وحده، في ثوبها المزركش باللوامع من الفضة والذهب التي تشبه العملات المعدنية، وبلون الزمرد الأحمر القاني، وشعرها المخضب بالحناء بلون الذهب والمرسل الطويل الكثّ، وأظافرها الطويلة المعقوفة نهايتها قليلًا، والكلف الواشي بعمرها عند معصميها، وضحكتها الناصعة الجميلة. أخذت تقلب النظر بيني وبين حميد الجالس إلى جواري. عيناها تمحوان الذكريات السيئة من ذاكرة العقل كلما تتأملك، كانت تحاول أن تزيل كل الهموم حين تنظر نحوك، وكل الظنون منك ترجوها أن تختفي، فلا يبقى سوى حضورها الطاغي الرائع على مشهد ذهنك أو خيالك. نظر حميد نحوي وقد بدأت ملامحه في الفزع. عاد نظره حسيرًا حين لم يدعمه حالي المشابه له. نظرتنا من جديد، ثم ابتسمت، فإذا السكينة من بين ثغرها تُشرق، ورويدًا رويدًا غاب الفزع عن الدنيا، وحلَّ شعور

بالرضا غير المسبوق.

- "أظن حميد هو الآخر سعد به". طمأنت نفسي.

عادت إليه ابتسامته الأولى لكنها بلا جمود هذه المرة، كانت ابتسامته تشبه ابتسامتي، وخلت أني أنظر وجهي في مرآة.

- "كيف لم ألحظ تشابه ملامحي وملامح حميد إلى هذه الدرجة؟!". حاولت شغل ذهني دفعًا للارتباك.

سيطرتْ علينا - نحن الاثنين - مشاعرُ سعادةٍ لا يُعرف سرها ولا مصدر إلهامها. لا شيء سوى النصوع المبهر في ثغر بهلة يتدفق منه النور، ثم عادت إلى الدوران، ومعها الغرفة تدور من جديد، فينتشر النور ويفيض ويزداد التوهج ويظل فاروق و"محسن الديك" مغشيًّا عليهما، فلا يبين لهما أثر. لا شيء سوى ابتسامتها وأصوات الفضة والذهب في ثوبها، وتبقى العين أسيرة في نقوش وزركشات ثوبها العجيب اللافت، وتتلون الحجرة بشيء من لونه، وتختلط الألوان فلا يمكن أن تحدد لونًا يسود الغرفة.

- "الفضي!".

- "الذهبي!".

- "الأحمر القاني!".

- "الأزرق.. لا..لا.. بل البنفسج!". حاولت تحديد لون الغرفة.

حين توقفت عن الدوران في وسط أعلى الأريكة التي جلست عليها عمتنا منذ قليل، وبدأت تهبط إلى حيث وسط جو الغرفة، ولأخذت تهمس بصوت هو الخلود الذي تتمناه البشرية، ثم اقتربت في هدوء نحو جسدي وجسد حميد المرفوعين في جو الغرفة فوق الأريكة تحتنا، امتثالًا لإشارة يديها، نسمع همسها:

- "أنتما ولداي وحبيباي". همست بهلة.

- "كأن نساء العالم همستها بحب". هكذا ملأني الشعور.

- "ألا تحبُّنا يا مصطفى الصغير؟". سألت بهلة حميد.

- "بلى.. بلى.. أنتن كل الحب". أجاب حميد بآلية، يصاحبها هزّ رأسه.

- "أنتن!! يا ابن مصطفى شابهت أباك". قالت بهلة.

ابتسمت من جديد، فازداد النور الآخذ من وصف ثوبها انتشارًا وسيطرة على كل زوايا الفراغ في الغرفة، ثم قربت فمها الباسم نحوي وهمست بأنفاس المسك:

- "وأنت.. يا من أخذت اسمك من طبيعتي وسمتي.. ألا تحبنا أيها المسافر الموعود؟". سألتني بهلة، وانحنت تقبلني.

ساعتها شهقت ثم غبت عن الوعي، وفي منامي وجدت أبي يحدثني عن غرام عمي مصطفى بكل نساء العالم.

- "أسميناك نور حتى تنير حياتنا أنا وأمك". قال أبي.

- "ينير الأولاد بوجودهم حيوات الآباء والأمهات؛ فمن ينير حياة الأولاد إذن؟". سألت أبي.

الفصل الثامن

ياسمين

يا اللي جوزك ف المالح..
طابخة الحمام ده لمين..
طابخاه لأمي وأبويا.. وربّ العالمين
طابخاه م النوَّة الأولى..
للغايب من سنين..
طابخاه وبأنادي بصوتي
ارجع لي يا نور العين..

من يعفيني الآن من هم الانتظار، أو من يجيب عني حين تترى التساؤلات هنا في مرقدي هذا؟ من يخبرهم أني قديمة مثلما قدمهم؟ بل إن قدمي موصول به، من جاء بالنور، من كان للنور أصلًا وصاحبًا، من يخبر عني؟ من يعلمني حياد النور حين يدخل في القلوب المظلمة، فيحلو بلا انحياز، فقط يأخذ مكان الظلمة باستئذان رفيق، فتغمر الروح آثار الغزو الشفيق، وتتعلم كيفية الوصل ما بين النور الأصل وما بات في القلوب من ذات النور؟ من يخبرهم أني الآن مشغولة عنهم باتباع علاماتي الخاصة التي دلني عليها تاريخ النور في سلالتنا نحن آل صابر الموعود بالنور؟ من يؤخرهم عني ولو قليلًا فلا يحرقوهم ولا يحرقني النور متى تجلى ليسألني سر صمت العظيم؟! هلا بقيتم على صمتكم هذا حتى ينتهي القارئ على رأسها من حكايتنا، فيلمسها النور مثلنا، ويعيدُ الكرَّة من جديد؟!

امتدَّت يدا عمتي نحوي برفق، وهمست بأن أصحو، ثم سمعتها تناديهم بأسمائهم، وأنا مغمض العينين، رأيت صورة عمتي التي عرفتها فيها لأول مرة وضفيرتها الطويلة تتدلى ببريق زيت الزيتون على صدرها، وابتسامة رائعة تداعب ثغرها، وتعود لتتشكل ملامحها الآن قليلًا قليلًا، حتى تكون على حالها الآني. كانوا قد تمددوا من حولي على الأرائك، ثم تركتني وتحركت نحو "محسن الديك":

- "استيقظ يا ديك". نادت عمتي.

استيقظت عيناي على مهلٍ. كانت عمتي تحاول جاهدة أن توقظنا، ثم صاحت في الجميع:

- "العصر انتهى، ورُفِعَ أذانُه في المسجد.. هيا انهضوا للصلاة، وعودوا من المسجد مباشرة لتناول الطعام، هيا أيها الأولاد الكسالى". ثم ابتسمت.

- "متى حدث ونام الجميع؟". سألتها بصوت مشبع بالنوم والكسل.

فأخبرتني بأنني كنت أولهم، ثم أمرتني وهي خارجة:

- "أيقظ هؤلاء الكسالى للصلاة هيا لتلحقوا بالجماعة في المسجد، ألا تصلي؟".

انصرفت إلى داخل البيت، وأظنها وارت نورًا تسرب نحوي حيث أرخت وشاحَ رأسها على وجهها كله. توضأتُ مثلما فعلوا، وخرجنا إلى الشارع قاصدين المسجد المجاور، فسألتهم إن كُنا سنصلي في المهدي، فضحكوا، وبادر "الديك":

- "أنت هنا في عصر العاصمة السرية ما بعد الحداثة والثورات".

حين سألتها عن دافعها لترك أهلها الخمسينيين، واعتناق البوذية، أخبرتني بأنها أرادت أن تتعرف على ذاتها ضمن الكون من زاوية جديدة، وأن صف اليوجا الذي التحقت به ساعدها في تدريب روحها على التأمل كثيرًا، ودعتني للحضور معها للتعرف على الصف، والحضور معها. ساعتها تذكرت حديثي عبر الشات مع علياء حول

لوحتها التي رسمتها لراقص تركي يحمل من ملامح أمجد الجني.

- "راقص قونية". أخبرتني باسم لوحتها.

استطردتْ أن راقصها مركز العالم، فلا يمكن لعالمها أن يدور إذا توقف، وظلت تشرح لي رؤيتها التصوفية حول التقاء الأرواح، وعن نظريتها في حب الأرواح، وفجأة قالت:

- "اتحفظ سرًّا يا ابن عمي؟ أحب الرجلين يا نور.. أتصدق؟".

انتظرت مني تعليقًا على جملتها ولوحتها، لكن لم أكن أملك وقتها إجابة تريحها، فأنا عرفت منذ قليل عن علاقتها بأمجد الجني الممتدة، وعن زواجها.

- "قلوبنا مخلوقة للحب يا ولدي، ولا تحتمل تناقضَ الكراهية والمحبة". قال أبي.

- "وكيف يحتمل الرب - وأنتم بعضه - الحبَّ والكراهية؟!". بعقل الطفل سألت أبي.

* * *

حين اختفى، كنت أبحث عن أي دليلٍ يقودني إلى حيث يوجد، وحين كنت أبحث في حاسوبه الشخصي عتيق الطراز الذي كان يُصر على الحفاظ عليه دونما تجديد، وجدت بعض الملفات المحفوظة لمحادثاته معهم هناك في البلدة، ووجدت من بينها ما أنقله بحاله الآن، حين عاد عمي مصطفى إلى البلدة تاركًا الإسكندرية، ومعتقدًا أنه لن يرجع إليها مرة أخرى، يومها كان الصراع بين قوى سياسية وثورية وحزبية يتفاقم في مصر بعد عامين من ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

- "مصر ترجع للخلف، النظام لم يسقط، وأمن الدولة لم يسقط". شكا عمي مصطفى لأبي.

- "أمر طبيعي في تاريخ الثورات، تحالفات وتدبيرات ومؤامرات، وفوضى التخوين ونظريات التآمر". قال أبي.

- "يا حسن ولاد المرَة بيلعبوا بالدين لعبة قذرة". قال عمي مصطفى.

- "لن تغير الكون يا مصطفى، وتجنب الاحتكاك بهم". ردَّ أبي.

- "ليس الدين ملكًا لهم، أنت لا علم لك بما فعلوا هنا". قال عمي.

- "ولا الوطن قصرًا على أحد". علق أبي. ثم أردف:

- "يا مصطفى، البلدة لا تحتمل شطحاتك، هم في حاجة للقمح والزيت واللحم أكثر".

- "بل هم في حاجةٍ يا حسن إلى الحب. نعم، يحتاجون من يحبهم هم لا لأصواتهم الانتخابية، الحب وحده هو رسالتنا الإنسانية".

- "إذن تحمل أيها المخلص المحب، وإياكَ أن تشتكي".

كان عمي مصطفى إبان عودته المفاجأة إلى البلدة، تسيطر عليه فكرةٌ مفادها أن الله خلق الكون بالحبّ، وأن الحبَّ سابق على التعمير، بل رآه - في حقيقة الأمر - لن تكتمل رسالة البشرية في عمارة الأرض أو العبادة بدون الحب.

- "الإنسان أكثر المخلوقات التي تمتعت بحب الله". قال عمي مصطفى.

- "تغيرتَ كثيرًا يا درش.. رائع ما فعلته الثورة فيك". يبتسم أبي.

- "سنتحاور على الملأ في مركز الشباب". قال عمي مصطفى.

ثم وجدت ملفًا يحمل اسم "المناظرة صيف ٢٠١١"، هذا نصه:

- "آدم الإنسان أم آدم النبي؟ من يعرف الإجابة سيفهم دعوتي". سأل مصطفى.

- "ماذا تعني؟ ما عَلاقة سؤالك بما تجمعنا لأجله؟". سأل أحدُ المناظرين.

- "مصطفى ولد مسعود الشحات يهرطق ليضل العباد". قال ثان.

- " هو مبعوث الشيطان إلى البلدة، ليذبها عن جادة الدين الحق". قال ثالث.

- "من قال لنا نعم ضمن الجنة، ومن قال مثله لا ملعون مُخلَّد في النار". قال رابع.

- "يدعي النبوة، وأنه نبي، يقول بأن وحي الرسالات انقطع، لكن وحي الإنسانية وصلتها بالله لا تنقطع أبدًا". نقل عنه آخرون.

- "نعم، كلكم نبي يوحَى إليه، لو تعرفتم إلى روحه فيكم ولمستموها.. لو خبرتم الحبَّ فيه كما خبرت.. لو دققتم نظركم في قلوبكم لوجدتم الله فيها.. أنتم مساكين". قال مصطفى.

هكذا فشلت المناظرة، وتم تكفيره، حتى إنه كتب تعليقًا على ذلك يقول:

- "وهكذا سيستمرون في شيطنة الجميع، اليوم شيطنوا الثوار، وغدًا يشيطنهم الناس". كتب أبي.

أذكر أن أبي حدثني يومًا قبل اختفائه عن الحادثة التي قضى فيها عمي "مصطفى"، والضحك يخالط حزنه، وذلك حين تذكر معي هاجس عمي:

- "أخشى ما أخشاه يا حسن، أن أموت ميتة سخيفة". ابتسم أبي وهو يكررها.

- "موتة خايبة!!".

يمر المشهد أمامي وأرى ابتسامة عمي لحظة احتضاره في طائرة الإسعاف قُبيل وصوله المستشفى، وتتردد جملته الأخيرة في أذني كما حكاها عمي أسامة لأبي برواية أحدهم هناك:

- "يا ولاد الكلب.. برضه موتة خايبة، صعيدي! ملتحي! وعند سوبر ماركت فتح الله

الرأسمالي! يا عارك يا درش". يبتسم ويصمت؛ ليموت في صمت.

قُتِل عمي مصطفى بالخطأ في حادث ثأر، حين تصادف سيره بالإسكندرية مع صديق شاعر صعيدي، فرَّ هاربًا من ثأر ظلَّ يلاحقه، حيث عادت تلك الظاهرة للانتشار بعد أحداث العنف بعد مظاهرات (٣٠يونيو) في ٢٠١٣، وارتباك الشارع المصري. أذكر أبي يومها، حين وصله الخبر، تحرك نحو مجمرة البخور، وأطلق الأبخرة، وعلى غير عادته، طلب مني سيجارة؛ فقد توقف عن التدخين منذ جئنا إلى كيرونا الجديدة، حيث أصدر مجلس بلدية المدينة قانونًا يحظُر التدخين في الشوارع العامة.

– "سجائري بروحها ونكهتها هناك في حديقتنا الخلفية بكيرونا القديمة وجبلها". قال أبي.

أشعلها في صمت، وأخذ يبحث عن صورةٍ واضحةِ المعالم لعمي مصطفى في حاسوب البيت، ثم أعطى الأمر بطباعتها؛ وحين تلقفتها يده من الطابعة، ظلَّ ينظرها، ثم اغرورقت عيناه بالدموع.

– "حدث ما تخشاه طوال عمرك يا درش". قال أبي.

كأنَّ العالم وقتها كما كان يقول على الدوام، يمكنه أن يمارس ضد وجودك مؤامرةً كُبرى، تتداعي فيها الأسباب لأجل النيل منك وحدك، أو من عائلة بعينها؛ فقد رأى انتقالنا من كيرونا القديمة وقراري بالذهاب إلى استكهولم، ومرض والدتي الذي عرفناه بعدها، وموت عمي مصطفى، كل ذلك محض مؤامرة كونية ضده؛ فأبي ككل العرب الذين مروا بـ"مالمو"، يعتقدون في المؤامرة، ويقضون عمرهم في أسر وَهْمِها، حتى يتوقف العالم عن الدوران والحركة.

– "في بلدنا طرق عديدة وسيئة للموت". قال أبي.

– "وهل هناك في بلدكم طرق للموت جيدة؟!". سألت أبي.

خرجنا للتمشية في البلدة، على أن يقوموا بتعريفي بكل مناطقها التي شهدت طفولة

الآباء. تحركنا صوب الطريق حيث مجمع المدارس. جعلنا المجمع إلى يمين الطريق وتحركنا وسط كُتلةٍ من العمائر المتشابهة، فأخبروني بأنها مشروع للإسكان تورط فيه الكثير، انتهى بهرب أصحاب المشروع خارج البلدة، ويتداول الناس في البلدة هروب البعض منهم إلى بلاد الخليج العربي. حين عبرنا هذا المجمع السكني، طالعنا مبنى لمسجدٍ ضخمٍ ذكرني على الفور بمسجد الثلج في كيرونا البعيدة. بضع خطوات بعيدًا عن المسجد، وعرض حميد أن نتوقف للمرور ببيت أخواله - حيث تعيش والدته - ودون رد منهم، وفي آليَّةٍ كأنهم اتفقوا عليها، غيَّروا وجهتهم، وسرنا صوب بيت أخوال حميد الذي واجه البوابة الرئيسية للمسجد، فقرأت لافتة كبيرة معلقة على باب حديدي ضخم:

- "مسجد ومستوصف منية المهدي الجديد".

وقتها تساءلت في نفسي عن ولع العرب بتسمية المساجد بأسماء أماكنهم وشخوصهم، ورحت أبتسم وأنا أتذكر كلمة عمي مصطفى حين حكى لأبي عنه:

- "البلدة تحتاج المصانع أو المشروعات المنتجة أكثر من حاجتها إلى المساجد التي تخلو من المسلم الحقيقي". قال عمي لأبي.

حكى لي عن المساجد في "مالمو"، وكيف تتسمى بأسماء الطوائف أو البلاد، فذاك مسجد الأحباش، وذاك مسجد الشيعة من لبنان، وذاك مسجد الإباضيين من الخليج، وذاك مسجد للسنة من مصر والأردن، وظلَّ يُعدد لي أسماء المساجد، حتى انتهى إلى أكبرها هناك:

- "مالمو مثل برلين، الأتراك لهم أكبر المساجد فيها". حكى لي أبي.

كنتُ أعرف كراهيته الشديدة لتلك التسميات؛ فهي في النهاية كُلها لرب المسلمين - كما قال - فما الداعي لتسميتها بأسمائهم السخيفة كما اعْتَقَد.

حين وصلنا البيت تقدم حميد ودقَّ جرس الباب ونادى:

- "ياسين.. يا حاج ياسين؟".

أجاب الصوتُ من الداخل:

- "من الطارق؟".

- "أنا حميد يا ماما، افتح يا ياسين". أجاب حميد الصوت.

ظهر شاب في العشرين من عمره. ابتسم واحتضن حميد وفاروق، ثم رحب بمحسن الديك بشكل رسمي للغاية، بدا لي متناقضًا مع ترحابه بحميد وفاروق، بعدها نظر نحوي بفرح، وسأل:

- "نور؟ أليس كذلك؟ عمتي في انتظاركم منذ الصباح".

أظنني يمكن أن أقدم تفسيرًا لبرودة المقابلة بين الديك وهذا الشاب؛ فأنا أعرف مثلهم بأمر علاقة الديك وأخت الشاب، وكيف تم رفض طلب خطبة الديك منها، متعللًا خال حميد يومها، بأنه سكير وحشاش، وأن ياسين هذا اصطدم بعدها مرتين به، ظنًا منه أنه ما زال يتابع علاقته مع أخته. يومها سألته في المستشفى عند زيارتنا لأمي قبل ثلاث سنوات، أن يشرح لي سرَّ هذا التعقيد في علاقات الرجال بالنساء في البلدة، وعن موقف الأجيال من عمري من ذلك.

- "هناك أصبحنا عبادًا للعادات، وأسوأ عاداتنا هناك أن النساء وحدهن من يجلبن العار بعلاقاتها للعائلات لا الرجال أيضًا". قال أبي بتهكم.

دخلنا إلى البيت. صالة تمتد إلى الداخل، تُفضي في نهايتها إلى حجرتين تتواجهان معهما دورة مياه، ومطبخ، حوائط البيت يبدو أثر الرطوبة عليها واضحًا، وبعض الملح قد تكون في الأسفل. حجرة ثالثة كانت هي مقصدنا، حيث طرق حميد الباب برفق:

- "ماما ياسمين.. ماما.. ندخل؟". سأل حميد.

- "تعالوا.. تعالوا يا أحبتي". أجاب صوت واهن من الداخل.

بمجرد ولوجنا الحجرة، تذكرت ملامحها في آخر الصور التي رأيتها لها وعمي مصطفى. لم يفلح غطاء رأسها في صدِّ شعيرات بيضاء أطلت في وشايةٍ خدَّاعةٍ بسنها. أعرف أنها لم تتخطَّ عقدها الخامس بعد، لكن للوهلة الأولى تظنها فاقت الجدة في بيت عمي صِدِّيق العمر، وهنا تذكرت جملة أبي التي حدثني بها مرة:

- "نساء هذه العائلة لا يُعرف لم يَدب فيهن الشيبُ سريعًا؟". قال أبي.

تقدم حميد منها، وقبّل يدها ووجهها، وكذلك فاروق، يتبعهما محسن، ثم تقدمت على استحياء منها:

- "صباح الخير يا (عمة ياسمين).. كيف الصحة الآن؟". سألتها.

- "من؟ نور حسن !! تعالَ يا ابن الغالي، ورائحة الأحبة". قالتها وفتحت ذراعيها لاحتضاني.

- "كيف الحال، لعلك بخير؟". سألتها وأنا عالق بين ذراعيها.

- "هزمني المرض في النهاية يا حبيب عمتك". أجابت بانكسار واضح.

كان حميد قد أخبرني عن مرضها، وشرح لي قلة حركتها الناتجة عن خشونة المفاصل، وآلام ما يسميه البعض عندهم "عرق النّسا"، ولا أعرف سر التسمية هنا. قال لي بأن الجميع هنا يعاني من هكذا أمراض بفعل الرطوبة التي تتمدد في البيوت إلى جوار ساكنيها منذ الأزل. هنا يجب أن أذكر شكوى أبي - هو الآخر - من هذه الآلام طوال وجوده في السويد. يومها في طفولة ساذجة حاولت الاستفسار عن هذا المرض "عرق النسا"، وسألته:

- "كيف يصيب الرجالَ عرقُ النسا؟". قلت بعجب.

ظل يضحك، ثم حكى لي ما فهمته عن كونه مرضًا يصيب الكثيرين هناك، وأن تقلبات الطقس تساهم في ظهور آلامه، فعاودني العجب. كيف للرطوبة والبرودة باختلافهما أن يسببا نفس المرض:

- "أبي لا أفهم كيف تتنافى الرطوبة مع البرودة يا أبي". سألته.

- "أوووه... هههه... يا نور مصطلحات بلدتنا لها مناخها وأمراضها ومسمياتها، ولا تتوافق يومًا مع ما تدرسه من علوم، فتبدو لك عجيبة، وليس العالم كله كيرونا يا ولدي، كل شيء هناك له طبيعته". علق أبي مبتسمًا.

الآن أفهم شيئًا شيئًا، وأتدارك معاني الخصوصية في كلامهم وإشاراتهم ومصطلحاتهم، حتى ألقابهم العجيبة ومنطقها الخاص، كانت لها فلسفتها العجيبة.

أخرجتنا العمة ياسمين بكلامها من جو الترحيب العائلي المبالغ فيه، والذي يسبب لي في العادة نوعًا من الحرج. ضربت بيدها في حب يد الديك محسن، وقالت:

- "الحمد لله يا ديك.. قتلنا كلبنا الأسود".

احمرَّ وجه محسن، ولأول مرة منذ عرفته، أشعر بأنه في حرج حقيقي، حتى لم يفلح في مداراة الحرج، وابتسموا جميعًا في مجاملة. اجتهدتُ في تحليل جملهم وإشاراتهم كي أفهم ما يدور. كنت أحاول طوال عمري التخلص من هذه العادة التي تجعلني في كثير من الأحيان أكون الحاضر الغائب، حتى إن "ليلي" حين حدثتني عن لقائها الأول في المستشفى بطبيبها - الذي تحول إلى صديقها ثم زوجها فيما بعد - "آغ مسعود"، استنكرت ذلك. مشكلتي معهم تتلخص في كوني أميل إلى التركيز في بعض الجمل والإشارات وأحاول تحليلها لفهم أعمق، غافلًا عن بقية الحديث:

- "أتمنى يومًا أن تنتهي من هذا التركيز الذي يحجب عنك الكثير من الأحداث". تمنت لي "ليلي".

عادت من جديد العمة، تزيل من جبل الثلج الذي تراكم فجأة فوق أكتاف محسن، وتسأله عن أحوال المسيو صديق والخالة "هالة"، وعن صحة الجدة.

- "ألا تزور عمتك "ياسمين" سوى في المناسبات؟". أردفت ياسمين.

- "لا يا عمة.. فقط مشغول". حاول محسن التبرير.

- "لا عليك يا ديك. أعلم حظي مع رجال هذا البيت، ورضيت.". ثم تهز رأسها في هدوء.

ظل محسن على جموده غير المعتاد، وبدا متوترًا، فعادت العمة تلومه:

- "ما بيني وبينكم يا ديك، لا عَلاقة له بما حدث.. كل شيءٍ نصيب يا ولدي.. نصيب".

- "نصيب؟! نعم.. نعم.. الحمد لله يا حاجة". قالها الديك بصوت متهدج، ورفع حاجبيه، ونظر نحو العنكبوت بالسقف برهة، ثم أخذ يهزّ رأسه هو الآخر، ويجاهد دمعة كادت تظهر.

غيَّر فاروق مجرى الحديث، وكأنه ينبه العمة إلى وجودي الذي كادت تنساه بحديثها المنصب باتجاه محسن، فلامت نفسها، ولامت ثلاثتهم، ثم عللت كيف أنساها الأولاد وجودي والترحيب بي كما يليق. اعتدلتْ قليلًا في جلستها، فرفعتْ رأسها إلى الأعلى قليلًا، ومدت يدها أسفل الوسادة خلفها. أخرجت نظارتها الطبية من حافظتها، ثم راحت تتفرسني بعد أن عدَّلت من وضع النظارة فوق وجهها:

- "نور.. لم تتغير كثيرًا.. تعالَ إلى حضن عمتك من جديد.. تعال". طلبت العمة ياسمين.

تحركتُ نحوها حيث كانت فوق سريرها، وأسلمتُ نفسي لها، فاحتضنتني بين ارتعاشات يديها وطبطبات يدها، وكأنها كانت تبكي:

- "كانت آخر وصايا مصطفى أن أحتضن من يأتي منكما يا ولدي حسن، وأبلغه حبه". ثم صمتت.

التقطنا خيط الصمت منها، وشعرت بأن العيون من حولي قد تجمدت فيها الحياة، ولعل جو الغرفة المغبر بالرطوبة وقليل الضوء، هما ما جعلنا يثبت كل منا نظره في بقعة ما في الحجرة، واستسلم للصمت في حالةٍ أقرب ما يصفها هو الحزن. كنتُ أول من حاول قطع حبل الصمت، فربتّ على كتف العمة، وهممت بالكلام، فلم أقوَ، فنظرت نحوي وسألتني:

- "هل أستحق كل هذا منكم يا أولاد عم مسعود؟!". ثم هزت رأسها في رضا تام.

- "الحمد لله.. الحمد لله". كررتها مردفة.

كانت جملتها كفيلة بأن تعيد إلى ذاكرتي، تفاصيل مما دار بيني وبين أبي حول انفصال عمي مصطفى عن العمة، وكيف حاول الوصول إلى مبرر معقول لذلك، وكيف رأت العمة تخاذل العائلة باستثناء عمي أسامة، حين عنف عمي مصطفى لقراره بالانفصال عنها. أنا لم أستنكر ما فعله عمي، إنما استنكرت هجومهم عليه، وكيف يمكن لهم هناك أن يعاقبوا المرء على خياراته العاطفية والاجتماعية التي يراها ملائمة له، أو يتخلى عن أخرى لم تعد لائقة. ربما حتى غضبه على عمي يومها لم أفهمه، ولم أقتنع بكل ما حدثني به عن عاداتهم هناك، وعن الأعراف الاجتماعية التي تسير البلدة وفقًا لها، وكيف يتعامل الناس في المجتمعات الصغيرة بعلاقاتهم الأولية تلك، والتي تبدو بعض الأحيان شديدة الهشاشة؟ لكنه أخبرني أنني لن أفهم طبيعة الناس هناك بسهولة. ها أنا الآن أحاول فهمهم، آملًا أن يدلني هذا الفهم على فهمه أو يرشدني إلى مكانه.

- "في بلدتنا يرون الانفصال أفضل، ومجلبة لراحة الجميع، أو هكذا تصوروا.". قال أبي.

- "وهل نريح أحبتنا، أو أنفسنا بالانفصال عنهم أو البُعاد؟!". سألت أبي.

* * *

جلسنا على مائدةِ طعامٍ أعدتها عمتي "إشراق"، وحين وضعتْ قطع الجبن وأكواب اللبن، ترحمتْ على عمي مصطفى، وتندرت بكراهيته الأولى للألبان وكل ما تنتجه زرائب الفلاحين، واستطردت تُعيد أقواله عنهم، وكيف دمروا بحيرتهم، وحولوا الشوارع فيها من "منشر" لشباك الصيد إلى مقالب روث متناثرة، ومالت قليلًا في روايتها إلى تأييده، لكنها عادت تُخبرنا بأنه يوم أفل إلى البلدة، وبعد مناظرته في مركز الشباب، تبدلت مواقفه نحوهم، وكثيرًا ما دافع عن فقرهم وحاجتهم، وأخذ يُبرر لهم كل ما اعتبره في الماضي تحايلًا وخبثًا مستطيرًا، ولا يُعرف سر تحوله هذا حتى مات هناك بعيدًا عنهم في الإسكندرية حيث عاش مُكرهًا على الحياة إلى جوار البحر فيها.

- "بحر الإسكندرية فيه يا أمي من بعض بحيرتنا". قال عمي مصطفى للجدة يومًا.

حدَّث أبي طوال إقامتنا في كيرونا القديمة عن رغبته في ترك الإسكندرية، لكنه لم يجرؤ يومًا على تنفيذ ذلك القرار، وأبي يكتفي كل مرة بالابتسام والتعليل بأنه ابنٌ أصيلٌ للصيادين، لا يمكنه العيش بعيدًا عن البحيرة وريحها.

- "لعل يود البحر قد عوضه بعض أوجاع البحيرة القديمة". قال أبي.

يتراكم الحزن في عينيه كلما حكى عنه كيف لم يفلح في النفاذ بالمدينة ومبانيها إلى قلبه؛ فعلى الدوام يراها رمزًا للفقد، وحين سأله أبي عن هذا التناقض الواضح من عيشه وعمله فيها، وكراهيته لها، أجاب:

- "وحدها من تمنحني أمنيتي الأخيرة يا حسن. نعم، الإسكندرية وحدها من يمكنها ذلك". قال عمي مصطفى قديمًا.

أمنيته عجيبة مثل حاله، وعمي من العجب بأن يريك في حياته وتفكيره كل

التناقضات في وقت واحد، وأبدًا يحتفظ بجمال الجمع بين التناقضات متى اجتمعت، ولا تملك أمام منطقه الجنون غير الابتسام المخلوط بخوفٍ شديدٍ على سلامة عقله حين يفلسف الأمور، أو يشرح وجهات نظره في الأشياء، أما متى انتبهت إلى ما أسماه أسئلته الكونية، فلن ترى إلّا مجنونًا ضل الطريق به نحو عالمٍ شديدِ التعقل، يزداد صلابة في رفضه، وهو يزداد تشبثًا بفروض جنونه وتفاصيله.

- "يومها ستخرج البلدة عن بكرة أبيها وتنتظرني". تمنى مصطفى قديمًا.

أخبرني حين كنا نتسوق في مركز المدينة الجديد في وسط كيرونا التي غطى شوارعها الثلج، بأن عمي أكثر من رآهم من البشر يُحبها، لكنه ككل أولاد الصيادين يخشون البوح بحبهم، فيرفضون الإفصاح عنه، ويعتقدون في ذلك عزتهم وكبريائهم.

- "منذ متى ينصفنا الحبُّ يا أخي؟ ومنذ متى ينصف العالم المحبين؟!". سأله مصطفى.

أخبرني بأنه تمنى أعجب الأمنيات؛ فيوم جاء الخبر بوفاة جدي "مسعود" في مستشفى "الميري" بالإسكندرية، خرجتْ البلدة تنتظر جثمان جدي، وافتتح "نوفل" مكبر الصوت في مسجد المهدي، ثم تمخط بشيءٍ من البلاهة والسذاجة المفرطة، وكاد السامع يومها أن يرى رقبته التي مطها فطالت الهلال المقوس في أعلى المنبر إلى جواره، وكيف ظل يسعل كمرضى الربو، فيدهش البلدة كلها بصوته المبرمج حين يسمع صافرة مكبر الصوت:

- "الدفن عند الوصول من الإسكندرية". قلده أبي حين ينطقها له بحزن مصطنع ومبالغ فيه.

العمة ياسمين لازمته طوال حياته هناك. رفضت كثيرًا ترك المدينة حين عرض عليها السفر نحو الجيزة، متعللًا بالعيش قرب الجدة وعمي أسامة وحامد، وهي الأخرى تعلمت الجنون مثله، وأخبرت الجميع بأنها هناك في الإسكندرية التي تحتفظ لعمي مصطفى بآخر الأحلام.

- "لن أسمح للعالم أن يحرمه آخر أحلامه، ولتنعتوني مثله بالجنون". قالت ياسمين.

وحين حاولوا إقناعها بالانتقال معه إلى الجيزة وترك الإسكندرية للأبد، كانت تكتفي بإجابة واحدة:

- "يبدو أنكم لا تعرفون أخاكم جيدًا؛ سيموت متى غادرها". بررت ياسمين لهم.

كأن عدوى جنونه تنال ممن يعرفه؛ فالعمة "ياسمين" حين عادت إلى البلدة بعد موته، ظلت تدخن في شراهة من علب السجائر التي تعودها، وكلما لاموا عليها، أخبرتهم أنه يحيا باستمرار دخان سجائره من حولها؛ وحين انتبهوا ونبهوها لكلامها الدائم عن شخصه غير الموجود، ثارت في وجههم.

- "مصطفى لم يمت، أنتم لا ترون، لقد أراني النور، وعرفت". قالت ياسمين لهم.

كثيرا ما استعانت العمة ياسمين بمن حولها في تفسير بعض العبارات والجمل، وحين ينتهي أحدهم من التفسير، رددت عبارتها التي نقلها عنها عمي أسامة لأبي حين زارنا في كيرونا الجديدة:

- "حين كان حيًّا هرب أخوك بعيدًا عني، لن أسمح له أن يهرب ميتًا". قالت لأسامة.

تعودوا منها في تلك الأيام أن تكرر عباراته، حتى إنها كانت تجلس في باحة البيت وتقرأ من كتاباته، وتدخن بنفس طريقته، وتحرك يديها حركاته المشهور بها حين يُفلسف الأفكار لهم.

- "مصطفى يسكن هنا، في كتبه وعلب سجائره". تكرر ياسمين لهم.

يوم وصلت عربة المستشفى التي تحمل جثمان الجد مسجى في الخلف، وترافقه الجدة، تعالت صيحات النساء، وصرخات الكثير، وهاجت الجموع التي تنتظر الجثمان؛ للصلاة عليه.

- "سنغسل، ونُكفن، ونخرج من بيتنا". صاح عمي "بركة" يومها.

يومها شرح لهم كيف هرَّبوا جثة الجد، بعدما لفظ أنفاسه بمجرد دخول المستشفى الميري بالإسكندرية، وأخبرهم بآخر ما قاله الجد:

- "كيف طاوعكم قلبكم بأن أموت بعيدًا عن أرضنا". عاتبهم الجد قبل موته مباشرة.

ساعتها أخرجت الجدة كيسًا من القماس، ومدت يدها في داخله، وأخذت تنثر من يدها بعض التراب على طول جسده، وتبكي في مرارة.

- "أنت في أرضك يا مسعود، لا تحزن يا حبيبي". قالت الجدة له، فابتسم.

تحركت العربة بصعوبة نحو البيت، مرورًا بالمقابر ثم مسجد المهدي، حيث زاد الحشد ازدحامًا ونحيبًا. يومها قالها عمي مصطفى لأبي:

- "أتمنى مثل هذه الميتة يا حسن!!".

أنا الآخر، أينما أرُحْ أشعرْ بحنينٍ جارفٍ نحو "كيرونا القديمة" مدينتي التي تمنيت الموت فيها، وأن يوارى جثماني في تراب سفح جبلها إلى جوار مناجم الحديد هناك. حين حكيتُ لهنري عن رغبتي في أن أرى أمي في منامي، نظر نحوي وقال بحزن:

- "أخشى أن حديد الجبل صبغ قلوب موتى كيرونا بالصلب، فما عادت تشعر بحنين إلينا".

يومها قررنا ألّا نموت في كيرونا، وألّا ندفن فيها، وتمنينا ألّا يلفنا ظلام وبرد كيرونا الطويل إلى الأبد في قبورنا.

- "في بلدتنا تحمل عنا النساء الكثير حتى بعد الموتْ". قال أبي.

- "ومن يحمل عنهن هناك يا أبي في الحياة والممات؟!". سألت أبي.

حين زرنا العمة ياسمين في بيتها، راحت تحكي لي عن زيارتي الأولى إلى مصر. كنت

لا أذكر من تفاصيل الرحلة سوى العجائز اللائي حضرن، لتهنئة الجدة بعودة أبي، وكيف امتلأ البيت بالضيوف.

- "يومها بكت أمك حين بكت الجدة وطلبت منها أن يبقوا لشهر آخر معنا". قالت العمة ياسمين.

وحين عدنا إلى البيت سألت عمتي إشراق:

- "كيف حال أم حميد يا حميد؟".

أخبرها بما يعرف، وطمأنها إلى حالتها الصحية التي استقرت، فعادت تسأله:

- "لم أرها منذ أيام، ولا أعرف كيف انشغلت عن السؤال عنها؟".

- "هي تعتذر كون مرضها منعها من زيارتك". عقب حميد.

- "مسكينة يا ياسمين، أظن مصطفى قد ظلمك حيًا وميتًا". قالت يومًا عمتي.

دومًا حين كان يذكر النساء في البلدة مسبوقة بأسماء أبنائهن، كنت أندهش، ولا أعرف مبررًا لندائهن بغير أسمائهن، وسألته أن يشرح لي الأمر، ووجه الأناقة في نداء النساء بتلك الطريقة.

- "في بلدنا لا تختار النساء الكثير يا نور". علق أبي ساخرًا.

كانت عمتي أخبرتني بأن العم مصطفى ربما حمَّل العمة ياسمين ما لا تطيقه نساء البلدة، وأنه لم يعمد إلى ذلك، وكانت تشرد في حديثها كعادتها، فتفسح المجال لسحابة الحزن أن تظلل جماجمهم:

- "وهل تفرح النساء بمثل ما قلت يا أخي؟!". سألت عمتي نفسها يومها.

حين أعلن عمي مصطفى عن نيته الزواج، قررت عمتي ياسمين الانفصال عنه، والعودة إلى البلدة مع علياء وحميد. بعد زواج عمي بعامين عرفت خبرًا جديدًا حكاه

عمي أسامة لأبي، ويومها ظلَّ أبي كئيبًا بلا مبرِّر، وصمت لبقية اليوم.

- "أهلها أجبروه على الطلاق، فأخذت طفلتها وسافرت خارج مصر، أظنها ذهبت إلى نيويورك". قال عمي أسامة.

في اليوم التالي حاول أبي الاتصال به ليتعرف منه على كل التفاصيل، وأبي مغرم مثل الجميع بمعرفة التفاصيل العائلية عنهم، لكن عمي لم يجب.

- "في بلدتنا تعلمنا بلا عمدٍ أن نخلط بين الكذب وإخفاء الحقائق." قال أبي.

- "وهل من فارق بين الاثنين يا أبي؟!". سألتُ أبي.

* * *

في خريف ٢٠١١، وحين كانت "ليلي" في عامها الأول بمدرسة كيرونا القديمة، أذكر ثورة أبي حين هاتفه يخبره بزواجه، بعدها تأزمت علاقتهما لفترةٍ ليست قصيرةً بعد تلك المحادثة العصبية بينهما. يومها لم أستوعب كيف لعمي أن يتزوج بأخرى، ولم يقرِّر الرجال إدخال امرأة جديدة إلى حياتهم؟ ربما ساهم جهلي بالكثير عنهم في ذلك. في نهاية الأمر فرحتُ حين عاود الاتصال بأبي بعد أن سلَّم الجميع بواقع هذه الزيجة الجديدة، إلّا عمي أسامة الذي انحاز بتمام موقفه إلى العمة ياسمين، ورفض الزيجة برمتها. الآن وبعد انفصالي عنها لسنوات ثلاث أعرف حاجة الرجل الملحة لامرأة في حياته. حكت عمتي لي ما كان، فعرفت أن العمة ياسمين قررت التخلي عن الإسكندرية مدينتها التي تحب:

- "اسمح لي أن أتخلى عن وعدي أن أبقى حتى حلمك الأخير". قالت ياسمين لمصطفى.

- "دونك لن يكتمل أي حلم، كلها تصبح خيالاتٍ لمجنون". أجابها مصطفى.

- "أعتذر، فاقبل جهلي بقوانين الأحلام يا ابن الناس". بكت ياسمين يومها.

أعرف من أبي بعض التفاصيل الأخيرة، وكيف استمر في محاولاته للتفاهم معها والعدول عن قرارها بالانسحاب من حياته. قال بأنها كانت تدافع عن حياتها، وأن النساء في بلدتهم لهن طرق عجيبة في الاحتفاظ بالأزواج، وأنها لن تحتمل زواجه بأخرى، ولا تعرف كيف يمكنها احتمال أن يبيت في نفس المدينة بعيدًا عنها، وكيف يكون حالها إن ولدت له الزوجة الجديدة طفلًا. حين وصلت إلى البلدة عرفت أنها لن ترجع الإسكندرية. بعد طلاقه لزوجته الأخرى عادت إليها لبضع شهور، حتى كانت حادثة موته العجيبة؛ فتركت الإسكندرية للأبد.

- "كأنه كان يعرف أن نهايته ستكون أمام هذا المكان، فكرهه على الدوام". قالت ياسمين عنه.

- "منذ متى تُنصف الإسكندرية أبناء بلدتنا يا مسكينة؟!". قالت عمتي إشراق.

ظلت تحكي وتحكي عن الحادثة، بينما تتحرك في البيت كله، ونحن نتابع طعامنا، كأنها تريح روحها من هذا الحديث الضاغط على داخلها، والمشتت لعواطفها وتعاطفها، ففي جملةٍ تتحامل على عمي، وتنتصر للعمة ياسمين، وتتبنى موقفها الذي قررته بالعودة إلى البلدة، ثم تعود للتعاطف معه، وتجتهد في العثور على العذر تلو الآخر له، بما لا يجرح حميد، أو هكذا اعتقدت، حين قالت:

- "ملعونة تلك المدينة، تعشق مشافيها ونساؤها رجالنا، فما ذنبه في هذا القدر المكتوب على كل رجالنا". حللت عمتي موقف عمي.

- "ومن يعشق نساء البلدة يا عمتي؟!" سألتها في نفسي.

انشغل محسن وحميد بمساعدة عمتنا في رفع بقايا الطعام من مائدة الغداء، وبقيتُ وفاروق في الحجرة نتجاذب حديثًا حول العائلة. أخبرته بوصف أبي لطعامنا في كيرونا

بأنه لا رُوحَ فيه، وكيف رأى البلدة حتى في مذاق الطعام الخاص هناك، فكثيرًا أكد لي في حكاياته أنَّ عمتنا "إشراق" مميزة في هذا:

- "عمتك لها نَفَسٌ خاص في الطعام". يقول فاروق.

حملنا أكواب الشائي "المسعودي"، وصعدنا نحو شقة فاروق، وظلّت عمتي عند بداية الدرج تودعنا بالدعاء اللاهج بأن يحفظنا الإله من شرور وأشياء كثيرة لا أفهمها، ثم نادتني فجأة، فتوقفت لندائها.

- "هل اتصلت بليلي يا نور؟ بلّغها سلامي". لم تنتظر ردي، ثم اختفت داخل البيت.

كنا وقتها نجتاز باب شقة عمي "الحاج" - هكذا ظننته اسمه لسنوات قبل أن أعرف كون هذا الاسم مجرد لقب - كأني نسيت عادتهم في إطلاق الألقاب والتسميات على الجميع.

- "عمك بركة وحده من حج البيت لمرّات". قال أبي.

في البلدة تعودوا أن يطلقوا اللقب "الحاج" على صنفين من الناس، من زاد سنه وحنينه بادٍ لحج بيت الله في مكة، أو من زار البيت بالفعل، لكنهم على الدوام يضحكون، ويتهمون هؤلاء الذين أخذوا لقب "الحاج":

- "الحُجاج في بلدتنا قدرهم عجيب، فهم يفقدون ثقة الناس بمجرد عودتهم من الحج".

يومها حاول أبي أن يشرح لي سر ذلك الاعتقاد، لكنه على الدوام حين أخبره بعدم فهمي، يجيبني بكلمة واحدة:

- "كبر دماغك.. الحمد لله لستُ من الحُجاج في بلدتنا". يضحك أبي.

تساءلنا عن أول من أطلق لعبة الألقاب تلك في العائلة، وكيف صارت بديلًا لهم عن كل الأسماء بحقيقتها:

- "يا عائلة المجانين". قال الديك.

- "أرجوكم، لا نريد أن يسمعنا أحد، فيحدث ما لا يُحمد عقباه". همس فاروق.

طمأنه محسن الديك، بأن "الحاج بركة" غادر قبل يومين إلى بيته الآخر، ولا خوف من شيء.

- "جذوري هنا، حين غادرت إلى البيت الجديد، شعرت بجذوري تُقتلع". علل "الحاج بركة" عودته للبيت، وترك بيته الجديد.

علّق محسن على مشهد الفوضى أمام الباب، ونقر الحائطَ بإصبعه فتطاير الغبار، ثم أوقفَنا بإشارته نحو باب "الحاج" الذي رزم التراب فوقه وأمامه:

- "عفاكِ الله يا عمتي، وعوَّض صبرك".

دخلنا الشقة مع جملةِ حميد التي جاءتْ على ذكر جدَّتنا، بأنها ورثت هذا الوسواس من أمها، ثم أورثَتْه عمتينا وآباءَنا، ففهمت ما تندرت به أمي هناك عن إصرار والدي في حادثة طريفة، حين قرر أن يضيف إلى المرحاض أنبوب ماء خاص، لعدم قناعته باستخدام الورق الصحي، وابتسمت لنفسي حين سمعته في رأسي يكرر الكلام يوم انتقلنا إلى "كيرونا الجديدة":

- "أيوه، ماء للغسيل بديلًا عن هذا الورق.. ويظنون أنفسهم العالم الراقي! إفّ، بلا قرف".

حكيت لهم عن الأمر، فانخرطوا في الضحك، وتملكهم السُّكر حين أخبرتهم بأن أمي ثارت حين وجدت "لِيلي" تشرب من هذا الأنبوب ذات مرة، وكيف ضحك أبي.

- "سترك الله يا أمي، لو كنتِ معنا لأمرتنا بغسيل معدة لأجل لِيلي". قال أبي.

سعدت بانتمائي إلى تلك الجدة المصابة بوسواس النظافة حتى النخاع، ولم أعجب كيف يتصادف ذكرها هنا على أعتاب شقة فاروق، الذي ارتبطت به حتى رحيلها.

- "بحيرتنا عودتنا تنظيف دواخلنا مثل بيوتنا". قال أبي.

- "وهل تتسخ دواخلنا، فتحتاج للتنظيف الدءوب كما البيوت؟ ". سألت أبي.

* * *

في الليل، عرض علينا محسن الخروج نحو حدود البحيرة التي كادت تختفي معالمها. كنت أسمع في الماضي أحاديث متفرقة لأبي حول البحيرة، ومزارع الأسماك التي كان يمتلكها جدي "مسعود" هناك، والتي تحدث عنها دومًا بالكنية "أرض السد"، وحين سألته عن معناها، حكى لي بأن الصيادين في القرية ورثوا تلك المزارع عن أجدادهم الأوائل، حيث يقتطعون من شاطئ البحيرة بعض المساحات التي تفيض بماء البحيرة في أيام المدِّ البحري حين يفيض الماء من "بوغاز البحيرة"، وعرفت أن الجميع توارثها فصارت "أرض السد" كالبيت البديل لهم متى غابوا عن بيوتهم في الحي.

- "تناقل الصيادون عن أجدادهم بأن المنطقة كانت مدينة زاهرة قبل طوفان نوح العظيم، والبعض يعتقد بأنها مدينة للجن". حكى أبي.

كلما تندَّر بذكر "أرض السَّد"، كان يتبعها بعبارةٍ ورثها عن جدتي:

- "كانت أيام خير ومكسب، لا يمكن تعويضها". قالت جدتي ذات مرة.

عرفت من عمِّي أسامة أن البحيرة كادت تختفي، وأنه لم يعد موجودًا منها غير بركة واسعة إلى جوار البلدة في أقصى الجنوب الغربي للبحيرة، وأن الحكومة في ٢٠٢٣ تبنت مشروعًا، بإنشاء أضخم مزرعةٍ لإنتاج الطاقة الشمسية، فبدأت في عمليات تجفيف واسعة قضت على مساحة البحيرة في مجملها.

- "يبدو أن الفلاحين حين حولوا المزارع إلى أراض زراعية كتبوا للمساحة الباقية القريبة منا صك العفو من التجفيف للأبد!". قال عمي أسامة لأبي.

- "رحمك الله يا مصطفى، هل كنت تصدق؟!". قال أبي حين سمعه.

وصلنا إلى حدود البحيرة – أو ما تبقى منها – ووجدنا على حافة الشاطيء لافتة

ضخمة قديمة للغاية تحمل عبارة باللغة الإنجليزية، تشير إلى كون المنطقة محمية طبيعية خاضعة لمنظمةٍ ما بالأمم المتحدة. خرجنا من السيارة التي قادها "فاروق" بعد إصرار المسيو "عمي صِدِّيق"، الذي شدَّد بأن يتولى القيادةَ أحدُنا.

- "إياكم أن يقود هذا الديك، يكفيني من جنونه!!". حذرنا عمي صديق.

وافقنا، وتطوَّع فاروق، وتسلم مفتاح السيارة، ثم انطلقنا جنوب البلدة، فأشارت لافتة:

- "الطريق الدولي الساحلي ٣ كم".

وصلنا إلى هذه البركة الواسعة من الماء والمغطاة بالنباتات المائية تمامًا، والتي امتلأت ببعض الأصوات لحشرات ليلية اختلطت بنقيق ضفدع شارد، أتبعه عواء بعيد لمجموعة من الكلاب. أوقفنا السيارة إلى جانب الطريق، وتحركنا نحو البركة الواسعة.

- "من يصدق!! تلك البركة كانت بحيرتنا يومًا؟!". قال فاروق.

أسلمتنا الأصواتُ كلها إلى لحظاتٍ من السكون والتأمل، الذي أعادني إلى هناك، حيث قابلتها في الباخرة التي تعبر نحو فنلندا، لا أعرف كيف استدعاها السكون إلى هذا المكان العجيب الغريب عني وعنها. هكذا جاءت "سارة" تمشي على مهل فوق بقع الماء القليلة التي خلت من أعواد البردي والنباتات الأخرى. كانت الشمس آذنت بالزوال منذ قليل، وبعض السيارات تمر إلى جوارنا بسرعةٍ جنونيةٍ متجهة صوب كوبري يعبر فوق البحيرة، ويحمل لافتة ضخمة:

- "مدينة فوّه ١٥كم/ مدينة دمنهور ٤٥ كم".

لم أحاول طرد طيفها حين بدأ في الظهور، وهيأت نفسي لحضورها آملًا أن أُبقي طيفها إلى أطول فترة ممكنة؛ فلربما أفلح في إقناع طيفها بما فشلت في إقناعها - نفسها - به من جمال هذا العالم الذي لا تعرف عنه سوى كلمتين:

- "عرب = إرهاب". جرحتني مرة بقولها ذاك، وأنا الذي لم أعتبر نفسي أمتّ للعرب بصلة ما.

أخرجني بوقُ السيارة الذي أطلق نفيره على غرة، فانتبهنا نحو السيارة. كان الديك محسن في المقعد الخلفي، وقد أشعل ما قال عنه "صاروخًا". تحركنا نحوه فغشيتنا رائحة الحشيشة التي يدخنها بقوة ونفاذ. نظر نحونا بنظرةٍ تشبه قوس قُزح، ثم أغمض عينيه، وأسند رأسه إلى الخلف، تاركًا صاروخه بين شفتيه، وأخذ يشير بسبابته اليسرى نحو سيجارته العجيبة في زهوٍ زائدٍ، كمن توصل إلى سر الخلود:

- "الآن يا رفاق يمكنكم العبور في الزمن من خلال هذا الصاروخ المسجل ببراءة اختراعه إلى العبد الفقير". أشار نحوْ نفسه.

ضحكنا، وتصايح عليه فاروق وحميد، وأخذا يسبان ويلعنان فيه، وعقب حميد بأن المسيو يتحمل مسئولية هذا الانفلات كاملًا في أخلاقه. اعتدل محسن في مكانه قليلًا، وأخرج ساقيه خارج باب السيارة من الناحية المواجهة للبحيرة، ونظر نحو حميد بعينين مغلقتين تمامًا، ومنتشيًا للغاية:

- "ولم لا تقول بأنه أهدى للبشرية مخترعًا عبقريًّا في فن الصواريخ العابرة للأزمنة". ضحك الديك محسن، وضحكنا.

تناوبت معهم على الصواريخ التي أعدها الديك سالفًا، كأنه يدخل حربًا، وأخذنا نتكلم في موضوعات لا رابط بينها، من ماضيهم البعيد، ومن واقعهم، حتى انتبهتُ أننا نستمع إلى محسن الديك. ثلاثون دقيقة متواصلة لم يتوقف عن الكلام، فحاولت التركيز، وأفلحت أن أتسمع حديثه المتسارع كحركة الصواريخ الحقيقية في جو السماء، بالكاد فهمت الكلام. كانت جملته الأخيرة إذنًا بعودة الصمت من فوقنا. أفهم الجملة جيدًا؛ فأنا الآخر - كما يبدو لي - قلتها بنفس الكلمات تقريبًا حين حدثتُ "ليلي" عن "سارة"، وقبل أن تُسافر مع "آغ مسعود" نحو صحراء الأزواديين من الطوارق الزُّرق كما ينطقها "آغ مسعود".

- "أقسم أني أحبها، ولا طعم لحياتي بدونها". قال الديك محسن، ثم صمت.

لا أعرف كم من الوقت مضى ونحن في حالة الصمت الأخيرة. حاولتُ أن أخرجهم من هذا الجو خوفًا أن تتلبسني الكآبة، فأخبرتهم أننا يمكن أن نتابع من مكاننا هذا بوضوح، هذا الحدث الذي يشغل العالم الآن.

- "يمكن أن نرى تصادم المحطة الفضائية الدولية بالغلاف الجوي". أخبرتهم.

ورحتُ أزيد بأننا يمكن أن نرى سقوطها واضحًا؛ فالمكان الذي تتحدث عنه الاحصائيات شمال مدينة رشيد في البحر المتوسط بمقدار سبعين ميلًا بحريًّا.

- "الكاميرا في ساعتي سأضبطها وستقوم بالتسجيل التلقائي". منتشيًا كنتُ أحدثهم.

لم أنتظر إجابتهم، وأسرعتُ أضغط أزرار ساعتي. ساعتها تعالى رنين هاتف محسن العتيق الطراز الذي أضاء في الظلام وجهه لثوانٍ كانت كافية أن أرى دموعه بوضوح.

- "لا أحب الحشيش فهو يستدعي البكاء والحزن". قال عمي مصطفى لأبي يومًا.

أجاب محسن شخصًا بدا على شاشة هاتفه لم أتبينه، وأخذ يرحب به، ثم اعتذر وأخبره بمكاننا. أنهى محادثته وهو يعده بالعودةِ مباشرةً إليه بعد ساعتين. أعاد الهاتف إلى جيبه، ثم قال بهدوء:

- "عمكم ماجد.. موعدكم معه الليلة لا تنسوه". ثم عاد للصمت.

أجابه فاروق بأنه لم ينس الموعد، وأننا سيتعيَّن علينا أولًا أن نستفيق من رحلة صواريخه الملعونة، ثم سنتحرك:

- "الاصطدام سيكون بعد نصف ساعة من الآن. سنصوره مع نور، ثم نعود". أردف فاروق.

أظن ذكر الساعة والمواعيد، ذكرني ضرورة اتصالي بـ"ليلي" و"آغ مسعود". هما قد وصلا إلى أفريقية منذ شهور قليلة، والآن أظنهما في طريق العودة من منطقة طوارق

الأزواد نحو فندقهم في الدار البيضاء بالمغرب. سيتوجهان لزيارة الجبل في ريف الدار البيضاء:

- "سنقوم بزيارة جبل محكمة الجن ومغارة شمهورش هناك". ضحكت "ليلي" وأخبرتني حين علمت بالرحلة.

- "محكمة الجن؟!" سأل حميد.

- "نعم هكذا حكت لي ليلي قبل يومين في آخر اتصال بيننا قبل سفرها. سنرى أين هما، وأظنهما سيكونان متاحين الآن للاتصال بهما". أجبت سؤال حميد.

نطقت باسم "ليلي"، فظهرت الأضواء البنفسجية الجميلة من ساعتي - وأنا تعودت حب لون البنفسج منها - أخذت تتشكل في تجسيم ثلاثي الأبعاد لخريطة الشمال الأفريقي، فحددتُ "كزا بلانكا" - الدار البيضاء - عليها، ثم ضغطت أداة البحث، فجاءت الإشارة بصورة "ليلي" مجسمة، فنقرتها بخفة، فتبعثرت جزيئات الضوء البنفسجي في الظلام، وبدأت تتشكل في تجسيم لجسد "ليلي"، ثم سمعنا صوت الرنين. ابتسم المجسم، وجاء صوتها من خلال هذا الطيف البنفسجي الذي نشرته أمامنا على الخريطة التي كنتُ نشرت جزيئاتها من قبل على الأرض جوار السيارة حين جلسنا، وبدأت ليلي بالكلام.

جاء صوتُ طيف "ليلي" البنفسجي الذي تجسد أمامنا متوترًا للغاية. سلمت على الجميع سريعًا، ثم اعتذرت لأنها منشغلة للغاية، وأنها لن تطيل المحادثة. سألتها بلهفة عن سبب توترها:

- "آغ مسعود في القيادة العسكرية هنا، قُبض بتهمة الاشتباه بالانتماء إلى حركة تحرير أزواد (كل تماشق)، ثم تغير الاتهام إلى الانتماء إلى تنظيم (أحناد موسى بن نصير) الذراع المسلح للكونجرس الأمازيغي العالمي". قالت ليلي.

ثم تابعت، بأنها اتصلت بشخص أخبرها عنه "آغ مسعود" بمجرد توقيفه، وأنه سيساعد "آغ مسعود" في الخروج، قبل أن يتم ترحيله إلى مقر القيادة العامة العسكرية في الرباط، وأنها في الطريق للقاء هذا الشخص "آغ إبراهيم"، وتخشى الحديث؛ فقد تكون مراقبة بدورها.

في لقاءاتي القليلة مع "آغ مسعود"، عرفتُ ما تعانيه هناك قبائل "كل تماشق" من طوارق الشمال المالي في منطقة الأزواد، فهم بين شقي رحى، إما العسكرة المالية التي لا تعترف بكونهم شعبًا له خصوصيته، وإما الرضوخ تحت سيطرة الجماعات المسلحة التي تنتمي في غالبيتها إلى تنظيمات مسلحة لها علاقة ما بالكونجرس العالمي للأمازيغ أو حركات أخرى يمينية متشددة هناك.

- "قاعدة المغرب وجّهتْ ضرباتٍ موجعةً لقوات التحالف الإفريقية التي تم استدعاؤها في نهاية العام ٢٠١٣ للسيطرة على مناطق الأزواد على الحدود الجزائرية وقتها، ثم زادت هجماتها بعد تورط فرنسا والولايات المتحدة في الصراع الدائر هناك، بعدها دخل الكونجرس العالمي للأمازيغ على خارطة الصراع، وهو ما جعل شعب الطوارق الزرق يعانون". حكى لي آغ مسعود عن تاريخ الصراع هناك.

انتهت المحادثة بيننا سريعة، لكنها خلفت لي الكثير من القلق والحيرة؛ فأنا أعرف "ليلي" وتعلقها بـ"آغ مسعود"، هذا الطبيب الذي ساعدها في المستشفى بعد خسارتها لجنينها، وكيف عبرت معه أزمتها العاطفية بفقد الجنين وتخلي صديقها - والد الطفل - عنها وعن الجنين. أعرف أنها هربت في "آغ مسعود":

- "آغ مسعود، هههه، مسعود ابن مسعود، كاسم جدنا في مصر، ومسلم. ربما بعد سنواتي الثلاث والعشرين أصبح مسلمة حقيقية". قالت ليلي ذات مرة.

كنت عرفت القليل عن "آغ مسعود" من ليلي إلى جانب ما عرفته منه بشكل شخصي، وأنه أحد الطلاب الوافدين لدراسة الماجستير في الطب، بواحدةٍ من المنح التي

قدمها اتحادُ الدول الإسكندناڤية في مطلع العام ٢٠٢٧، بعدما توصل لاتفاق هُدنة بين قبائل "كل تماشق" من طوارق الأزواد في صحراء أفريقيا، وبين حكومات الدول التي انخرطت عسكريتها في الحرب معها، وقمع محاولات انفصال "الأزواد" التي تمتد على مدار القرن الماضي، وكيف انتهى الأمر بتدخل فرنسا في المنطقة عسكريًّا، وأن مشكلتهم العرقية هذه تظهر وتختفي حسب حكومات تلك الدول، لكن التمرد الذي فجر الحرب المستمرة حتى الآن تقريبًا، أظنه في انقلاب العسكر في جمهورية مالي من العام ٢٠٢٦، والذي استغلته قبائل التماشق الأزوادية لإعلان الانفصال بمناطق الصحراء في شمال مالي والنيجر، وبعض الأجزاء من جنوب الجزائر والمغرب، وتدخل فيه على طرف الصراع الذراع العسكري لكونجرس الأمازيغ العالمي، ومازال هذا التمرد قائمًا ومستمرًّا، وأظنه سيدوم:

- "صراعنا هناك، يذكرني بصراعات العنصرية في القرن الماضي في جنوب أفريقيا". حكت لي "ليلي" على لسان "آغ مسعود".

في غمرةِ قلقي وحواري معهم عن "ليلي"، وكيف ارتبطت بـ"آغ مسعود"، ثم كيف تزوجا سريعًا، وقررا الذهاب إلى الصحراء للحصول على الإذن والبركة من شيوخ "كل تماشق"، الذين ينحدر منهم "آغ مسعود"، فبهرني "حميد" بما أخبرني به و"محسن الديك" من المعلومات حول تاريخ صراع "كل تماشق" ضد حكومات هذه الدول، وأفاض حميد في الحديث عنهم في شمال مالي، بشكلٍ أذهلني للغاية.

- "أبي كان له أصدقاء من "كل تماشق"، أنا أعرفهم يمكنهم المساعدة". قال حميد.

بينما كنا نتناقش حول الأمر، شقَّ السكونَ حولنا صَوتُ دوي رهيب، ثم أضاءت السماء بوهج شديد وسريع. كانت المحطة الفضائية الدولية قد اصطدمت بالغلاف الجوي، وخلال ثوانٍ كانت تعبر السكون فوق البحيرة، مخلفة وراءها هديرًا عظيمًا، وأزيزًا صارخًا، تزامن مع الأضواء البنفسجية التي ظهرت من مقدمة السَّاعة في يدي.

- "رائع لقد سجلنا الحدث كله". قلت لهم ناسيًا ما كنا فيه من القلق والتوتر.

كان "محسن الديك" مازال منتشيًا بفعل صاروخين من الحشيشة التي يدخنها بإدمان، وقد دخنهما بنشوة وتوتر، ثم تابع كلامه:

- "قرأت في (زربيات) الأزواد القديمة، أنهم نفروا نحو الشرق حتى وادي النيل في جنوب مصر، وعلموا الفراعنة نوعًا من الكتابة التي طورها الكهنة فيما بعد".

هنا مدَّ حميد يده نحوي بصاروخ قائلًا:

- "اهبط بسلام، أو لتكن السكينة". قال حميد مشيرًا بالسيجارة نحوي.

ترددت في أخذها، لكن الديك شجعني، ضاحكًا:

- "مادمتَ قد رحلت بالصاروخ، فالعودة هنا في أرض الملح هذه – هكذا يطلقون على هذا المكان في البحيرة – حتمًا يجب أن تكون بسكينة، وهبوطك للأرض بسلام". ضحك الديك محسن.

لكن فاروق نهرهما، وذكرهما بموعد العم ماجد، وأنه يجب أن يرانا منتبهين حتى لا نتعرض لِلَومِه.

- "أعجب ما في العم ماجد نصحه لنا، وهو أكثر من رأيت يدخن الحشيشة". قال الديك.

فضحكوا، وجاملتهم بالضحك.

- "الآباء هم أعظم دكتاتور نجابهُه، لكنَّا نحبه". قال أبي.

- "كيف ينصحنا الآباء على الدوام، ويلزموننا القوانين وهم أول من يخترقها؟!". سألت أبي.

* * *

غادرنا أرضَ الملح، وفي طريق عودتنا نحو البلدة، قرر حميد والديك، السير إلى جانب السيارة، فقررتُ الانضمام إليهم على أن يقود فاروق السيارة بنفس سرعتنا. خطوتُ بضع خطوات، بعدها شعرتُ أني أطير سريعًا إلى شمال فنلندا. وجدتني أسير في طريق الغابات حين عرضتْ عليَّ الذهاب إلى حيث يعيش أهلها. هم جماعة منعزلة للغاية تسكن ضاحيةً ريفيةً في الشمال الفنلندي، تضم منطقتهم كل هؤلاء "الخمسينين"، ممن انعزلوا بمذهبهم عن سائر الكنيسة في فنلندا منذ وقتٍ طويل، وجاءني صوتُها:

- "أعتقد بأن أمي قد تفلح في إقناع أبي بارتباطنا". قالت سارة.

كانت تعرف أن أصول أبي كمسلمٍ من مصر تكفل تدمير علاقتنا متى اكتشفها الوالد، حتى إن تغاضى عن كوني غير فنلندي، وأسكن كيرونا بالسويد، لكن يختلف رد فعله عن أي فرد من ضاحيتها التي جاءت منها. أعرف أنني مرهون بإعلاني لاعتناق مذهبِهم الخمسينيِّ هذا، كضمان لاستمرار علاقتنا، حتى وإن أفلحنا في إقناعهم بكوني سويديًّا، فلن يفيد ذلك. وقتها لا أعرف كيف استسلمت لهاجس انفصالها الحتمي عني يومًا، ورغم ما آلمني حيال ذلك، لكني قد عرفته، وحاولت التملص منه قبلًا. هاهي الآن توقف السيارة في طريق فرعي، وتتعلل بأنه طريق مختصر بعيدًا عن هؤلاء السائحين للمنطقة في فصل الصيف القصير. انحرفت السيارة التي استأجرناها من هلسنكي العاصمة، وانطلقنا بها نحو الشمال وسط غابةٍ كثيفةٍ من أشجار القضاب، بها ممر وحيد ضيق، يبدو مهملًا، فلا أثر لأي حركة سير عليه كما بدا لي. فجأة أوقفت السيارة، ونظرت نحوي بحبٍّ شديدٍ، وكأنها تتوسل:

- "أرجوك يا نور، أريد أن يكون طفلي الأول يحملُ جيناتك الوراثية".

ابتسمت حين فهمت الآن سرَّ طريقنا الفرعي، وتعجبت كيف للجنس بأن يضرب الذهن بالرَّغبة في ثوان، وكيف يخطط البشر - مهما تمدَّنوا - لهذه الرغبة بشكل دقيق،

ورحتُ أسأل نفسي إن كانت عادت إلى معتقدها الخمسيني فعلًا! فهي من حدثتني في أول صداقتنا – وقبل تحولها البوذي – عن تحفظهم حول ممارسة الجنس قبل الزواج.

– "سارة، أنت خمسينية؟!". سألتها، فلم تجب.

أظنني لم أقاوم يدها حين بدأت تعبث بداخلي. حاولت تهدئتَها ريثما أخرج من حقيبتي "واقيًا ذكريًا"، لكنها عادت تكرر جملتها، وتصرح بأنه لا حاجة للواقي الذكري؛ فهي مصرة على أن يكون أول أولادها مني.

– "أريد أن أقدم للعالم ثمرةً هذا الحب طفلًا رائعًا مثلك".

كثيرًا كانت تحلم بزواجنا، وتنسى كونها واحدةً من هؤلاء الخمسينين الذين لن يسمحوا تحت أي ظرف بارتباطنا مادامت تتبع مذهبهم، وكنت أعرف أنني لن أصير يومًا خمسينيًا، وللحقيقة لم يشغلني كثيرًا قضية التدين؛ فقد حسمت قضيتي منذ وقت مع السماء، ولا حاجة لي بمجموعة القواعد والتعاليم التي تقيدني في صورة خاصة، لكن الغريب كوني لا أعترض متى قدمني شخص ما بأي اعتبار كمسلمٍ أو مسيحي. لم يكن يعنيني البتة. كثيرًا كنت أكرر لها ما آمنت به:

– "أنا إنسان وفقط، متى أعلم أني وجدت حقيقتي هذه، قد أجد الربَّ الذي أؤمن به".

في بداية فعلنا كنتُ مثارًا بدرجةٍ أدهشتها، وعندما تمادت دواخلها تطلب ربي خذلني فارسي فجأة، فتوترت وتأوهت تستغيث بكل نخوة داخل هذا الفارس أن ينقذها من لظاها، وعبثًا ظلت تحاول، وأنا يتزايد توتري، ولا أعلم السبب. وحين كادت تستسلم لخذلان فارسي المنكسر، انتفض قليلًا فنفض الخزي عن وجهه بما قدم من منحه في تهدج متقطع، لكنه كان كافيًا لأنْ يمسد عذاباتها السرمدية، ورغم انكسار فارسي انتهينا من فعلنا ووصفناه – كذبًا – بالرائع، وحيث كنا وسط الغابة، استلقت شبه عارية على ظهرها، وشردت في اللاشيء، وقالت:

- "في الهند رأيتُ النساءَ في الغابات يحافظن على رجالهن بإنجاب الأطفال، ونحن الخمسينيين نؤمن بذلك ونتربى عليه".

قالت بأنها تخشى فقدي، وحاولتْ أن تشرح لي كيف يصير العالم أفضل متى تحولت إلى واحد من التابعين لمذهبهم، ثم تهدج صوتها:

- "أحبك يا نور، وأخشى أن أفقدك للأبد".

احتضنتُها بقوة، ولم أعقب؛ فأنا أعرف أنني لن أصير إلى ما تريد، وأنها لن تقدر على ترك مذهبها، وهو أبسط الحلول لو كانت تدقق في الأمر بجدية. طلبت مني أن أحضر حقيبة يدها، فأحضرتها، فأخرجتْ أنبوبًا أعرفه، ثم أخذت تضغط الأنبوب وتمسد بالجيلاتين شقها المرجاني، وأمسكت بيدي وأغرقتها بالجيلاتين الخارج من الأنبوب.

- "أرجوك أدخل يدك في شقي بقوة". قالت في توسل.

رحتُ أعبث بأصابعي، بينما تتوسل أن أضم قبضتي وأدخلها كلها في شقها، ففعلت ما طلبت، فراحت تتأوه بنشوة بالغة حين دخلت قبضتي حتى الرسغ إلى داخلها، ولامست أناملي جدارها الداخلي، حتى قبضت عضلاتها رسغي بشيء من ألم.

- "أكره الرجال الذين يرون رجولتهم في قضيبهم فقط، يمكن لكل الجسد أن يحقق المتعة مثل قضيبكم يا رجال العالم". قالت مغمضة العينين، ولم أعلق.

حين عدنا من رحلتنا، كررنا المحاولة لأكثر من مرة، ولا تأتي البشارة بالحمل. قررنا الذهاب إلى الطبيب، وجاءت صدمتها حين عرفت استحالة حدوث الحمل؛ فأنا لست الشخص المنشود، وللحقيقة لم يوترني الأمر بقدر ما وترها، كنت أرى ذلك تميزًا لي في أن جيناتي ستظل ملكي، ولن أورثها، فلم أحزن كوني مصابًا بالعقم، تفهمتُ أمري

وتصالحتُ معه، لكنها لم تتصالح، وبدأت في رحلة فقدي السريع.

- "الولد الصالح صدقة أبيه، وعمل صالح له". قال أبي.

- "إذن ما العدل في كون أحدهم ينجب والآخر لا ينجب؟!" سألتُ أبي.

* * *

دق فاروق جرس الباب، وجاء الصوت من الداخل يستفسر عنَّا، فأعلن محسن الديك أسماءنا، وأننا هنا لزيارة العم "ماجد"، فأمرنا الصوت بالتريث، بعدها سمعنا صوت خطوات تدق الأرض كأنها أقدام من حديد تتحرك، فتصدع سكون الليل في بهو البيت، ثم ظهر رجل قد نجح الشيب في طرح سواد شعره، نحيف للغاية، شديد الذبول، لحيته طويلة وغريب شعثها. عينان زائغتان، باستطاعة طفل أن يحدد كونه مريضًا عقليًّا بمجرد رؤيته. يبتسم، يهز رأسه باستمرار، يوازي رعشة يده الممتدة للمصافحة، ثم نطق بجملة أدهشتني:

- "أهلًا.. أهلًا وسهلًا بوفد الكفار، شيطانكم الأكبر في الأعلى بانتظاركم". ظلَّ يبتسم.

كان أدهش ما لاحظته هو ابتسامهم، وتعليقهم الذي ساير كلامه وترحيبه العجيب بهم:

- "لعل الله يهدي قلوبنا يا "شيخ خيري". حدد لنا موعدًا مع الوحي؛ فربما ندخل في دينك الجديد". قال محسن الديك، ثم ابتسم.

- "توبوا قبل أن يأتيكم نذير؛ فالوعد صار قريبًا يا معشر المكذبين". ترجانا "الشيخ خيري".

- "ادعُ لنا يا شيخ خيري يا عظيم". طلب منه حميد.

دلفنا الباب. بضع خطوات بعد البوابة الحديدية، انحرفنا جهة اليسار، ثم رقينا درجًا يُضاء بإنارةٍ خافتةٍ للغاية، فطلب منه حميد أن ينيرَ المصباح، فجاء ردُّ الشيخ خيري:

- "إيمانكم سينير لكم. على قدر الإيمان ترى النور في الطريق يا ابن مصطفى".

ثم اختفى في بابٍ في أول الدرج الذي نصعده.

- "مسكين الشيخ خيري.. مسكين.. عافاه الله". قال فاروق.

أخبرني بأنه الأخ الأكبر للعم ماجد أو "العم فيكس"كما يشتهر في العائلة. كنت سمعت النذر عن العم ماجد فيكس من أبي، وحادثته مرتين أو أكثر حين أمرني أبي وقتما لزم المستشفى بأن أتصل به لأعزيه في وفاة والده - خال أبي - ثم حدثني قليلًا عنه. طرق محسن الديك باب الشقة التي قابلتنا، ونادى باسم العم ماجد:

- "يا مستر فيكس". نادى الديك.

- " تعالَ يا بطل، ادخلوا.. الباب مفتوح". جاءنا صوتٌ من الداخل.

دلفنا الباب، فصدمتنا سحابةٌ من الدخان المعتق في روائح نفّاذة، جعلت الديك محسن يهز رأسه، ثم يغمض عينيه ويتنشق بعمق، ويصيح:

- "الله عليك يا أبو الأبطال.. يا أصلي.. يا بطل".

من وسط سحابة الدخان الكثيفة، ظهر العم ماجد فيكس، ببشرته البيضاء، ورأسه الحليق، وذقنه المدقق شعرها بعناية، ومن خلفه ظهر شخص آخر، بدا عليه أثر الحشيشة التي دخنوها، والكمية التي أطلقت مثل هذه السحابةَ الكثيفة، فتنبه له حميد:

- "آه.. المستر "تشي" هنا أيضًا". صاح حميد.

- "تعالوا يا أبطال.. تعالوا يا أولاد لا تخافوا". قال المستر تشي.

بدأ طقس الترحيب الحار الذي رأيته يميز لقاءات الجميع هنا منذ قدومي. بدأ فاروق في تعريفي إليهما، ثم أشار نحوهما:

- "نور.. هذا عمي ماجد، وإن شئت فهو (العم فيكس)، وهذا العم ضياء الدين أو (المستر تشي) فنادِهما كما تحب". قال فاروق.

غرفة العم ماجد غارقة في سحابات مخدر الحشيشة التي انتشرت في الشقة كلها، وعلى حائطها المواجه لباب الدخول، عُلقت صورة قديمة كبيرة لشخص وديع، يرتدي نظارة طبية عجيبة، وكتب أسفلها.

- "د. محمد البرادعي"، كُتب أسفلها بعربية رديئة:

- "البُوب".

أظن "المستر تشي" لاحظ نظراتي إلى هذه السحابات، فابتسم وسألني إن كنت حقًّا من أقارب الديك والعم صديق، ثم ضحكوا. مضت دقائق اللقاء الأولى في مجاملاتٍ بدأتُ أعتادها في هذه البلدة التي لم يمضِ على وجودي فيها الكثير، لكنني تمرست في تعلم كل عاداتهم التي أراها سريعًا، فقررت الإنضمام إليهم، ووجدتني بلا مقدمات أطلب منهم تدخين الحشيشة معهم.

- "عاش.. عاش.. الآن أنت من العائلة يا بطل". قال العم ماجد فيكس.

ظل الحال هكذا لساعتين أو يزيد، تخلل دخانها صوت الشيخ خيري الذي تقافز نحو مسامعنا، يلهج مرة بالنداء المتواصل:

- "الله.. الله.. الله.. الله". ينادي خيري بوضوح.

ومرات أُخر كمن يحادث جمعًا تحلق حوله، والعم ماجد لا ينفك عن الضحك والسبّ، حتى كانت لحظة صمت جاءنا صوته صافيًا للغاية:

- "يا من قدرت المقادير قبل الأكوان بخمسين ألف عام. يا من فصلت المكتوب القديم قبل الحادث الواقع، ألا تستثنيني من هذا القدر؟ ألا يأتيني وحيُك يا حليل؟ ألا تجعلني الشذوذ لقاعدة انقطاع الرسل وعهد النبوة؟ ألا ترسل إليَّ يا الله.. يا الله.. يا الله.. ألستُ أنا حبيبك".

- "والنعمة ما هو معبرك يا خيري يا أخويا". قال العم فيكس منتشيًا.

ساعتها نظر الجميع إلى بعضهم من حولي، وعادوا إلى الضحك والشخير من جديد، فقال "المستر تشي" تعليقًا شديد الغرابة، وشى بحالة النشوة والسُّكر التي أوصله الحشيش إليها:

- "سألبِّي للشيخ خيري طلبه، فأنصتوا".

عُدنا ننظر من جديد نحو بعضنا، فقام "المستر تشي" بهدوء مطلق، ثم سأل العم ماجد عن قابس الكهرباء الرئيس بالبيت كله، وبدأ يتحرك في صمت وتثاقل، غاب ثوانيَ ثم أظلم البيت كله، ورحنا نسمع صوتًا يخلط الصفير بالفحيح، ثم جاء صوت عميق يشق ظلام البيت وسكون البيوت من حوله:

- "خيري.. يا أيها الشيخ خيري.. يا أيها الشيخ خيري.. أين أنت؟ جاء الوعد الاستثناء يا محظوظ، يا خيري.. يا وجه الخير للبشرية.. أجبني.. يا أيها المبرئ من بني الشعالوة المناكيد.. يا عبدي المعصوم بمعرفتي وزاد محبتي.. أنا من تناجيه في السكون والليل يا عبدي المختار للوعد، والمهيأ من بينهم لرسالتي".

هُنا غرق الجميع في موجة من ضحك وشخير مكتومين، لكن إشارة صوتية صدرت

- أظنها من العم ماجد - فجعلت الجميع هنا يكابدون الأمرين في كتمان ضحكهم المخلوط بالمفاجأة.

- "هوششششش". أمرنا العم ماجد فيكس.

سمعنا صوت خيري يجيب بحذر وخوف، يستفسر من يناديه، وسمعنا تمتماته، واستعاذته بالله أن يحميه من الشياطين والأباليس الملاعين، وبدأ صوته بالتهدج والتوتر، يريد أن يستوثق النداء، فعاوده الصوت بعمقه الشديد:

- "يا ابن الشعالوة، وحدك يا طاهر القلب فيهم، وحدك يا من أصطفيه من بني أحقر البشر. إني اخترتك لوحي. أنا الرب يا خيري لا رب لك غيري، وإني اخترتك لرسالةٍ استثنائيةٍ كما طلبت. دنياكم في أمسِّ الحاجة إلى مخلص جديد، وراعٍ يعود بكل من ضلَّ إلى حظيرتى".

تمالك الشيخ خيري بعض الجرأة المخلوطة بالرجاء والخوف، وتعجب كيف يناجيه الربُّ بذاته السنية، ثم استعاذ بالله وأعلى صوته بالشهادتين كمسلم، فنهره الصوتُ في شدة، سمعنا خلالها صوت خوفه الذي حاولت أسنانه أن تقبض على بعض الشجاعة ففشلت، ثم بكى:

- "كيف يا رب.. أنا مسكين، ينعتونني بالجنون، ولا عمل لي يساعدني، وأنت تعرفني أول دفعتي تجارة إنجلش. أيرضيك أن أكون مجرد محاسب في بنك؟ هكذا أرفض؛ فأنا أعلم أني المختار الموعود، فكيف أقبل البنك على الوحي يا ربي؟". سأل خيري الصوتَ.

- "من اليوم أنت النبي لبني شعلان بهذه البلدة. لستَ بدعًا يا خيري بين الأنبياء، كلهم من قبلك اتهموهم بالجنون، وكانوا من المساكين، ومن اللحظة عملك رسالتي يا أيها النبي المعجزة. اصعد الآن فوق سطح البيت، واصدع بالآذان. ستدعمك ملائكتي، فلا تتعجب صورهم، سيأتونك في صورة البشر، فأنسْ بهم، وإياك أن تعترض".

- "وهل لمثل العبد الضعيف من حيلةٍ يا جبار". أجاب خيري باستسلامٍ وخشوع.

سمعنا بعدها الصوتَ يأمره بالصعود السريع إلى سطح البيت، ثم صوت صعود الشيخ خيري للدرج كالصاروخ، ويأتينا الصوت من أمام الباب مباشرة:

- "هيا.. أيها المخنثون قبل أن يُقبض علينا، ولنخرج سريعًا". قال "المستر تشي".

- "الله يلعن دماغك، يا كفار يا ملاعين، ستحرقون في الجحيم.. مازال خيري أخي!!". همس العم ماجد مبتسمًا.

- "لنسرع قبل أن يوقظ أخوك الجيران، وساعتها سترينا أمك الجحيم بعينه". قال المستر تشي، ثم ضحك ضحكة مكتومة.

على الفور لملمنا أنفسنا، وغادرنا البيت على عجل، وخلفنا وراءنا صوت الشيخ خيري يصرخ بالآذان، وينادي معاشر الناس من جيرانه، ثم تقافزتِ عبارات السبِّ والقذفِ من خلف بعض الأبواب من الجيران.

- "الله يلطف بينا وبيك يا خيري". قال صوت.

- "منك لله، نريد النوم يا مفتري". قال صوت آخر.

كنت أظن علاقتي بأبي علاقة خاصة، وحين رأيتُ العم صديق والديك، عرفت أن لكل الآباء طرقهم في التواصل مع أبنائهم، لكن حين رأيت العمين "ماجد" و"تشي"، وكيف اختفت أعمارهما في علاقتهما بنا، عرفت أن ثمة أمرًا يختلف في علاقاتهم ببعضهم هناك. تحركنا ما بين صفين من البيوت الصغيرة والمكدسة، عبرنا غابة الأسمنت كما قال العم ماجد:

- "حين زحف العمران على الأرض الزراعية من حول بيتنا، زارني مصطفى ابن عمتي، وقال سحقًا لهم يقطعون الشجر والزرع، ليزرعوا غابة الأسمنت القميئة هذه".

حكى بعدها العم ماجد عن عمي مصطفى الذي وقف في محطة السيارات حاملًا لافتةً كبيرةً، مكتوبًا عليها عبارة:

- "لا لتدمير البحيرة مرتين".

وقال بأن عمي مصطفى ظل يحمل اللافتة في مكانه لأسبوع كامل، كانت إحدى الشركات العقارية تقوم خلاله ببناء أحد الأحياء بالبلدة أثناء موجة تمدينها، تلك التي قذفت بها على وسط الدرج ما بين القرية والمدينة، فقبعت مسخًا مشوهًا من الاثنتين، فلا ظلت على قرويتها، وما أضحت يومًا مدينة يعترف بها، فبدت كما وصفها العم ماجد، ناقلًا الوصف فيما سمعه عن عجوز:

- "بيوت تشبه أعواد الذرة في أرض الجرجير".

ابتعدنا عن غابة الأسمنت، وخلفنا البلدة كلها وراءنا، حتى انتهينا إلى مجرى نهر النيل، لينمو في ذهني وتحت تأثير الحشيش سؤالٌ ملحٌّ للعم ماجد فيكس:

- "عم ماجد، لماذا لم تتزوج؟!".

- "لعلي لم أعجب النساء، أو لعلهم في غِنى عن الحشاشين". قالها بهدوء.

- "أو لعلك لم تكن مستعدًّا لتغيير نوع سجائرك يا فيكس". قال المستر تشي.

بدأ بعدها العم تشي في شرح نظرية عجيبة يفلسف بها رفض ماجد فيكس للزواج أو عزوفه عنه حتى هذه السن المتأخرة في بلدهم.

- "أو لعلي لا أحب الجمعيات". قال العم فيكس.

حين سألتهم عن معنى "الجمعية"، شرح لي حميد الأمر، وأخذوا يتندَّرون عن بعض الأشخاص ممن أدمنوا تلك العادة الاجتماعية. انتهز الديك الكلام وأخذ يحكي عن جارهم عرفات الذي ضرب زوجته منذ يومين، وحين حاول العم صديق التدخل لحل الخلاف بينهما سأله:

- "أيرضيك يا أستاذ صديق، ستلد قبل موعد تسلمنا الجمعية بسهمين؟!". حكي الديك.

- "هنا يتزوجون بالجمعية، ويمارسون الجنس حسب مواعيد الجمعية، ويدخل الأولاد المدارس مع موعد الجمعية، وتأتي مناسباتهم حسب ترتيب الأسهم في الجمعية. لو استطاعوا أن يموتوا حسب أدوار الجمعية لفعلوا. اتفوو.. لعن الله من اخترعها". قال المستر تشي.

كنا قد ابتعدنا عن البيوت، واقتربنا من مدخل القرية الشمالي، فقرروا الجلوس عند هذه القنطرة التي عبرتها نحو (سكة الكنال) ليلة دخولي القرية، ثم تمددوا على بساطٍ من الحشائش التي نبتت بجوار مجرى الماء، وكأنهم على موعد والنوم، حتى ساد صمتٌ تام. حاولت تقليدهم حين أغمضت عينيَّ، لكن كعادتي حين أشعر بالتعب يجافيني النوم، فقررتُ الجلوس والانتظار، وبدأت في رمي حصوات في مجرى الماء، بعدها لا أعرف ما سأحكيه هنا، هل حدث بالفعل أم هو من خيالات وهلاوس تدخيني الحشيشة معهم في البيت وطوال الطريق.

- "مجنون من يدخل البلدة نهارًا. إن دخلها فعليه مغافلة الأعين قبل أن تعريه بفظاظة وتفيض في أسئلتها، وإن دخلها ليلًا فعليه أن ينتبه لموضع قدمه من الحفر. لا مفر من مغافلتها حين تدخل قبل أن ينتبه لك الناس أو تترصدك الحفر". قال العم ماجد، فابتسمت في نفسي.

- "أنا غافلت البلدة حين دخلتها". قلتها وكنتُ منتشيًا للغاية.

انتهى الليل من منتصفه، وزحف حثيثًا يطلب الفجر. أشحتُ بنظري نحو حركةٍ مفاجئةٍ إلى جواري، وصوتِ أنفاسٍ ساخنةٍ أخذت تلهب مسامَّ وجهي، لأراها بعدها. كانت "بهلة" التي قابلتني عند "شجر التوت"، بشعرها الأحمر، وملابسها العجيبة، وأظافرها المعقوفة، ورائحتها التي تسلبك كل عطر في الدنيا، ثم عينيها اللتين لا أثر فيهما لحياة أو موت، رأيتها تبتسم وفقط، حاولت الكلام، فخانتني قدرتي على الكلام. كانت ترسم في الظلام في صفحة الهواء قلبًا يحمل في داخله اسمَ جدى "مسعود" بلون

البنفسج الذي أحبه، ثم يعود القلب للاختفاء في الظلام، فترسمه من جديد، وأرى اسمي في داخل القلب مرة أخرى، وابتسامتها لا تفارقها. حاولت ساعتها أن أنبّه نفسي قدر استطاعتي فلم أفلح، ثم اقتربت من وجهي، فزاد اللهيبُ في مسامِّ وجهي كله، ثم قبلتني.

- "هنا سلامنا بالقبل لا بالأحضان يا أيها الكيروني". كانت آخر ما أدركته قبل أن أسقط غائبًا.

لا أعلم كم من الوقت تمددنا هناك، لكن صوت فاروق الذي نبهني أن أستيقظ، كان واهنًا للغاية، حين قال:

- "أيها الأبطال.. الشمس ستشرق، ينبغي العودة للبيت سريعًا".

كان فاروق أول من انتبه، فأيقظ الجميع، وعدنا أدراجنا نحو البلدة. في الطريق جاءني إشعار المكالمات الفائتة، فوجدتها "ليلي" التي حاولت الاتصال بي منذ ساعة، فعرفت أني نمت طوال الليل. تفحصتُ المكالمات المسجلة، وحين ظهرت صورتها، نثرتها أمامي فتحركت جزيئاتها، وبدأ الطيف البنفسجي في التشكل أمامنا. جاءت رسالتها مقتضبة وواضحة للغاية:

- "لقد هربنا، ونحن نعبر حدود المغرب الآن، سنصل سيوة في مصر بعد يومين".

- "هرب آغ مسعود؟!". سألت نفسي وسط صمتٍ وذهولٍ من حولي.

- "أهناك أحد غيري وماجد يجيد الهرب". قال العم تشي.

في طريق عودتنا نحو البلدة، كانت الكلمات تتلاحق على لسان العم تشي، فعرفت بصعوبة كيف تحوَّل من العمل في مجال السياحة، إلى العمل بالتدريس في المدارس المتوسطة، حتى تم طرده، لكنه أخذ يحكي باستفاضة عن سر طرده من المدرسة التي عمل بها منذ سنوات.

- "وكأن أولاد الكلب لم يكونوا يعلمون بمن أكون، وينسون من هم..اتفوووو". قال تشي.

- "هم الخاسرون، لا تكترث يا بطل". واساه العم ماجد فيكس.

كان أبي دومًا يخبرني بأن بلدهم كالقطة تأكل أولادها. يومها لم أفهم هذا التعبير، لكن الآن وفي غمرة هذا الضحك الهيستيري أظنني فهمتُ المرارة وراء هذا التعبير الخاص بهم هنا.

- "بلدنا امرأة تهوى وتستمتع بممارسة الجنس مع الجميع، وتحرّمه علينا رغم حبنا". قال أبي.

- "وهل تمارس المرأة الجنس مع من لا تحب بنشوة واستمتاع؟!". سألت أبي.

الفصل التاسع

الجـدة

يابِتّ.. قولي لأبوكي..

يحجزك في الدار..

لأنا جدع صغير..

والعقل مني طار..

شط البحور مرقدي..

والموج بنى لي دار..

أيتها السماء خبري الساكن هناك وهنا عني، أني أعرف قدرًا لا بأس به عن قسوة مارسها معي، وفعل مبالغ فيه اتصل بمفرداتي حين كنت في ضوضاء أشيائه التي يحوطني بها. أخبريه أنني شريدة الحزن منه. أخبريه أن ادّعاءات هؤلاء الذين شنّفوا آذان التواريخ عن الرحمة باطل، مثلما هذا النور باطل مادام لا يجيب. أخبريه أن الحكمة التي يؤجلها لم تعد تلزمني في آخر الزمان، وأنني الآن أحوج الأشياء إلى النور بعدما صرتُ في ظلامي منذ أيام. أخبريه وهو يعلم، وهذا يدعوني أكثر لأغذي الحزن منه كونه يعلم. أخبريه أنه لن يضير كبرياءه متى امتدت يده بالمساعدة نحوي. أخبريه أن مثلي ممن عرفوا ورأوا هم أحوج المخلوقات إلى مسح الحزن منه عنهم. أخبريه كل ما لا تتوقعينه عني، واجتهدي في قول أشياء كثيرة وتجديف ساخط، ولا تقدمي الاعتذارات عني، إياك أن تقدمي الاعتذار عني! ومتى أراد أن يبث إليك روحًا لتعجبوا لاتهام لي بالغرور، قولي له هو بعض غرورك القديم حين انفردت عن الناسكين والعابدين والعالمين أجمعين، حين كنت تقضين الوقت يوم لا وقت ولا زمان تُقاس به الأشياء. أيتها السماء أعيدي اتهامي نحوه، ولا تبادليني نظرة الاحتقار والازدراء حين سأنظر إلى الأعلى وأعلنها وحيدًا:

"كم أنت قاسٍ موحش أيها الإله"

مرت الأيام التالية سريعًا ما بين التعارف على بقية أفراد العائلة، وبين الأصدقاء ممن لهم تاريخ مع البيت بصورةٍ أو أخرى. كنت أنوي العودة إلى الجدة أم العم صديق فلربما أظفر منها ببعض الحكايات التي تقربني في بحثي عن أبي، أو لعلها تساعدني في فهم هذه العائلة، فأتكهن بمكان وجوده المحتمل. انشغل فاروق وحميد في شئونهما، وكذلك محسن الديك، فقررت الذهاب إليها وحدي. طرقت الباب، فرحبت بي الخالة هالة كالمعتاد، ونالني قسط من التحنان. أخبرتها بحاجتي إلى رؤية الجدة، فأخذتني حيث تعيش في حجرتها، وحين دخلت وبدون مقدمات، قالت الجدة:

- "من يبتغِ الحقيقة يا ولدي، يحتمل الخطوب".

بلا مقدمات راحت الجدة تخبرني بما أسمته عهدًا قد تم إبرامه بين جدتي، وبين التي أسمتها "السُّخامة"، فحاولت فهم الكلمة لكنها انطلقت تتابع الحكي، وكيف قبلته إشراق برضا وطيب نفس.

- "تُحرم نساء البيت من ولادة البنات كل من تعيش هنا، وأنّ من عاشت خارج البلدة فلها البنون والبنات". قالت السُّخامة!
- "وبناتي؟!". سألتها جدتي.
- "تحمل إحداهما بعض صفتي فلا أشيخ، وأعطيها بنتًا بعد أربعين حجة". قالت السُّخامة.

لم أفهم طبيعة هذا الاتفاق العجيب، ولا علاقة عمتي إشراق به، لكني عرفت أن السُّخامة تلك تعني بها "بهلة".

- "حين أخبرتني أمي باتفاقهما، قبلت أحمل عنكم يا آل صابر، على أن تتركنا لحالنا بهلة، وعشت أحمل بطفلتي التي تأتيني آخر العمر". قالت عمتي لي حين سألتها بعد ذلك.

ما هذه العائلة التي يتحدث كل من فيها بالكلمات التي تتشكل أمامي وكأنها الأحاجي. هذه الجدة التي قاربت من المائة، كيف لها أن تتلفظ بهكذا كلمات أراها لا تتناسب مع حالها وحالتها الصحية أو العقلية. كانوا قد حذروني من مرضها، وكيف تغيب عن واقعها فتتخيل من حولها الأشياء، لكنها صدمتني بهذه الجملة، وقابلتْ دهشتي بابتسامةٍ حانيةٍ، ثم طلبت إليَّ الجلوس إلى جوارها، وسألتني عن أحوالي وعن أمي وأبي، فلم أقوَ سوى على الابتسام، ثم أكدت لي عمتي مقالتها.

- "أنا من جاء ليسألك أيتها الجدة، فكيف أستسلم لسؤالاتك؟!" سألت نفسي.
- "حسن هناك عند من يُسمَّى باسمه، هناك حيث تم النداء، فلبي".

لم أفهم كلام الجدة، ولا أظنني أحتمل هذه الأحاجي من جديد، من "حسن" ذاك الذي ذهب إليه وتسمى باسمه؟ عرفت ساعتها أن الجدة ليست كما توقعت، ولن تفيدني في رحلتي كما توقعت، فقررت المغادرة، وحين هممت بالخروج، نادتني:

- "أسأل إشراق، فلديها إجابة لكل ما أريد". قالت الجدة، وأخذت تهز رأسها وحبات مسبحتها.
- "كيف غاب عن بالي هذا؟".

كنت لا أفهم حتى الآن سرَّ ولعهم بالأسماء ودلالاتها، وكيف يتبركون بأسماء المشايخ والمقدسين من الرجال والنساء، ورحت أنتبه للمرة الأولى من تكرار الأسماء في العائلة بشكل لافت.

- "نسمي أولادنا بأسماء نحب أن يأخذوا منها أو من بركة من تسمى بها". قال لي أبي مرة.

بالفعل العمة إشراق ستكون مأربي في رحلة بحثي هذه. سأعود أدراجي نحو البيت، وأسألها صراحة عن كل ما يدور في ذهني. استأذنت ثم تركت حجرة الجدة نحو باب

الخروج، فأنّت الجدة في ألم:

- "لم أقصد قتل ولدها، فلم لا تكتفي بواحد وتترك الباقين للدنيا؟".

قابلني عمي صديق، وسلم عليَّ، وطلب مني المكوث لتناول العشاء بصحبتهم، فاعتذرتُ بأدب، وانصرفت، وعند الباب، ناداني:

- "نور.. أنتظركم اليوم للسهر، فمحسن سافر صباحًا، ولن يعود قبل يومين".
- "إن شاء الله يا عمي، سأحاول إن لم أكن مشغولا بهذه المقابلات العائلية التي تُحضِرُها العمة لي".

ابتسم، فحاورته بابتسامتي، ثم انصرفت نحو عمتي إشراق.

- "في بلدتنا نعتمد الإيماءات والإشارات في التواصل مع الآخرين". قال أبي.
- "ألا تكفيكم الكلمات في التواصل؟". سألتُ أبي.

* * *

نادتني عمتي إشراق للنزول؛ فهناك أحدهم يسأل عني، يريد مقابلتي، وينبغي النزول؛ فلا يجوز أن ينتظر الضيفُ وحيدًا. على الفور حاورها حميد بدلًا عني بأننا سننزل إليها حالًا، ثم استطرد:

- "من الضيف يا عمة؟".
- "عمكم مُحِب.. يسأل عن نور". أجابت عمتي.
- "يا عمتي لتطردي الأطفال أمام البيت، صدعنا من صراخهم". قال حميد.
- "اتركهم يا ولدي يلغلغون، فالأطفال أحباب الله". أجابت عمتي.

ساعتها تذكرت كلامه معي، يوم سألته عن أختنا التي ماتت قبل سنتين من ميلاد

"ليلي" طفلة في عامها الأول، فقال بأنها في السماء، لأن الرب اختارها.

- "ولِمَ لمْ يختر غيرها، ألا يحبنا الرب يا أبي؟!". سألته.
- "بلى يا نور، الرب يحبنا؛ فالخلق عياله". قال واثقًا.
- "فلم يحرمنا ممن نحبهم؟! ذاك ربٌّ قاسٍ يا أبي!!". قلتها وبكيت بحرقة موت الصغيرة.

العم مُحِب. أظنه واحدًا من الأعمام الذين تعرفتهم من حكاياته وحواراته عنهم، ابن العم غير الشقيق لأبي، واحدًا ممن ظلَّ بالبلدة رافضًا تركها تحت أي ظرف، تعود وصفه لي بوصفٍ تكرَّرَ كلما جاء ذكره:

- "محب ابن عمي كسمكة القريصة، لا تعيش سوى في بحيرتنا، وسينقرض مثلها يومًا".

العم محب عزف عن الزواج، أو لعله تعلل بظروفه المادية، لكنه على الدوام موجود في كل حكاياتهم وصولاتهم التي حدثني بها فاروق وحميد في "كيرونا الجديدة" يوم التقينا وخططنا لسفري هذا بعد عودتنا إلى استكهولم. الكل هنا يحبه، ويصفه بالطيبة الزائدة، ولا تثنيهم طيبته هذه عن التصادم معه مزاحًا وجدية:

- "محب أكثر من تحمل غضبنا وجنوننا". قال أبي.

نزلنا وسلمنا عليه. أخذني بحميميةٍ بين يديه، وطبع آهةً طويلةً جوار أذني، وجدتها تحمل من الأسى الكثير، باح بها عن معاناة غير مفهومة، بعدها تتابعت وصلة الترحيب الاعتيادية والسؤال عن الأحوال، والأمور، قاطعها بالسؤال عن فاروق، فأخبره حميد بذهابه إلى بيت جدته لأمه، ليحضر زفاف ابنة خاله، وسيغيب عن البيت ليومين. دخلت عمتي إشراق تحمل أكوابا من عصير المانجو:

- "أنا أعرفك لا تحب الشاي يا محب". قالت عمتي.
- "يبدو أنه في النهاية لم أحب الكثير يا حاجة". عقب محب وابتسم.

انصرفت عمتي، فعاد لسؤالاته عن رحلتي وأيامي الأولى، واعتذر بكونه لم يقابلني منذ وصولي، وعلل بسفره إلى الإسكندرية لزيارة عائلية خاصة به، ثم سألني بلا مقدمات:

- "كيف حال حسن؟ وما أخبار صحته هذه الأيام؟".

حيرتني الإجابة، فنظرت نحو فاروق مستغيثًا، ففهمني، وأسرع يجيبه بأن الأمور على مايرام، وأنه بخير، ثم غيَّر مجرى الحديث تمامًا.

دق باب البيت ودخل محسن الديك، وحين رأى العم محب، أسرع نحوه، وقفز فوقه بحركه مسرحية وصاح:

- "البطل، زميلي في الكفاح". ثم ضحك.
- " الديك الثائر الفصيح!! مرحبًا". قالها محب، وبدأ يربت على كتفه.
- "كلنا نعرف أن العم محب والديك قد دفع الكثير لأجل البلد". قال حميد بسخرية.

كيف استطاع حميد أن يشج هذا "الدُّمل" الطافح، فانفجر قيحه مقززًا ومؤلما، انفجر في صمتٍ مكبوتٍ وألمٍ بدا طاغيًا على وجهه، فهاهي طلقات الرصاص، وتلك طلقات الخرطوش تطارد الجميع في شارع محمد محمود، صرخات مدوية، وأصوات سيارات الإسعاف تتقاطع مع أصوات الدرجات البخارية التي تحمل الجرحى الذين يتساقطون.

- "أتمنى أن أكتب عن بطولات الدراجين؛ فتاريخنا سيغفلهم وينسى دورهم". قال عمي أسامة لأبي مرة.

كأن جملة حميد الساحرة أعادته للشارع وأعادت إليه سنواته التي ولت.

- "في كومة قمامة ألقوا جثثهم". روى عمي أسامة لأبي، ثم أردف:
- "أسمع بقايا الخرطوش حين تأملت ألمه لحظتها، كان يهتف في محمد محمود (يسقط يسقط حكم العسكر)".

العم محب مكوم إلى جوار مجموعة من الجثث بجوار قمامة تجمعت في مدخل شارع الفلكي، الدماء تسيل من جرحه القطعي بفروة رأسه، يغشى عليه، فلا تشفع الإغماءة في العتق من السحل بعدما تبين أنه مازال يحتفظ بحقه في التنفس والتشبث بالحياة. يُسحل بطول الشارع حتى ميدان التحرير ثم يُحمل ويُكوَّم مرة أخرى في باحة مبنى البرلمان وقتها. لحظات وتتناوب العسكر على التفنن في اكتشاف طرق جديدة لا آدمية لانتهاك بشريتهم التي تهترت تحت وحشيتهم المبالغ فيها، على البعد وفي مدخل واحدة من الحجرات التي سحل مع آخرين إليها بين "دْباشك" البنادق والدماء الطازجة المختلطة بالعذابات والتوسلات، والنداءات بحياة الثورة والمجد للثوار. يراها - "رشا الإبريلية" - صديقته التي تعود أن يناديها بهذا الاسم بعدما عرف بانتمائها لحركةٍ تُسَمَّى "شباب ٦ أبريل"، هناك في آخر الطرقة تستغيث بعدما عرَّاها العسكر بأمر ضابطهم هناك، ورآها ترتطم بالحائط ثم تسقط جثة هامدة بعدما سمعت الأمر الصادر من هذا الآمر:

- "شوفوا بنت الكلب اللي شتمتنا دي مَرَة ولّا لسّه مدخلتشي دنيا". قال شرطي عسكري.

في المحكمة كانت تنطلق حناجر الآلاف غير بعيد:

- "يا مشير.. يا مشير.. أنت الأمير!!". هتف بها يومها شبابُ الإسلاميين.

ساعتها جاء الحكم وسط تنديدات الكثير من النشطاء:

- "ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ". نطق القاضي العسكري.

بينما راح محب يدندن في هدوء، وما زالت الدماء تنزف من جرحه ووجهه:

- "يا معشر الثوار الكل فيكو إمام.. ولا حد غير العلم راح ينضرب له سلام" كررها حتى وصل المعتقل.

- "ثورة ثورة حتى النصر.. ثورة فْ كل شوارع مصر" قال أبي..
- "وهل فعلًا كان فيه ثورة في مصر؟!" سألت أبي.

* * *

(سلامٌ عليكِ يا بهلة كيفما جئت، في صورة البشر أو ما شئتِ من الصور المحببة إلى أعماق الرجولة في بني مسعود ولد الشحات، هذا الذي تشرف رحم زوجه أن يحمل الجنين المبَرَّأ الموصول إلى أرض بابل، هذه النطفة التي اختلط فيها ماء من لا يعصون الله ما أمرهم، ومن استهوتها الحياة الدنيا ومتاعها الغرور. هذه النطفة التي جاءت تحمل حبل الطاعة من مصدريها المختلطين بماء صاحبة الملامة في كل أرض بابل، من أرسلها الرجيم فغوت الطاهرين، فلما اختلط البحران من مائهما ومائها، هذا عذب فرات وماؤها الملح الأجاج، وحين استقرت في جوديها نطفتاهما، استكانت فنامت تبيت في طهر غير مسبوق، فأمسكت طرف ثوب التوبة التي يطرحها ربُّ السماوات في الليل، فنالت من رحمته كما نال مَن جاء من نسلها فقبض على أثر الرسول الكريم. سلام عليها تلك الأم التي طهرها ماء الملاك، فصارت أطول النخلات وأزهاها في كل أرض العراق على مر التواريخ، فكان المكتوب من آلاف السنين متحققًا في قدومها إلى دنيا الثقلين، تلك التي تنتمي إلى أصل الملائكة وفعالهم، لكنها مردودة بالنسب إلى أمها من البشر، فعادت مثلها بالأصل إلى الجن الأزرق حيث تربت وعاشت، فسادت عرشهم في بضع سنين خلت بعد وضعها، فصارت لا يقدر عليها ولا يناديها سوى من لديه علم من الكتاب، فجاءت إلى سليمان النبي ومردت له الصرح بالقوارير من دمعها، فخطت بلقيس ورفعت عن ساقيها، حتى انتهت للجلوس في صدر محكمة الجن في مغارات الجبل لدى شمهورش العظيم، فتقدمت على السبعة وفاقت "لالة ميرة"، وغيرها من الحسناوات في دنيا الجن المتعددة الألوان والأطياف، حتى جاءت ساعة الرضا، حين

رأت النطفة التي وضعها هذا العارف بالله في طرف البحيرة، هذا الذي تسيَّد أرض بريتها الشيخ عابدين، فأنبتت له من الأرض يوم سقطت نطفته في قاع البحيرة، طفله الميمون الذي حمل وجه سمكة القريصة، ليتزوج ابنة روح البحيرة، التي رباها القطب عابدين فنسبوها إليه، وجه القريصة الذي بدَّله لبن ثدي مريانة المهمل لسنوات، فصار كفلق القمر في ليلة التمام، فمحا بقدومه إلى الدنيا هذا الذنب السرمدي على رجال عائلته التي ستجيء من صلبه يومًا، فلا تيه بعد اليوم، وسيرضى بالاغتراب ثم العودة، فها هو الحظ السَّنِي تجلى، فمنحتهم "لالة ميرة" بركتها، وحلت بركة القبضة من أثر الرسول، وانقضت عن رجال نسله حكم التيه لباقي الحياة، حتى تحل الروح فيهم من مزجت نطفة مسعود بمائها، واستبضعوه في رحم زوج مسعود، فباتت أمهم التي حملت، وحاضنة الجينات المقدسة الطاهرة، فجاء بنو مسعود إلى الدنيا محكومين بالغربة وأوجاع البعاد، يحملون أينما ذهبوا حفنةً من وجعهم ووجع بحيرتهم، لكنهم دومًا يعودون إلى أرض البحيرة كسمكة القريصة).

- "هكذا جئنا إلى الوجود يا ولدي".. قالت عمتي إشراق.

مرت أيامٌ قبل أن يأتيني اتصالٌ من ليلي تخبرنا فيه بأنهما قد عبرا للتو حدود الجزائر باتجاه الشرق الجنوبي، وأنهما في الأيام التالية سيتريثون في مخيمٍ بجبل نفوسة، زاره آغ مسعود قبل ذلك، يوم كانت قبائل الأزواد تطلب العون من كل القبائل التماشقية في المنطقة أيام انفصالهم. في نهاية المكالمة السريعة أخبرتني بأنهم سيصلون إلى واحة سيوة بعد تحركهم من مكانهما بأربعة أيام لا يومين كما قالت قبل أيام، وأنه يلزمهم بعض المال بعدما استهلكت رحلة الهروب كل ما يملكون من نقود كانت مخصصة للعرس والزفاف. طمأنتُها على أحوالي والجميع، وبلغتُها تحياتِ عمتِنا إشراق ودعاءها الذي لا يتوقف بأن تصل بالسلامة إلى البلدة. وختمت معها حين سألتني عن آخر أخبار البحث عنه، هذا الذي أخبرتني الجدة أم صديق في نوبة من نوبات خرفها بأنه موجود لدى من تسمى باسمه.

- "لا جديد، ولا خيط يدلني يا ليلي". أنهيت المكالمة.

أمضيت أمسياتي التالية في الزيارات العائلية التي أقوم بها مع حميد، ولحق بنا كل من فاروق والديك محسن لدى عودتهما. في واحدة من هذه الزيارات قررنا الذهاب نحو بيت العمة كاندل، لعلنا نظفر بمقابلة أمجد ولدها، هذا المشهور بلقب "الجني" في العائلة. هناك ألحت زوجة جاره - حيث يسكن - أن نصعد، وتعللت بأنه في طرف البحيرة يزور والده. كان "أمجد الجني" - الابن الوحيد لعمتي كاندل - مشهورًا في العائلة بصراعاته المستمرة ما بينه وبين والده منذ نعومة أظافره. حكى لي أبي ذات مرة بأنه هرب من بيت العمة حيث كانت تعيش، وفي الليل حين كَلَّ الجميع في بحثهم عنه، وباتت الاقتراحات المقدمة لمكان هروبه تتبخر الواحد تلو الآخر، اضطروا لإبلاغ قسم الشرطة في المدينة، وفي فجر اليوم الثالث هاتفهم عمي مصطفى بأن "أمجد الجني" موجود عنده، فما كانت سوى سويعات استعاده أبوه من بيت عمي مصطفى بالإسكندرية، وعاد به مع ظهر اليوم التالي، وقد بدا تورم وجهه من الضرب المبرح، فزادت الشُّقة بينهما، حتى انقطعت علاقتهما تمامًا في أول أعوامه بالجامعة، وبات الجني يأوي إلى بيت الجدة هنا، حتى رحلت ومن بعدها رحلت العمة كاندل، يومها كان عامه العاشر الذي لم يحادث والده فيه. في يوم وفاة العمة كاندل، كان أمجد خارج البلدة، جاء على عجل بعدما هاتفه محسن الديك بالخبر. لحق بالجنازة قبل دخولها مسجد المهدي، وحين هم بالدخول إلى المصلى، لمح والده جانبًا وسط مجموعةٍ من الأهل وقفوا لمواساته، فاندفع إليه في ثورة طاغية، وصرخ فيه:

- "أتمنى أن يريحها الموت منك ومن طغيانك".

يومها - كما صرَّح عمي مصطفى لوالدي في واحدة من محادثاتهما - لولا تدخل العم صديق والعم محب، لصارت فضيحة في العائلة، حيث صمم "أمجد الجني" على أن تُقبر العمة كاندل إلى جوار الجدة والجد مسعود، رافضًا في صرامةٍ أن تُقبر في المقبرة

الخاصة بوالده وأهله، وهو ما أخَّر دفنها ساعتين.

- "يكفيها أن عانت حياتها في قربهم، فلتنعم بحريتها في قبرها بعيدًا عن ذكوريتهم الشعواء". علل أمجد.

حين سألته يومها عن الفارق، أخبرني بأنه موروثات نفسية في البلدة، ملتزمون بها هناك للغاية، وأن العائلات يأنسون بالأحبة من الأهل في موتهم كما كانوا في حياتهم.

- "الناس نيام مْتى ماتوا استيقظوا". قال أبي.

- "أنحيا بالموت يا أبي؟". سألتُ أبي.

* * *

أسرعت عمتي إلى غرفة الشباب حين دقَّ الهاتف العتيق في جيب عمتي، وأكدت في خطواتها ما بين المطبخ والغرفة بأنه العم أسامة لا محالة؛ فهذا موعده المعتاد للاتصال بها، حين اشترطت عليه وقتما قرر الغربة هو الآخر. كنا نتحلق مائدة من الخيزران في كراسينا المشابهة لها أمام باب البيت، حيث اقترح حميد أن نجلس ونتناول الشاي المسعودي المميز، ومن مكاننا سمعنا العمة داخل البيت.

- "يااااه.. علياء.. يا حبيبة عمتو". ثم انفجرت في البكاء.

- "أسرع حميد يقفز في خفة، ويتصايح:

- "المعلمة علياء.. علياء بتتصل وعمتي لن تكفَّ عن البكاء".

دلف إلى البيت، وصار ثالثهم في المكالمة، وسمعناه يُطمئنُ علياء على الجميع هنا في البلدة، ويخبرها بوصولي منذ أيام، وأننا سنسافر إلى سيوة في الليلة القادمة لاستقبال لِيلي وآ غ مسعود، وأبلغها تحيات الجميع ومن بينهم العمة التي ظلت تردد، ونحن نسمعها:

- "الله يسامحك يا لولا يا بنتي".

عاد حميد - بعدما هدأت العمة - وطلب منها دورةً جديدةً من الشاي المسعودي، وأخبرها بأن علياء بخير، وستتحين الفرص للعودة إلى مصر متى تسنَّى لها الحصول على إجازة، وأنها تتعلل بضغوط العمل هناك في جامعتها بشارلوت بالولايات المتحدة الأمريكية، بعدها صاح الديك محسن مازحًا:

- "ادع لها يا عمتي أن يحميها في بلاد الكفار هناك". قالها، فضحكنا.

عادت عمتي تلملم بقاياها التي تناثرت جوار أكواب الشاي الذي فرغنا منه، وانبرى فاروق يمدح العمة، وكونها أفضل من يقدم الشاي المسعودي، وأنشدها من الكلام ما أثلج صدرها، فربتت على كتفه بيدها المرتعشة، ودعت لنا جمعاء بالصحة والحفظ من كل سوء ومكروه، ثم ابتسمت ونظرت نحونا:

- "يااه يا أولاد مسعود الشحات.. والله زمان يا شباب". قالت عمتي.

طلبت منا أن نفسح لها مكانًا على الأرض إلى جوارنا، وأصرَّتْ أن تفترش الأرض، ورضخنا لها في النهاية، وحين اعتدلت في جلستها حيث أسندت ظهرها إلى باب البيت، وأخذت تدندن في همس أو هكذا ظنت، فقد سمعناها بوضوح:

- "دخلت أدوَّر مطرحٍ إنْ كانوا.. لقيت الهدوم محطوطة.. والحبايب حمَّلوا وراحوا..
دخلت أدوَّر بالراحة.. لقيت الفرشة مفرودة.. والحبايب حمَّلوا وراحوا".

تصايح محسن الديك في إعجابٍ بما قالت، وسألها أن تعيدها على مسامعنا، فأطرقت بوجهها تنظر اللاشيء في الشارع الممتد أمامها.

- "الحمد لله يا ابني.. الحمد لله.. أمن العدل أن يتركوني هنا وحدي؟". سألتنا في حزن حقيقي.

بادر فاروق بطبع قبلةٍ حانيةٍ أعلى عِصَابَةِ رأسِها السوداء، لعلها خففت عنها

الكثير، حيث أمسكت راحة يده التي احتضنت رأسها وقبلتها في حب. انبرى محسن الديك يُعيد علينا وصفه لما أسماه عدوى الطبطبة التي تصيب نخاع العائلة، ولا يكاد ينجو منها واحدٌ منهم، ثم أخذ يضرب الأدلة على تاريخ المرض - كما أسماه - في العائلة، حتى انتهى إلى القول، بأن الجدة في بيته لاتزال تأسف كلما قبل يدها والده - العم صديق - وأنها تطلب منه السماح لكونها حرقت يده عامدة في صغره:

- "العجيب أن أبي نفسه لا يذكر الحادثة". قال محسن الديك.

هنا انتبهت العمة إشراق، ومالت بوجهها نحونا، وترحمت على الأحياء والأموات من الآباء والاجداد، ثم نهرت الديك.

- "تريد أن تعرف أيها الديك سرَّ أسف جدتك؟ حسنًا سأخبرك". قالت عمتي.

أخذت تدير جسدها ناحيتنا ببطء، ثم هزت رأسها لمراتٍ متتابعةٍ وسريعة، وتمتمت بالدعوات التي تطلب السماح، وأن يغفر الله للجميع، وأخذت تحكي ما كان، وكيف حرقت الجدة - أم العم صِدِّيق - يد العم صِدِّيق منذ عقود، قالت:

- تعودت خالتي أمينة - أم صِدِّيق - أن تستيقظ باكرًا للذهاب إلى حرش البحيرة في كل يوم، يوم كانت بجوار البيوت هنا، وقبل أن يأتينا الفلاحون، فيسرقوا الحرش بلؤمهم البالغ، كانت تخرج قبل الشروق، لتعود بأحمال البردي التي تجففها لصناعة الحصير، ثم تبيعها في سوق الخميس بالمركز. جرت بذلك عادتها بلا انقطاع، حتى كان ذاك اليوم وتأخرت في عودتها، فطلبتها أمي، وخرجت للبحث عنها، وكادت من الرعب تموت، حين وجدتها ممدة وسط الحرش، ومجمدة الجسد، فصرخت تستغيث بالصيادين العائدين من البحيرة، وسريعًا لبى من هناك. عادوا بالخالة، وعبثًا حاولوا إفاقتها، لكنها ظلت على تجمدها، حتى اقترحت جدتي أن يستدعوا درويش الحلاق، لعله يفتيهم في أمرها، هنا تدخلت أمي بأن الجماعة - تقصد رجال البيت وقتها - قد يذبحونهن لذلك. كان الخبر قد وصل إلى عمي وأبي في البحيرة، فعادا سريعًا، وحين دخلا كان

النهار يودع البلدة، وفي بلدتنا نكره دخولها آخر النهار. انزعج عمي وارتبك، لكن أبي - جدك يا نور - أمرهم على الفور بإشعال البخور، وإحضار الماء من بئر مسجد سيدي المهدي على الفور، فهرُعت أمي تلبي الطلب، وحين عادت، أخذ أبي يقرأ الآيات في كفيه اللتين غطى بهما فمه وأنفه، ثم يغمس كفيه في الماء الذي وضعته أمي أمامه.

- "فلتغفروا لنا، نحن الذين دخلنا البلدة في غير الوقت الحصيف". قال أبي مسعود بتضرع.

بعدها أمر أمي وجدتي أن تغسلا الخالة أم صديق بهذا الماء الذي باركه بالآيات والتضرعات؛ وعلى الفور قامتا بما نصح به أبي. لحظات ثم استفاقت الخالة بعدها تبكي بشدة، في دهشة من تحلقهم من حولها، ولا تكف عن الرجاء بأنها ما قصدت أو تعمدت ذلك. سألها الحضور عما حدث، لكنها ظلت تبكي إلى أن طلب أبي منهم أن يضعوا المصحف تحت وسادتها، وأن يبقى مصباح الزيت مشتعلًا معها، ويتركها الجميع لتنام.

- "اجعلوا إلى جوارها من ماء بئر سيدي المهدي، ستحتاجه الليلة متى حضرها العطش". أمرهم أبي مسعود.

في الليل حيث كنتُ أنام مع أبي وأمي في حجرة نومهما، سمعته يصرِّح لأمي:

- "أختك قتلت صغيرًا لسكان البرية، كان في الحرش".

- "قتلت!! مين يا مسعود؟!".

- "عيّل من العُمار في الحرش".

- "نهار أسود!! كيف ؟!".

- "ذبحته حين كانت تقطع البردي، دون قصد".

- "والعمل؟".

يومها عرفت بأن الخالة أمينة، قتلت جنينًا لهؤلاء الجن العُمار الذين يسكنون الحرش، ويعيشون في "الكوم الأحمر"، وأنها قد تلبستها أم الجني القتيل، وأنها لن تتركها قبل أن تنتقم لمقتل صغيرها. من يومها وخالتي تخاف على أولادها، وحذرت الصغار من مغبة الخروج إلى الحرش بمفردهم، لكن العمَّ صِدِّيق خالف أمرها، فما كان منها إلا أن جاءت بـ "المنجل" الذي تستخدمه في جزِّ البردي. قامت بتسخينه في مجمَرَةِ البخور، ثم قامت بكيِّ يده. وفي الليل حين صعدت إلى حجرتها، أخذت العم صديق في حِضنها وظلت تبكي، وتتأسف له، وفجأة انطفأ مصباح الزيت، وسمعت دقاتٍ متواليةً على شباك حجرتها. تعجبت من يمكنه الطرق على شباكها بالطابق العلوي المواجه للبرية على اتساعها، تعالت الطرقات، وأزَّ الشباك تحت وطأتها، فارتعبت الخالة، حاولت أن تنادي أمي أو جدتي، لكن صوتها كأنها لم تملكه من قبل، فعجزت عن الكلام، أرادات أن تتحرك نحو المصباح الزيتي، لكنها كما قالت:

- "شعرتُ أن أحمالًا من البردي قد رُبطت في قدمي". قالت الخالة أم صديق.

ارتمت الخالة إلى جوار صديق بينما منصور الكبير كان يغط في النوم، وأخذت تبكي في صمت، وإذا بامرأةٍ كالطيف تقف على باب حجرتها المغلقة، يتطاير الشرر من عينيها التي لا تشبه في استطالتها أعينَ البشر. أرادت أن تصرخ، لكنها لم تجد صوتها مرة أخرى، كأنه حيث لا يمكن الوصول إليه، فزمجرت هذه المرأة:

- "تحتمين يا قاتلة في صغيرك، لكنه لن يحميَكِ للأبد" قالت المرأة على الباب.

وظلت تتوعَّدُها بالانتقام، وأنها لن تتركها قبل أن تذيقها من نفس الكأس الذي تجرعت منه إثر فعلتها بالبرية.

- "عين بعين، ونفس بنفس، وولد بولد". قالت المرأة الطيف.

بعد أيام جاءنا الخبر بأن ابن عمي – منصور– قد غرق في البحيرة، فظلت خالتي تبكيه، إلى أن كان موت ولد عمتكم الألماني منصور، حتى وجدنا الخالة تصرخ في حجرتها في الليل:

– "ألا يكفيكِ منصور الكبير، حتى تأخذي منصور الصغير".

– "أظن خالتي تعتقد بأن عمكم منصور، وحفيدها منصور الألماني قُتلا انتقامًا لفعلتها تلك". ختمت عمتي حكايتها.

أعادتني حكاية عمتي إشراق إلى يوم وفاة منصور الألماني، يومها سمعت عمي مصطفى يحادث أبي عبر الشات، ويخبره بأن خالتهما قد عادت إليها حالة الجمود التي سيطرت عليها يوم وفاة منصور الكبير ولدها، وأن عمتي "شافية" – أم الألماني – التي يلقبونها هنا بـ"رويترز" لحبها نقل الأخبار، قد خرست للأبد.

– "تخيل، يرفضون عرضها على الطبيب". قال عمي مصطفى.

إلى اليوم الذي اختفى فيه، كلما جاء ذكر الجدة، ترحم عليها أبي، وعلى منصور – الكبير والصغير – ودعا الرب بشفاء العمة "رويترز" أو راحتها بالموت، وحين أسأله:

– "وهل ماتت الجدة أمينة يا أبي؟!".

– "الأحياء أولى بالرحمة يا نور من الأموات". ودوما يعقب:

– "ليتكِ يا خالتي قدمتِ الدِّيَة، وتصالحتِ، لعن الله حرصك". قال أبي.

يحكي بعدها أنهم هناك اعتقدوا بأنه كان من الممكن تدارك كل ما كان من فواجع شتى، غيَّرت في تاريخ هذه العائلة، لولا حرص الخالة أمينة.

– "في بلدتنا التاريخ على الدوام يعيد نفسه". قال أبي.

– "أليس عجيبًا أنه لا يعيد سوى التواريخ الكئيبة؟!". سألت أبي.

* * *

عادت الأيام توالي تتابُعَها بسرعتها العجيبة في البلدة. تلك السرعة التي لم أتعودها قَطّ في مدينتي "كيرونا" في مثل هذا الوقت من العام حيث النهار الطويل، وهو ما أربكني منذ اللحظة الأولى لوصولي. كان الشعور بأنني أتحول إلى حبة دواء فوارة يتصاعد داخلي؛ فكل يوم يفور بالذكريات التي تتراص أمامي، لكنها تسكن في النهاية إلى طعم المرار كما الماء الفوَّار. لا شيء يشي إليه بِصِلة. لا أحد يعلم عنه منذ شهور. خوفنا على عمتي جعلنا نخفي عنها الأمر؛ فعمي صِدِّيق وعدني بالبحث، وطلب منا أن نخبر عمنا "أسامة" بالأمر، فهاتفه فاروق بالخبر، فانزعج ووعد بالعودة قريبًا لزيارة البلدة.

- "لن أرجع إلا ومعي له أثر. اطمئنوا؛ سنجده. جربوا أن تخبروا عمك ماجد فيكس". قال عمي أسامة.

عمي أسامة الذي ترك مصر بعد فصله من عمله مطلع صيف ٢٠١٣م، لنشره ما يفتح تساؤلات حول قرارات العفو الرئاسي عن مجموعة من أعمدة التكفيريين والجهاديين المعتقلين، وذلك بالأمر المباشر لرئيس الجمهورية.

- " في بلدنا شر البلية ما يُضحكنا يا ولدي". قال أبي.

- "ومتى يحزنكم الشر يا أبي في بلدكم؟!" سألتُ أبي.

* * *

في المساء جلسنا مع عمي صديق وصديقه الأستاذ عدنان، وعاد بهم النقاش إلى واقعة محسن الديك في المسجد حين كاد يشتبك مع بعض المنتمين إلى الإسلاميين الجدد، وظلَّ يفلسف الأستاذ عدنان مبرراته، ويشرح لهم في ضرورة تكوين ما أسماه

"القوة الناعمة" الواجب توافرها لديهم في مواجهة هذه الهجمة من الفكر المتشدد المصبوغ بصبغةٍ دينيةٍ باهتة، واكتفى عمي صديق بتدخين الحشيشة، ومراقبة حديثهم، حتى خرج عن صمته بعبارة جعلت محسن الديك يدق الأرض بقدميه مرات متوازية مع نوبة ضحك مدوية، عاتبه عليها فاروق طالبًا منه الاحتشام ومراعاة الجيران.

- "أبو جهل كان رجلًا يستحق ثباته على موقفه كل الاحترام، بينما تلونهم كالحرباء لا يجلب لهم سوى العار". قال عمي صديق منتشيًا بالحشيشة.

تتابع الحديث حول الوضع السياسي في مصر، والصراعات والتوازنات، وأخبرنا الاستاذ عدنان، بأنه يرى ما يحدث وكأنه صورة معادة مما حدث في انتخابات الرئاسة في العام ٢٠١٢ بعد الثورة المصرية.

- "التزوير ليس بتزوير ورق وصناديق الاقتراع، التزوير أوسع من ذلك بكثير". قال الأستاذ عدنان.

- "أعتقد أن جيلنا فهم الأمور جيدًا، وإلا ما كان في ٢٠٢٧ يا عمي ". قال فاروق، وأيَّده حميد والديك.

هكذا دارت ليلتهم تتتابع، ولأول مرة منذ قدومي أشعر بالملل. من يأتي بك يا ليلي؛ فأنتِ التي تحبين الأحاديث عن مصر وأحداث ثورتيها المتلاحقتين؛ أما أنا فيبدو أن حبة الفوار سكنت وهدأ الماء. لاحظ حميد شرودي وضجري الذي بدأ يتشكل في ملامح وجهي، فأنا لم آتِ هنا لأسمع ذكرياتهم عن ثورة مضى عليها عشرون عامًا، أو لأسمع تنظيراتهم التي غرقت فيها مصر كلها منذ سنوات.

- "أتعرف أن نور يا عمي عدنان قابل عبد العلام في أول ليلة له بالبلدة". قال حميد فجأة.

- "عبد العلام راعي النعاج؟!" سأل مدهوشًا الأستاذ عدنان.

سريعًا أعدت الحكاية من بدايتها كما فعلتُ لعمتي إشراق من قبل، وأضفت إليها

فرح عمتي بظهور عبد العلام، وتساءلت أمامهم عن سر هذا الفرح الذي لم أصرح به أمام العمة، خوفًا أن أفسد فرحتها.

- "عمي عدنان، أحد أفراد عائلة عبد العلام يا نور". خاطبني الديك.

- "حقًا يا عمي". سأل فاروق.

ابتسم الأستاذ عدنان، وأخبرني بأني لابد وأن أكون أحد أصحاب الحظوة، هؤلاء المحظوظين برؤية عبد العلام. هكذا تحولَ الحديث إلى عبد العلام، فعادت حبة الفوار تتسارع في دورانها في الماء، وعادت الماء تدور من جديد مع حكايات الأستاذ عدنان عن عبد العلام راعي النعاج الثلاث. قال بأن عائلته تتناقل في موروث حكيها العديد مما أسماه كرامات عبد العلام الراعي، وأنه البشرى التي بُشر بها الجد الأول لعائلتهم في رحلة الحج التي رآها جدهم يومها، وتزامنت وعودة الشيخ السنجاري إلى البلدة في يوم مولد الشيخ المهدي، وأن كراماته مشهورة في البلدة كلها، ولا تكاد تخلو بقعة من ماء البحيرة، أو البلدة إلا وشهدت واحدة من تلك الكرامات.

- كان رجلًا مباركًا بحق". قالها وهو يسند رأسه للوراء ويستعد للحكي.

طلب منا الأستاذ عدنان أن نُصلي على النبي، ثم بدأ الحكي لما حفظه عن أبيه عن جده عن أول من عاصر عبد العلام من أجداده أنه وفي يومٍ واهن الأنواء، ظنَّ الجميع بأن نوة الحسوم في البحيرة قد حُصرت قبل موعدها بليلتين، وظهر القمر في السماء، فهرب الغيم أمام زحف النجوم، ورق السَّمَر وطاب في تجمع مراكب الصيادين فيما يعرف عندهم بمسمى "المياقي"، هذا التجمع الذي ضم العديد من الصيادين الذين تجمعوا للاستقواء ببعضهم البعض في مواجهة النوة، فيربطون فايات المراكب في بعضها البعض، لتصير كتلة واحدة يصعب على الريح تحريكها. استمر يؤنسهم صوت الحادي في سمرهم، وأسراب السقساق والبوري وبلطي القريصة من حولهم، كأنها تجمعت تستمتع بحديهم وأغانيهم عن البحيرة وأسيادها وعروسها.

- "إفرد كفوفك تزين الحنة يا غالي.. يا جسم طاهر ومتربي على الغالي..

الفرحة نزلت ف قلب الكل يا غالي.. أدلم ناسبت الأمارة والمِلاح.... يا هَنَاك،

من سجرة عالية وكان القلب رايق لك.. والرب راضي عليك، والرب رايد لك".

حين أنهى الحادي حديَه، تصايح الجمع عليه بأن يكمل حتى الفجر، فما أجمل الليل والحدي في بحيرتهم، فتسلطن الحادي بمواله واستطرد:

- "يا اللي جوزك في المالح.. طابخة الحمام ده لمين؟ طابخاه لأمي ولأبويا.. وربْ العالمين....".

فجأة يقطع الحديَ صوتُ ارتطامٍ شديدٍ بالماء، فيهرع الجميع للنظر، فإذا بعبد العلام قد قفز في الماء، واستعد للسباحة، فاندفع بعض الرجال من أصحاب الحمية بالقفز في الماء غير مبالين ببرودة الجو في نوة الحسوم، فهم يعرفون أن عبد العلام لا يجيد السباحة، واستماتوا في إخراجه من الماء، لكنه أصرَّ على السباحة والعودة إلى البلدة، وعبثًا حاولوا أن يعيدوه. كان الجميع منشغلًا بمحاولات السيطرة على عبد العلام الذي ثار في الماء كأنه "قرموط"، وعزَّ عليهم الإمساك به، بل كاد يغرقهم لفرط قوته، وفيما هم على حالهم تغيَّر الليلُ فجأة، فيبدو أنَّ ذعر عبد العلام وصراخه، أخاف القمر، فلاذ بالفرار، فأظلمت صفحة السماء والبحيرة، فخافت نجوم الليل السهر في ظلام البحيرة وأسرعت - هي الأخرى - تختفي في الغيوم التي تكاثرت، فآذنت للريح يزمجر، وللرعد يردد صدى صرخات عبد العلام في جوف الليل والبحيرة. تزايد البرق، فأصاب أحد الصواري فاحترق على الفور، وهطل مطر غزير، وعبد العلام على موقفه وصراخه:

- "ابني يموت، اتركوني؛ لعلي أودعه قبل الفراق". صَرخ فيهم عبد العلام.

لكن الشجعان من الرجال الذين تكاثروا عليه في الماء خوفًا على موته، فشلوا جميعًا وكادوا يصرعون حين زعق فيهم عبد العلام:

- "يا سيدي السنجاري.. خذني لابني يا كبير".

فضربت الماءَ صاعقةٌ كادت تغشاهم بنارها، فطاش جمعُهم، وتقطعت أوصال فايات المراكب، وتفصمت عراهم في الماء، فكادوا يغرقون في طود الماء الذي هيجته الريح العاصفة، واختفى عبد العلام، وتركهم في ظلامهم يعمهون، يلملمون أذيال المراكب التي فرت، وعبثًا حاولوا التجمع حتى طلع عليهم نور الفجر وهم فرادى في الماء. كان الفجر أمرًا بالخلاص لهم مما عانوه طوال الليل منذ غافلتهم النوة، واختفى عبد العلام. وفي حلقة السمك، تناقل الجميعُ صوتَ عبد العلام الذي سمعوه في كل بيوت البلدة طوال الليل وهو يصرخ على ولده "إبراهيم" أن يتمهل، وأنه في الطريق إليه.

- "كان في صلاة فجر اليوم في مسجد المهدي، ينعى لنا ولده الوحيد، وأن جنازته في صلاة الظهر، بعدما يعود الصيادون من البحيرة". تناقل الصيادون الخبر صباحًا.

منذ ذلك اليوم تغيَّر عبد العلام، ذلك الصياد الذي عرفوه بوصفه مختلًّا عقليًّا منذ الصغر، وعجبوا يوم زواجه كيف سيقضي ليلته الأولى مع عروسه، وتندروا بحكاياته الجنسية التي اخترعوها في مجالس سمرهم في تجمع "المياقي" حيث يُتاح الحديث عن كل شيء، لكنهم أبدًا لا يصرحون بأسماء النساء.

- "أعطاه ماضي الحلاق دهانًا أبقاه منتصبًا طوال الليل، فضجت العروس وكادت تهرب". حكى الصيادون عن ليلة عرس عبد العلام.

استطرد بأنه لا يجزم متى صار الشيخ المبارك عبد العلام، و متى اشترى نعاجًا ثلاثًا، أسماها كلها باسم ولده الذي مات طفلًا، فهذه النعجة إبراهيم الكبير، وتلك إبراهيم الأوسط، والثالثة إبراهيم الأصغر، ثم توالت كراماته التي لا ينكرها إلا هؤلاء الفلاحون الذين استوطنوا أرض بحيرتنا بعدما جفت البرية، واستزرعوها، فأنبتت لهم اللبن والجبن، بعدما كانت تطعمنا البلطي والبوري، وقشريات البحيرة الفسفورية.

كان قد حكى لي أبي عن عبد العلام في "كيرونا" ذات مرةٍ، واحدةً من حكاياته العجيبة التي تجعل الجدة "أمينة" - أم العم صديق - تؤمن بكراماته، وتحرص إلى وقتها هذا على التعوذ به، جنبًا إلى جنب والشيخ السنجاري، وممن منَّ الله عليه بالكرامة والحظوة من عباده المخلَصين، فقال بأنها - كما حكت لهم الجدة - خرجت قبيل الفجر في أيام التحاريق إلى مجرى النيل، لتملأ الجرة لوالدها. كان الليل خجلًا أمام اكتمال البدر، فسمح لنوره أن يفترش الطريق في مدخل البلدة فيصل ما بين مجرى النيل ومجرى الحياة في البلدة. حملت الجرة المملوءة بالماء وفي طريق عودتها وحين توازت خطواتها مع مدخل برية البردي فيما يسمى هناك "بسراية الأميرة" أو "قبر المرأة" كما يسميها البعض في مدخل البحيرة، رأت ذئبًا أسودَ يتطاير الشرر من عينيه، ويتحفز للفتك بها، فأسرعت الخطو، فانكفأت، فلحق بها الذئبُ مستغلًّا سقوطها المفاجئ، وهمَّ بأن يفتك بها، فنادت بكل قوتها، تطلب الغوث من الشيخ عبد العلام، وقبل أن يهجم الذئب، يظهر عبد العلام ونعاجه الثلاث، ممسكًا بعصاه الخيزران الرفيعة - تلك التي يهش بها على نعاجه - يضربها في الأرض. جاء بلحيةٍ بيضاءَ طويلةٍ كأنها النور، كادت لا تميزها من بياض ثوبه، عمامته الكبيرة الخضراء تلمع كإستبرق مشع، يقف في وجه الذئب الذي تراجع يزمجر حين عرقل تقدمه في الهجوم عليها، ثم أخذ يعوي، فيتحول عواؤه إلى ما يشبه الأنين، فيناديه الشيخ الأشيب عبد العلام، ثم يأخذ بناصية واحدة من نعاجه، تظنه نادها:

- "يا إبراهيم الأوسط.. نقدمك اليوم كوفاء للنذر". نادى الشيخ إحدى نعاجه الثلاث.

فتقدمت النعجة الوسطى، فأعطاها للذئب، فقبض على رقبتها، وانطلق إلى البرية، ثم استدار بوجهه الصبوح إليها، وأخبرها بأنه دفع عنها الدِّيَة، فلا دم لهم في رقبتها لعشرين سنة قادمة.

- "أتمنى أن ألقاك قبل موعد الدية القادمة، وإلا فليصبرك الله يا أمينة". قال عبد العلام.

لم تفهم الجدة أمينة كلام عبد العلام، الذي تقدم وأخذ بيدها، وابتسم لها حين كانت تعبر نحو مدخل شارعها.

- "لا تخافي، ولا تحزني، دفعنا الدِّيَة عنك، فإياكم أن تنسوا يا من حملتم النور". قال عبد العلام للجدة.

- "أي نور يا أبي قصد؟". سألته يومها.

- "هكذا الحكاية.. ههههههه". أجابني، واستطرد يحكي.

تمر الأيام، وتنسى الجدة أن عبد العلام قد دفع الدِّيَة عنها قبل أن تقتل في حرش البرية صغير الجن بعد ذلك بسنوات، وهو جني صغير من عمار الحرش، والذي جاءت أمه متشكلة في صورة الذئب لقتلها.

- "أرادت الجنية قتل الجدة قبل أن تكبر، وتقتل صغيرها في الحرش دون دراية منها، فالجن في بحيرتهم قرأوا الطالع بمنطق عجيب". ضحك أبي وهو يحكي.

حين أنهى الحكاية، ترحم على الجد الأول صابر، هذا الذي جاء من نسله كل عائلتنا، تلك التي يموت كثير من رجالها في ريعان شبابهم، ودعا بأن يجعلني ربه من أصحاب النور، فسألته عن هذا النور الذي تمناه لي، فاكتفى بالابتسام.

- "الموت نقّاد الجياد يا نور". قال أبي.

- "وهل نكون أشرارًا لأننا لم نمت بعد؟!". سألتُ أبي.

* * *

عُدنا سريعًا نحو البيت بعد أن صليت معهم الجمعة مباشرة، وهي المرة الأولى لي التي أصلي فيها صلاة الجمعة بلغة واحدة؛ ففي "كيرونا القديمة" والجديدة تعودنا أن يخطب

الشيخ بأكثر من لغة في الخطبة الواحدة، لا تتعدى المرة ربع الساعة. وصلنا البيت، ثم تناولنا الطعام على عجل، وأخذت عمتي تتمتم على الحقيبة التي أعددناها للسفر:

- "هل أنتم تثقون في هؤلاء الرجال يا أولادي؟". سألتنا عمتي.

- "الديك يا عمتي يعرفهم شخصيًّا؛ فهم أصدقاء قدامى لعمي صديق". قال حميد.

- "ربكم يسبل ستره عليكم، توخوا الحذر في سيركم في الليل". نصحتنا عمتي.

كُنا قد هاتفنا ليلي ومسعود منذ يومين، وعرفنا أنهم سيصلون إلى صحراء مصر الغربية، في جنوب الواحة المسماة "سيوة"، وأخبرونا بأنهم سيتصلون بنا حين يعبرون الحدود مع دليلهم الذي تسلمهم من جبل نفوسة وسيسلمهم لآخر في صحراء مصر. بعد الاتصال بقليل جاءنا الديك، وعرف الخبر، فأمرنا بالانتظار، ثم غادر قليلًا وعاد مستبشرًا، وعلمنا أن العمَّ صديق قد هاتف أحد أصدقائه العربان، في الساحل الشمالي يقطن في مدينة تسمى "الحمام"، وأنه سينتظرنا هناك اليوم في المساء، وبأن هذا الصديق المدعو "راجح المسماري" يعرف محسن الديك جيدًا، وبأننا حين نصل إلى مدينة "الحمام" تلك سيتولى هو أمر الاتصال بالدليل الذي يقود ليلي وآغ مسعود، وأن علينا الثقة فيه، واتباعه في كل ما يأمر به، واليوم الجمعة موعد لقائنا به في المساء، وسنهاتف ليلي وآغ مسعود بعد وصولنا وسنترك "راجح" يتفاهم مع الدليل حول نقطة الالتقاط في الصحراء.

تحركنا في سيارة العم صديق، وكالعادة حذرنا من تولى الديك القيادة، وتطوع فاروق - كالعادة أيضًا - بأنه سيقود طوال الطريق. حين خرجنا إلى طريق يعبر النيل من خلال أحد الكباري العلوية، أشار حميد بيده اليمنى من مكانه جواري في المقعد الخلفي للسيارة:

- "هذه مدينة رشيد يا نور، وهذا الطريق الدولي الساحلي".

- "سنلزم هذا الطريق حتى نهاية مدينة الإسكندرية". قال محسن الديك من مقعده الأمامي.

- "حميد، ما رأيك أن نبيت في الإسكندرية في طريق عودتنا، ألا تفتقد بحرها يا رجل". سأل فاروق.

نهبت السيارة طريقًا وسط مزارع النخيل الكثيرة، التي تعود أن يصفها لي بأنها تُشعرك بأنك تسير عبر تاريخ العراق القديم؛ فهي منطقة تتشابه وأرض نِينَوَى إلى حد بعيد، فابتسمت وقلت لهم:

- "نِينَوَاكم يا شباب.. عمكم حسن هكذا كان يسميها لي".

طال الطريق بنا ما بين الكباري العلوية، والعبور بين الزراعات تارة بِنَخِيلِها، وما بين ملّاحة تلفظ آخر حبات ملحها تارة أخرى، حتى انتهينا إلى طريق ضيق، يتقاطع وخط سكة حديدية، حين عبرنا مزلقانها قرأت اللافتة:

- "إلى الغربينيات.. ٣ كم". تخبر اللافتة كل المارة بالطريق.

بعد نصف الساعة بقليل، هاتف الديك صديق والده الأعرابي، ووجدناه - كما أخبر الديك - في المقهى المجاور لمحطة السكة الحديدية للمدينة، والتي لا يميزها سوى شريط السكة الحديدية ومبنى متهالك للغاية.

رحّب بنا "راجح المسمارى" بحَفاوةٍ، وشربنا نوعًا من الشاي أسماه "الزردة"، ثم ركب إلى جواري، وطفق يصف طريق بيته لفاروق الذي تولى القيادة، وبدأ الديك بتعريفنا إليه.

- "هلا فيك يا خواجة". ابتسم المسماري نحوي وقالها.

ثم تسارعت كلماته التي فهمتُها بصعوبةٍ تسأل عن الأحوال، وصحة عمي صديق، وأحوال البلدة، ومولد المهدي والليلة الكبيرة هذا العام ومتى تحين بالضبط.

- "أنا يا شباب زرت بيت أخي الأستاذ صديق في زيارةٍ لمقام سيدي السنجاري، يوم جئت وأهلي لوفاء النذر إلى مولانا سيدنا المهدي رضى الله عنه". قال المسماري.

قبل أن نتوقف وسط أجمة كثيفة من شجر الزيتون في الضاحية الجنوبية للمدينة، كان راجح المسماري يحكي لنا كيف تعرف إلى عمي صديق، من خلال عمي مصطفى الذي تعرف عليه حين كان يؤدي خدمته العسكرية في المنطقة، وكيف كان يعمل المسماري وكل بيته على تهريب الجنود من معسكرات المدينة العسكرية في جنوب البيت.

- "كنا نعبر بالعساكر سلكاوي يا شباب، إلى طريق الساحل". قال المسماري.

ثم تابع بأن العم مصطفى تعرف عليهم وقتها، ثم تطورت معرفتهم لتصبح صداقة حقيقية، وأنه دلّهم على مقام المهدي، الذي جاء إليه يطلب منه في يوم مولده في الليلة الكبيرة، أن يرزقه الولد.

- "وزرت مقام سيدي السنجاري، وسيدي عابدين". أخبرنا المسماري.

تابع كيف بات ليلته الأولى وزوجه في ضيافة العم صديق الذي تطورت صداقتهما فيما بعد، واستمرت حتى يومهم هذا، وأن لبيت العم صديق عليه فضلًا عظيمًا.

- "فيه وضعت بذرة ولدي الأكبر راشد ببركة بلدكم وأسيادها المباركين". قال المسماري بحب شديد.

في البيت، تحلقنا حول سِماطٍ امتدَّ بأطايب الطعام، وتسيَّد المشهدَ هذا الطبقُ الكبيرُ العجيبُ، المملوءُ بهرمٍ من الأرز الأصفر المخلوط بالزبيب والفستق والزعتر، يعلو قمتَه ما بدا كأنه شاةٌ قد تم شواؤها ببراعة، فما قاومنا طيب الرائحة التي فاحت من هذا الهرم، وانشغلنا بالطعام عن الكلام، بينما انشغل المسماري وأولاده الثلاثة بخدمتنا، وتقطيع الشاة بأياديهم في فرح، وتقافزت نكاتهم مع الديك محسن الذي بدا كواحد منهم تمامًا.

- "نحن أولاد الصيادين لا نشعر بالشبع سوى بأكل الأرز والسمك؟". قال أبي.

- "فما الذي يُشعر أولادَ غير الصيادين بالشبع في بلدتكم؟". سألت أبي.

الفصل العاشر

لِيلِـي

يا دنيا فيكي الأصيل على الدوام..
تَعْـبااااااااااان..
واتْحكّـم فيه الندل، واتلوّى..
كما التّعْـبااااااان..
وإذا قصده ف مشوار قال له..
على الدوام.. تَغْـبااااااااان

أعرف أنه مثلي. قالها كأنه يعرف السر وراء قسوة هذا الإله. كان يعرف أنه تخلى عنه وعن أمه وتركهما لهؤلاء الضالين، حين اتهموا أخي بالجنون هناك، لكنه لم يعلن رأيه صراحة؛ ليظل الآب هو إلهًا يستحق أن تعبده المدن الكبيرة والقرى النائية حتى في الجبال، فكيف تخطاك نور الصغير، بينما عجزت أنا؟! وأية أحاجي تلعبينها معي أيتها السماء؟ وما أسباب الضحك الذي يتشابه وضحك القديم؟ حتى اتهاماتي لك لم يعد لها مبرر أو معنى ما دمتِ لا تجيبين وتشفين لهفتي السجينة في هذا الظلام منذ ليال. أجيبي يا أيتها الوقورة. أجيبي يا من رأيتِ مما أرانا، وشاء لنا أن نراه. في النهاية أعرف أنك ستصابين مثلي بالجنون، فلا يمكنك أن تبرري لهؤلاء الواجمين منذ ليال في النور هناك، وأنا هنا قيد خطوات منهم أغط في ظلامي وسكوني، ولك أن تعجبي مثلي؛ فلا أذكر أنهم سألوني عن كل الأشياء، أو حتى جاءوا يسمعون مني الأسئلة، منذ ودّعوني هنا أحبتي، وسمعت بكاء أولادي إلا ابنتي من صلبي التي تمنيتُ أن أسمعها تبكي. من يومها هم هناك واقفون في ابتسامهم وسكونهم، لكن أو تدرين؛ هم يؤنسونني رغم كل الصمت، لكنه أنسٌ لن يعوضني شوقي إلى سماع صرختها التي تمنيت. تبًا لكل النور وكل الظلام ما دام يحرمني صرخاتها الأولى، وحروفها حين تتعلم كيف تناديني بلقبي.

- "أجبني أيها الإله وأخبرني عن حكمة الأحداث كلها، أرجوك!!".

حين جاءنا الاتصال المتفق عليه، أمرنا راجح المسماري بسرعة التحرك، وحذرنا بأن الصعوبة تكمن في أن طريق سيرنا لا محالة سيمر بالمدينة العسكرية جنوب مدينة الحمام، وكون الجيش يقوم بتدريبات ومناورات هذه الأيام، فهذا ما يُصعِّب المهمة.

- "لكن كله على الله يا رجال". حاول المسماري طمأنتنا.

استبدلنا بسيارة العم صديق سيارة المسماري.. سيارة "جيب" من بقايا القرن الماضي، ثم انطلقنا وسط أشجار الزيتون عبر طريقٍ مُعبَّدٍ بالحجارة، دقائق وأخرجنا فاروق من صمتنا بمهاتفته لعمتنا إشراق التي شدَّدَتْ على الاتصال بها حال وصولنا إلى المسماري. جاء صوتها معاتبًا، بعد أن أكلها القلقُ علينا؛ فقد تأخرنا في الاتصال بها كما ألزمتْنا، تتابع الحديث بشكل روتيني، ثم تبدلت ملامح فاروق - وهو أكثرهم تحفظًا - وضحك بقوة.

- "كيف؟ ولماذا كل هذا يا حاجة؟ " أجاب فاروق عمته.

استغرق دقائق ما بين الاندهاش وعدم التصديق لما تحكيه العمة عبر الهاتف، ثم طلب منها الدعاء لنا بالعودة سالمين.

- "كلهم هنا يرسل لك السلام يا ماما". أنهى فاروق المحادثة.

كنا قد انحرفنا من جهة الجنوب إلى جهة الشرق، ولاحظت وقتها أضواء المدينة العسكرية التي تلألأت في الظلام، وأصوات عسكر الخفرات الليلية تتابع، ولافتة تعلن عن ترحيبها بالزائرين.

- "المدينة العسكرية ترحب بكم". قالت اللافتة الضخمة التي تحمل صورة ضخمة للرئيس المصري.

- "عليك اللعنة أينما كُنت يا فرعون، حتى الجيش نسبته لنفسك". علق حميد على اللافتة.

- "كانت في الماضي مدينة مبارك العسكرية، لكل وقتٍ أذان يا شباب". قال المسماري.

تابعت السيارة سيرها السريع، بعد أن أطفأت أضواءها؛ وقبل أن تُعاود الانحراف ناحية الجنوب والعبور قريبًا بمحازاة سور من الأسلاك الشائكة، التي بدت من ورائها ثكنات العسكر واضحة للعيان تمامًا، أخبرنا فاروق، بأن العم "ماجد فيكس" يطلب منا الاتصال به للضرورة. على الفور أخرج محسن الديك هاتفه وسمعناه يقول:

- "خير يا برنس الليالي؟".

- "الله يحرق الكفار.. يلعن هيـ ، أسب، فاتكم نصف عمركم الليلة". سمعنا بوضوح صوت العم ماجد فيكس.

تابع يحكي لنا عبر الهاتف، بأن أخاه الشيخ خيري، قد بدأ في تنفيذ مخططه، فقرر الذهاب إلى الحي الذي يتجمع فيه آل الشعالوة، ثم دعاهم جميعًا للإيمان به، وبكونه نبيًا جديدًا بعثه الله لبني شعلان خاصة، ليطهرهم من ذنبهم الأول يوم اتهم جدهم شعلان الخالة مريانة، وأنكر على الشيخ عابدين ما فعله ليلة ظهورهما في الليلة الكبيرة بمولد المهدي، وأنه من بعد بني شعلان سيصدع بالرسالة إلى كل أصقاع البحيرة، وأن أشباه الرجال من بني شعلان – وعلى حد وصف العم ماجد لهم – كادوا يكونون عليه لِبَدًا، حتى زعق فيهم كبير العائلة – هذا المشهور بينهم بلقب "العميد" – ما كان أمرًا غير مباشر للصبية في الحي كله، بأن تقذفه بالحجارة، بعدما طرده خارج بيته.

- "تبًا لك يا خيري!! ألهذا جمعت بني شعلان يا مخبول".

ثم تناوب الأطفال عليه ضربًا وقذفًا بالحجارة، وهو ثابت يصرخ فيهم:

- "يا معشر بني شعلان، يا أهلي من دون المخلوقات وبني البشر كما أخبرني الملاك، اتبعوني ولا ترهقوني من أمري عُسرا".

انطلقت الشتائم تقطره، وكادت تطرحه أرضًا لفرطها، بعدما تجمع الحي بأكمله ما بين الساخر، والمتعاطف مع خبله والمتندِّر بعقله الذي ذهب بلا رجعة:

- "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم عافنا من الخرف والجنون". قال بعضهم.

لحظات وقالت نسوة الحي بأن الشيخ خيري قد جُن، أو طالته اللعنة الأبدية التي ألقاها القطب عابدين على جد الشعالوة الأول ذلك الخبيث شعلان، صاحب الفرية الأولى في تاريخ البلدة، في حق مريانة التي زادها الحظ حسنًا في الحكايات كلما ذُكرت سيرة الشيخ السنحاري في تجمعات "المياقي" في ليل البحيرة السامر.

انفجرنا جميعنا في الضحك، وكاد محسن الديك أن يتفلت من السيارة المسرعة حين انحرفت من الجنوب إلى جهة الغرب مبتعدة عن أسوار المدينة العسكرية، حيث طالعتنا لافتة أخرى كبيرة تُشير إلى نفس طريقنا:

- "ميدان الرماية – علم مسيلخ ٣٠ كم/ علم نايل ٢٥ كم شمالًا".

هنا طلب منا المسماري أن نلتزم الهدوء حتى نعبر هذه المنطقة، وأنه سيتعين علينا أن نترك الطريق الأسفلتي، لننحرف مرة جديدة في طريق يميل نحو الجنوب الغربي، وسط الصحراء الممتدة التي أطبق عليها الصمت والظلام، فباتت فريسة لا تقاوم.

ذات يوم حكى لي أبي عن عمي مصطفى، وكيف كان يكرر حكاياته عن فترة التجنيد بلا ملل، وبلا مبرر للحكي.

- "كأنه يعاقبنا كونه الأوحد في البيت الذي نال منه الجيش، فاستطاع أن يجنده". قال أبي.

حين زارنا في كيرونا القديمة، لا أعرف كيف تطرق بالحديث عن فترة تجنيده التي انقضت مما يقرب من العقدين أو يزيد، واستمر كبالون منتفخ يفرغ الهواء منه بلا

توقف، حتى انتهى بسؤاله الذي لم يرد جوابًا له:

- "ما الحكمة أو الإستراتيجية الحربية في استمرار الضباط في سبِّ المجندين بأمهاتهم، واتهاماتهم المتكررة لرجولة عسكرهم حال عدم رضاهم؟!"

ثم حكى ما يخبرون به أنه أول صدماته في الجيش، وكيف عاد إلى الثكنة بعض الطيارين مخمورين للغاية قُبيل الفجر، وحين حاول المجند المستجد أن يطبق لوائح ما أسماه عمي - كلمة سر الليل - ما كان إلا أن قام أحدهم بسبه بأقذع الشتائم، ثم انهال عليه ضربًا وسط فوضى أربكت وأيقظت السرية بأكملها، حتى إن قائدها لم يحرك ساكنًا، وكما علل عمي ذلك، فهو يعرف أن هذا الطيار المخمور يعود بالنسب إلى عائلة من أشهر العائلات التي تتميز بتاريخها العسكري، وأن واحدًا من هؤلاء العسكريين بالعائلة، يتقلد منصبًا حساسًا في قيادة الجيش، وهكذا تحتم على الجميع في السرية - بل الوحدة كلها - أن يشاهد الحدث بحياد مقزز، وخاصة حين أنهى هذا المخمور فاصل اعتداءاته بأن سحب سحابة بنطاله، وتبول على وجه المجند الذي تكور في الأرض ليغرق بين الدم والتراب والبول الذي فاحت منه رائحة الخمر، فزادت عفونة المشهد.

- "في الصباح، وجدوا العسكري معلقًا بسقف حجرة المبيت. مسكين كان صعيديًّا لم تحتمل نخوته هذا الإذلال". قال عمي بتأثر واضح بدا في نفثه دخان سيجارته بحنق ومرارة.

ظلت السيارة تتحرك في الصحراء بشكل سريع، حاولت قدر الإمكان أميز الاتجاهات بالاعتماد على مواقع النجوم كما علمني أبي يوم ذهبنا للتخييم لأول مرة في غابات الشمال، وأظنني انتهيتُ أننا توغلنا في الجنوب الغربي، ثم انحرفنا باتجاه الغرب مباشرة، وقد عبرنا للتو على مسافة بعيدة ما يشبه التلة، ثم سمعنا بعدها أصوات طلقات الرصاص تشق الصمت من حولنا، فأشار المسماري إلى التلة، وأخبرنا بأن وحدات

الجيش خلفها، وأنه ولابد أن يكون واحدًا من تلك التدريبات الليلية، ولذا يجب عليهم الإسراع، وهو ما لاحظناه بحس أجسادنا حين زعقت السيارة تفر نحو الشمال الغربي.

- "نريد الخروج من علم مسيلخ، إلى علم نايل وإلا كشف الجيشُ أمرَنا". قال المسماري.

ظلت السيارة تقطع المسافات، ونحن لا نقل صمتًا عن الرمال التي تحملت سيارتنا المسرعة. نظرت إلى الأعلى لأجد السماء قد اكتست وتزينت بالنجوم، وصوت طلقات الرصاص يبتعد ويتزايد، حتى صار خلفنا تمامًا، وفجأة تنير السماء بلون أخضر زاه، جذب انتباهنا في السيارة نحوه.

- "طلقات إشارة يطلقها الجيش، كما قلت لكم تدريب ليلي للرماية". أخبرنا بخبرته المسماري.

وصلنا إلى ما يشبه التلة من الحجر الجيري، ثم استوقف المسماري السيارة، وأمرنا بالنزول، مؤكدًا أننا في المكان المتفق عليه، ثم أشار بيده اليمنى ناحية الشمال الغربي.

- "هذا درب الجمالين من أولاد عمنا أمازيغ سيوة، وذاك الدرب ينتهي إلى بادية الفيوم". أشار في اتجاه الشرق المائل قليلًا إلى الجنوب.

بعدها أخبرنا أن جُلّ ما علينا هو الانتظار، وذهب إلى عربته، وأحضر حقيبة أخرج منها الأكوابَ، وبدأ الحديث.

- "سنشرب الزردة وننتظر؛ فنحن في الموعد والمكان تمامًا".

مرت ساعة أو يزيد، أظنني غفلت فيها، حيث رأيتها في نفس طريق الغابة الذي أرادت أن تتوج فيه حبنا. كانت تبكي، وتأمرني باليقظة والانتباه، ثم تختفي، لتعود من جديد، لكنها تعود بابتسامة بحلة نفسها، تمسكني من كتفي، وتأمرني باليقظة والانتباه من جديد، وتعاود الاختفاء، فصحوتُ من غفلتي مشوشًا؛ فما الذي يدفعها أن تأتيني

هنا في غفلتي؟ وكيف تتلبس "بهلة" وجهها وجسدها؟ حتمًا كما أخبرتني.

- "أرجوك يا نور.. لا تجعلني أقلق.. وإن كُتب علينا البعاد، سأطمئن عليك". قالت لي ذات مرة.

لِمَ عاودَتْني؟! وهي التي غابت بجسدِها منذ سنواتٍ، وأحاول الفرار من طيفها اليومي الذي لم يترك نومي يومًا واحدًا منذ عادت إلى بلدتها في الشمال الفنلندي، فصارت أبعد ما يكون عن متناولي في كيرونا، ثم استكهولم هناك بالسويد رغم قرب المسافات، حتى قررت القيام بهذه الرحلة فاختفى طيفها، فكيف تعود؟! ومن أين لها أو لـ"بهلة" أن تندمجا في كيانٍ واحد؟!

- "الجماعة وصلوا يا رجال". قال المسماري ليخرجني من شرودي.

• أشار المسماري أمامنا مباشرة. كُنا قد اعتلينا قمة التلة، وتركنا السيارة في الأسفل. في الظلام ميَّزتُ على البعد كتلةً تتحرك مسرعة، وترامى صوت سيارة يقترب.

- "الجسد سجن الروح، تتحرر متى ننام". قال أبي.

- "تقصد أننا نحيا في صحونا بغير روح؟!" سألت أبي.

* * *

حين انتهت لِيلي إلى حضني، همستْ في أذني بالسؤال عنه، فجاوبتُها بالصمت، واكتفيت بمجرد التربيت على كتفها، كأنني أوصلها رسالةً ما بما توصلت إليه؛ فأبي لم يرجع إلى البلدة، وحتى الآن لا أحد غيري وفاروق وحميد وعمي صديق وأسامة والديك، فقط نحن من يعلم بغيابه؛ فقد أجلت إخبار عمتي بالأمر بعد رؤيتي لها.

- "يكفيها ما عانت من غربتهم عنها؛ فكيف ستحتمل فكرة اختفائه تلك؟" عللت لها.

كان لا يشغلني سوى الاطمئنان على ليلي، وآغ مسعود الذي بدا شديد الإرهاق، وآثار التعذيب على وجهه تشي بالعذابات التي لاقاها في محبسه اليسير هناك بالمغرب، فاكتفيت بالسؤال عنهما.

- "كيف كانت رحلتكم؟". سألتُ ليلي.

أسرع الدليلُ بالإجابة عنهما، وكأنه يعطي بذلك مبررًا للمال الذي تقاضاه، فأعدت السؤال عليهما، فجاوبت ليلي إجابة مقتضبة من بين التعب والإرهاق البادي عليها.

- "يكفي أننا وجدناكم في النهاية". قالت ليلي، وكادت تبكي.

مرت لحظات ما بين الصمت والترحيب بعودتهم، قطعها راجح المسماري بنصيحته حول ضرورة الإسراع؛ فصوتُ طلقات رصاص العسكر يقترب، وصوت سياراتهم ومجنزراتهم يعلو ويقترب منا.

- "إذا قُبض علينا سنقع في ورطةٍ نحن في غنى عنها يا شباب.. أسرعوا". أمرنا المسماري.

تحركنا مغادرين التلة التي كنا عندها، وأخبرنا المسماري بأنه يتعيَّن علينا مخالفة طريق عودتنا لطريق قدومنا؛ فهذا أفضل، وأمعن في التضليل متى تم اكتشاف آثارنا. كنا قد انقسمنا إلى مجموعتين، الأولى تألفت من راجح المسماري والدليل ومعهما فاروق ومحسن الديك في سيارة المسماري، وفي السيارة الأخرى جلستْ ليلي ومسعود في الخلف، وصعدتُ إلى جوار حميد الذي تولى القيادة بعد أن تركها لنا الدليل، واختفى أثره في الظلام.

- "لا تقلقوا عليه يعرف كيف يعود، وسنعيد له سيارته". قال المسماري ونحن نتحرك.

انطلقنا نتبع أثر المجموعة الأولى في الظلام. كان راجح المسماري قد حدد لنا سريعًا

العلامات في طريق العودة، وأنه متى حدث مستجدٌّ ما في الطريق، وافترقنا أو فقدنا أثرهم، ينبغِ الالتزام بالعلامات التي حدَّدَها لنا، والتي بدأت تلوح لنا واحدة تلو الأخرى. مرت ساعة ونحن نسير على هَذْي العلامات التي حددها لنا راجح المسماري، حتى انتهينا إلى مفترق طرق يتقاطع فيه طريقنا وطريق آخر. كُنا قد انشغلنا عن الطريق بالحديث، حيث حكى لنا آغ مسعود عن احتجازه في المغرب.

- "آغ مسعود نورت مصر كلها. أتمنى أن تعوضك مصر عن معاناتك في المغرب". قال حميد بحب.

- "معاناتي في المغرب!! أظن أيامي العشرة هناك في تازمامارت بعد إعادة افتتاحه، مرت متثاقلة كأنها الدهر يا حميد". قال آغ مسعود بحزن عميق.

- "إلى هذه الدرجة ؟!". سألتُ آغ مسعود.

كأننا كُنا نعيده إلى هذه الأيام التي قضاها في تازمامارت، فانفرط عقد لسانه يحرر حبات ألمه التي تراكمت في داخله، فاندفعت تتحرر في سهولةٍ واندفاع. كان كمن يريد أن يحكي ليتخلص منها للأبد، وحكى آغ مسعود ما كان.

بدأ يصف لنا المكان في البداية، حيث تم توقيفه واتهامه بأنه أحد الوجوه السرية لقادة الجناح العسكري لكونجرس الأمازيغ العالمي منذ سنوات، وأنه على قوائم المطلوبين، بعد اغتيال قائد القوات الفرنسية هناك في "كيدال".

- "كنت أظنه مجرد اشتباه، سيزول بمجرد وصولي إلى مخفر الشرطة". قال آغ مسعود.

تابع حكيه بثقة وهدوء، فأخبرنا بأن المخابرات الملكية بالمغرب، يبدو أنها تتعاون مع مخابرات الحكومة الجزائرية والحكومة المالية والحكومة الفرنسية، في محاولات مستمية لاختراق صفوف الكونجرس الأمازيغي، ومعرفة مصادر تمويله، وأسماء القادة السريين للذراع العسكري فيه.

- "الجزائر تخاف حركة ثوار طوارق أزواد في أن تؤثر في الجنوب الجزائري الداعم للثوار الانفصاليين ممن نادى منذ ٢٠٢٠ بدولةٍ خاصةٍ للطوارق الأزواد هناك أسوةً بما يحدث في شمال مالي، والمغرب تود المساعدة في القضاء على حركة ثوار الصحراء المغربية التي تجددت منذ سنوات، وتتعاون مع ثوار طوارق أزواد". قال آ غ مسعود بيقين.

رفض آ غ مسعود التعاون معهم. تم تهديده، لكنه أصر على موقفه ورفضه، فاضطروا إلى نقله إلى تزمامارت، فلعله يغير رأيه.

- "ما تزمامارت؟؟ أهو جهاز أمني؟". سألتُ آ غ مسعود.

- "تزمامارت المعتقل الحربي الأشهر هناك، والذي أعادوا افتتاحه لأجل ثوار الصحراء". أجاب آ غ مسعود.

قُيِّدتْ يداه إلى الخلف، وتم تغطية وجهه، استعدادًا لنقله إلى هناك؛ وفي الطريق من مكانه المحتجز فيه بالدار البيضاء كان سماعه لأحد الحراس الموكلين به يحادث آخرَ بالأمازيغية التي يعرفها جيدًا، ما كان طوقَ نجاةٍ له أو منحةً من السماء لا تُرد، فتوسل إليه بأن يجري اتصالًا واحدًا. كان اتصاله بلِيلي حيث أخبرها بما حدث له، وبمن يتوجب عليها الاتصال بهم هنا في المغرب لمساعدته ومساعدتها.

- "وصلنا المكان قبل الغروب بقليل". قال آ غ مسعود.

بدأ يصف لنا المكان كمن يرسم لوحة فنية رائعة، وهو ما بدا عجيبًا لي؛ فكيف يحكي بهذه الرَّوعة عن المكان الذي كاد يقضي عليه للأبد كأنه فردوس خاص به؟! حدثنا بحبٍّ واضح للصحراء والجبال، المكان محصور وسط وادي من الرمل الطفلي الأحمر والجبال.

- "نحن أولاد الطوارق الزرق نعشق الصحراء والجبل". قال آ غ مسعود ذات مرة.

الأرض تنافس حُمرة تربتها حمرة الشمس في الغروب. مساحة شاسعة مسورة بسور عال ملون باللون الطوبي. في أقصى أطراف السور أبراج عالية تشرف على المكان بأسره. داخل السور يقبع المعتقل في الوسط تمامًا، وإلى يساره تقبع حجرات إدارة المعتقل وثكنات الجنود المكلفين بالحراسة والخفرات. بعدما دخل، أودعوه حجرة ضيقة فيما أسموه الحبس الانفرادي.

- "في زنزانتي، وجدتُ أسماء الكثيرين محفورة، وإلى جوارها تواريخ عديدة، أذكر منها اسمًا سمعته من ليلي، (بنيام محمد الحبشي ١٠ | ٩ | ٢٠٠٥) في ذكرى الشهر الأول". قال آغ مسعود.

حين التفت إلى الخلف لأسمع الاسم، كانت ليلي تأخذ برأس آغ مسعود وتريحه إلى كتفها، وربتت عليه، والدموع تلمع في عينها في ظلام الصحراء التي تلف السيارة.

- "تزمامارت واحد من السجون التي اتُّهِمَتْ المغرب بتسخيرها كأحد السجون السرية التابعة للمخابرات الأمريكية، في فضيحة سجون الولايات المتحدة الأمريكية إبَّان بدايات هذا القرن، ورغم ذلك نفت حكومات عديدة شراكتها في ذلك، والمغرب واحدة منها، وهو ما اضطرها لإغلاقه كما قيل وقتها". قالت ليلي بلسان دارسة التاريخ العالمة بالكثير من تواريخ المنطقة وأسرارها.

أضافت ليلي أنها قرأت في مكتبة الجامعة أنه ما بين العامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٤، بأن وزير المواصلات السويدي وقتها "فليمنج هانسن" صرح - في رده عن استجواب أحد أعضاء البرلمان عن حزب الوحدة - أن العدد الحقيقي للطائرات لنقل المتهمين من الإسلاميين التي استخدمت داخل الأراضي السويدية، هي أكثر من العدد المصرح به، واعترف بأن عددها مابين عامي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٤ بلغ فقط (١٤) رحلة، وهناك (٤) رحلات لم يتم ذكرها في التقرير السابق.

- "درستُ ذلك في عامي الثاني بالجامعة". قالت ليلي درسها التاريخي.

واستطردت بأن ذلك مشهور لمن يدرس التاريخ، بفضيحة السجون السرية الأمريكية التي تورط فيها الكثير من دول أوربا الشرقية والمشرق والوطن العربي.

- "يا أولاد الكلاااااب!". صاح حميد من خلف مقود السيارة.

حاوبت ليلي عجب حميد بضحكة مقتضبة، وأخبرته آسفة بأن مصر في هذه الفترة لم تسلم هي الأخرى، ثم ذكرت لنا:

- "في هذا الصدد طالب ديك مارتي – الذي يترأس لجنة التحقيق الأوروبية في فضيحة السجون السرية – وقتها بتتبع أحد الفاكسات المصرية، والذي حصلت عليه المخابرات السويسرية بعد اختراق نظام اتصالات وزارة الخارجية المصرية مع السفارات المصرية في الخارج، وأكد مارتي أن الفاكس يحمل توقيع (أحمد أبو الغيط وزير الخارجية) وقتها، ويقدم أول دليل حكومي موثق على وجود هذه السجون السرية، مؤكدًا أنها المرة الأولى التي تأتي المعلومات عن السجون الأمريكية من دولةٍ عربية، مما سببا حرجًا بالغًا وقتها، فأعلنت وزارة الدفاع السويسرية أنها أمرت بإجراء تحقيق حول قيام صحيفة (سونتاجس بليكس) بنشر تفصيلات رسالة الفاكس المصرية الحكومية".

- "الآن فهمت كلمة أبي حين شرح لي أسباب الثورة المصرية في يناير ٢٠١١، حين قال بأن الثورة قامت لا ضد نظام فاسد، وإنما ضد فساد منظم أقام لنفسه دولة". علَّقتُ على كلامها.

تابعت ليلي تؤكد بأن في العقد الأول من هذه الألفية، شهدت مطارات دول عدة مجموعة من الرحلات المشبوهة تلك، ولعل أشهرها مطارات في كل من ألمانيا والمجر وإيطاليا والنرويج وبولندا والبرتغال ورومانيا وإسبانيا والسويد والمغرب، كلها "كمعسكرات ترحيل" لنقل مشتبهٍ فيهم لاستجوابهم في سجون سرية في إطار ما تطلق عليه "الحرب على الإرهاب".

- "هذا ما أوضحه أحد التقارير الصحفية في أرشيف (واشنطن بوست) وقتها، منسوبًا إلى تقرير آخر لوكالة الأنباء الفرنسية حول نشاطات مشبوهة تُتَّهم فيها المخابرات الأمريكية بهذه الرحلات، وإدارة تلك السجون". قالت لِيلي.

كُنا نقترب من مدخل مدينة الحمَّام في الطرف الجنوبي الغربي الذي حدده لنا دليلنا راجح المسماري؛ فأضواء المدينة تبدو على مسافةٍ غير بعيدة، وأظنها لن تستغرقنا نصف الساعة لنصل إليها، لكننا - وفي واحدة من أفظع المفاجأت التي عاينتها يومًا - سمعنا أصواتًا تحيط بنا، وأضواءً كاشفة كثيرة تتسلط علينا، كلها تصرخ جملة واحدة، ظللت تتكرر بعصبية بالغة.

- "حرس سلاح!! اثبت مكانك!! كلمة سرّ الليل؟! حرس سلاح!!". كانت الأصوات تصرخ علينا بعصبية.

كُنا - فيما ظهر لاحقًا - قد أضعنا الطريق، وانشغلنا عن العلامات، فتوغلنا في منطقة عسكرية تخص قوات الجيش هناك. سريعًا توقف حميد، وعلى الفور أخرج هاتفه، وهاتف فاروق.

- "الجيش قبض علينا يا فاروق". قال حميد مذعورًا، ثم أغلق الهاتف.

حتى هذه اللحظة، لا أعرف كيف استطاع حميد فعل ذلك، من هداه إلى سرعة التصرف هذه، فلولا هذا الاتصال، لكُنا - ربما - فُقدنا إلى الأبد.

تحلقت السيارة مجموعات غاضبة من الجنود، تبعهم الضباط الذين جاءوا بعصبية وغضب لا يقلُّ عن جنودهم، وانهالت علينا حملة من التساؤلات الغاضبة والعصبية التي لا أفهم الكثير منها نتيجة لغضبهم المبالغ فيه، الأمر الذي سهَّل انهيار ليلي، فانتابتها نوبة بكاء هيستيري، ليغشى عليها بعدها، لكن ذلك لم يغير في الأمر شيئًا؛ بعدها لم أشعر سوى بضربة شديدة في جمجمتي من الخلف.

- "يا ولدي في بلادنا سجنوا العديد من الرجال العظام". قال أبي.

- "وهل سجنوا أفكارهم يا أبي؟!". سألتُ أبي.

* * *

تعوَّد أبي في عامه الأخير - قبل أن يختفي - أن يتغيب لأيام، وحين نطلبه أو نبحث عنه، نجده في مسجد تابع للمجمع الإسلامي في كيرونا الجديدة. كانت أفعاله قد تغيرت جملة بعد معرفتنا بمرض أمي الأخير. كانت كلما نقلناها إلى المستشفى يهرع إلى المسجد، حتى تعود الأمر وتعودناه معه، ودون انتباه منا نبتت لحيته شيئًا فشيئًا، وأخذ يعكف على القراءة في كتب ما يسمى "التصوف الإسلامي". وقتها كنت أراه في الأوقات القليلة التي نلتقي فيها في بيتنا بكيرونا الجديدة. كان ذاهلًا بعض الوقت، لا ينتبه إلى كثير من أحاديثنا التي نجريها حوله، حتى صار قليلًا ما ينتبه إلى كلامنا. لاذ بصمتٍ عجيبٍ، وهو ما تزامن مع غياباته الطويلة المتكررة في المسجد هناك. حين سألته يومها عن سِرِّ هذا التحول، أجابني بما بدا لي أنه تطمين لنا لا أكثر؛ فأنا أعرفه جيدًا، وأعرف أن أمرًا ما قد تمكن منه.

- "قال لي صديق قديم بمصر أن نهايتي إلى طريق الهداية لا محالة". قال أبي، وابتسم.

بعدها بأيام خرجت أمي من المستشفى، وفرح بعودتها مثلنا، وحين وجدناه ينتظرنا على باب المستشفى العام في كيرونا الجديدة، فتح ذراعيه على امتدادهما مبتسمًا، ولم ينطق بكلمة، فنظرت أمي نحوه متعجبة من سمته؛ فلحيته قد طالت أكثر مما تعوَّدَتْ منه، وقد ضربها الشيبُ بقوة.

- "من هذا يا نور؟! أين حسن حبيبي؟!". سألت أمي بحزن.

- "لا تخافي يا ماما، هو بخير، فقط محزون لأجل مرضك". جاوبتها، فبكت في صمت.

أسرع نحونا. خطا الدرجات القليلة في مدخل المستشفى. انحنى على ركبتيه أمام كرسيها المتحرك. تأملها بحُبٍّ صادقٍ. لاحت الدموع في عينه.

- "حبيبتي، إياكِ أن تغيبي أُخرى". قال أبي، ثم دفن رأسه في حجرها وانتحب.

وضعتْ يدها تمسِّد رأسه في حب، بينما انهمرت دموعُها تبلل فروة رأسه، ودون أن تنطق كلمة واحدة، مدت يدها الأخرى تمسك يدي بقوة. كانت تستنجد بي، فاكتفيت بابتسامةٍ فَرِحًا لأجلهما. سألت كيف يخبئ القدرُ الواحدَ منهما في الآخر؟ أبي الذي يجيء من بلدته في أطراف تلك البحيرة البعيدة، ومن حرشها الجنوبي الغربي، وأمي ابنة كيرونا هنا بعيدة عن بحيرته وحكاياتها، من يجمع مثلها بهذا الرجل؟ من علَّمها كيف تحتويه؟ ومن رضَّاه بها؟ من زاوَج هذا الشرقيَّ بهذه المرأة الغربية وهو الغريب عن ثقافتها وبحيرات كيرونا وظلامها ونورها؟ من أنتما أيها الشخصان؟!

- "أيُّها المنكِحُ الثُّريَّا سُهَيْلًا .. عمركَ اللهُ كيفَ يلتقيان". قالها أبي مرة ولم يجبني، ولم أفهمها.

من أودع في قلبيكما كل هذا الحب؟ من مرَّره إلى شغافكما، فلم تكتشفا أنفسكما إلا في الآخر الغريب؟ وكيف لسارة صديقتي أن تنكرني إلى هذا الحد؟ وكيف لا تكتشفني كما اكتشفت ابنة كيرونا ابن البحيرة الغريب المنقطع عن أهله، فكانت له كل الأهل، وتعوضه غيابهم وغربته؟ ألهذا الحد تتبدل المشاعر وتتنكر القلوب؟! كيف تستسيغ إنكاري إلى هذه الدرجة؟ أين وعودها بأنها لن تفارقني إلى آخر العمر؟! أنا لا أصنع القدر. لم أختر كوني عقيمًا. كيف تعاقبني - وهي المؤمنة على حد زعمها بعد عودتها إلى مذهبها الخمسيني هذا - وأنا من لا يؤمن بقدر المؤمنين؟! ألهذا الحد تبلغ قسوة هؤلاء الذين يدَّعون الإيمان؟! ألا يرقق الإيمان قلبهم؟! أين أنت يا سارة الآن لتنظري دموع هذه المريضة وهذا الرجل، فتعرفي أن الرب - الذي تؤمنون به على اختلافكم - رب محب، خَلَقَنا لأجل الحب، وأن هذا القدر صاحب حيل عديدة

وطرق عجيبة في وصل قلوب العُشاق، وأن من يُخلق للحب لا يقبل بالبَين أو عذابات الفراق.

- "جعل الله الدين للإنسان خليفته ليعمِّر الأرض". قال أبي.

- "ألا يكفينا الحب وحده لنعمِّر الأرض؟" سألت أبي.

* * *

في حجرة ضيقة تآمر عليها العفنُ وكل روائح العالم الكريهة، عبثًا حاولت أن أستفيق، كأني في كابوس مزعج. فقط هذا ما سيطر على أفكاري وقتها. لم يخطر ببالي لحظة أنني مسجون هنا، وإلى جواري آغ مسعود وحميد، بينما ليلي أبعدوها. حاولت الحركة، فتصدع كل جسدي ألما، وتدافعت رائحة العفن وتكاثرت علي أنفي، فاستسلمت في يقين بأن كابوسي هذا سينتهي حين أفيق من نومي، وأغمضت عيني، وصوت الشيخ في مسجد كيرونا الجديدة يتردد في أذني.

- " قال ربِّ اجعل لي آية". ظلَّ صوت الشيخ يكرر في أذني.

أخرجني من الألم والعفن صريرُ الباب، ليدخل جنديان، فيقبضان على جسدي المنهار، ويتحركان به نحو باب الحجرة الصغير. حين خرجت أزاحوا عن عيني غمامة، كان الجنديان قد وضعاها فوق رأسي قبل خروجي من الحجرة المحبوس فيها، وتحركا بي. في آخر الطرقة التي تكاد من بخلها على سكان الحجرات الصغيرة أن تمنعهم الحلم لا النور وحده، انحرفنا إلى اليمين، لنتوقف أمام باب كبير، وأزال أحد الجنديين الغطاء عن رأسي، لأجد حميد وآغ مسعود مقيدين مثلي، وينتظران في صحبة جنديين آخرين قد شهرا سلاحهما في الهواء، وتحفزا ضد عدو خفي.

- "أين ليلي يا حميد؟". سألت حميد بهمس.

- "لا تقلق يا نور.. ستصير الأمور بخير". حاول طمأنتي.

اكتفى آ غ مسعود بالصمت، فاستنكرتُ صمته في موقفنا هذا، وأعدت السؤال عن ليلي ناحية آ غ مسعود الذي أطرق في صمتٍ مرير.

- "أين نحن؟ وماذا يحدث"؟ سألتهما.

عاد حميد يحاول أن يسيطر على التوتر والقلق اللذين سيطرا على فرائصي كلها، وأخبرني أننا في قيادة فرقة ما من فرق الجيش.

- " الفرقة الثالثة، أو إن شئت الفرقة الكافرة هكذا يسميها الجنود". قال العم ماجد لأبي مرة.

فهمت منه أننا قد دخلنا منطقة محظور على المدنيين الولوج إليها، واعتذر لكونه لا يعلم شيئًا من أمر ليلي، التي فصلوها عنهما لحظة القبض علينا.

- "لابد أنهم ذهبوا بها إلى مستشفى؛ فقد أغشي عليها". قالها آ غ مسعود بصعوبة.

- ماذا؟!". سألته، وكدتُ أنهار في مكاني.

فُتح الباب الذي تجمعنا أمامه، وخرج أحد الجنود، وأمرنا بالدخول، ثم استدار يسبقنا بطرقة خفيفة وسريعة على الباب قبل أن ندخل.

- "تمام يا أفندم". قال الجندي.

حين دخلنا إلى الحجرة؛ وجدنا العم "ماجد فيكس" يجلس قبالة مكتب كبير في مواجهة أحد الضباط الذي تشير لافتة صغيرة بلون ذهبي إلى اسمه المسبوق بكلمة "العقيد"، وحين رآنا استدار واقفًا ومبتسمًا للترحيب بنا. بدا الموقف كله عجيبًا.

- "كيف جاء العم "ماجد فيكس"؟ وماذا يحدث؟". سألت نفسي.

- "اسمح لي بالانصراف قليلًا يا أفندم". قالها العقيد، وهمَّ ينصرف.

كانت الأسئلة تتدافع على ذهني، وقبل أن أحصل على إجابة واحدة، هبَّ هذا الضابط واقفًا، وتحرك نحونا وفكَّ القيود في أيدينا، ثم اتجه نحو الباب خارجًا ممسكًا بغطاء رأسه العسكري الذي يتوسط مقدمته النسر بتحفز ونشاط.

- "عشر دقائق يا ماجد بيه وسأرجع، أرجوك هذا كله على مسئوليتي الشخصية". قال العقيد وخرج.

قبل أن أفهم ما يحدث، أخبرنا العم "ماجد فيكس"، أن ما يحدث الآن يحدث في سرية تامة، وأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال الحديث حوله متى خرجنا، وأنه ينبغي ألا يعلم أحد بوجوده هنا معنا، وإلا تعقدت الأمور.

- "للأسف، سيبقى آغ مسعود، سيتم نقله إلى معتقل الغربينيات بمعرفة المخابرات العسكرية، ويجب أن نتحرك فورًا". قال بأسف العم ماجد فيكس.

عرفنا أنه بعد اتصال حميد به، سارع على الفور العم ماجد بالاتصال بالديك محسن ليتعرف على المكان الذي قُبض عليه فيه بالتحديد، وبعدها مباشرة أجرى اتصالات سريعة وسرية للغاية حتى استطاع أن يصل إلينا، وأن هذا الضابط هو صديقه الحميم، وواحد من الضباط الذين خدموا معه قبل تسريحه من الجيش، والآن هو ضابط أمن الفرقة العسكرية كلها.

- "سيخرجنا على مسئوليته الشخصية، وهو ما يشكل خطرًا عليه". همس العم ماجد.

كُنت أعرف من حكايات أبي وحكايات فاروق وحميد، بأن العم ماجد فيكس أحد الضباط الذين انضموا إلى (ثورة ٢٥ يناير) ضمن الحركة التي اشتهرت باسم "ضباط الثامن من أبريل" عسكريًا.

- "تمت محاكمته بالسجن سنتين، وتأخير رتبته دفعة واحدة، وخرج في ربيع ٢٠١٣ بعدها". حكى لي حميد عن ماجد فيكس.

لكن العم ماجد فيكس على ما يبدو ظلَّ حريصًا على علاقات جيدة بكل زملائه حتى الآن، أو أن ما شكت به علياء بعد مقتل زوجها محمود هو الحقيقة.

- "لا أحد من ضباط المخابرات يستقيل يا حسن حتى موته". قال عمي أسامة لأبي.

حين خرجنا في جنح الليل، وفي سيارة ضابط الأمن شخصيًّا، استوثق الضابط من العم ماجد على ضرورة كتمان الأمر، وبيان خطورته لنا. كانت ليلتنا الثانية توشك أن تنتهي حين خرجنا في سرية.

- "يا شباب، أنتم لا تعرفون الأنجاس أولاد المرَة، يمكن أن يحاكموني، وأقضي بقية حياتي في السجن. عمكم ماجد بيه يعرفهم فاسألوه". قال الضابط.

طمأنه العم ماجد، وفقط طلب إليه أن تودِّع "لِيلي" زوجها، فسمح بذلك على أن تتحرك وحدها معه حيث مكانه.

عادت "ليلي" مقهورة العين والقلب، ولم تنطق؛ وبينما كانت تجفف دموعها، كرر العم ماجد شكره للضابط حين كُنا نغادر سيارته حيث انتظرنا محسن الديك في سيارة العم صديق في أسفل لافتة ضخمة على جانب الطريق الصاعد نحو الشمال.

- "محطة الضبعة النووية ترحب بكم". قالت اللافتة.

دلفنا إلى السيارة في صمت تام، وانطلق بسرعة محسن الديك يستحث السيارة على الخروج من هذا الطريق. مرت نصف الساعة تقريبًا. كُنا انحرفنا نحو الشرق في طريق ساحلي تتصدره لافتة إرشادية تشير باتجاه مدينة الإسكندرية نحو الشرق، ومدينة مرسى مطروح نحو الغرب.

- "أين آ غ مسعود يا شباب؟". سألنا الديك محسن.

- "لتصمت يا محسن، واستمر بالقيادة حتى المستشفى العسكري أمامنا، لنحضر لِيلي ثم نسرع نحو البلدة قبل الشروق". أمره العم ماجد بصرامة.

نهبت سيارتنا طريق الساحل في صمت الليل، لتتتابع مجموعات من المدن السياحية على يسار الطريق، كاد البحر لا يبين منها مطلقًا، واكتفيت بالنظر جهة القرى السياحية القديمة المهجورة، في حين أن واحدًا منا لم يعلق على جملة الديك محسن التي قالها.

- "الرأسماليون الطامعون حرموا الناس التمتع بجمال البحر هنا في الساحل الشمالي، انظروا إلى تلك الكتل الخرسانية.. حقًا أغنياء ملاعين". قال الديك محسن.

- "محسن!! اصمت وتابع القيادة بسرعة". نهره العم ماجد مرة أخرى.

كانت السياراتُ التي تمر إلى جوارنا أو في الاتجاه المعاكس تؤكد على جملة الديك الأخيرة، وكونهم من الأغنياء الملاعين. مرت ساعة منذ تركنا الضابط عند محطة الضبعة النووية، بعد لحظاتٍ أخرج العم ماجد فيكس هاتفه، وبدأ بالحديث إلى شخص ما.

- "لقد عبرنا لتونا بوابة مراقيا القديمة". قال العم ماجد.

بعد دقائق أمر العم ماجد أن نتوقف بالسيارة وننتظر قليلًا، فامتثل الديك محسن، وأوقف السيارة رويدًا رويدًا إلى جوار ما بدا كهضبةٍ جيريةٍ امتدت معنا منذ عبرنا نقطة التفتيش التي أسماها العم ماجد (بوابة مراقيا القديمة). أشعل العم ماجد فيكس سيجارته، ودخنها بهدوء واستمتاع.

- "هذا الطريق هو مدخل مدينة برج العرب الخلفي، وخلف هذه الهضبة معتقل الغربينيات حيث سيكون آغ مسعود في الصباح". قال العم ماجد.

انتظرنا دقائق ندخن في صمت، حيث توقفنا في مدخل هذا الطريق. نظرت نحو الطريق فوجدت في داخله وعلى البعد موكبًا صغيرًا، أظنني عرفته لحظة رأيته. كان الموكب يتقدم منا في هدوء. اقترب الموكب الذي ضمَّ عجوزًا معممًا، يرتدي بالطو شتويًّا فوق جلبابه، ويسوق ثلاث نعاج أمامه، أخذت تتقافز حين لاحظتنا في جانب

الهضبة ننتظر، بينما جاءنا صوت هذا العجوز الراعي واضحًا:

- "هووووورس.. عيب يا بنت.. امشي بعيد.. هووووورس". قال العجوز الراعي.

كان عبد العلام الراعي. عرفته منذ لاح في الطريق بعيدًا. اقترب منا وسط ذهولهم من وجوده في هذا الليل، وهذا المكان الذي وصفه محسن الديك بأنه (سكة مقطوعة). ألقى التحية بابتسام واضح، وسألنا أن نقرضه السجائر، فأسرع محسن الديك يخرج علبة سجائره.

- "اتفضل يا حاج". قدم الديك محسن العلبة كلها إليه.

نظر عبد العلام نحو العلبة الممدودة في يد الديك محسن، ثم التفت ينظر نحو حميد ونحوي مباشرة، ويطلب منا الماء.

- "أعطِني شَربة ماء يا أستاذ". طلب العجوز مني.

عُدت إلى السيارة، وأحضرت زجاجة الماء، وقدمتها إليه حين كان يأخذ نفسًا طويلًا من سيجارته التي كان يشعلها له العم ماجد فيكس.

- "ولّع يا بركة.. مساء الخير". قال العم ماجد بابتسام.

أخذ مني زجاجة الماء، ثم رفعها على فمه، وظل يشرب حتى أفرغ كل الماء في جوفه، ثم شكرنا على كرمنا، وقبل أن يغادرنا نظر نحو العم ماجد فيكس وسأله:

- "إيش جاب الشامي على المغربي يا حضرة الظابط".

- "نعم يا بركة؟!" سأله العم ماجد في عجب ودهشة.

عاود الابتسام، وهمَّ بالانصراف من حيث أتى، وأخذ يكرر النداء الذي يجمع به نعاجه الثلاث:

- "هووووورس".

انصرف عنا وسط ذهول العم ماجد فيكس الذي استدار يسألنا في عجب:

- "ضابط؟! كيف عرف هذا الراعي؟!".

نظرت إلى زجاجة الماء، فوجدتها كما تناولها من يدي، كانت كأن أحدًا لم يمسها. جاءنا صوته يحدو نعاجه الثلاث قبل أن يختفي خلف الهضبة، حيث انساب صوته مع نسيم البحر الذي داعب الأتربة حولنا.

يا دنيا فيكي الأصيل على الدوام.. تَعْـبان..

واتْحكّم فيه الندل، واتلوَّى.. كما التّعْـبان..

وإذا قصده ف مشوار قال له.. على الدوام.. تَعْبان..

استغرقنا التأمل في صوته وكلامه، حتى سمعنا بوق سيارة تعبر الطريق باتجاهنا، فأسرع العم ماجد فيكس نحوها.

- "ليلي.. هذه سيارة ليلي". قال العم ماجد متجهًا نحوها.

توقفت السيارة إلى جوارنا، ثم خرجت ليلي منها، وأجهشت بالبكاء حين رأتنا، أسرعنا نحوها حين كانت السيارة التي أقلتها تُغادر، حين ارتمت بين ذراعي.

- "لقد مات جنيني يا نور.. مات، ومسعود ذهب". قالت ليلي وسط نحيبها المكتوم.

في السيارة، وفي طريقنا نحو البلدة مسرعين، أخبرها العم ماجد بما حدث مع آغ مسعود، ووعدها ببذل كل ما يستطيع للمساعدة.

- "أعتذر يا ليلي، فعلت ما في وسعي". قالها العم ماجد كمن يحدث نفسه.

وفي المقابل أخبرتنا بأنها تم إجهاضها. كانت تحمل جنين آغ مسعود.

- "الدنيا لا تعطي محتاجًا يا ولدي". قال أبي.

- "كيف للدنيا أن تنحاز بهذه القسوة ضد المحتاجين؟!". سألتُ أبي.

* * *

في البيت كانت عمتي تنتظر عودتنا، وإلى جوارها جلس العم صديق، وعمي أسامة الذي حضر في غيابنا، وعمي "الحاج بركة" الذي نكّس رأسه بين راحتيه، وكأنه لا يسمع ما تقوله عمتنا حين دخلنا.

- "الله يسامحك يا أخويا.. الله يسامحك. قتلتنا واحد ورا التاني". قالت عمتي بحزن مقيت.

في الماضي حين سألته عن خلافهم مع الحاج بركة، وأسبابه، اكتفى بقوله:

- "كأنه الإفك يا نور. كانت الحادثة اختبارًا لصدقنا جميعًا" قال أبي.
- "حتى حوادثكم ومصائبكم تطلقون عليها التسميات". قالت ليلي لأبي في عجب.

علل لي ذات مرة بأن رجالات العائلة كلهم كُسروا كما يُكسر القديد، ولعل موقف الحاج "بركة" هو ما زاد الوضع تأزمًا؛ فهو من ربَّى الجميع.

- "أنت تعرف عن أخلاقهم، وعن دواخلهم أكثر مما يعرفون هم عنها". عاتب أبي عمي "الحاج بركة" يومها.

العائلة كلها هالها انحيازه الصارخ إلى اتهام زوجته لعمتي إشراق بتدبير سحر لها ولأولادها، في وقتٍ بدت كل الشواهد تؤكد أنها محض افتراء منها وكيد واضح.

- "آخر ما كنا ننتظره، أن يسمح لهم الحاج بتفتيش حوائجنا وكأننا لصوص". شكا عمي مصطفى لأبي يومها.

حين أنهى روايات عديدة كلها لا تشفع للحاج ولا تبرر تخاذله الصارخ، أخبرني بأن الجميع اكتشف الخدعة، وكيف دبرت الحادثة برمتها بمساعدة من، لكن الحاج ظلّ على موقفه من العائلة، يكيل الاتهامات للجميع بالتآمر عليه وعلى مستقبل أولاده.

- "يريدون طردنا من البيت.. أنا واثق مما قالته أم سعيد". حكى الحاج بركة لأبي عن دليل زوجته.
- "كيف نَسِيَ كل ما فعلته لأجلكم يا ولدي؟". شكت الجدة من بيت الجيزة لأبي.

كانت حكايات الجدة نعرفها كما نعرف نقاء السماء - في ليلةِ صيفٍ - من الغيوم، تاريخها بعد وفاة الجد - بل وقبله - يحرص الآباء في هذا البيت على تعليمه لنا نحن جيل الأحفاد، كأنهم يريدون أن نشاركهم في دين الوفاء لأجل لتضحيتها المريرة. كانت حكايات أبي تتلخص في جملة سمعتها من العمة نورا قبل رحيلها بقليل، وهي تتساءل عبر الشات.

- "كيف نسي بركة جريها من سكة إلى أخرى، ومن باب إلى آخر، حتى تضمن لنا الحق في حياتنا التي نفاخر بها الآن؟". سألت عمتي، وبكت.
- "يبدو أن أخاك الحاج بركة قد نسي كل شيء". أقرّ العم حامد لأبي ذات مرة.

جدتي التي أصرت ألّا تغادر بيت "آل الشحات" حين جاء والدها يصر على اصطحابها معه، بعدما تسربت الإشاعات في البلدة كلها تتهامس بأن الجد "مسعود الشحات" قد أوشك على إتمام زواجه من أخرى، يومها رفضت ترك البيت، ولم تفلح وصلات التقريع التي صبَّها والدها حممًا فوق رأسها كي تغادر معه، لكنها كانت تُصر على البقاء، وتبكي كلما احتد عليها أو لعنها الوالد، حتى حين هوى بكفه الكبيرة الثقيلة بعدما رفضت الامتثال ليمين الطلاق المغلظ الذي هدد به، فأدماها، تمسكت الجدة بموقفها من البقاء إلى جواره.

- "لو أبعدتموني عن مسعود سأموت يا أبي. فليتزوج، لكني سأبقى هنا في بيته. لم أعد من الشعالوة يا أبي". بكت الجدة وهي تُصرخ لوالدها.

حين ينتهي من حكايات الجدة تلك، كنت أسأل نفسي، كيف للنساء هناك ألا يحظين بحياتهن مستقلات عن هؤلاء الرجال؟! ما كُنه هذا القدر الذي يختبر كل النساء

في هذه العائلة، والذي يطال الجميع منهن متى انتسبن إليها، حتى تلك الأوربية - أمي - طالها هي الأخرى من قدر هذه العائلة. هي لعنة العشق، تلك التي حرصن عليها جميعهن متى ارتبطن أو انتسبن بحبل الذرية إلى بيت "آل الشحات". هذا ما تبينته في عين أمي قبل رحيلها، وكيف كانت تُصرُّ أن تستوثق مني أن أبلّغ والدي رسالتها الأخيرة، حين عاد إلى دخول المستشفى من جديد، قبل ثلاث سنوات.

- "يا حسن أحب النور الذي رأيته في داخلك على الدوام". قالت أمي، وبعدها رحلت للأبد.

حين أخبره الطبيب الخبر برحيلها حيث كان منتظرًا بصالة استقبال الزائرين بالمستشفى، استأذنه في الدخول إلى حجرتها لوداعها. ليلتها بات أمام تابوتها باكيًا حتى الصباح، وبين الحين والآخر يكرر سؤاله إلى المجهول، ويذكر شخصًا ما لم نكن نراه.

- "أين الوعد بالحفاظ عليها؟ أين الوعد يا أصحاب الوعد". بكى أبي بصمت يُدمي.

بعد الجنازة بأيام عاوده المرض، فأُدخل إلى المستشفى من جديد، مما زاد كآباته؛ وبعد أربعين ليلة حين زرته لآخر مرة، نظر نحوي في صمتٍ جليل. دموعه التي تآمرت على مقلتيه نجحت في الانفلات بهدوء وغزارة.

- "اليوم فقط غادرتني أمك للأبد". قال أبي ثم صمت.

مرت أيام ثلاثة، وحين عُدت لزيارته بصحبة ليلي، اكتشفنا خروجه منذ يوم واحد، وبدأت رحلة اختفاءه التي انتهت بي إلى هنا في قلب بلدتهم، تلك القابعة في أقصى طرف الدلتا الشمالي، وعلى الطرف الجنوبي الغربي للبحيرة، جئتُ أبحث عنه.

- " يقولون في بلدتنا إن الروح تحوم أربعين قبل الصعود إلى الملكوت". قال أبي.

- "أيحتاج الملكوت إلى أربعين ليلة؟ هلّا عاشها فصوب وعالج الأخطاء". سألت أبي.

* * *

أخذت عمتي إشراق بيد ليلي، واتجهتا نحو حجرة الجدة؛ فليلي لم تكن تحتمل كل هذا الإرهاق والتعب. كلنا نعرف حجم معاناتها في فقد آغ مسعود المحبوس بمعتقل الغربينيات، لكن لا أحد منا شعر بفقدها جنين آغ مسعود سوى عمتي التي تجاوبت عاطفة الأمومة المطمورة في داخلها، فكانت أكثرنا حنوًّا عليها. غابتا في الداخل، ثم عادت ليلي إلينا في واحد من أثواب الجدة، فابتسمنا لها.

- "الآن يا ليلي أنت من نساء آل الشحات". قالها عمي أسامة، وابتسم.
- "نعم؛ فقد فشلت أن أكون من نساء الطوارق يا عمي. فشلت أن أحافظ على جنين إبراهيم". قالت ليلي وبكت.
- "من إبراهيم يا ابنتي؟!". سألتها عمتي.
- "آغ مسعود يا عمتي هو إبراهيم بن مسعود. آغ تعني ابن في لغة كُل تماشق يا عمتي". قال حميد.

كلتاهما - عمتي وليلي - موعودة بالفقد، اختارهما القدر من بين نساء العائلة ليمارس لعبته في العطاء والمنع معهما، كلتاهما طمحت أن تكون أمًّا.

- "الحمد لله.. أنا رضيت بنصيبي، وسلمت يا حسن بالأمر. قالت عمتي يومًا لأبي عبر التليفون، حين عرض عليها إجراء تلقيح مجهري منذ عقدين.

استمرت جلستنا حتى لاح نورُ الصبح، وانشغلت عمتي إشراق بتجهيز الإفطار، ثم أمرتنا بالحضور لتناول الإفطار؛ وحين هممنا بالتحلق حول الخشبة الدائرية، جاءت عمتي وكأن الغضبَ البادي على وجهها بركانٌ ينذر بالحمم؛ وفي سرعة خاطفة، كورت قبضتها، ولكزت عمنا "الحاج بركة" في أعلى ظهره.

- "قف، إياك أن تقرب طعامنا، إياك أن تُعوِّم عشرين عامًا من الألم بشربة ماء في بيتنا، لن أخون وصية أمي مهما حدث، لن تنال خيرنا قبل أن تبرأنا على الأشهاد".
صرخت عمتي.

اندهش الجميع من صراخ عمتي على "الحاج بركة"، الذي توقفت كفه اليمنى وهي ممسكة بكوب الماء. ظل لثوانٍ كأن فوق رأس الجميع الطير، حتى إننا سمعنا بوضوح سقوط دمعة من عين عمي الحاج في كوب الماء، كانت كارتطام مذنب بصفحة ماء، بعدها انفجر في البكاء، وكما تُفتتُ قطراتُ المطر الجبال، فتَّتتْ دموعه صمت سنوات عجاف من المودة بينهما، فانطلق في هيستريا من الكلام والتشنج.

- "أنتظر هذا اليوم.. أنتظره؛ فأنا أحوجكم للبوح. قولي يا إشراق ما تريدين. قولوا جميعكم كل وصف قد يريح ضمائركم نحو أمكم، لكنه أبدًا لن يطفئ نار ندمي".
قالها وتابع البكاء.

أعادنا الحاج "بركة" إلى حالة من الصمت أشد إطباقًا على نفوسنا وألسنتنا من حالتنا الأولى إثر صراخ عمتي، فتابع عمي "الحاج بركة" يجسد لنا عذاباته وندمه، وكَمّ الزيارات التي قام بها إلى قبرها، وكم الرجاءات التي طرحها أمام باب المقبرة، لعل روحها تراه، فتغفر له ما كان.

- "كيف طاوعك قلبك وعقلك أن تلغي كل ما فعلت وتسمح لتلك الملعونة بتخريب البيت؟! كيف هان عليك بيت "مسعود الشحات" وسيرته إلى تلك الدرجة يا ابن أمي؟!". سألت عمتي إشراق وسط دموعها التي تساقطتْ.

حكى "الحاج بركة" كيف حرَّم على نفسه بيته الجديد، وكيف رأى الجد في أول ليلة باتها هناك، حين جاءه في منامه، وظلَّ يقرِّعه، وأنه من يومها عاد أدراجه نحو بيت العائلة هنا، وظلَّ خمسة عشر عامًا وحده يعاني مرار وحدته، وارتضى بحكم القدر.

- "حرَّمتِ ذاك البيت على نفسي. أريد أن أموت هنا في جواركم يا أولاد مسعود، فلا تحرموني آخر أمنية. يكفي ما حرمتُ نفسي منه بقسوتي واندفاعي المجنون وراء رغباتها الملعونة، ووحدي من يدفع الثمن". قال عمي بركة.

حاول عمي أسامة أن يلطف قليلًا من هذا التوتر، فنبهنا إلى طعام الإفطار، ونظر نحو عمتي إشراق وترجاها.

- "لأجل نور وليلي يا حاجة، لنكمل إفطارنا، ولنرَ ما نحن فيه، أتركوا ماضينا؛ ذلك القبر المملوء بسموم كثيرة". قال عمي أسامة.

تناولنا الطعام على مضض، وأظن "الحاج بركة" لم يتابع طعامه، واكتفى بأن يلوك قطعة الخبز طوال الإفطار، وبين الفينة والأخرى يساعد على بلعها بشربة ماء من نفس الكوب الذي احتضن دمعته التي سقطت فيه. ساعتها رأيت الغصة تعلو وجهه، كأن مرارة دمعته وملوحتها قد غيرت مذاق الماء في جوفه. تناولنا الشاي المسعودي الذي علق عليه الحاج بكلمة لم أفهمها.

- "ياااااااااااه.. أخيرًا كوب شاي مسعودي". مسح دمعةً تحدرت.

حين أخبرتهم بغياب أبي، لامني عمي أسامة، وأخذ يلعن العمل والانشغال الذي أنساه وشغله.

- "أبوك!! حسن؟؟ كيف يا ولدي". قالتها عمتي، ثم ألهبتني بمعرفة التفاصيل بعدها
- "وكيف كان يجيب اتصالاتي؟! وكيف كان يتصل بنا؟!". تساءل عمي أسامة.

عاد يؤكد لنا أنه تلقى اتصالًا حين كان في لندن منذ ثمانية أشهر من أبي، وقال بأنه بدا طبيعيًّا جدًّا، وعرف أنه خارج كيرونا في رحلة طويلة، وقد أخبره بأنه سيتاح له أن يمر على مصر.

- "ربما أنجح في الذهاب إلى البلدة في نهاية الرحلة إن سنحت الفرصة وجئت مصر".

أخبر أبي عمي أسامة.

- "بعدها اختفت أخباره، وانشغلت بأمور عملي الجديد". قال عمي أسا

- " نعم أنت أخبرتني بذلك، أذكر ما قلت لي عن كونه بخير". علقت عمتي إشراق.

- "الآن علينا أن ننظر في مشكلة آغ مسعود أولًا، وأعدكم سأحاول الحصول على تصريح لزيارته في أقرب وقت". قال عمي أسامة، وهو ينظر نحو ليلي.

- "الدموع في بيتنا كثيرة في الفرح والحزن". قال أبي.

- "وهل يتساوى الفرح والحزن في بيتكم ؟" سألت أبي.

* * *

في اليوم التالي زارنا أمجد الجني - ابن عمتي نورا - وبدأ في الاعتذار عن غيابه، وشرح لعمتنا إشراق السبب في هذا الغياب، متعللًا بأن ظروف والده الصحية تستدعي منه متابعته بانتباه، بعدما صمم والده على بناء كوخ من اللَّبِن عند حافة البحيرة، واعتكف فيه طريح المرض.

- "أبوك مرضه في روحه، لن يشفى يا ولدي". قالت عمتي.

أمَّنَ أمجد على كلام عمتي، وتابع يشرح معاناة الجميع في محاولات إقناعه بالمتابعة لدى أحد الأطباء، لكنه يُصر على إنكار مرضه، مدعيًا بأن من حوله هم أحوج للطبيب منه.

- "هل يمكنكم تخيل كيف هاج في عمي حين رجاه بالذهاب إلى المستشفى النفسي بالإسكندرية. لقد اتهمه بالتخطيط للخلاص منه". قال أمجد الجني.

كان فاروق وحميد قد أخبراني بمرضه، وكونه قد أُصيب بلوثة عقلية فترك وزارة الآثار، ونذر نفسه للبحث عن كنوز "كوم دشيمة" الغارقة في البحيرة، وأنه سافر إلى طنجة بالمغرب لإحضار سائلٍ يسميه "الزئبق الأحمر"، وهو مفتاح الوصول إلى مقبرة "دشيمة العظيم" صاحب الكوم الأحمر على حافة البحيرة الجنوبي الشرقي.

- "لم يكفه خوضه انتخابات البرلمان، وفشله، وبيع أرض المزرعة، حتى ينفق ميراثه في عمليات الحفر والتنقيب الفاشلة، حتى جُن". قال حميد ذات مرة.
- "المزرعة كانت لا تأتي بأسماك تستحق يا ولدي، لا تظلمه". قالت عمتي إشراق.

تابع أمجد حكي عذاباته مع والده، وكيف يقترب من اليأس بسرعة الصاروخ، وكونه سيكون مضطرًا في النهاية إلى التخلي عنه هناك على حافة البحيرة في كوخه، ليرعى أوهامه والأطياف التي يناديها من أرواح هؤلاء الذين سكنوا البحيرة منذ الخليقة الأولى. عاد يبتسم ويخبرنا بآخر حكاياته التي لا يعرف مبررًا لحدوثها حتى الآن؛ فبعد اعتكافه في الكوخ الذي بناه على حافة البحيرة، كان يزوره كالمعتاد في المساء ويذهب بالماء فقط إليه بعدما امتنع عن تناول الطعام معللًا أنه في صيام تدريبي لابد وأن يمر به حتى تسمو روحه وتشف، فيكشف ربه عن قلبه الحُجُب، فيرى ما لا يراه الناظرون، وأنه ساعتها سيتمكن من رؤية ما تخبئ الأرض في باطنها.

- "وجدته عاريًا كيوم ولدته أمه". قال أمجد الجني.

كان والده منتصبًا في صمت وخشوع فوق سطح الكوخ، وقد دهن جسده كله بزيت الزيتون المخلوط بحبة البركة، ومحاطًا بأعواد من بخور عتيق، وقد حطت فوق جسده كل أنواع الهوامّ التي توجد في حرش برية البحيرة؛ وحين سأله أن يهبط إلى الكوخ، وأن يغتسل قبل أن تصيبه لدغات البعوض أو الهوام التي تجمعت واكتسى بها جسده كله، صاح فيه متهمًا إياه بالجهل، والفقر إلى المعرفة الحقيقية التي تفوق تلك المعارف السخيفة التي يملأ بها رأسه، فكل ما يظنه مما يراه أمجد بعوضًا وهوامًّ، هي أرواح

من سكن البحيرة منذ الخليقة.

- "فليختلط دمهم بدمي، لعلهم يتعرفون إلى روحي حين تغوص في عالمهم، أو تكشف عن مقابرهم". قال والد أمجد.

كانت شكاية أمجد الجني مزيجًا من الألم والسخرية، حتى إن عمتي صبت عليه وابلًا من السِّباب والدعوات بأن يفضحه الله كما فضح والده.

- "طوال عمرك تعللين له، وتظنينه صاحب عقل". قال أمجد بحدة.

حتى إنَّ ليلي تدخلت بلا مقدمات في الحديث، وأرادت أن تفهم ما يقوله عن والده؛ فكلنا أشفق على أمجد ووالده في آنٍ واحد. تابع حديثه إلينا بعدما طرح كل همه صريعًا لسخريته وعجب الحضور، فأعلمنا أنه بالأمس حين جافاه النوم، قرر التحرك نحو البحيرة حيث كوخ والده، وأن يحمل إليه السجائر كحجة للاطمئنان عليه، وحين انتهى إلى هناك، طرق الباب المفتوح على الدوام، فلم يجبه، فناداه بصوت خفيض، لكنه لم يجبه، فاضطر في النهاية أن يدخل مباشرة مخالفًا أوامره التي تقضي على الجميع بألّا يدخل قبل أن يسمح لهم بذلك، وحين انتهى إلى مخدعه، وجده متدليًا برأسه إلى الأرض، وقد علق قدميه بسقف الكوخ.

- " يا حاج.. ماذا تفعل؟! الله يهديك!". صاح أمجد.
- "أبوك ليس موجودًا، سيغيب لخمس أيام تحت الأرض في ضيافة رئيس الديوان الأحمر لقصر دشيمة العظيم". قال والد أمجد.

ضحك الجميع، حتى ليلي خرجت عن حزنها وضحكت بشراهة الجوعى إلى الفرح بعد صيام عنه طويل، بينما استمر أمجد يخبرنا كيف فشل في أن يقنعه بأن يعدل وضعيته، لكونه مريضًا، لكنه أصر على هذا الوضع العجيب معللًا بأنه يستعد لأن تخرج روحه مباشرة في سفرها إلى أسفل أرضية الكوخ حيث تنتظر العربة التي ستقله إلى الديوان الملكي، وأنه أمره بعد قليل بالصمت التام؛ حتى لا يزعج الخيول التي تجر العربة،

وأن يرهف السمع؛ فسنابك خيل العربة تضرب في الأرض الخامسة وتقترب بالصعود نحو أرضية الكوخ.

- "العجيب أني حين أرهفت السمع مجاراة له، سمعت صهيل الخيول واضحًا". قال أمجد الجني متعجبًا وعلامات الاندهاش تكسو وجهه.

بعدها وحين علا ضجيج العربة فملأ جو الكوخ، وفي مفاجأة من مفاجآت والده، إذا بسكين إلى جواره ومغمورًا في اللون الأحمر لهذا السائل "الزئبق الأحمر"، يتناوله والده وبسرعة قطع الحبل الذي يتدلى به من قدميه إلى الأرض، فيسقط الأب في جوف أرضية الكوخ ويختفي كمخراز يُدَق في عجين.

- "في بلدنا يُدفن الخير في باطن الأرض على الدوام". قال أبي.

- "وأين يُدفن الشر في بلدكم؟". سألت أبي.

* * *

حين علمت عمتي بأمر والدي، واختفائه المفاجيء، كنا نتوقع منها ردةً فعل مبالغًا فيها، لكنها فاجأت الجميع بهدوء غير طبيعي، فقط بعض الأسئلة كادت تخلو من اللهفة التي توقعتها مع حميد وفاروق، وهو ما جعلنا نقلب أعيننا فيما بيننا حين ابتسمت، وأخذت تهز رأسها لأعلى وأسفل، ووحدها حركة مسبحتها الطويلة توترت قليلًا وتعالى صوت ارتطام حباتها ببعضها البعض، وساد صمت تام لثوانٍ، لم يجرؤ واحد منا أن يحدثها أو يتحرك، كنا كالخشب بلا حراك، حتى رفعت رأسها نحو سقف الحجرة، وتابعت حركة مروحة السقف، تلك التي لاحظت لأول مرة ارتفاع صوتها حين قالت عمتي:

- "هذه المروحة تحتاج للغسيل، وتزييت موتورها".

لم يجرؤ أحدنا على الكلام، فعادت تهز رأسها من جديد بنفس الحركة بآلية عجيبة، بعدها بلحظات - أظنها طالت - طأطأت رأسها في اهتزاز سريع، وبدأت في نشيج مكتوم.

- "راح.. حسن راح". ثم نهضت إلى داخل البيت.

قطع فاروق حبال الصمت التي قيدت ألسنتنا وحركتنا، وأعرب عن قلقه، وخوفه على عمتنا، وتمنى مثل حميد لو أنها انفعلت بشكل أقوى، وتركت العنان لنفسها وبكت؛ فلعل البكاء يخفف من صدمتها بعض الشيء.

- "الدمع مثل الحزن والفرح، ينبع من القلب يا ولدي". قال أبي.

- "إن بكى حين الحزن، فكيف يبكي القلب حين الفرح يا أبي؟!". سألت أبي.

الفصل الحادي عشر

عليـــاء

حكم الزمان يوم على زنـود السبع..
ولواااااهم..
وابن الهفيـة بقى له إشناب..
ولواااااهم..
السـبع سـكن الخلا..
والكلب سكن جناين وردها..
ينشـــم..
حكم الزمــان يوم ع الكلب..
قال له الأســـد:
يا عـــم!!

لماذا لا يجيب؟! لم تضن عليَّ الإجابات حتى هنا؟! كيف لا تنجلي لي كل الحقائق؟! أين النور يا صاحبه الآن؟! أين النور؟! ليكن.. فلأهدأ قليلًا! نعم، لتهدئي يا إشراق بعض الشيء، لتتركي للهدوء معبرًا للمرة الأولى في وجودك، نعم، فقط بعض السكينة، ولتنصتي قدر ما يحق للصمت من الجلال، لتتهيئي الآن للراحة. خلي بينك وبين كل الموجودات، حتى هؤلاء الواجمون هنا إلا عن نورهم والابتسام، دعيهم عنك، ودعي كل من عرفك، وكل من تعرفين، حتى "شمس" تلك الممددة إلى جوار أمجد على سرير أمك، اتركيها وشأن أحلامها الآن، لا تشغلي روحها بهذا النداء الملهوف على روحها، فقط تمتعي بالسكون. تعلمي فضيلة الفراغ لمرة في عقلك. أدخليه إلى قلبك، هذا المملوء بالحزن الأبدي وبالقلق المضني عليهم جميعًا حتى وأنت هنا. فقط امنحي نفسك للفراغ، وليأت السكون بما يليق، فقط أنصتي، أنصتي يا ابنة مسعود، أنصتي وتعلمي كيف تسمعين.

حين كان يحدد لي العلامات علي الخريطة التي رسمها للبلدة، والطريق إلى مداخلها، حدد علامة مربعة حول كوبري العواد، وترك القلم وابتسم شاردًا. سألته عن سر الابتسام والشرود، فنظر نحوي والابتسام لم يغادر وجهه.

- "أتذكر سعدية زوجة العوّاد التي كانت تحكي لعمك مصطفى حكايات الشاطر حسن وست الحسن والجمال؟". سألني أبي.

فأجبته بأني قد حفظت كل ما حكاه عن بلدتنا وكل الشخوص فيها، مهما كان الخبر بسيطا، لكنني كنت أحفظه؛ فقد كان فاصلًا من تاريخي الأصيل. نظر نحوي وعاد يسأل:

- "أتدري لم اختارت عمك من دون الأطفال لتعبث برجولته؟". سألني أبي.

- "أظنك قلت بأن جسده فار بالرجولة قبل الأوان". أجبت السؤال.

أدهشني أبي حين علل لي سر هذا التعلق، حتى إني ظننته مازال على مرضه النفسي، الذي ألزمه المستشفى شهرين.

- "زوجة العواد قد رأت ما لم يره غيرها في مصطفى". قال أبي.

وتابع يعلل بأنها رأت ما لا يمكن للنساء في البلدة أن تراه، رأت طرف النور في عمي مصطفى، ذلك النور الموصول بتاريخنا كله بهذا القطب "عابدين"، وموصول منذ "صابر الأول" بعلاقة. رأت النور في عمي حيث ينتشر الظلام من حولها.

- "في مطلع شبابي مارست الجنس معها مرات، وحكت لي السر يومها". قال أبي.

حين انتهى أبي وزوجة العواد من رحلة الشبق التي انتهت بطرحها فوق أكوام القش التي تتكدس فوق سطح دارها، استلقت عريانة الصدر، تناطح بثدييها نجوم السماء، ثم وضعت رأسها على كتف أبي.

- "لتُقبلني يا حسن.. أرجوك قبلني قبلة حلوة". توسلتْ إليه.

حين قبَّلها، فار التنور من جديد، وتوسلت إليه أن يدغدغها أسفله، فاستجاب سعيدًا، حتى ضجت أعواد القش أسفلهما، وانتصبتْ، وكررا الأمر لمرات عديدة، وحين انتهى منها، أخذتها نوبة من البكاء، فسألها عن السبب، أخبرته بالحقيقة.

- "حين أنظركم آل مسعود أرى النور فيكم، فطمعت النور ينمو في أحشائي". اعترفت له.

أخبرته كيف عرضت على مصطفى أن يفعلها فرفض، واكتفى بالعبث معها في ذات يوم حين قدم إلى قرب دارها يصيد السمك مع الجد. اعترفت له كيف استخدمت السحر لتجذب الجد ناحيتها قبلهم جميعًا، حين رأت هذا النور في صلبه، وكيف اختفى النور، وعاود الظهور في وجه العم مصطفى، فراودته منذ الصغر.

- "كنت أعبث برجولة مصطفى أستحث الرجل فيه على النضوج، أملًا في هذا النور". اعترفت له.

قالت بأن الجد بعدما مال إليها، وكادت أن تناله، فجأة ينقطع عنها، ويخاف الاقتراب من دارها.

- "عرفتُ أن هناك من يمنعه عنِّي وعن داري التي أراحته كثيرا، وأنس بها يومًا، لكنه أبدًا لم يلجني بطرف نوره". حكت عن الجد مسعود.

في النهاية صرَّحت له بأنها راودت كل الرجال في بيت آل مسعود أملًا في ذاك النور، وكيف دفعت الكثير من سمعتها وشرفها لأجل ذاك النور، الذي لم تفلح في أن تحفظه وتنميه في أحشائها.

- "كلكم مرَّ بداري، بركة الكبير، وأنت وصديق، وحامد، حتى أسامة الصغير، لكن النور كان معه وحده مصطفى، وفشلتُ في الاحتفاظ به". بكت وقالت.

مرة أخرى عرضت على عمي مصطفى حين بلغ التاسعة عشرة أن يهرب معها

خارج حدود البلدة، وأنها ستبيع هذه الدار، وستدور معه إلى حيث أراد خادمة له، في المقابل ما عليه سوى أن يتلطف بها، وينام إلى جوارها نوم الرجال مرة واحدة، لا نوم الطائر الفزع.

- "ما رأيت رجلًا أثارني قضيبه مثلما أثارني مسعود وولده". قالت زوجة العواد.

البلدة كلها تعرف أنها تمارس السحر، وتصاحب الجان وتطعمهم حين يخرجون على برِّ القنال في آخر الليل، حتى إن نساء البلدة استعانت بسحرها؛ إما لأجل زواج ابنة فاتها قطار الزواج، أو تأخر عنها الطمث، أو عقرت.

- "الجميع يزورها سرًّا، ويلعن سيرتها في العلن". حكى أبي عنها.

كانت لا تمانع ما داموا يحجون إليها متى أرادوا من أمور الحب والصبا والخلف، فدفعوا لها كل ما تريد. في آخر لقاء مع أبي أخرجت المال الكثير، وظلت تضعه أمامه حتى تكدس كومٌ من العملات النقدية والورقية ومشغولات الذهب، وصكوك ملكية الفدادين التي اشترتها في طرف البرية، في مقابل أن يُقنع مصطفى بالنوم معها نوم الرجال، لكنه في النهاية اكتفى بالنوم معها نيابة عنه، ثم اعتذر عن مساعدتها في إقناع مصطفى بذلك.

- "قل لإشراق، الصبر يعوضها ويقر عينها في النهاية". ألزمت أبي زوجة العواد.

ودعت أبي زوجة العواد بجملتها، بينما كنت أحاول فهم هذا النور، وكيف يكون للرجال من دون النساء هناك، وحين سألته، ابتسم معللًا بأنهم هناك في الشرق حيث للذكر مثل حظ الأنثيين.

- "تعلمنا ألا نقع على النساء وقع البهيم على البهيمة". قال أبي.

- "ألهذا الحدِّ يشغلكم فعل البهائم في بلدكم؟!". سألت أبي.

تحت باب الحجرة بعد ليلٍ عسِر، لم أرَ النوم فيه إلا لمامًا. كلما غفوت يأتيني أبي

بأخر صورةٍ رأيتها له في المستشفى بعد وفاة والدتي، يبتسم بسعادة، أحاول أن أكلمه، يشير إليَّ بالامتناع وأن أتبعه. أكاد أتعثر، فيعود أدراجه نحوي. يمد يده، فأمسكها وأنهض. أحاول من جديد الكلام، فيكتفي بالابتسام والإشارة بالصمت، وحين يستوي جذعي واقفًا، يمسك ذراعيَّ، وفجأة أبدأ معه في الطيران. يقذف بي في الهواء، فأعلو فوق البلدة ومساكنها وبيوتاتها التي تزاحمت بشكل غريب. يستمر في الصعود نحو السماء، والدهشة وحدها ما أميزه من كل المشاعر التي تنهبني بين الصمت والفرح برؤيته، وآلاف التساؤلات تتراجع، وتبقى الدهشة وحدها، في مواجهة ابتسامه المستمر. يترك يديَّ، فأسقط سريعًا نحو الأرض. أحاول الصراخ أو الاستغاثة به، لكنه يردفني في سقوطي السريع نحو الأرض، وابتسامته تزيد. حتمًا سأسقط فوق المقابر، قريبًا من نفس المكان الذي حدده على خريطة البلدة التي رسمها لي يومًا.

- "هنا بالضبط، نفس المكان الذي سقط فيه صابر من فوق مئذنة مسجد المهدي في يوم ظهور الشيخ السنجاري". قال لي يومها.

الأرض تقترب في سرعة رهيبة، وحجم المقابر يتضح شيئًا فشيئًا، وقبل لحظة السقوط تظهر مجموعة من القُبرات واليمامات، تمسك بمناقيرها ملابسي، وتعاود بي الطيران، ثم تتركني فأطير، فلا أشعر بكتلة جسدي، وأظلّ طائرًا في جو السماء، ثم يأخذ أبي في الابتعاد نحو البحيرة، فألحق به في طيرانه. يظل يشير نحوي، ويأمرني بإشاراته أن أتبعه، بعدها يرسم في السماء حروفًا بالعربية، فأقرأ الكلمات ولا أفهمها.

- "حميثرة يا صاحب الوعد سوف ترى".

أكرِّرُها من ورائه، يبتسم، وفي سرعةٍ رهيبةٍ يسقط كحجر من أعلى السماء، فتعود شواهد القبور للظهور من جديد، وأنا أحاول اللحاق به، حين أسمع صوت ارتطام جسده بالأرض في نفس البقعة التي سال فيها دم صابر الأول، وتبقى صرخته فقط في أذني.

- "آآآآآآه".

صعدت درجات السلم نحو السطح، الفجر قريب، النجوم تملأ السماء، نسيم البحيرة يجيء عليلًا فيزيح همي وألمي الذي تراكم بعدما انقطعت أخبار آغ مسعود، فزادت ليلي كمدًا وحزنًا، بعد محاولاتنا المستميتة مع العم أسامة والعم ماجد فيكس في الوصول إلى مكانه. كل شيء صار مربكًا وغيرَ منطقي.

- "آغ مسعود كأنه حبة ملح ذابت في بحر". قال العم ماجد فيكس.

آخر ما انتهى إلينا من معلومات حوله، بأنه تم ترحيله بمعرفة جهة سيادية إلى مكان آخر في القاهرة للاستجواب، بعد شهر من القبض عليه. مرت أيام حُبلى بالألم والبكاء على روح ليلي التي بدأت في الانهيار والتراجع عن الرغبة في الحياة. يوم ذهبنا إلى عمي أسامة في بيت الجيزة، آملين أن نتمكن من تحديد هذه الجهة السيادية التي تم نقل آغ مسعود إليها، لكن محاولاتنا كلها ضاعت أدراج الريح. كان كما قال العم ماجد فيكس، مثل حبة الملح التي ذابت. في طريق العودة نحو البلدة لزمت ليلي الصمت، واكتفت بالنظر من خلف زجاج السيارة التي استأجرها لنا فاروق وحميد. غفوتُ قليلًا فجاءني أبي، وآغ مسعود، وجدتي، وأمي، والكثير ممن رحلوا أو اختفوا. فجأة تظهر من بينهم، بهيةٌ كيوم افترشنا أرض غابة القُضاب قريبًا من بيتها في غابات الشمال الفنلندي، كلهم يبتسمون، يفصلني عنهم مجرى مائي ضيق، الماء يجري بلون البنفسج. أخذوا يخوضون فيه واحدًا تلو الآخر، بينما وقفت تنظر نحوي بابتسامتها. قالت بصوت مسموع لكل هؤلاء الذين تقافزوا في الماء كقطع الإسفنج حين تلامس الماء فتلونت بشراتهم وأجسادهم بلون البنفسج:

- "نور، أريد طفلًا". توسلت سارة.

الصور تتتابع على مخيلتي، وصورتها وحدها التي تبدو شديدة الوضوح. تكرر طلبها بالحصول على الطفل، وأنا في الطرف الآخر من المجرى المائي لا أحرك ساكنًا. في المرة الثالثة التي نادتني فيها حين نظرتها، كانت ملامحها تتحول بيسر إلى ملامح "بهلة".

تبتسم هي الأخرى، وتمد يدها وأظافرها الطويلة المعقوفة نحوي. تشير إليَّ أن أعبر المجرى المائي باتجاهها، ومسلوبًا من إرادتي تحركت، لا أفهم كيف سرت فوق الماء. انتبهت لحظتها أني أسير فوق الماء. نظرت إلى انعكاس صورتي فوق صفحة المجرى البنفسجية. رأيت وجه أبي منعكسًا فوق جسدي على صفحة الماء، وقبل أن تكتمل دهشتي، كانت يدها تمسك بي، وتأخذني نحو صدرها مباشرة، ضمتني بهدوء عجيب، وهمست:

- "إياك أن يضيع اسمك منك يا ابن من يُسمى باسم من هاجر إليه".

تتركني بعد أن تركت بين يدي طفلة صغيرة، وتغوص في الماء مثلهم. أحاول اللحاق بها، فتثقل قدماي وأغوص مثلهم في الماء، تنظر نحوي وقد تبدلت ملامحها من جديد.

- "أريد طفلي.. أريد طفلي". بكت ليلي هذه المرة في حلمها.

أفقت حين توقف السائق للتزود بالوقود في واحدةٍ من محطات البترول التي تحمل لافتة تعلن بخضوع إدارتها لقوات الجيش. نظرتُ نحوي ليلي بعينين ذابلتين، وابتسمت في انكسار وهي تمسح حبات عرق غطت جبهتي، ثم أشاحت بنظرها نحو الطريق الممتد أمام لافتة أخرى كبيرة.

- "مدينة طنطا: الزم أسفل الكوبري بعد ٥٠٠ متر". نصحت اللافتة.

حاولت أن أركز في الأغنية التي أطلقتها الإذاعة الداخلية لمحطة الوقود. كانت واحدة من تلك الأغنيات التي سمعتها مع أبي حين جاءنا خبر اغتيال عمي حامد.

- "تنكسري ولا ينصلب عودك.. أنا جندي في جنودك". قال المغني في إذاعة محطة الوقود.

أذكر يومها جيدًا، حين أخبرنا عمي أسامة، بأنهم دبروا لقتله، فصعدت سيارة مسرعة إلى الرصيف حيث يقف أمام جريدته، وصدمته بقوتها، ثم غادرت كالبرق، وسط ذهول المارة. لحظتها انتبهت إلى أن علاقتي بعمي حامد لم تكن بالدرجة التي تمكنني من معرفته مثلهم، وألزمت نفسي وعدًا أننا متى نجده؛ فسأجعله يحكي لي عنه الكثير.

- "في بلدنا ما أكثر الكباري فوق الطرق". قال أبي.
- "وهل تفلح الكباري في العبور الصحيح؟". سألت أبي.

* * *

قبل أن يختفي أبي من المستشفى منذ ثلاث سنوات، في زيارتي له بعد جنازة أمي بقليل، عرجت على طبيبه المعالج أستفسر منه عن بيان حالته بعد رحيل أمي، وإن كانت حالته النفسية ستسوء بعدها. يومها قابلني الطبيب بهدوء، وأخذ يشرح لي أن حالته الطبية تتلخص في تلك الحالة التي تصيب كل هؤلاء القادمين من دول المناخ الحار، وأن ما يصيبهم لا يعتبره الأطباء حالة من الذهان المطلق، وإنما هي حالة مؤقتة من الذهان الذي يصيبهم مصحوبًا بحالات من الهلاوس السمعية والبصرية، الناتج عن تغير الساعة البيولوجية لهؤلاء الذين ولدوا وعاشوا طويلًا في المناطق ذات المناخ الدافيء، وما ينتج عنه من حركة النور والظلام هنا، وأن الأحاديث التي يجريها والدي مع تلك الشخصية الوهمية لا تتعدى كونها نتاج هذا الذهان المرضي المحتم، وأن احتمالات نجاته من ذلك المرض نادرة للغاية، وسيشفى منه قريبًا متى هدأ واستقر وجدانيًا، وانتظم في دوائه.

- "لا مناص منه مهما طالت إقامته، ولا أحد يمكنه التنبؤ بموعد الإصابة به، ربما بعد أيام وربما بعد سنوات، لكن نادرًا ما ينجو منه هؤلاء القادمون من هناك حيث النور والظلمة يختلفان عن هنا". قال الطبيب المعالج.

في البداية، عللت لنفسي مرضه هذا بفجيعته حين علم بمرض أمي، حتى أظنها بذلت من الجهد الكثير لتعود إلى طبيعتها، لكن حالته كانت تسوء، فاستلزمته المكوث في مسجد الثلج في كيرونا الجديدة، وأبقته منعزلًا عن الجميع، لكنه في النهاية وتحت

ضغط أحاديثه مع هذه الشخصية التي لا ينفك عن الحديث إليها واتهامها بأشياء عديدة، هو ما جعلنا نقرر ونضغط عليه أن يذهب إلى المستشفى النفسي، وفي النهاية حين ألحت عليه أمي رضخ لأجلها وفقط.

- "تعلمين أني لا أخيب لك طلبًا مهما كان، حتى لو كان بعدي عنك". قالها واستسلم.

حين تم ادخال أمي المستشفى هي الأخرى كانت حالته في غاية السوء، أذكر حين هاتفتني بعد عودتنا من زيارتها، وأخبرتني بقلقها عليه.

- "أخذت نصيبي مما ورث، مقابل أن تحفظيها والأولاد". سأل أبي ذاك الطيف.

أنهت مكالمتها بقلقها المتزايد على حالته الذي تطور إلى الخوف في آخر أيامها بأن يفقد عقله للأبد، وأنها لن تحتمل رؤية الرجل الذي أحبته ووهبته عمرها يذهب إلى الجنون هكذا بلا عائق.

- "في بلدتنا للمجانين بركة يؤمن بها الجميع، بركة من الله مباشرة". قال أبي.

- "أليس أصحاب العقول أولى بالبركة في بلدكم؟!". سألت أبي.

* * *

مرت الأيام سريعة هنا في هذه البلدة التي لم تنجُ من شرك إطلاق الأسماء الحركية على كل الشخوص فيها، فطالت عادتهم في تسمية الأشياء كل شيء، حتى البلدة جعلوا لها اسمًا خاصًّا بها.

- " العاصمة السرية.. نحن أهلها". قال أبي يومًا، وابتسم.

يطلقون الأسماء الحركية في محاولة لصنع عالمهم الموازي تمامًا مع عالمهم الحقيقي هنا

في البلدة. يهربون إليه كلما ضاق واقعهم بأحلامهم، يزرعون كل نبتهم فيها، يُشرّعون قوانينهم، يحاكمون خونة عُرفهم، يمجدون عظماءهم؛ فوحدهم من يملك الحق في الولوج إلى هذا العالم الموازي، حيث كل شيء متاح، والأمنيات براحٌ، والأرض لها متسع، لا يساورهم الشكّ في كونهم أسياد هذا العالم بكل ما فيه من شخوص وأحداث، يعيدون الترتيب فيه كيفما شاء لهم المزاج، لا كيفما يقتضي الواقع، فيها تنامت أفكارهم وأحلامهم التي خبروها في غرفة الشباب في هذا البيت - بيت العائلة - الذي أسموه "معقل اليسار"، كل شيء من حولهم فرصُه في التراجع والانحسار أو السقوط في عالم النسيان أمر منطقي، لكن في عالمهم السحري ذاك، كلُّ شيء لا يخضع سوى لمنطقهم ورؤيتهم للأشياء وكيف يرونها، لكل أمر فلسفته الخاصة في منطقهم وفي عالمهم شديد الخصوصية بهم وحدهم، هنا يمكن أن تجد للكلمة الواحدة من المرادفات الكثير في قاموس لغتهم التي تُعنى بالمسميات الفريدة، والتي لا تنتمي إلا لهم وحدهم.

- " في بلدتنا يمكنك أن تختصر مصر بكل ما فيها ". قال أبي لي مرة.

هنا تسقط الأفكار من السماء على عقول الرجال من أبنائها، فتسقط في حضيض التاريخ إلا هنا، وحدها كل التيارات والتنظيرات الفكرية يمكن أن ترتع كيفما شاءت، وحسبما كان يأمل مخترعوها. كل نبت إنساني له هنا في البلدة نصيب من خصبها، ينمو فيعجب الزراع ثمره حين يدنو القطاف، هنا كل شيء له نصيب. من ذاك العبقري الذي أعطى البلدة هذا الاسم المميز؟ من اختصر مصر فيها إلى هذا الحد من الدقة؟ من وزع الجميع فيها بعدالة التوزيع الجغرافي للكائنات في كل ربوع مصر؟ من وضع مقاييس التوزيع على أرض خارطتها للأشياء؛ فتجيء بوضوح انعكاسًا جليًا لكل فرد ونبتة وحجر في مصر؟ من أسماها " العاصمة السرية"؟

- "حكى لي أبي أنهم لا يعرفون للدقة من صاحب التسمية، لكنها لم تخرج عن العقل الجمعي لغرفة الشباب". أخبرني فاروق عن عمي حامد.

كل التواريخ فشلت أمام حقيقة التسمية مثلما فشل الجميع في معرفة اسمها الحقيقي، فلا يُعرف هل تُنسب البلدة إلى العارف القطب "محمد المهدي"، أم هو من انتسب إليها، وعُرف بها، بعدما حملته قدماه إلى نزلة مراكبها، حيث نبتت البلدة كلها في نزلة الصيادين في جوار بريتهم وبحيرتهم.

- "يحتاج الناس دومًا إلى وطن يُنسبون إليه؟".

- "وإلى من تُنسب الاوطان يا أبي؟". سألتُ أبي.

* * *

الآن تحتويني وأختي تلك الغرفة في تلك البلدة البعيدة عن بلدنا الذي عرفناه ونسبنا أنفسنا إليه على الدوام. نعم تحتويني، وأظنها ستفلح في احتواء حزن ليلي. ها هو الشهر الثاني يوشك أن ينتصف، ولا خبر عن آغ مسعود الذي قصم اختفاؤه ظهر ليلي بنحو صارم. وهاهي عمتي التي نذرت نفسها لحزن هذا البيت وأولاده، تستقبل – في استسلامٍ لقدرها – حزن ليلي بثبات، لا تنفك عن بثها ثقة قد تعيلُها ضد ذاك الحزن، تلبي حاجاتها القليلة في صمت وسعادة تسعد روحها، تتحايل على الحزن كلما يضرب قلبها المكلوم حين رأت ليلي في شرودها، تحكي لها عن البيت وتاريخ رجاله والنساء، لعلها تجد فيه ما يكون لها سلوانًا، حتى إنها علمتها القراءة في مصحفها الذي فاخرت به.

- "أهداني إياه عمك الحاج بركة قبل أن ينقض عهده معنا لأجل من لا يستحب ذكرها هنا في بيت آل مسعود". تقبل المصحف وتكابد الدمع، ثم تمرره إلى ليلي.

كأن ليلي وجدت في كتاب عمتها المقدس خلاصها، فشحَّ لسانُها بالكلام. اكتفت بالابتسامات المنكسرة التي راحت توزعها. زادت في قربها من عمتي إشراق. في المساء

تصحبها إلى حجرة الجدة. تبيت ليلتها معها. رفضت كل العروض التي قُدمت إليها للحركة خارج البيت. صمتها يزيد كلما تتلاشى الإشارات نحو آغ مسعود. كادت تستسلم وتعلن دموعها قرب الإعلان بالاستسلام.

- "كيف تحولت ليلي بهذه السرعة إلى هذا الحال". سألت نفسي متعجبًا.

في آخر مرة كُنا نظن أننا توصلنا إلى مكانه؛ فقد ساعدنا أحد هؤلاء الضباط من معارف العم ماجد فيكس، وأخبرنا بأنه لم يغادر معتقل "الغربينيات"، فذهبنا في صحبة محام إلى المعتقل، ومعنا أمر بزيارته، نفس الطريق الذي قطعناه من قبل إلى مدينة "الحمام"، حيث دخلنا من نفس المكان الذي قابلنا فيه عبد العلام راعي النعاج، توقفنا في مدينة تسمى "برج العرب القديم". كُنا قد تركنا طريق الساحل وانحرفنا جهة الجنوب إلى قلب الصحراء. قطعنا مئات الأمتار قبل أن نعبر ما يشبه الممر بين كتلتيّ حجر جيري يمتد الطريق وسطهما، ليخلّف المنتجعات في الساحل الشمالي، وينتهي إلى زراعات كثيفة لأشجار الزيتون والنخيل في مساحات شاسعة من الصحراء التي غلب لونها كل الألوان هناك، ساعتها أشار العم ماجد فيكس الذي شاركنا - أنا وليلي وعمي أسامة - في الرحلة، نحو مبنى بعيد.

- "معتقل الغربينيات". قال العم ماجد، ثم لاذ بالصمت.

تسارع الطريق يمتد حتى انتهى إلى مزلقان للسكة الحديد، فعبرناه برفق، وانحرفنا جهة الغرب في طريق انتهت صلاحية الأسفلت فيه، فترك أثره على حركة السيارة التي ازدادت اضطرابًا. بعدها بعشر دقائق أعطى عمي أسامة ورقة مطوية إلى ليلي.

- "تصريح النائب العام، وطلب من السفارة السويدية في مصر". قال عمي أسامة.

كانت ليلي بزواجها من آغ مسعود قبل رحيلهما هو ما جعلنا نخاطب السفارة السويدية في القاهرة، ونتصل بالخارجية في استكهولم أملًا في المساعدة، ولولا ذلك ما

تمكننا من الحصول على إذن النائب العام برؤيته. توقفنا قبل أن ننحرف مرة أخرى جهة الشمال لندخل في ممر ترابي غير ممهد، وطلب منا عمي أسامة أن نترك المحامي والعم ماجد فيكس للحديث هناك، وأن يدخلا أولًا بصفة ودية، ثم تابعنا سيرنا لخمس دقائق أخرى انتهت بنا إلى بوابة تأمرنا اللافتة قبلها بالتوقف للتفتيش، ثم ترحيب مصلحة السجون بالزائرين. ساعتها تعجبت:

- "كيف يمكن أن يقبل إنسان - أيما يكون - أن يُرَحَّبَ به في هكذا مكان؟! ومن ذاك الذي تسعده مثل هكذا لافتات؟!".

عاد إلى السيارة العم ماجد فيكس تسبقه ملامحُ وجهه. كانت تُخبر بفشله في التوصل إلى ما يريح قلب ليلي، أو يخفف عنها من ألمها ما تكابده، لكنه أصر على الدخول بشكل رسمي، وأن نبرز خطاب النائب العام.

- "أولاد المرَة!! ينكرون وجوده. الآن سنتعامل بشكل رسمي معهم". بصق بعد أن أصدر صوتًا بخيشومه، صحبه برفع حاجبيه للأعلى.

- "والله لأربيه ابن الـ...." عقَّب العم ماجد.

ترجلنا من السيارة، وبدأنا في التحرك باتجاه بوابة ضخمة من الفولاذ، يسبقها بوابة من الأسلاك الشائكة التي اصطنعت بشكل يدوي، ومعتمدة على متراسين من المتاريس التي تميز ثكنات الجنود، خلال البوابة الفولاذية الضخمة. عبرنا بعد إبراز المحامي للخطاب الرسمي الذي جئنا به من النائب العام، وحين توقفنا للتفتيش، كان عمي ماجد ينتحي بعمي أسامة، ويهمس في أذنيه بما لم أسمعه. بعد البوابة الفولاذية الضخمة، انتهينا إلى ساحة صغيرة، في وسطها بُنِيَت مقاعد خرسانية، تعلوها مظلة من المعدن الرقيق المعروف في مصر باسم "الصاج". كانت الساحة متكدسة بمن يُعرفون بـ"الزيارة"، هؤلاء الذين تجمعوا من ربوع مصر، فلا تخفى على المتأمل لكناتهم وتمايزها تمايزًا لا يقل عن تمايز سحناتهم أو خلفياتهم الاجتماعية، وحين كُنا نعبر من ممر جانبي

في الساحة جهة اليمين، شعرتُ بالمعاناة التي يعانيها هؤلاء هنا في هذا المعتقل.

- "أهذه ساحة؟! فما بال المرء بالزنازين؟!". سألتُ نفسي.

تركنا الساحة تموج بروائح أطعمة نفاذة، ودخان سجائر، وضحكات وبكاء وهمس، وصرامة الحراس، كل شيء هنا اليوم مسجون، كل الطموح الإنساني هنا يتجمد في شكل واحد، يتلخص في سؤال النفس متى يحين موعد الخروج من هذه الساحة وما وراءها من زنازين وعنابر للمعتقلين؟

- "أظنه ابن زانية من اخترع عقوبة السجن والحبس". قال عمي أسامة ذات مرة لأبي بعد اعتقاله قبيل ثورة يناير بأيام حين غطى أحداث تفجير كنيسة قبطية في الإسكندرية في مطلع العام ٢٠١١.

في نهاية الممر الذي سرنا فيه انتهينا إلى بوابةٍ أخرى من الحديد، يحرسها أربعة حراس متمنطقين السلاح، اثنان منهم يمسكان بلجام ينتهي بكلبين للحراسة من فصيلة "البولدج". تشممتنا أنوف الحراس قبل الكلبين، وبلا تعليق صاح الحارس الذي اصطحبنا لخامس الجنود في الخلف، ويبدو أعلاهم درجة.

- "سعادة البيه المعاون يا أفندم". قال الحارس بجدية مصطنعة وباهتة.

حين رأى الخطاب الرسمي نهض، ورتب هندامه بحركةٍ لا إرادية، وأدى التحية العسكرية، ثم أشار بيده التي بسطها إلى الداخل، يأمر أحد الحراس الأربعة على البوابة.

- "إلى الإدارة يا دفعة.. اتفضلوا يا أفندم".

أرشدنا الحارس إلى ممر جديد يمتدُّ لعشرة أمتار أو يزيد، انتهى إلى ساحة أصغر من تلك المخصصة للزيارة، في أقصى طرفها الأيمن يمتد طريق يقود السالك فيه التنبيه المؤطر باللون الفسفوري الأحمر "قطاع الأمن المركزي لغرب الدلتا – الوحدة رقم.... خ/ح"، وفي أقصى اليسار بوابة ضخمة من الفولاذ، وفي أعلاها كُتب بخط واضح "المعتقل"،

بينما يتوسطهما بوابة أخرى من الفولاذ وفي أعلاها بلون أزرق كُتب "السجن العمومي". كان مشهد البوابتين صادمًا للغاية، يثير في النفس كل الكآبات، من لون البوابتين الذي ينافس لون الصدأ، وحتى ينتهي بضخامتهما وصوتهما المثير للأسى والاشمئزاز من كل الفكرة.

- "يا نهار أبيض.. لون غبي جدًّا". علق عمي أسامة على لون البوابتين.

أخرج الحارس من جيبه جهاز اتصال تحدث فيه، فإذا بباب السجن المميكن يصدر أصواتًا آلية من الداخل، ففتح في البوابة طاقة صغيرة تُمكن الحراس في الداخل من رؤيتنا. أعطاهم الحارس الخطاب الرسمي، ثم أمرونا بالانتظار. دقائق قليلة مرت، وعاد ينادينا بأسمائنا، فأجاب الحارس نيابة عنَّا بعدما طلب منا إثبات الشخصية الخاصة بنا. فُتِح البابُ بعد صرخة الحارس بصحبتنا.

- "تمام يا أفندم".

بوابة صغيرة داخلية في قلب البوابة بدأت تنفتح. صريرها يكفي أن يعذبك كلما تذكرتها في وحدتك خارجها، وكاميرا في أعلى الباب تتحرك تجاهنا لرصد حركتنا، كأنهم يريدون منذ اللحظة الأولى لدخولك أن تتذكر كل شيء وقسوته وأنك مراقب بدقة؛ فهذه الأسلاك الشائكة والمتاريس التي تسبق البوابة الرئيسة في المكان، ثم الكلاب التي لا تقل عن حراسها تجهمًا، حتى ألوان الحوائط وأرضية الرصيف، ولون البوابات، والكاميرات التي تملأ المكان ترصد كل حركة، كل شيء لا يترك سوى الكآبة في النفس.

- "من قال بأن السجن إصلاح وتهذيب وتأهيل؟!". سأل عمي مصطفى أبي مرة، ثم سبَّ السجون.

منذ اللحظة الأولى لدخولك الطريق الترابي، تكتشف كونهم مصممين على اقتلاع كل براءة ربما خبرتها يومًا أو عاينت من ذوق ورحمة ما في مكان ما. هنا عليك أن

تتأهل لتفقد كل أشيائك الجميلة أو التي ظننتها في الماضي جميلة. هنا وحدها الكآبة والانغلاق ما يطبق على الروح قبل الجسد، لينتهي بك إلى عقيدة واحدة، حدثنا عنها عمي أسامة حين زارنا في كيرونا القديمة قُبيل انتقالنا إلى كيرونا الجديدة.

- "السجان آلة قمع بلاستيكية بلا قلب بشري".

تشممتنا كلاب جديدة من فصيلة كلاب الصيد الدنماركية، واصطحبنا حارس جديد، لم يكن وجهه يعرف الابتسام يومًا. تحركنا خلفه مخلفين البوابة الضخمة وسورها المرتفع خلفنا، ولم نحِد عن استقامتنا لبضع أمتار، ثم أمرنا بالانتظار، وسأل أحد الحراس عن سيادة المعاون.

- "سيادة الباشا المعاون ستجده في المكتبة يا أفندم". قال الحارس الصغير الجسد والسن.

نظر نحونا، وأمرنا أن نتبعه من بين لهاثه الواضح الذي يشعرك بأنه من المرضى المصابين بالربو، وأحد هؤلاء الذين طال بهم أمد المرض فغلبهم وهزم رئتيه، فاستسلمتا للربو في نهاية الأمر. انحرفنا خلفه إلى ممر جهة اليسار، فطالعتنا خلف المبنى مباشرة لافتة ترشد المارة.

- "إلى العنابر/ إلى المكتبة.. مع تحيات/ مكتب الأخصائي الاجتماعي والنفسي".

الطريق تتمركز على يساره عنابر تحت مستوى الطريق حيث نسير. تلوح نوافذها بأعجوبة، وقد حاصرها السلك الشائك وحبيبات المِلح والفُطر الأخضر، بينما في اليمين تمتد حديقة واسعة من الحشائش الاصطناعية المحاطة بنوع من الرمل الطفلي بني اللون، وقد أفلح ملح الأرض في التصدي لبعض الاخضرار فيها، وفي آخر الطريق مبنى كبير كان المكتبة، يسبقها مبنى ضخم تتقدمه لافتة كبيرة.

- "محرقة المخلفات.. الإدارة".

دخلنا إلى المكتبة التي غطى كل حوائطها لوحات ورقية كبيرة ممهورة بخاتم الأمم المتحدة، واليونسكو، كلها تتحدث عن الأمومة، ورعاية الأطفال، وكأننا في مستشفى للولادة أو جمعية للأمومة، وقبل أن تُثار الأسئلة في أذهاننا، وبين لهاثه الذي زاد عن ذى قبل، أخبرنا الحارس بأن السجن كان مخصصًا في الأصل للنساء، لكنه تحوّل إلى سجن الرجال.

- "رفقًا بالقوارير، هكذا النساء في ديننا مصونات". قال أبي.

- "وهل يصون السجنُ أرواحهن من العفن". سألت أبي.

* * *

حتى تلك اللحظة، لم تكن هناك أية إشارات تشير إليه، أو إلى مكان وجوده، وكلمة واحدة كانت تطرق أذني كلما حاولت التفكير في مكانه، تأتيني كلمة الجدة أمينة، بأنه هناك عند من يُسمى باسمه، وأنه بات بخير. من أين يأتي الجدة كل هذا اليقين، ومن أين تعرف أنه بخير؟! بعد سفر عمي أسامة واضطراره العودة إلى لندن، هاتفني ليخبرني بأنه تأكد من دخوله إلى مصر منذ شهور ثلاثة، وأنه دخل إلى مصر بجواز سفره السويدي، وأنهى بقوله:

- "على الأقل نعرف أنه عاد إلى مصر". أنهى المكالمة، واعتذر لسفره المباغت.

حين أخبرتُ الجميع هُنا بمكالمة عمي أسامة، تهلل وجه عمي "الحاج بركة"، وتمتم بكلام عن القدر، وعن وعد آل مسعود الذي نذره الجد الأول صابر، ثم ترحم على كل الراحلين، ونصحنا بالتفاؤل، وضرورة أن نتعلم من المحنة كيف تكون السعادة. سأله عمي ماجد فيكس أن يوضح كلامه، فالوضع لا يحتمل الألغاز.

- "يبدو أن معيشتك وحدك يا "حاج بركة"، دفعت بك نحو التصوف؛ فكلامك بشبه

كلامهم. المهم ألّا تتحول إلى مثلِ خيري أخي، يكفينا ما عانيناه منكم أيها الأخوة الكبار". تهكم عمي ماجد.

كاد عمي "الحاج بركة" ينفجر، وتصاعد غضبه، وأخذ يصرخ وينفي عن نفسه شبهةً ما، لم أفهمها، وأصر أن نعرف جميعًا بأنه رفض العيش هناك حيث تعيش زوجته وولداه، وأنه قَبِلَ عقابه بنفسٍ راضيةٍ مطمئنةٍ، وكيف تحمل ما لا يمكنه البوح به، واصفًا ذلك البيت الجديد بأنه ملعون، يخلو من الحب، وتساءل عن لومهم الدائم له، وهم يعرفون أنهم كلهم مدفوعون بقدر آل صابر الأول، الذي نذرهم للحب، وقبل التضحية عن كل سلالته، حين تزوجها هناك في هذا العالم المحصور ما بين دُنيا الأجساد وعوالم الروح الشفافة، ثم تزوجها من بعده مسعود.

- "وحدي من يدفع الثمن، وحدي من يدفع الثمن". كررها عمي بركة وانفجر بالبكاء.

كلنا في العائلة يعرف حكاية الثعبان الذي وجدوه جوار الجدة حين ماتت، ويعرف اتهامات إشراق لزوج الحاج بركة، والتي فشلت كل المحاولات للصلح بينهما. كانت عمتي تلوم "الحاج بركة" حين انحاز إلى زوجه ضدهم، حتى بعدما مرت السنون بطولها لم تشفع مراراتها أن تمحو من نفسها مرارة موقفه ذلك، في حين أكتفى بالانزواء عنهم، متمسكًا بموقفه، ورافضًا مجرد تقديم الاعتذار لهم. وهو ما بدا لي عجيبًا؛ فكيف لإنسانٍ أن يضيع سنواته في الكراهية والخصام؟

- "لو كان جاءنا واعتذر كان يكفينا، ويمكن لجراحنا أن تندمل". قال عمي مصطفى مرة لأبي.

ساد جوٌّ من الكآبة في المكان، وسيطر حزن عميق على الحضور حين انبرى يحكي "الحاج بركة" عن سنوات وحدته في شقته، وكيف تقطعت نياطه حين يسمع حكيهم بالأسفل يخلو من ضحكهم المعتاد، وكيف نال الحزن منهم بعيدًا عنه، وبَقِيَ وحده

يدفع الثمن. كان ما يشغله حين يرحل، ويسأل نفسه عما ينبغي إخبار الجد به حين يحين اللقاء. لم أفهم منطقًا لخوفه هذا، وكيف يمكن أن يتقابل مع الجد، ورحت أراقب عتابهم بصمت.

- "ما يُكسر في بلدتنا يا ولدي لا يُصلحه الخراز". قال أبي.

- "ولِمَ تسمحون من البداية بكسره؟!". سألت أبي.

* * *

حين نظرت في رسائلي الإلكترونية، وجدتُ إشعارًا من الجامعة، تخبرني فيه زميلتي "جيسكا" بأنه تم قبول طلبي بتمديد الإجازة لشهر آخر، وأنه يتعين عليَّ محادثة رئيس القسم وشكره، ففعلت على الفور. مرت الأيام سريعًا، وانقطع الأمل في الوصول إلى "آغ مسعود"، أو الحصول على شهادة تثبت مكان وجوده، وذلك بعد فشل رحلتنا إلى الغربينيات حيث أملنا أنه موجود. بدأت "ليلي" في الانهيار التدريجي؛ فهي ستضطر في النهاية إلى السفر؛ فهي لا تملك من الوقت المزيد، وإجازتها تنتهي قريبًا. صارت أكثر عصبية وريبة في كل شيء حولها، وأرخت بحزنها حزنًا جديدًا إلى أحزان هذا البيت في أقصى الأرض من حيث جئنا نطلب الأمان في ظله، ونطلب الإجابات عن الكثير، كأنه كان بانتظارنا، ففجَّر أحزانهم وذكرياتهم؛ فعمتي عرفت باختفاء أبي منذ شهور، وأن عودتي إنما كانت للتأكد من رجوعه. كلما تجمعنا في حجرة الشباب أرخى الحزن سدلًا معنا، حتى أنس بصحبتنا، وصرنا ننكر الضحك. حتى محسن الديك خفَّتْ سخريته التي يطلقها تجاه كل الأشياء بلا هوادة. في جلستنا تلك ظلت عمتي إشراق تنوح وتترحم على كل الراحلين عن البيت، تلعن تارة، وتستغفر أخرى. تدعو وتطلب الرحمة. تبكي بصمت. تبتسم في غمرة عدِيدها المفجِّع. كُنا نجلس في غرفة الشباب حين دق الباب، فتحرك محسن الديك متثاقلًا نحو الباب، فتحه ثم تراجع خطوتين

وتجمد مكانه، نادته عمتي إشراق لكنه ظلَّ على حاله، سمعنا الطارق ينادي عمتي إشراق:

- "أنا ياسمين يا حاجة". قال الطارق.

دخلت العمة ياسمين، بينما لاحظت انزواء محسن الديك خلف باب البيت، كأنه يطلب الستر من فضيحة، ثم دخلت وراء العمة شابة في العشرين من عمرها، جميلة ببساطة مفرطة، وجهها المستدير يأخذ الكثير من تفاصيل العمة التي أمرتها بالدخول.

- "تعالي يا هالة، هيا سلمي على عمتك إشراق". أمرتها العمة.

دخلت على استحياء، ألقت السلام، ثم تسارعت نحو عمتي تقبلها، وتسألها عن صحتها بخجل وصوت خفيض.

- "يااااه يا هالة!! لسه فاكرانا؟!" قالت عمتي إشراق.

- "عمري ما أنساكم يا خالة، وأنت تعرفين". كأنها تخفي دموعها.

كانت تخبر عمتي بجملتها، ونظرها مُسلط هناك حيث تجمد محسن الديك، وتجمد الكلام للحظات، أخرجهم منها صوت محسن الديك بأنه مُضطر للمغادرة لأمر هام.

سألت العمة عن حميد، فأخبرها فاروق بأنه ذهب إلى العم ضياء الدين والعم ماجد فيكس لإحضارهما لتناول الغذاء معنا، فاكتفت بهزِّ رأسها.

- "كلُّ إنسان مكتوب له لقمة عيش سيأكلها أينما تكون".

أخبرتنا العمة أن شخصًا هاتفها يسألها إن كانت هي زوجة المرحوم "مصطفى مسعود"، وأنه يحمل إليهم أمانة يتوجب عليه أن يحضر إلى البلدة لتسليمها، وأنه يتمنى وجود رجال البيت وولده حميد متى جاء، وأن ذلك المتصل لم يزد شيئًا سوى أنه يحمل أيضًا رسالة إليهم من "إبراهيم آغ مسعود". انتبهنا جميعًا حين ذكرت اسم "آغ

مسعود"، وجاءت ليلي مبعثرة الشتات من حجرتها تسأل:

- "من؟ من؟؟ آغ مسعود؟! كيف؟!".

حاولنا إيجاد الصلة بين السؤال عن عمي مصطفى، وعن "آغ مسعود"، والاستفسار من العمة ياسمين عن ذلك الشخص، ومن هو؟ ومن أين؟ لكنها أخبرتنا بأنه لم يزد عن ذلك شيئًا، وأنه يتعين علينا انتظاره في خلال الأيام القليلة القادمة. تشبثت ليلي بالعمة تستوثق منها الخبر، كأن كلامها أعطاها أملًا جديدًا بعد أسابيع فقدنا الأمل للأبد في العثور عليه، ربما يبشرها بأنه على قيد الحياة، ولما لم تشفها الإجابات، ظلت تردد شكرها للرب، ثم انفجرت في بكاء مرير.

- "لا يطفئ البكاء نار القلوب يا ولدي". قال أبي مرة.

- "أيمكن للنار أن تسكن قلوبنا يا أبي؟". سألت أبي.

* * *

مرت أيام جديدة، ولما لم يظهر هذا الضيف المرتقب، عادت ليلي لإحباطها الأول، حتى الفرحة الخجلى التي تسربت إلى البيت بعد مكالمة "علياء"، ومعرفتهم بقدومها القريب إلى البلدة، لم تشفع في طرد الحزن عنهم، وظلت عمتي تكرر طقس بخورها، وطلبت إليَّ أن أصحبها إلى شقة فاروق وأن أحمل مجمرة البخور. صعدنا، ودخلنا الشقة، فانشغلت سريعًا بطرد كائناتٍ لا أراها ولا يعرفها بالاسم غيرها، ولا أفهم كيف تؤمن إلى هذا الحد بكائناتها تلك التي يطردها بخورها؟! تركتها على حالها حين جاءت ليلي وفاروق إلينا، واستأذنتهم للنوم قليلًا، ودخلت الحجرة، ومددت جسدي في بحر الدخان الذي تسرب خارج الحجرة إلا قليله، وأخذتني رائحة البخور هناك، إلى حيث نشأت بـ"كيرونا القديمة" في الجبل. هي الأخرى كانت هناك، تنتظر، كأنها لم تغادر

منذ سنوات، تقف في استسلام تام لنتفات الثلج الذي بدا مبكرًا ذاك العام. كنتُ تعودت وقتها ممارسة طقس خاص من التمشية في جو المدينة القديمة، والتعرف على ملامح الحياة من خلال المرور بشوارعها المهجورة التي خلت بعد انتقال السكان إلى "كيرونا الجديدة". وجدتها تحمل كاميرا للتصوير الفوتوغرافي. ألقيت التحية عليها، وبدأت بعدها رحلتي نحو فقدها إلى الأبد، لتترك في قلبي نوطة كتلك التي تركتها "كيرونا القديمة" حين غادرناها منذ سنوات. من سمح لها أن تأتيني هنا في البلدة رغم تلك المسافات، وبعد كل ما كان؟! في لقائنا الأخير أخبرتني أنها لن تكمل دراستها هنا في السويد، وأنها ستضطر إلى استكمالها في هلسنكي؛ ففي النهاية لن تنسى أنها "خمسينية" رغم كل شيء، وراحت محاولتي عبثًا في الاحتفاظ بها معللًا لها بأن وجودها وحده يكفيني، لكنها ظلت تُصر:

- "تمنيت ولدًا منك يا نور، فيه من اسمك ووصفه".

كان البخور ورائحته يجذبها إلى مخيلتي بإصرار، وأنا مستسلم لطيفها تمامًا، ولا أجرؤ على التفكير في طرد هذا الطيف. كنتُ المخدَّرَ المسلوبَ يمشي في وادي الشوك وحده، يحمل آلام البشرية فوق كاهله في درب جبل كيرونا القديمة، وهي تُصر ألّا تغادرني إلا بصعوبة، حتى انتهيت إلى حالة ما بين اليقظة والنوم، ورأيت راعي النعاج الثلاث عبد العلام في أعلى قمة جبل كيرونا القديمة، ويهبط عند مدخل واحد من المناجم القديمة المهجورة، يزيل التراب عن فُتحة مدخل المنجم، يدخل إلى المنجم ويختفي، فتأتي نعاجه الثلاث تثغو أمام مدخل المنجم، ثم يخرج عبد العاطي الراعي يدفع أمامه عربة خشبية من عربات المناجم في القرن التاسع عشر، ومغطاة بملاءة بيضاء، يشير نحوي، فأتحرك مسلوب الإرادة نحوه. يطلب مني مساعدته في دفع العربة. صوت النعاج الثلاث يملأ صداه نفق فتحة مدخل المنجم. كنت أدفع العربة في صمت، ينشغل ذهني بحمولة تلك العربة، يحدثني حديثه العجيب دون أن يفتح فمه، وصوته يأتي واضحًا بنفس الجملة التي قالتها العمة أم حميد منذ أيام.

- "كل إنسان مكتوب له لقمة عيش؛ سيأكلها أينما تكون".

في مدخل المنجم، وحين صعدنا إلى الهواء الطلق، كانت حبات البَرَد تتساقط بهدوء فكست جانب الجبل كله. هبَّت طفرة من الهواء فأزاحت الملاءة عن العربة، فوجدت "آغ مسعود" وعمي "مصطفى" ممددين في العربة، وملابسهم غرقت بالدماء. حاولت الصراخ حين توقفت وأذهلتني المفاجأة، فأشار إليَّ بالصمت والصبر، وأن أتبعه. نادى نعاجه الثلاث، وربطها في مقدمة العربة كأنها الخيل. مدَّ يده في العربة بين الجثتين، وأعطاني حجرًا من قرميد، وقال لي بأني سأحتاجه يوم بناء كوخي، وأنه ينبغي لي بعد البناء بثلاثة أيام أن أنتظر لحظة تجليه حيث سينخلع السَّنا على قلبي، ثم شكرني، وانطلق يصعد الجبل بعربة المنجم التي تحمل الجثتين وتجرها نعاجه الثلاث، في مشهد يقترب من مشهد "بابا نويل" وعربته المشهورة التي تجرها حيوانات الرنة، وطفق عبد العلام يغني:

- "مورد دخل كرم.. قطف التمر.. مش عاجب.. بحتر جميع فكهته ع الأرض مش عاجب.. افرض صاحب الكرم راجل أهبل.. مهوش عاقل.. قال له مين اللي جابك أرضنا يا أهبل.. تخش بيت السُّبُعَة وتمشي فيه يا أهبل.. يا أهل البلد اسمعوا راجل عاقل مهوش أهبل".

ظلَّ صوته يتكرر بجملته الأخيرة في أذني حين امتدت يد فاروق لتوقظني.

- "علمتني بلدتي أن من إكرام الموتى دفنهم". قال أبي.
- "وهل يفيد الموتى تكريم أو تقريع يا أبي، ما داموا قد رحلوا؟!". سألتُ أبي.

* * *

كنت إلى جوار عمتي في حجرة الشباب حين سمعنا من ينادي باسم حميد، فأسرعت نحو الباب، فوجدت كهلًا أسمر البشرة، معممًا بنفس الطريقة التي رأيتها كثيرًا

في صور أبي وأمي حين زارا صعيد مصر منذ ربع قرن. ابتسم في أدب جليل، فبدت أسنانه الصفراء متآكلة، لكنها تخبر بالانكسار أكثر من أي حديث آخر، فعجبت في نفسي كيف تخبرنا الأسنان عن أصحابها دومًا، وكيف نقرأ تاريخ الشخوص من تلك الأسنان.

- "بيت المرحوم الأستاذ مصطفى مسعود؟". سألني وانتظر.
- "نعم، هو كذلك، تفضل". أجبته مبتسمًا.
- "أبلغهم يا ولدي بأن مسافرًا يطلب شربة ماء، ويحمل لهم أمانة". قالها، والتصق بالحائط.

دخلنا البيت، وبدأت طقوسهم في الترحيب بالضيف، حيث السؤال عن أحواله، وعن صحته، وتمنى الجميع للجميع دوام الصحة. جاءت عمتي "إشراق" تحمل صينية بها أكواب فارغة، وزجاجة ماء مثلجة، ثم وضعتها.

- "نورتنا يا أخويا، اتفضل، لن نشرب الشاي قبل الغداء، نورتنا".
- "البيت بنور أهله الطيبين يا حاجة". هزَّ رأسه وتابع:
- "ماء.. الماء أصل كل حياة، وحدهم العرب الأشراف من يفتتح ضيافته بالماء". عقب الضيف.

حين انتهينا من مراسم الترحيب به، بدأنا بسؤاله عن العمة "أم حميد"، فأخبرته عمتي "إشراق" بأنها ستصل حالًا، وعاودت عبارات الترحيب به.

- "أنت الحاجة إشراق، لابد". قال الضيف.

-"نعم، شرفتنا، وجهك كأني أعرفه!". ابتسمت عمتي في ريبة من سؤاله.

أخذ يعاود سؤالاته للتأكد من شخوصنا، ثم سألنا عن "علياء"، فنظرت عمتي نحوه بغرابة واحتدت في سؤالها:

- "من أنت؟ ومن أين تعرفنا؟ وما تلك الأمانة التي تحملها لنا يا أخي؟".

دخلت الخالة "أم حميد" إلى الحجرة، ومن بعدها "ليلي"، وقد ظهر عليهما توتر ما، أراد حميد أن يصرف الانتباه عنه، وسأله بهدوء:

- "خيرًا يا حاج".
- "أنا خدامكم أبو طالب، من سوهاج". قدم نفسه لأول مرة منذ دخوله البيت.
- "ألم نتقابل من قبل؟!" عادت تسأل عمتي.
- "في التأني السلامة يا حاجة". قالها باقتناع شديد.

وتابع يحكي عن لقائه مع "آغ مسعود" في معتقل الغربينيات، وكيف انتهى به الحال هنا حيث يجلس، ثم مدَّ يده داخل جيبه، وأخرج ورقة مطوية بعناية فائقة. حين لمحتها ليلي، أسرعت بخطفها من يده، وتصايحت، وهي تخرج من الحجرة:

- "هذا خط آغ مسعود". خطفت الورقة، وأسرعت إلى داخل البيت، وتبعها فاروق.

استطرد "أبو طالب" يحكي كيف تقابل مع آغ مسعود، وكيف عرف حكايته منه، وأنه من وصف له الطريق إلى البلدة، وحكى الكثير له مما علمه من ليلي عن البيت وعن رجالاته الذين رحلوا، وعن حكاياتهم.

- "قبل أن يختفي بيومين سلمني الرسالة، وذكر لي الاسم كاملًا، ويا ليته ما ذكره".. أطرق أسفًا.

فهمنا من كلامه ما انتهى إليه أمر آغ مسعود، وكيف مات إثر التعذيب المستمر له قبل زيارتنا لمعتقل الغربينيات بيوم واحد؛ فقد أصروا على اتهامه بالانتماء إلى جهاديِّي قاعدة بلاد المغرب، وكيف فشل في إقناعهم بحقيقة أمره.

- "أراحه الله من عذابه، فلم يطل وقته". قال أبو طالب.

كأن جملته طيرت فوقنا الأبابيل، فثقُل جو الغرفة فجأة، وصكت العمة "أم حميد"

وجهها، بينما ظلت عمتي إشراق تجتهد أن تخفي دموعها أسفل عدسات نظارتها، وتمتمت:

- "يا حبيبتي يا بنتي.. ربنا يصبرك يا ليلي".

كنت كمن يتابع مسلسلًا قديمًا من تلك المسلسلات التي حفظها والدي في جهاز الحاسوب الخاص به حين كان يعلمنا اللهجة المصرية، فقررت المتابعة دون التدخل، وبدوتُ كمن ينفصل عنهم وعما يدور في الغرفة، فقط أشاهد وأسمع.

- "وما علاقة ذلك بوالدي يا حاج أبو طالب؟!". سأله حميد بهدوء متكلف.

كفكف دمعتين تفلتتا منه حين كان يحكي عن علاقته وحكاياته مع آغ مسعود في معتقل الغربينيات، ثم مدَّ يده نحو حقيبته التي وضعها بين قدميه، وبتأنٍّ فتحها، ثم أخرج منها لفافة كبيرة من القماش، كانت قد طويت بعناية، وحين أخرجها، أطلقت رائحة عطر رخيص في الغرفة كلها، جعلت عمتي، وأم حميد يندهشان، بينما اكتفيت مثل حميد بالمراقبة والانتظار.

- "ما هذا يا حاج؟". سأله حميد.

جثا على ركبتيه، ووضع لفافة القماش الأبيض المعطر على كفيه، وتقدم على ركبته حيث جلس حميد، ثم طأطأ رأسه وقال بصعوبة:

- "هذا كفني.. أنا يا ولدي من قتل مصطفى مسعود في الإسكندرية".

صرخت عمتي، واتسعت حدقتا عيني العمة ياسمين، وبكت، بينما تجمَّد حميد بلا حركة.

عمي مصطفى الذي مرَّ على موته قرابة عشرين عامًا، كنا نظن أن تلك السنوات قد أنست عمتي وأم حميد رحيله، لكن صراخ عمتي المستمر أخبرنا بالعكس، وهجمت عليه، وظلت تلطمه بكفيها، وتكرر في صراخ:

- "أنت..أنت..أنت!!".

ظلَّ أبو طالب في مكانه، يستقبل لطمات عمتي على وجهه بلا حركة، واستسلم لها تمامًا، واختفى في بحر دموعه الذي تفجر، متحولًا إلى ما يشبه الأزيز المتقطع.

- "سامحوني.. اقتلوني.. افعلوا ما شئتم يا آل الطيبين، افعلوا ما شئتم". قالها بشجاعة واستسلام.

كان صراخ عمتي وحده كفيلًا بأن يوقظ الموتى في قبورهم، فجاء عمي المسيو ومحسن الديك، وعمي "الحاج بركة" من خارج البيت، وعادت ليلي وفاروق من الداخل. عمتي مستمرة في لطمها وجه أبي طالب، والصراخ، حتى سيطر عليها عمي المسيو بصعوبة.

- "اصمتي يا إشراق.. اصمتي.. ماذا يحدث؟؟ من هذا الرجل؟!". سأل عمي المسيو.

أخذ محسن الديك وفاروق عمتي إشراق ومعهما العمة "أم حميد" إلى خارج الغرفة، امتثالًا لأوامر عمي المسيو، بينما ظل حميد على حاله بلا حراك، وبدأ سيلُ الأسئلة من المسيو، ولم أتبين أو أفهم من الحديث سوى كلمات الاعتذار والأسف والندم التي ظل يكررها أبو طالب وسط نحيبه المتقطع، وهو على حاله جاثيًا على ركبتيه وباسطًا ذراعيه تحملان ما أسماه "الكفن"، ثم مدَّ يده إلى حقيبته، وأخرج كيسًا من النايلون الشفاف بداخله عملات ورقية، بعدها أخرج مسدسًا، ووضعهما جانب ما أسماه "الكفن".

- "هذا كفني ومبلغ الدِّيَة، وهذا السلاح للقصاص إن طلبتموه". قالها وأطرق في الأرض يبكي.
- "انهض يا حاج.. انهض". طلب عمي مسيو من أبي طالب.

عاد يحكي أبو طالب الحكاية من جديد، وكيف فرَّ عائدًا إلى بلده بعد قتله عمي مصطفى، وحكى عن عيشه طريدًا بعدما خاف انكشاف أمره.

- "لابد من يوم ترد فيه المظالم يا محترمين". قال أبو طالب.

ثم حكى لنا عن سجنه في قضية في العام ٢٠٢٢ بعد اتهامه والبعض، بتدبير سرقة مخزن الآثار بالأقصر في الجنوب. وهكذا قذفت به الأيام إلى سجن الغربينيات حتى قابل "آغ مسعود". ثم تمنى عليهم فقط أن يسامحوه، وأنه يقبل بحكمهم ما بين الدية والقصاص، حتى يرحل بسلام، وينتظر الموت في راحة.

- "الغضب يملأ القلب بالظلام يا ولدي فلا يرى". قال أبي.
- "ما دام نور الرب في قلوب البشر، فكيف لا يهزم النور الظلام يا أبي؟!". سألت أبي.

* * *

حين غادرنا كيرونا القديمة نحو المدينة الجديدة التي ابتعدت عن خطوط التنقيب وخريطة المناجم، ظلت والدتي تبكي أيامها هناك. في الليل حين نامت اقترب مني والدي وسألني أن نخرج فهو في حاجة للهواء، خرجنا، وظل طوال الطريق صامتًا. يومها أخذ يدخن بشراهة، وحين سألته عن سِرِّ عودته للتدخين، علل الأمر:

- "مجرد شيء أنفس فيه عن ضيقي".

كان صمتنا أكثر من كلامنا، وانتهينا دون أن ندري إلى سفح الجبل، وكأن بوصلتنا في دواخلنا كانت تقود خطانا نحو "كيرونا القديمة". طلب إليَّ أن نستمر في التمشية حتى نصل إلى بيتنا القديم. كانت شوارع الحي خاوية على عروشها، لا حياة فيها. اقتربنا من بيتنا الغارق في الصمت مثل بقية المدينة القديمة التي باتت ليلتها في حراسة معدات الهدم والإزالة. تجمد والدي أمام بيتنا، ونظر نحو مدخل حديقته الأمامية. ابتسم في انكسار، ثم قال:

- "هذا البيت قضيت فيه أروع قصة حب في عمري". ابتسم، ثم طلب مني المتابعة.

كنا كمن يودع الحياة في هذه المدينة الخاوية، وفي قرارتنا نعرف أنها ربما تكون المرة

الأخيرة التي تحتفظ ذاكرتنا بصورة عن المكان للأبد. ظلّ طوال الطريق يحدثني عن ارتباطه بالمكان، وفلسف ذلك بنظريتهم عن كونهم أولاد الصيادين مثل الأسماك، متى خرجوا من الماء ماتوا. تركني واتجه نحو حديقة البيت، ثم انحنى وقبض حفنة من تراب الحديقة، وأخرج كيسًا من جيبه، وضع حفنة التراب فيه، ثم أغلقه بعناية، ووضعه في جيبه جوار قلبه.

- "والدتك صارت مثلنا، ستموت؛ فهذا البيت كل مائها".

غلبنا صمت المكان مرة جديدة، فاستسلمنا له، ولم أعلق حين أخبرني بمرض والدتي، وكيف اجتهدا لإخفاء الأمر عني وليلي، ففضلت الصمت.

- "الإنسان بنيان الرب يا ولدي، ملعون من هدمه". قال أبي.

- "وكف يسمح الرب للبشر أن يهدموا بنيانه؟!". سألت أبي.

* * *

سألت ذات يوم حين عبرنا باتجاه الغرب نحو فنلندا، أن يحدثني عن أصل الحكاية، وكيف بدأ الجد مسعود علاقته بها؟ ساعتها كان نفير الباخرة ينطلق بقوة، كأن الباخرة تنتعش بمناخ أغسطس الرائع بالمنطقة. ابتسم متحركًا نحو السور الحديدي. طلب سيجارة، ثم أشعلها. حاولت تذكيره بأن قانون السفينة يمنع التدخين طوال ساعات الرحلة، فأخبرني بأن البشر وضعوا القوانين، وأنه يتعين على أحدهم أن يخترقها، ثم ابتسم وأخذ يهز رأسه مع نفثه للدخان الأول من سيجارته، زفر بصوت مسموع ومخلوط بالألم، وبلا مقدمات تندر بأنه من علّم عمي مصطفى التدخين حين كانا صغارًا في البلدة. أخذته نوبة من السُّعال، فحاولت الاقتراب منه للاطمئنان عليه، لكنه أشار بنصره نحوي آمرًا أن أظلّ في مكاني. امتثلت لإشارته، وفضلت ألّا أراقبه حتى ينتهي من نوبة سُعاله تلك.

- "هذا لأني علمت مصطفى التدخين، ثم أقلعت عنه وتركته، عمك يعاقبني". قال بألم حقيقي.

ترحم على الراحلين من العائلة، وعاد يتعجب من كونه مازال على قيد الحياة، وبدأ يتعجب:

- "عمك حامد يكبرني بعامين، وعمك مصطفى يصغرني بعامين، فكيف أخطأني الموت؟!".

رحت أضحك حين نظرت نحوه، فأنا أعلم انتشاء والدي؛ فقد رأيته مرتين يدخن تلك الحشيشة الهولندية من قبل. يومها حين أرادت منه "ليليْ" ترك البيت في أول عام لنا بكيرونا الجديدة، وحوارهما الذي انتهى بصراخه فيها، وخروجها مسرعة، وغيابها ليومين عن البيت. رأيته يومها يدخن الحشيشة الهولندي، ولا أعرف كيف حصل عليها، وحين خفت شكوى الجيران منه ليلًا حين خرج إلى المرج أمام البيت، ظل يصرخ حتى الإغماء:

- "أنت وأختك مسلمان، أتسمعني!! أختك مسلمة، مسلمة". قالها وأُغشي عليه.

كنت أحبه في هذا المزاج المتباعد من الانتشاء، وحين يبتسم ويفلسف الأمور بمنطق بسيط ومعقد للغاية. أجمل ما فيه هو تناقضه ذاك ما بين البساطة والتعقيد. تحركنا بجوار السور الحديدي حتى انتهينا إلى السطح المنبسط. تخيرنا مقعدين ينظران على البحر، وجلسنا نكمل حديثنا عن جدي مسعود وتلك التي تزوجها من غير البشر، ممن يحبون تسميتهم في البلدة "عُمار دشيمة". في البداية ظننت الاسم لقبًا ما يطلقونه لتميز مجموعة في بلدتهم، لكن عجبي زاد حين عرفت أنهم يعنون بذلك الجنَّ الذين يظنونهم يسكنون "كوم دشيمة" قرب حرش البحيرة إلى الأبد. ساعتها طلبت منه أن يمرر لي ما تبقى من سيجارته الثانية.

- "والقانون يا أوربي؟! هل تخترقه؟!". قلتها وضحكنا بقوة.

اقترحت تحركنا نحو السور مرة أخري، لعل الهواء ينعشنا في هذا المساء الرائع، لكنه أصرَّ على البقاء في مكاننا، وجعل يهمس كأن العالم يتلصص عليه، وأنا الآخر، رحت أضبط نفسي منصتًا في حذر غير مبرر، وفجأة نظر نحوي وهمس:

- "هكذا تزوجها جدك مسعود، وأخذ عليها عهد الحماية هناك، ومن بعدها جدتك أخذته منها في حجرتها هناك".

- "أي عهد حماية الذي تقصد؟". همست إليه.

- "ولماذا تهمس؟". قالها وجعل يشخر واحمرت عيناه.

لفت ضحكنا انتباه عاشقين كانا يتمتعان بنسيم البحر في هذا المساء الجميل، ثم أطلق العنان للسانه يتحدث عن حبه لوالدتي، ولقائهما الأول هناك في مصر، وظل يتابع حديثه ويكرر كيف أفلح في خطف قلبها عبر سحر الشرق الذي لم أره مطلقًا؛ فأنا أعرف القصة جيدًا من جدتي، وكيف وجدت أبي متجمدًا في أعياد الميلاد، عرفت أنه مصري رفضت الحكومة السويدية طلب لجوئه السياسي، ورقت لحاله، وأدخلته بيتها، فالليلة كانت عيد الميلاد، فكيف تمجد الرب في ليلتها وهذا الشبح يتجمد في الخارج.

- "في بلدتنا يعللون: النساء خلقن من ضلع أعوج؛ لذلك هُن ضعيفات". قال أبي.

- "وهل لقوة الرجال في بلادكم أي فائدة سوى قهر هذا الضعف؟!". سألت أبي.

* * *

في المساء الرابع لزيارة الصعيدي "أبي طالب"، هاتفتنا علياء وأخبرتنا أنها في مطار

القاهرة، وطلبت من عمتي ألا تنام قبل أن تُعد العشاء لها، وقرر الجميع انتظارها في حجرة الشباب. اتصلت عمتي إشراق بالعمة ياسمين تخبرها بأن علياء بمصر، وأنها في طريقها نحو البلدة، لكنها قبل أن تنتهي من طلب الرقم، سمعنا صوت العمة ياسمين تنادي:

- "يا حاجة إشراق". طرقت الباب، ثم دخلت.

عاجلتها عمتي بخبر علياء، فابتسمت، وأخبرتنا بأنها تعلم منذ تحركت من شقتها هناك نحو المطار في "شارلوت"، وأنها تعيَّن عليها تغيير رحلتها في شارلوت لتلحق بطائرة الليلة.

- "ابنتك يا ست هانم!! هكذا تحب الجنون والمفاجآت". قالت عمتي بابتسام إلى العمة.

- "الجنون منكم يا آل مسعود، أنا نفسي تعلمته من المرحوم مصطفى". قالت العمة بحب.

أمضينا الليلة في اجترار ذكريات البيت، ومرت ساعتان بعدها حضر "الحاج بركة"، والعم صديق ومحسن الديك، وفي إثرهما العم ماجد فيكس، وضياء الدين الذي بدا بأن لحيته قد طالت بعض الشيء، وبدا صامتًا عكس مرتنا الأولى التي التقيت فيها معه، يوم قابلت الشيخ خيري في بيت العم ماجد فيكس، ومناقضًا لجلستنا الأخيرة مع عمي صديق في بيته. أخذ العم صديق يتحدث موجهًا كلامه نحو عمتي إشراق، وعن هذا الصعيدي الذي قرر ألّا يعود إلى بلده قبل أن ينال السماح من الجميع، وأن علياء حين علمت من والدتها بقدومه قررت الحضور، حتى تقابله بنفسها، وتخبره بأنها تسامحه، وكيف أن الرجل لا يغادر مقام المهدي إلا للصلاة، وأنه زار مقام السنجاري الكبير، وبكى وتمرغ هناك يطلب منه السماح.

- "لقد رأيته جار قبر جدنا صابر يبكي". قال الحاج بركة.

- "المسامح كريم يا حاجة". قالت العمة ياسمين.

- "حتى أنت يا أم حميد؟!!". سألت في اندهاش وعصبية.

حاول الجميع اقناعها، باستثناء ليلي التي ظلت صامته وشاردة، والعم ضياء الدين الذي أخبرها بأن الجميع يقدر حزنها ولا ينكره، ولم يزد على ذلك، بينما واصل الجميع محاولاته لإقناعها بأن الرجل قد جاء يؤدي دينه ومستعد لتحمل عقوبته، وندم إلى الله، وأنه يريد أن يقدم الدية حتى يعود إلى بلدته في سوهاج، ليموت في سلام، وأن البلدة كلها شاهدته يعترف للشيخ "عرفات" بأنه يحمل كفنه الأبيض حتى يقدمه إليها، ويتوسل إليه ليتوسط له عندها. أصرت عمتي إشراق على موقفها وزادت عصبيتها.

- "قلت لكم هي أختي وأعرفها، لن تقبل، ولن تنسى". قال الحاج بركة.

- "لأجل ليلي يا عمتي، يكفي أنه حمل رسالة آغ مسعود إليَّ، وإلى ولده الذي مات ويحسبه داخلي يكبر". وضعت كفها على بطنها ثم بكت.

هبت العمة واقفة، واندفعت نحو الباب، تذكرهم بأنها قد تسامح من يتعدى عليها، لكنها لا تملك أن تسامح من تعدى على إخوتها والراحلين منهم بصفة خاصة، ثم أخبرتهم بأنها ستنتظر في حجرة الجدة، ولن تنتظر معنا في حجرة الشباب.

- "كل شيء يهرم ويموت في بلدتنا إلا الحزن والنزاع بيننا". قال أبي.

- "ألا يموت حزنكم و نزاعكم هناك؟! ألِهذا الحد يملؤكم؟!". سألت أبي.

* * *

رن جرس هاتف حميد، فأسرع يجيب بأنها علياء، واستأذن للخروج للرد عليها. جلست وليلي وفاروق، بينما غادر عمي المسيو والديك محسن، والعم ماجد فيكس

وضياء الدين، ووعد الجميع بالعودة في الغد لرؤية علياء. دخلت العمة "ياسمين" لتنام في حجرة الجدة، وطلبت إلينا أن نوقظها حال وصول علياء. كلهم هُنا يعرف سر هجرتها إلى الولايات المتحدة، وكيف تزوجت هناك، وكيف انتهى الأمر بها وحيدة، لكني فيما مضى عرفت في جلسة مع فاروق، أن أمجد الجني يحبها، لكنه لم يُصرِّح لها بذلك قط، وأن زواجه بأخرى لن يكون.

- "علياء مهما كانت بعيدة، فحُبها يملأ كل قلبه، ولا مكان لامرأة أخرى". حكي عنه فاروق.

عاد حميد، وأخبرنا بأن علياء تخطت كوبري السكة الحديدية وفي طريقها نحو القناطر، وأن معها ضيفة، وصديقة تتمنى أن نستقبلها معها، وأن هذه الضيفة هي من أخَّرها في الحقيقة. جلسنا نتحدث عن موقف عمتي إشراق ونحاول أن نتفهم سر غضبها الشديد بعد كل هذه السنوات. جاءت ليلي لتجلس معنا، وأخبرتنا بأن النوم يجافيها، وبدت عيناها كأنهما جمرتان. كلنا نعرف أنها لا تتوقف عن البكاء منذ عرفنا الخبر بموت آغ مسعود، ودفنه في مدافن بلدة الغربينيات، حيث حدد لنا "أبو طالب" الصعيدي، مكان القبر.

- "كنت من قام بدفنه ليلًا في مقبرة الغربينيات". أخبرنا أبو طالب سالفًا.

دق فاروق باب البيت ودخل مباشرة حيث كنا نجلس، وأخبرنا بقرب قدوم علياء، وبضيفها الأمريكي، فابتسمتُ، ونطقتُ بعربيتي الركيكة:

- "أهلا وسهلًا بيهم". ابتسمت، فابتسمنا حبًا لها.

بعدها بدقائق دق جرس الباب، وسمعنا صوت أمجد الجني ينادي:

- "يا حميد، يا فاروق".

فأسرع نحو الباب فاروق يفتحه. دخل أمجد، وقبل أن يلقي السلام بادرنا بالسؤال

عن علياء، نظر نحوي فاروق وكأنه يوثق لحكايته لي عن حب أمجد لعلياء، وبادره حميد بالرد:

- "قل مساء الخير أولًا يا جني، اطمئن لعلها الآن تدخل العاصمة السرية".

مرت دقائق، ثم رن هاتف حميد مرة أخرى، فأسرع:

- "الفنانة وصلت يا شباب، هيا نحمل عنها الحقائب". طلب حميد.

انطلق أمجد الجنْي قبل الجميع، فناداه حميد يخبره بأن سيارتها ستتوقف عند المدرسة الابتدائية في الشارع الجنوبي. عند السيارة فوجئنا بعمتي إشراق، العمة أم حميد، ومحسن الديك في إثرنا، كادت عمتي أن تقع حين حاولت الإسراع لتصل إلى علياء التي تعلقت برقبة حميد، فأسرعتْ نحوها وفاروق. بقينا في الشارع أمام السيارة لبضع دقائق، ولم ننتبه إلى ضيفها الذي أشارت إليه بأنه مفاجأتها. كانت شابة في العشرين من عمرها تقريبًا، عيناها الزرقاء تلمعان في ضوء الشارع الخافت، كما يلمع شعرها الذهبي الطويل المسدول على كتفيها.

- "ريري.. مممم.... مارية مصطفى يا حاجة إشراق". قالتها وأشارت نحوها.

- "من؟!! مارية بنت مصطفى أخويا؟!! أختك؟!". ثم وقعت مغشيًّا عليها.

حين أفاقت في البيت، كنا حولها جمعاء في حجرة الجدة، فعادت تسأل:

- "مارية بنت مصطفى أخويا؟!".

ثم فتحت لها ذراعيها، وانهمرت الدموع.

- "ماما شروق.. تمنيت المجيء منذ زمن طويل إليكِ". قالت بعربية فصيحة وبجيم معطشة مثل أهل البلدة.

بعدها التفتت نحو العمة ياسمين، وطلبت منها أن تأخذها في حضنها، فهكذا وعدت والدتها.

- "تخبرك بأنها تحبك، وأنك صديقتها وأختها للأبد". قالت بحرج شديد.

كنا نعرف قصة زواج عمي مصطفى قبل وفاته بثلاث سنوات، وكيف فجرت هذه الزيجة حربه مع أهل زوجه الأخرى، وحاولوا إرغامه على تطليقها، حتى إن أعمامي ظنوا في لحظة موته، أنه ربما يكون حادثًا مدبرًا من عائلتها التي ترفض الزيجة، ولم تعترف بها، حتى بعد نجاحهم في الفصل بينهما وإجباره على طلاقها، وسفرها خارج مصر، ظلَّ يحدثها ويتكلم معها لوجود ابنته مارية معها في نيويورك حيث أبعدوهما للأبد عنه. جلسنا نرحب بها ونتعرف إليها، وحين لامست يدي، كأنها لامست قلبي الذي مات حين تركته "سارة" أمام الجامعة في "استكهولم" ممددًا ومدفونًا في ثلج السويد وبردها، فبدأ ينبض بدفء ملمسها، وأجزم أني ارتعشت في داخلي، حتى لم أنتبه أني أُمسك يدها وأهزها برفق، ارتبكت، ولفت ارتباكي المفاجئ انتباه الجميع، فارتبكت مثلي، فضحكت علياء.

- "أكتر إنسانة شفتها بتتكسف، إياكم أن تصدقوا بأنها أمريكية".

ضحكنا حين كُنا نتناول الطعام الذي أعدته العمة ياسمين بمساعدة حميد وفاروق والديك محسن، واستمعنا إلى حكايات علياء، ووحده أمجد الجني لم يكن معنا، وإنما هناك أمام علياء، يحاول القبض على أنفاسها وحروف كلماتها، كمن يدخر الأخشاب في جبال الشمال. حين انتهينا من الطعام، ومع رشفات الشاي، وقفت العمة إشراق تستأذن في الذهاب إلى بيتها لتنام، ثم أخبرت محسن الديك بأن يذهب ويحضر لها الصعيدي "أبا طالب".

- "غدًا بعد صلاة المغرب، سأنتظره، لا مفرَّ من المكتوب". قالت باستسلام.

ثم راحت تؤكد عليه أن يخبر والده والجميع بالحضور. تعجبنا من طلبها. وتابعنا الحكي حتى الصباح، وكلنا يؤكد أننا أولاد مسعود الشحات، هؤلاء الذين لا ينامون قبل انبلاج نور الصباح من غبشة الفجر.

- "تعلمنا أن نتزوج للسكن، فنحن قوم يتزوجون بدين الله لا بقلوبهم". قال أبي.

- "والحب يا أبي أليس من أصل الدين؟! ألا يبني البيوت في بلدكم؟!". سألت أبي.

الفصل الثاني عشر

نور

وهو فايت عليها يوم.. وشابكها..

لما نظرها وقف محتار.. وشابكها..

طرحت عليه غزلها في الحال وشابكها..

ملقاش معاه وقت يبعد عنها ولا يوم..

زاد انشغاله وزاد حب الولد اليوم...

علشان نصيبه وبهدلة الأصيل ليها يوم..

من أين يأتيني هذا الصوت القديم الذي أعرفه؟! وكيف يعرف حاجتي هنا؟! هو صوتي! لا.. لا هو صوت أبي، لا.. لا.. صوت أمي.. صوت بهلة.. صوت صابر وحسن وحامد، لا.. لا هو صوتي أنا، الصوت يحمل طعم الخلاص يحدثني، هو صوت نور.. ليس صوته.. من أنت يا صاحب الصوت المحبب؟! ومَن أين تأتي؟! وأين هؤلاء الواجمون في نورهم وابتسامهم، أين رحلوا؟! هذا الصوت أعرفه، هذا الصوت سمعته روحك يا إشراق منذ القدم. نعم، هو.. هو صوته.. نعم.. هو صوته الذي بعضه كل الأصوات، نعم هو من تجلى على صوت الصالحين حين تنادوا على صابر الأول في يوم النور، نعم صوته يحادثني الآن، يناديني أنا آخر من حملت بعض النور في جيلي في هذا البيت. يطالبني أن أنصت! سأنصت، ولتتحدث ولتتكلم بما تريد، ولتسحرني كما سحرت العالمين لأجيال وقرون.

قبيل وفاة والدتي، طلبت أن أحضر إليها في المستشفى في سرعة. حين وصلت كانت منزعجة للغاية وعلى غير عادتها من السكون والرضا، طلبت إلى جدتي أن تتركنا، ثم سألتني بصدق إن كنتُ أثق فيها أم لا. ابتسمت لها وربت على يدها، ثم انحنيت أحتضنها، فأمسكت خصلة من شعري، وتمسكت بها كأنها تريد اقتلاعها، حتى رفعت صوتي قليلًا أنبهها، فاعتذرتْ، وأخذت تحكي لي عن حلم راودها، وبين الحين والحين تقطع كلامها.

- "لم يكن حلمًا، كانت حقيقة رأيتها، وتحدثتْ إليَّ، وأخبرتني عن الجبل هناك حيث تكون النهاية يا نور، هناك حيث النور تجده متى تظلم الدنيا". قالت وبكت.

حاولت تهدئتها، بينما أخذت تحكي عن امرأة عربية في ثوب عربي عجيب، زارتها، وحدثتها عن أبي، وأنها يتعين عليها أن تعيد إليه ما وهبها من النور، ليرى طريقه حيث يعود.

- "أشكركِ أنكِ حفظت النور الذي منحك يا غريبة عنا، لكنه لولدك يا جميلة الثلج". قالت والدتي أن العربية شكرتها.

ظلت تحكي والدتي، وتذكر اسم الجد مسعود لأكثر من مرة، واسم أبي وأعمامي، وتعود لتصف تلك الزائرة التي دخلت عليها، وتؤكد بأنه لم يكن حلمًا. بعدها بأيام رحلت والدتي، ودفنّاها في مقبرة كيرونا القديمة كما طلبت سابقًا، وبدأت تعاود أبي نوبات المرض، وزادت فترات احتجازه بالمستشفى النفسي، وبدأ جسده بالذبول.

- "يُقبر المرء يا ولدي في بقعةِ التراب التي خُلق منها". قال أبي مرة حين زرته في المستشفى.

- "ألم تقل إن الرب خلق من الماء كل الأحياء يا أبي؟!". سألت أبي.

حين اجتمعنا كما أمرت العمة إشراق، وانتظرنا قدوم "أبي طالب"، كان العم ماجد فيكس قد حضر بصحبة العم ضياء الدين؛ فقد أرسلتْ في طلبهما عمتي إشراق، كذلك حضر أمجد الجني، وعمي "الحاج بركة"، وطلبت من حميد أن يحضر والدته وعلياء ومارية، وأن أطلب من ليلي الحضور. حين اجتمعنا سألتْ عن المسيو صديق، فأخبرها محسن الديك بأنه سيحضر مع "الصعيدي".

- "حسنًا أنتم أحبته وأصحابه، فهل تقبلون هذا الصعيدي؟ وهل تسامحون في دم مصطفى؟" سألتنا عمتي.

طلبت منا أن نجيب الواحد تلو الآخر، حتى إنها حين طلبت من مارية رأيها، ارتبكت.

- "أخبرتني والدتي يا ماما إشراق أن أبي تمنى أن تسود المحبة الجميع حين عاد إلى البلدة". قالت مارية.

- "نعم يا عمتي، نحن أولاده الثلاثة، ومعنا أمي هنا، وأم مارية هناك، كُلنا نسامحه". قالت علياء.

- "وأنت يا بركة.. هل تسامح قاتل أخيك يا حاج؟". سألته عمتي.

- "يكفي قلبي آلامه، أسامحه لأجل أن يسامحني الله". قالها بانكسار.

- "وأصحابه، ماجد وضياءالدين؟". سألت عمتي.

- "لا رأي لنا بعد رأيكم يا حاجة". قال العم ضياء الدين.

- "أظن مصطفى نفسه سامحه يا إشراق". قال العم ماجد فيكس.

- "إذن فاسمعوني جيدًا". قالت عمتي آمرة، فأنصتنا.

تحدثت وقالت ما صكَّ ألسن الحضور عن الكلام، وتركتنا نموج في دهشتنا.

- "كيف يا حاجة؟! كيف يا ماما؟!". سألها فاروق.

- "ما سمعتم، هذا شرطي لقبول كفنه". قالتها بحزم.

- "تتزوجينه؟! في مثل عُمرك هذا؟!". صاح بها عمي بركة.

- "هذا شرطي، فاسألوه!". قالت وانصرفت إلى حجرة الجدة، وألقت بنا من جديد في موج دهشتنا من شرطها.

- "حقها.. حقها.. أنا متأكد بأن لها أسبابها الوجيهة، فأنا أعرفها أكثر منكم". قال أمجد الجني.

انتبهت علياء إلى جملته وكأنها راقتها، وتحدثت عنها، فوافقت على كلامه، وتتابع نقاشهم، وفي غمرة حديثنا، عادت تقف في مدخل غرفة الشباب لتقول:

- "ومهري هو دية أخي مصطفى، وأن يدخل بي هُنا في حجرة أمي". قالتها ثم انصرفت من جديد دون أن تنتظر منا إجابة.

كُلنا هنا يعرف عنها أنها متى قررت قرارًا، فإنها ستنفذه مهما كان، ويبدو أنها ماضية في تنفيذه.

هكذا استسلموا لما قررت، وقرروا بدورهم تكليف عمي الحاج بركة بالحديث نيابة عنها. حين حضر عمي المسيو صديق وأبو طالب الصعيدي، جاء معهما الأستاذ "عدنان" صديق العائلة، فرحبنا بهم، وبدأ الأستاذ "عدنان" في الحديث، وأخبرهم بأن "أبا طالب" ينحدر من قريتهم الأم في صعيد مصر بسوهاج، وأنه بمثابة ولد العمّ، وهو ما جعله يُكرر:

- "الدنيا صغيرة جدًّا. ما أضيقها مهما ظنناها واسعة!". كررها عدنان في حديثه.

حين أخبره عمي "الحاج بركة" بأن العائلة تقبل الصلح معه، وترحب به، تهلل وجه

"أبي طالب"، ثم سأله في تواضع ووقار:

- "وأين الحاجة؟ كبيرة البيت.. الحاجة إشراق؟".

هُنا رآها عمي بركة فرصة مناسبة لإبلاغه بشروط عمتي شروق لقبوله، وللحظة خيم صمت مطبق، وللحقيقة لا أعرف وصفًا مناسبًا لما كان عليه وجه "أبي طالب" لحظتها.

- "الحاجة؟! بنت الأصول؟!". تعجب أبو طالب.

- "هكذا اشترطت يا أخي". قال عمي "الحاج بركة".

هبَّ أبو طالب، وطلب من الأستاذ عدنان أن يأتي معه ليأتي بالحقيبة التي يحملها، وتركها في المسجد؛ ففيها يحمل مبلغ الدية، بعدما باع أرضه هناك في بلده بالصعيد، وقرر أن يُحضر له سيارة، ليذهبا إلى الإسكندرية لشراء ما يلزم للعروس.

- "أتترك حقيبتك بها آلاف الجنيهات بالمسجد يا رجل؟!" قالها عمي صديق بسخرية.

- "موافق يا أبا طالب؟!". سأله عمي "الحاج بركة".

- هنا جلس على ركبته، وطلب بتوسل ألا يحرموه هذا الشرف.

- "السماح يا أصحاب النور، السماح يا بنت الأطهار". كررها أبو طالب حين دخلت عمتي إلى الحجرة تحمل كوبًا واحدًا للشاي المسعودي.

كأن عمتي في لحظات عادت بالعمر إلى الوراء سنوات، وتركتنا في ذهول وعجب، بين الابتسام والدهشة مما يحدث، وأعرف أني وحدي من رأى طيف "بهلة" يدخل معها ويختلط بها.

- "خلقت المرأة من ضلع أعوج، لكن الرجال يحبون هذا فيها، ويفتتون بها". قال أبي.

- "وكيف حال الرجال إن كانت من ضلع سوي يا أبي؟!". سألت أبي

* * *

في اليوم التالي، طلب "أبو طالب" أن يجلس مع "ليلي" وحدهما، بناء على رغبة "آغ مسعود". حين حاول حميد الاعتراض نهرته عمتنا إشراق بحزم، وطمأنته "ليلي" أنها تحتاج أن تكون وحيدة حين تسمع كلمات "آغ مسعود". لحظتها ذكرنا محسن الديك بأننا على موعد للقاء العم ماجد فيكس، وأن العم ضياء الدين سينتظرنا هناك. لم نتوانَ، وتحرك أربعتنا تجاه بيت العم ماجد فيكس. في الطريق عبرنا على مجمع المدارس بالمدرسة، وبدأت أسمع صوته في أذني، صوت أبي الذي أميزه تمامًا، لكنه يناديني في أذني باسم عمي مصطفى، ساعتها لا أعرف هل أنا في الواقع أم أحلم، وأنه بعد قليل ستناديني عمتي إشراق لأصحو. رأيتني كأني في الصف السابع هنا في هذه المدرسة، ورأيت إلى جواري أبي تلميذًا في صفه التاسع، والمدرسة تموج بالتلاميذ، وهو يدفعني نحوها، تلميذة صغيرة الحجم، خمرية، عيناها شديدتا السواد، حين تبتسم كان خدها يميل إلى اليسار في جمال آثر، تقف وزميلة لها ممتلئة الجسد مقارنة مع التلاميذ التي تتصايح من حولنا. تقدم أبي نحوهما، وأنا تسمرت في مكاني، أرقبه يتقدم وهو يتمتم:

- "لا أعرف لم يلزم كل فتاة جميلة، أخرى قبيحة تلازمها كظلها وتدعي صداقتها".

قال أبي وابتعد.

جسد أبي يكبرني قليلًا، وهو ما حجب جسدها الضئيل عني. لحظتها لم أرَ سوى تلك البدينة تضع يدها في وسطها كعروس المولد النبوي التي حكى أبي عنها لنا يومًا في كيرونا القديمة. أخذت تلك البدينة تتمايل يَمنة ويَسرة كسفينة شحن تحاذر حين تدخل شعبًا مرجانيًا، بعدها التفت والدي نحوي، وواجه الشمس، فأغمض عينه اليمنى قليلًا ومطَّ رقبته تجاهي، لحظتها رأيت وجهها الجميل يفوح بحمرة لذيذة، فارتبكت، وزاد توتري حين رأيته يخرج ورقة من جيبه ويسلمها لها في سرعة لافتة، ثم يغمز بعينه نحوي،

ويتراجع خطوتين، ثم يواجهني بحركته المميزة، حيث يظل يرفع حاجبيه في سرعةٍ لثلاث أو أربع مرات ويبتسم.

- "أي خدمة يا معلم مصطفى، الجواب معاها". أخبرني أبي بنشوة وانتصار.

- "حسن، أنا..أنا ولدك". أخبرته مندهشًا.

- "طبعًا، منذ اللحظة أنت ابني يا مصطفى". قال أبي.

وفي اللحظة التي مدَّ يده فيها إلى يدي كانت يد محسن الديك تمرر لي سيجارة ضخمة، تناولتها باستسلام لا أعرف سببه، وانتبهت إلى فاروق حين خاطبني:

- "يا نور! كفاية سجاير من سجاير الديك المؤذي".

اكتفيتُ بالابتسام؛ فكل ما يشغلني أني أشعر أن روح عمي مصطفى تتلبسني، وأن أبي منذ لحظات كان معي، وكُنا تلميذين في فناء تلك المدرسة التي خلفناها وراءنا في طريقنا نحو بيت العم ماجد فيكس. حاولت أن أتحدث، فلم أقوَ سوى على الابتسام، وصورة تلك التي تسلمت الورقة من يد أبي تملأ ذهني، وأجتهد في تذكر اسمها بلا جدوى.

- "حلو قوي.. الشيخ خيري هنا". قال محسن الديك بلؤمٍ فاضِح.

- "ديك!! لا داعِيَ لسخافتك، ودعْهُ لحاله، يكفيه ما يعانيه". حذره فاروق بجدية.

لم يلقِ بالًا لتحذير فاروق، وأسرع نحو الشيخ خيري، وناداه، فانتبه إلينا. ظلَّ مكانه قليلًا يتفرس وجوهنا، ثم تقدم نحوي وابتسم، وبلا مقدماتٍ أخذني بين ذراعيه، وانحنى على يدي يقبلها.

- "أنت أنت يا موعود يا ابن الموعودين.. أنت أنت". تشبَّث بي وظلَّ ينتحب.

أجفلت في أول الأمر، وبدا عجيبًا لي كونهم لم ينزعجوا بتصرُّف الشيخ خيري، حتى

تقدم حميد نحوه، يحاول إقناعه بتركي والتوقف عن البكاء، وبدأ يربت على كتفه ليهدأ، لكنه ظلّ يكرر:

- "يا أيها الناجي المصطفى بالحظ الألمعيّ يا سعيد الطالع، عليك السلام يا فرع المبروك الصابر". قال الشيخ خيري.

ابتسم محسن الديك، وطلب إليه أن ينادي العم ماجد فيكس، لكنه ظل على موقفه متمسكًا بملابسي وينتحب، وحين أخرج له الديك سيجارة منْ تلك التي يسميها "صاروخ المجد"، تناولها الشيخ خيري، وتبدَّل إلى الابتسام والفرح في سرعة عجيبة، جعلتني مندهشًا، بينما اكتفى فاروق بالابتسام، وظلَّ حميد يصبُّ لعناته على محسن الديك، ويتوعده.

- "أشعلها يا بطل، واجعل الوحي يتنزل". قال محسن الديك وانفجر ضاحكًا.

- "يا فيكس.. يا ظابط فيكس". صاح خيري بشكل مفاجيء.

ظهر العم ضياء الدين من بلكونة بالدور العلوي، وابتسم حين رآنا وأمرنا بالصعود، وطلب إلى الشيخ خيري أن يصحبنا للأعلى.

- "الظابط فيكس بيزعق". قال الشيخ خيري متوجسًا.

دفع حميد بوابة البيت الحديدة المتآكلة فأزَّ حديدها، ودخلنا، وتبعنا الشيخ خيري حتى الدرجات الأولى، حيث ظهر العم ماجد منتشيًا للغاية، يتحرك بهدوء ويشير إلينا آمرًا بالصعود:

- "تعالوا يا أبطال.. تعال يا ديك يا أصلي.. تعالوا يا رجالة.. الكيف يحب اللمة". قالها واستدار داخل الشقة.

ضحكنا وصعدنا لأعلى باتجاه باب الشقة المفتوح، وكان أول الداخلين محسن الديك ثم حميد، وفي إثره فاروق، وبينما هممت بالدخول سمعت الشيخ خيري ينادي:

- "يا ابن حسن، لازم الغريب، واتبع العلامات، ولا ترفض شاي الثكلى حين تعود".
قالها وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم أفل خارج البيت، واختفى.

كانت الشقة تموج بدخان الحشيشة، وحين دخلتُ أمرني العم ماجد فيكس، بأن أغلق باب الشقة سريعًا، معللًا بأن تسرب دخان الحشيش ليس من الفأل الحسن. لم أفهم العلاقة بين دُخان الحشيش والفأل الحسن، لكني جاملتهم بالابتسام حين ضحكوا. كانوا يتابعون على حديث بدأه العم ضياء الدين، حول تاريخ الحركة الشيوعية في القرن الماضي، وظلوا ينفعلون بآرائهم ويتعصبون لها، وبين الحين والحين يشككون في آراء بعضهم. "ليس هذا ما خرجت الناس لأجله. أنت كنت معنا في لقاء مندوب الحاكم العسكري بالمحافظة، سيأكلوننا للمرة المليون". قال الديك بعصبية.

ساعتها عاودني الشعور بأن عمي مصطفى من يشاركهم وليس أنا، كأني أسمع صوته يخرج من شفتي.

- "يا ديك، الوطن يتسع للجميع، هذا ما حلمنا به لعشرات السنين".

رأيت عمي ماجد يدفع بكوب مملوء بدخان كثيف نحوي، ويسألني:

- "لنرَ رأي مصطفى ابن عمتي في (الغرقانة) تلك!". قال العم ماجد فيكس.

- "أظن الفلاحين لا يمكن أن تقوم عليهم الفكرة الشيوعية؛ فهم في النهاية يفضلون متى تملكوا هكتارًا من الأرض أن يُصبح هكتارين. هم أبدًا لن يقبلوا بنزع الملكيات لصالح المجتمع". تحدث عمي مصطفى بلساني وجسدي.

- "أنا أسألك عن رأيك في الحشيش يا ابن عمتي". قال ماجد فيكس، فشخروا منتشين.

للمرة الثانية لا أعرف الحالة التي تلبستني، وهل يمكن أن أكون مخدرًا بفعل الحشيش إلى هذه الدرجة؟ وبدأت أحاول التملص من شعوري بأن عمي مصطفى يحتل جسدي

ويتحدث بلساني، وحاولت أن أشغل ذهني بالتفكير في أمر آخر، وأتخيل ما يمكن أن يُخبره أبو طالب إلى "ليلي" من وصية "آغ مسعود" التي اشترط على أبي طالب أن يخبرها لها وحدها في بيت جدها مسعود الشحات، حين جلسا لأكثر من شهرين في نفس الزنزانة في معتقل الغربينيات، لكني لم أفلح، فحاولت أن أفكر في السرِّ الذي جعل عمتي إشراق تتحول هذا التحول العجيب من أبي طالب، وكيف تشترط الزواج به حتى تسامحه وتقبل كفنه الذي قدمه إلى عمي بركة؟ وبم يمكن تفسير جملتها التي قالتها؟ وكيف يكون زواجها من هذا الغريب لأجلي؟

- "لأجل عودتكما يا ولديَّ سالمين غانمين". قالت عمتي لي.

أخرجني من شرودي سؤال العم ماجد فيكس عن أمجد الجني، فأسرع محسن الديك بالإجابة.

- "علياء وصلت العاصمة السرية يا عمي، تمامه إلى جوارها، ولد خفيف!".

- "وهل حقًّا معها ضيفة من أمريكا؟!". سأل العم ضياء الدين.

أخبرهم حميد بالقصة كاملة، فبدأ العم ماجد فيكس والعم ضياء الدين يهزان رأسيهما في حركة آلية كأنهما شخص أمام مرآة، ونطقا بجملة واحدة وهما ينظران نحوي ويضحكان.

- "والله أنت أكثر العالم جنونًا يا درش".

حاولتُ من جديد أن أنبههما أني لست مصطفى، وأنني "نور" ولد حسن، وأن الأمور تختلط عليهما، لكن لساني عانى ثقلًا عظيمًا، فاكتفيتُ بالابتسام. بعدها نهض العم ضياء الدين علينا الخروج للتمشية على "سكة الكنال"، وبلا اعتراض بدأنا نتحرك في موكب النشوة، وحين خرجنا إلى الشارع الرئيسي جاءنا صوت الشيخ خيري يصيح في أعلى سطح البيت:

- "يا بني الشعالوة أنا نبيكم لا كذب، في يدي اليمنى الجنة لمن تبعني منكم، وفي يساري الجحيم لمن كفر، أطيعوني يَتُبِ الله عليكم من ذنبكم الأول يا عائلة الملعونين، يا أيها الشعالوة أنا النبيُّ لا كذب".

ابتسم العم ماجد فيكس، وتمنى أن يستمع إليه الشعالوة.

- "والنبي يا رب، فقد نرتاح من خبله هذا". قال العم ماجد.

- "وتحرمنا من عبقرية خيري؟!! لا والنبي يارب، لتتركه لنا هكذا". قال العم ضياء الدين.

استطرد العم ماجد يحكي لنا بأنه في واحدةٍ من قلائل الأوقات التي يصفو فيها للحديث مع الشيخ خيري، سأله أن يشرح له كيف يكون نبيًّا للشعالوة فقط دون سائر البلدة، فأخبره بأن لكلِّ عائلةٍ هاديَها منذ الأزل، وأن الربَّ اختاره لبني شعلان وادخره في نهاية الزمان، حيث يطفح فسادهم في كل بقعة في العاصمة السرية، ووقتها يتعين على خيري أن يصدع برسالته، فتحل في جسده روح نبيهم الأول، من كان قبل موسى وهارون، حيث كان أصلهم في شمال جبال الأناضول؛ فالرب يعطيهم الفرصة ويختارهم ويصطفيهم بادخار خيري ليحل نبيه فيه، ووقتها مسموح لخيري أن يصدع بالأمر لهم وفقط؛ فقد صاروا أحقر بني الإنسان ممن سكن بلدتهم.

- "حين اتهموا مريانة الأم، وحين أنكروا نور عابدين". علل خيري اللعنة.

ضحكنا بشدة حين كان يتوقف العم ماجد ليستمع إلى تعليقاتهم جميعًا، وقد سيطرت نشوة الحشيش على الجميع. وقتها كُنّا قد انتهينا إلى مدخل الطريق حيث ينتهي بكوبري "العوَّاد"، حين ظهرتْ ثلاث نعاج في أول الكوبري تتقافز، ومن خلفها راعيها الذي أعرفه وأعرف صوته الذي يغني:

قال له مين اللي جابك أرضنا يا أهبل.. تحش بيت السُّبُعة وتمشي فيه يا أهبل..

يا أهل البلد اسمعوا راجل عاقل مهوووش أهبل.. لو المغنِّي كان أهبل...

يبقى المستمع عاقل ومهوووش أهبل".

كان صوت "عبد العلام" الراعي الذي صرتُ أميزه، حين اقتربنا من مدخل الكوبري، وحين اقترح محسن الديك جلوسنا على سور الكوبري، سمعتُ صوتًا يصيح على عبد العلام بالابتعاد.

- "ابتعد أنت ونعاجك أيها المجنون". صاحت امرأة عجوز تقف على باب بيت العواد.

كانت زوجة العواد تلك التي غيَّر ملامحها فعلُ الزمن، فما عرفتها، حين ظلت تبتسم في ضوء القمر الذي أرخى نوره على المكان. كان قد وصفها أبي حين سمعت حكايتها معهم.

- "حين تبتسم في الليل تلمع سنها الفضية في الجهة اليمنى من فكها السفلي، فيتخطف العين البريق". حكى أبي لي عنها.
- "هذه علامتها إذن، بريق سنها الفضية؟". سألت أبي.

ظلت هناك تبتسم، وكأني وحدي الذي أراها وأرى عبد العلام، وبدأت أسمعها من مكانها تهمس باسم "مصطفى"، وتهمس بالاسم في غنج مُدغدغ، وبدأت أتحرك نحوها حين ظلَّ همسها في أذني.

- "مصطفى يا ابن مسعود.. يا ديشة". ظلت تهمسها بغنج متصاعد.

تحركت بلا إرادة نحوها حتى وصلت حيث وقفت، ودون كلمة مني أخذت بكفي، وقادتني إلى غرفة نومها حيث يتوسط الغرفة سرير نُحاسي ضخم، في أركانه الأربعة يبرز نحت لامع لصورة أسد يُضاجع امرأة بدت شديدة الشبه بامرأة "العوام"، ولها نفس السن الفضية اللامعة، وبدأت تخلع عني خجلي، وتقذف به إلى أرضية الغرفة جار ملابسها، واعتلتني، وبدأت بأسنانها في دغدغة جسدي الذي تعرَّى تمامًا. كانت عيناي

مثبتتين حيث تلمع سنها الفضية، وبدأت تتأوه بغنج ودلال، فغلى جسدي بالرغبة في ولوجها بقوة حين لامست ببظرها طرف قضيبي العجول، فأمسكت بكفها طرفه وبدأت تولجه برفق داخل شقها المنتفض. تزايدت الحمى في جسدي، وأخذت أعدو في داخلها بقوة لم أعرفها عن نفسي، حتى غابت الدنيا استعدادًا لانتفاض قضيبي في داخل شقها، فتأوهت باستمتاع بالغ، وإذا بصوت ينساب إلى الغرفة. كان صوت "عبد العلام" يغني بالخارج، فارتخيتُ سريعًا داخلها بلا مبرر، وبدأتُ كأني أُسلخ من داخها، فتحول غنجها إلى صُراخ مقيت، جعلها كالأتان النافر من تلك الأسود التي تبرز شخوصها على أعمدة السرير الأربعة، وظلت تصرخ حين خرجت منها، فجذبتني، وأمسكت قضيبي تعتصره، ففارت حممه من جديد، فأسرعت تدخلها في جوف شقها، كأم تخفي رضيعها من الحر، لكنه أبى الدخول إلى شقها المرجاني مرة أخرى، كأنه فوهة بركانها قد سُدَّت، وزاد صُراخها، وتحول إلى لعنات ظلت تلقيها على "عبد العلام" ونعاجه، وتبدل كل الحسن فيها إلى قبح ودمامة، فاندفعتْ عارية إلى الخارج تصرخ وجسدي ملتصقٌ بجسدها، وألقت بنفسها في مجرى "الكنال"، بينما استمر صوت عبد العلام ينساب ويُغطي صدى صراخها:

- "أصيل دخل كرم.. قطف التمر.. مش عاجب..

بعتر جميع فكهته ع الأرض مش عاجب..

ملعون يا اللي جعلت الأصيل خدام.. ومش عااااااجب". غنى عبد العلام.

على بابها وجدت عبد العلام يضع عصاه التي يهش بها على نعاجه فوق كتفيه وقد تعلقت بها كفاه، ويمد يده نحوي ليساعدني على الخروج من المجرى؛ فقد تبعتها وقفزت إلى مجرى "الكنال". حين خرجت يتقطر الماء من ملابسي، نظرني وابتسم، ثم تقدم نحوي، وفاجأني بضربة رقيقة من عصاه، ثم نادى نعاجه بكلمته العجيبة:

- هووووورس".

ساعتها سمعت ضحكاتهم تختلط بصوت النعاج في أُذني، وصوت عبد العلام يتضح في أذني يُغنِّي من جديد، ثم يتلاشى في ضحكاتهم العالية، فأتحرك نحوهم، ويستقبلني محسن الديك بقوله:

- "ألم أخبرك بأنه يحمل جين الجنون مثلنا". قالها محسن الديك الذي وجدتْ يدي في كفه.

كانوا يضحكون ويشخرون، وأنا لا أتبين بعدها كلمة واحدة مما قالوه حتى عودتنا إلى البيت. كان الفجر يرسل تباشيره إلى الدنيا حين وصلنا البيت، فاستقبلتنا عمتي إشراق وكأنها قد اختصرت من عمرها عشرات السنين.

- "الشيخ خيري حضر إلى هُنا، وفضحنا وظلَّ يصرخ ويطلب أن يصحبكم إلى الجبل المبروك، أي جبل يا أولاد يقصد؟ وماذا فعلتم فيه؟". همست عمتي.

ظل الديك يضحك، وهمس نحوها:

- "صباحية مباركة يا عروسة".
- "اخرس يا قليل الأدب يا صايع". همست عمتي بفرح عارم.

ثم عادت تسأل عن بلل ملابسي، وسألت بقلق:

- "ماذا حدث يا نور".
- "لا تخافي يا شوق يا حبيبي". نطقها عمي مصطفى بلساني.
- "أين العريس يا عمتي؟!". عاد محسن الديك يسألها مخدرًا.

ضربت بقبضتها صدر محسن الديك، بينما أطرق فاروق وحميد خجلًا، فالليلة كانت ليلة زواجها بأبي طالب كما اشترطت عمتي لقبول التصالح معه، وهو يبيت معها في حجرة الجدة كما أصرت أن تكون ليلتها الأولى معه. انصرف محسن الديك نحو بيته، بينما دخلنا بهدوء، وأخبرتنا أن ننام في غرفة الشباب؛ فعلياء وليلي ومارية قد صعدن

للنوم في شقة فاروق. ودَّعتنا، وهمَّت بالانصراف، وعند الباب استدارت وقالت:

- "عمكم أسامة يخبركم بأنه أرسل لكم رسالة هامة يا نور". قالت وانصرفت.

في كسلٍ لذيذٍ عبثتُ بأزرار ساعتي، وبدأ الطيفُ المجسَّمُ لعمي أسامة في التشكل. كان خلف مكتبه حين قال:

- "حسن في جبل حميثرة عند مقام أبي الحسن الشاذلي يا نور".

بعدها مباشرة بدأنا في الاتصال بعمي أسامة للاستفسار والفهم، ولم ننتظر حتى الصباح.

- "يؤمنون في بلدتنا بأن السماء رحيمة بالنساء".قال أبي.

- "وهل أنتم رحماء بهن هناك يا أبي؟!". سألتُ أبي.

* * *

تحتم على ليلي مغادرة البلدة والسفر في أسرع وقت، والعودة إلى السويد، ولم تمانع أن يصحبنا إلى المطار فاروق وحميد ومارية وعلياء حيث استخدمنا سيارة عمي المسيو، وانطلقنا إلى مطار الإسكندرية. ظلت ليلي طوال الطريق صامتة لا تتحدث، وأثرُ الحزن بادٍ عليها بوضوح؛ وحين ارتمت بين ذراعي تودعني، انهارت في نوبةٍ من البكاء، وقالت لي بصعوبة بأنها لن تترك موت "آغ مسعود" يضيع هباءً، وأنها ستتهم الحكومة المصرية حال عودتها إلى كيرونا بعد تسلمها الرسالة التي حملها لها أبو طالب. هي لم تُخبر أحدًا بما حوت الرسالة، حتى إن أبا طالب حين سألته عمتي عن مضمون الرسالة في إفطارهما الأول معنا بعد الزواج، اكتفى بثلاث كلمات:

- "هي أمانة وعهد". أجاب أبو طالب عمتي.

حاولت تهدئتها ولكني فشلت، وعبثًا تدخلت علياء ومارية، لكنها ظلت على

بكائها، وحين همت بالانصراف، جففت دموعها من تلقاء نفسها، وتمالكت حالها بصعوبة واضحة، كانت علياء قد ابتعدت نحو السيارة مع مارية.

- "علياء بتحب أمجد قووووي يا شباب، أرجوكم لا تتخلوا عنهما". قالتها، ثم انصرفت.

في طريق عودتنا، اقترح حميد أن نقوم بزيارة بيته في الإسكندرية، وطلب إلينا أن نصحبه إلى مكان أسماه "حديقة السيراميك"، وأخبرنا بأنه عرف تلك التسمية من عمي مصطفى حين تفقد مذكراته بعد رحيله بقليل.

- "هذا سر عمكم. المكان الذي قابل فيه والدة مارية لأول مرة". قال حميد مبتسمًا.

- "بتتكلم بجد؟!". سأله فاروق مندهشًا.

طوال الطريق ظلَّ يحكي لنا عمّا وجده في مذكرات عمي مصطفى، وعن حكايته مع أم مارية، وكيف تزوجها عمي مصطفى، وما حدث من صراع في العائلة.

- "لم تخبرني أمي كل تلك التفاصيل". قالت مارية بدهشة.

حين أوقف حميد السيارة في الجهة المقابلة لمبنى "مكتبة الإسكندرية" أمام بقايا تمثال لعروس البحر بدا متآكلًا، ثم أمرنا بالخروج من السيارة، وتحركنا نحو "الكورنيش"، ورأيتُ بحر الإسكندرية للمرة الأولى. أشار حميد نحو شاطيء البحر أسفلنا.

- "كازينو الشجرة!! مش ممكن". صاح فاروق.

- "نعم هنا قابلها أبي أمام باب تلك الوحدة العسكرية المهجورة". قالها حميد.

- "هنا إذن يا أبي". قالتها علياء وابتسمت.

تابع يحكي لنا، وأخذت الأسئلة تترى على لسان الجميع عن تلك المذكرات، وحميد يجيب بدقةٍ بالغةٍ، وهم على حالهم من الدهشة والإعجاب بما يحكي. تحركنا نحو المكان

الذي حدده حميد باعتباره المكان الذي شهد لقاءهما الأول، ثم نزلنا درجات سلم إلى مستوى أدنى من مستوى الطريق، وجلسنا إلى المنضدة التي حددها بعناية لنا.

- "هنا جلس معها لأول مرة منفردين، ويومها قبَّل خدَّها، واعترف بحبِّه لها". حكى حميد.

استمتعنا بمشاهدة البحر، وعصير الليمون الطازج الذي أردفناه بطلب أكواب الشاي. أكدنا على صفته بما يقترب من الشاي المسعودي الذي تعلمتُ إدمانه معهم طوال الأشهر القليلة التي مضت، وتأملت البحر، حيث ترامت إلى مرمى نظري سفينة تعبر باتجاه الميناء في غرب المدينة، وتذكرت "سارة" حين ودعتها وهي تغادر السويد نحو فنلندا بلا عودة.

- "أرجوكِ يا سارة.. يمكن أن نبقى معًا للأبد.. لا أريد الأطفال.. لا يهم!". رجوتها يومها.

لكنها لم تجب بغير أن ما بيننا قد انتهى، وأمطرتني بدموع وأمنيات لي بالكثير من الحظ السعيد. لحظتها هنا في هذه المدينة التي شهدت من جنون عمي كما يُحكى، وفي هذا المكان الذي قرر فيه أن يطلب الزواج من "يارا" -أم مارية - بعد لقاءات عديدة في نفس مكاننا قبل عقدين، تأتيني "سارة"، وأعرف هنا في المكان الذي سجل عنه عمي مصطفى بأنه شهد ميلاد قرارهما بوضع بذرة مارية، أعرف أنها يجب أن ألقي بها، وبكل حكايتي معها في هذا البحر للأبد، وأنني لأول مرة أشعر بداخلي لا يغضب لتذكرها وما فعلت، وكيف انتهينا تلك النهاية، ووجدتني أعيد الجملة التي تحدث بها حميد منذ قليل على لسان عمي مصطفى:

- "هذا المكان سيظل في قلبي رمزًا للتسامح والحب". هكذا وصف عمي المكان حيث جلسنا.

- "حين عادت أمي في أيامه الأخيرة إلى الإسكندرية، جاء بها إلى هنا وطلب منها أن تسامحه". قالت علياء.

الآن أكرر جملة عمي مرارًا وتكرارًا في ذهني، وصور الذكريات تترى على قلبي هنا، فأجد غضبي منها يتحول رويدًا رويدًا إلى شيء من التسامح، والشعور بالرضا، وأعترف لنفسي بأنه لا مكان في قلبي لها سوى للحب وفقط، ولحظتها سمعت صوتًا في أذني يردد:

- "كلمة حلوة يا مصطفى.. كلمة حلوة لكل الناس يا مان". قال الصوت.

- "كلمة حلوة يا سارة". قلت في نفسي وأنا أنظر نحو البحر الممتد.

هنا رأيتني أجلس معها من جديد، لكنها جاءت بملامح جديدة أظنني رأيتها من قبل حين ابتسم أبي أمام جهاز الحاسوب في آخر أيامنا في كيرونا القديمة:

- "يا الله!! كيف تعرفت إلى تلك الرائعة يا مصطفى؟!". سأل أبي عن صورة المرأة في الحاسوب التي تقف إلى جوار عمي مصطفى، وتحمل تاريخًا رقميًّا أذكره جيدًا.

- "2013/11/8 .. 4.30 p.m". أشار التاريخ على الصورة.

ظلَّتْ ملامح المرأة تتضحُ أمامي، لتنتهي إلى صورةٍ شديدةِ القُرب من صورة مارية ابنة عمي مصطفى، فبدا لي مربكًا، حتى أخرجني حميد من شرودي حين أخبرني بأن علياء ومارية وأمجد الجني، والعم ماجد فيكس سيشاركوننا رحلتنا نحو حميثرة في الجنوب. ساعتها شعرت بأن المكان يفيض بالحب بلا سبب.

- "الحب لا يعرف المرء أفعاله ولا جنونه قبل أن يجربه". قال أبي.

- "وهل الجنون على الدوام وصف مناسب لأفعال المحبين يا أبي؟". سألت أبي.

* * *

دقات على باب الغرفة أيقظتني، مصحوبة بصوت أمجد الجني يستأذن في الدخول، فحاوبته أن يدخل؛ وحين أضاء مصباح الحجرة، رأيته كما لو كان طفلًا مضبوطًا بفعل مخجل، يتصبب عرقه، والتوتر يتشكل على كل ملامحه، فسألته إن كان هناك ما سببه ما لا يخفيه وجهه، فتحرك في هدوء إلى الكرسي المجاور للسرير حيث تمددت، وبدأ كلامه بارتباك شديد، يحكي لي عن معاناة عمتي نورا، وكيف رحلت عن الدنيا دون أن تتذوق طعمًا للسعادة، وكيف خيب أملها والده، ودفع بها دفعًا نحو تعاسة أسكنتها الألم والمرارة حتى فاضت روحها متعبة، وما يحمله من لوم لوالده الذي جرى وراء أوهامه التي آمن بها حول رُوح البحيرة، وما انتهى إليه حاله من الجنون المحدق حتى اختفى هو الآخر، وهو الأمر الذي حدا به أن يعزف عن فكرة الزواج، وخوفه من تكرار مأساة عمتي نورا، وأن يضطر في النهاية أن يتزوج كما تجرى العادة هُنا إلى ما أسماها زيجة مناسبة اجتماعيًّا. حاولت فهم أسباب ذلك الحديث ودواعيه، ولِمَ يحكيها لي الآن، لكنه استمر في حكيه عن مأساة والدته، وبدأ بالقفز بين حكايا العائلة وزيجاتهم، حتى انتهى إلى ذكر علياء وقصة زواجها الأول وسفرها في النهاية للهروب من مصر كلها، بعد فشل زواجها.

- "أمجد، ما الداعي لكل هذه الحكايات؟!". سألته في عجب.

- "الجميع هنا يعرف أن علياء هي من أحب طوال حياتي، والآن أنا أخطو نحو الأربعين بلا زواج". قال أمجد بصوت دافيء.

ثم بدأ ارتباكه يزول، وكأن حاله تبدل بذكر علياء، وأخذ يطلب مني أن أتحدث إلى عمتي إشراق، وعلياء، وأعلن عن رغبته في الزواج من علياء في نهاية المطاف.

- "مازالت عمتك إشراق تتهمني بالتخلي عن علياء حين قلت لها أني أخشى أن أكرر مأساة والدتي، ولا يعلم إنسان أن والدي هدد أمي بطلاقها إن لم أتزوج ابنة أخته،

فقررت ألّا أتزوج نهائيًا، أما الآن، فلعل الوقت حان لتصحيح ما كان". قالها وهو يسمح بعض الدمع تحدر.

شعرت بالأسى لما حكاه، وعرفت كيف يتألم الرجال هنا حين يحبون، ووعدته بالحديث إلى عمتي إشراق وإلى علياء، وأنني سأستعين بحميد ومارية في ذلك، ونصحته بأن يُخبر الجميع بحقيقة ما كان.

- "لا يا نور، أرجوك، لندع عمتك نورا ترتاح في مثواها، ونحفظ سرَّها". قالها بتوسل وألم حقيقي.

حتى هذه اللحظة، كنت أفهم من الحكايات بأن أمجد الجني أحب علياء، لكنه لم يتقدم لخطبتها، ولما يئست منه، قبلت الزواج من ضابط تعرف إليها من خلال العم ماجد فيكس.

- "أولاد الأفاعي قاموا بتصفيته". حكى لي أبي يومها عنه.

بعدها قررت علياء الرحيل عن مصر، حيث سافرت في منحةٍ لدراسةِ الفنّ التشكيلي، ثم استقرت هناك في الجنوب بولاية "شارلوت". تهلل وجهه حين وعدته بمساعدته، فاستطرد يحكي عن حبه لها، وكيف يرى أنَّ القدر الذي خطط له لكل هذا، واستطرد يحكي بأن هذا البيت كله منذور للحب.

- "كلنا نذرَنا الجدُّ للحب، وكُلنا له قدر معه". قال أمجد الجني.

واستطرد يحكي تفاصيل أخرى في حكايته وعلياء، وأنه لن يسمح أن تفوت الفرصة، وأنه غير مستعد لخسارتها مرة أخرى من جديد، ثم غير حديثه فجأة نحو جدنا مسعود.

- "أتعرف أن بهلة أحبت جدنا مسعود، وربما تزوجته؟". قال أمجد بصوت خفيض.

- "ماذا؟؟ كيف؟!". سألته مندهشًا.

طفق يحكي لي حين نام في إحدى الليالي مع الجدة وحدهما في البيت في مرضها الأخير. في منتصف الليل سمع صوت الجدة تناديه، وتطلب منه أن يفتح لها الشُباك أعلى سريرها، لكنه رفض خوفًا من هواء الليل، إلا أن الجدة أصرت.

- "أريد أن أرى بريتنا وحرش بحيرتنا في الليل للمرة الأخيرة".

- "كيف يا جدتي، اختفت البرية والبحيرة خلف البيوت الجديدة". أجابها أمجد.

- "بريتي وحرش بحيرتي لا يمكن لبناء أن يحجبهما عني".

ثم أمرته أن يُعدَّ لها مجمرة البخور، وأن يأتي بها إلى سريرها، وكيف رضخ في النهاية للجدة خوفًا أن تكون تلك رغبتها الأخيرة.

- "لن تصدق ما سمعت حين طلبت مني الخروج من الغرفة". قال أمجد.

كنت قد قررت أن أظل قرب باب غرفتها خوفًا أن تقع مجمرة البخور فتحترق الغرفة؛ فعجز الجدة في أيامها الأخيرة عن الحركة بات مقلقًا للجميع. بعد قليلٍ سمعت الجدة تتحدث بما يُشبه الترتيل لبعض آيات القرآن، أذكر منها تلك الآية:

- "إنه من سُليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم".

ثم خفت صوتها، فلم أتبين الكلام كاملًا، فقط بعض الأسماء العجيبة أذكرها حتى الآن، ولا يغيب نغمها الذي نطقتها به عن أذني.

- " يا لالة ميرة.. يا أميرة البحيرات الأطلسية.. يا بنت الزُّرق في جبال توبيقال". قال أمجد متذكرًا.

استطرد يُكمل حكيه عن تلك الليلة، وأنه بعدها بلحظات يسود هدوء غريب، وتسري نسمة هواء داخل البيت كله، فأسمع صوت شباك الغرفة يصطدم بالحائط، فهممت بالدخول، لكني تذكرت أمرها:

- "إياك أن تفتح باب الغرفة قبل أن أناديك مهما يحدث". أمرت الجدة أمجد.

تابع أمجد يخبرني، بأنه بعدها سمع صوتًا آخر في الغرفة يتحدث إلى جدتي. كان الصوت مميزًا، فتحرك بهدوء نحو الباب وبدأ يتسمع الحديث. كانت امرأة أخرى تتحدث إلى جدتي؛ فقد رأيتهما من شق الباب الذي تركته مواربًا عن عمد.

- "أقسم أن شعرها حين وقفت لمست أطرافه أرض الغرفة". قال أمجد بنفس النبرة الخافتة.

استطرد أمجد يكمل حكايته عن تلك المرأة العجيبة التي تحدثت إلى جدتنا حديثًا كله حول جدنا مسعود، وسماعه كلمات عن الحب والنور، وأقسم أنه لن ينسى حديثها للجدة:

- "وهبتني يا "بهلة لالا" أولادي كلهم". قالت الجدة.

- "وأنتِ قبلتِ مشاركتي إياكِ قلبه يا ابنة الأصول". قالت المرأة.

- "لتحفظيهم لي بعدما أرحل يا أختي". قالت الجدة.

- "يحفظهم النور في قلوبهم يا شريكتي في النور". قالت المرأة.

- "أخاف أتركهم وأرحل". شكت الجدة.

- "صاحبة الصبر والشمس، ستأخذ مني وأتغشاها؛ فلا تخافي". طمأنتها المرأة.

استمر أمجد يحكي لي عن لقاء بهلة والجدة، وأنها ليلتها نعت لها عمي مصطفى، وحددت لها كيف سيكون رحيله، بعد قليل من وضعه لبذرة النور التي تسكن قلبه في أرض بعيدة قرب ماء مالح كبير.

- "لا تخافي؛ النور فيهم سيبقى". قالت المرأة بهلة.

ثم أكمل كيف رآها - حين قرر أن يقتحم الغرفة - تغادر من الشُّباك، وأنه كثيرا

يرى طيفها في ثوبها المزركش بالجنيهات الفضية والذهبية كلما دخل إلى غرفة الجدة بعد موتها.

- "كانت صورتها في ثوبها ذلك، وشعرها الذهبي خلف ظهرها على حالها في شباك الحجرة كُلما دخلتها، حتى أظن رأيتها حقيقة يوم رحيل أمي وأخوالي تجلس في سرير الجدة". قال أمجد.

أعادني بحكايته تلك إلى دخولي الأول إلى البلدة، يوم قابلتها، وكيف تعجبت عمتي إشراق عن كونها ما تزال في الجوار، حتى إني كدتُ أشعر بأنفاسها حولي بعدما تركني أمجد، وكأن ثوبها نفسه يلمع في ظلام الحجرة بعدما أطفأ أمجد المصباح وهو يغادرني. الآن أتمنى أن أراها من جديد، وأغمضت عيني. نعم، تمنيت أن أرى من ترعى النور في قلوب ولد مسعود. تمنيت أن أحلم بـ"بهلة"، فأسألها عنه، وأذكّرها بوعدها لجدتي بأن تحفظ ولدها كما طلبت منها الجدة قبل الرحيل، فلعلها تخبرني تريح قلبي من هم الإجابات التي لا أعرفها.

- "في بلدنا تعلمنا أن نحفظ تواريخ بؤسنا والشقاء". قال أبي.

- "ألا تحفظون تواريخ الحب والسعادة هناك؟!". سألت أبي.

* * *

في مساء الليلة التي قررنا فيها التحرك صباحًا نحو الجنوب حيث "حُميثرة"، وصلتني رسالة من "ليلي". كان قد مرَّ على عودتها سبع ليال، رأيت فيها صورةً من رسالة "آغ مسعود"، يخبر ليلي بما حدث له، وبأصله هناك في أرض الأزواد بشمال مالي، وأنها يتعين عليها العودة لتضع مولدها هُناك، وألّا تترك جثته هنا في صحراء مصر؛ فهو يعرف أنه هُنا ستكون نهايته، ويرجوها أن تثق في أبي طالب، وأنه عرف قصته، وأنها

يجب أن تُغادر مصر ولا تعود، وينصحها بألّا تفتش عن حقيقة ما حدث، وخوفه أن يتم التخلص منها هي الأخرى، وفي نهاية رسالتها تتمنى لو أنها كانت تحقق له آخر أمنياته بمولوده ونقل جثته إلى أزواد بمالي، لكنها لا تملك من أمرها غير إخباري بالأمر، وتدعي في نهاية رسالتها بقلقها الشديد بعدما تقدمت ببلاغ إلى السلطات السويدية بمساعدة والد صديقتها باستكهولم، وشكّها في أنها مراقبة، وانتهت إلى ضرورة إخبارها بكل جديد في رحلة بحثي عن أبينا الذي انتهينا إلى دخوله مصر، ووجوده في جبل حميثرة بمقام أبي الحسن الشاذلي بما أفادنا به عمي أسامة بما استطاع التوصل إليه من خلال مصادر خاصة.

أخبرت الجميع بما جاء في رسالة ليلي، وقلقي عليها.

- "سأحجز للسفر غدًا إلى السويد؛ فلا مشكلة في الڤيزا كما تعلمون. لن أتركها هُناك وحدها". قال فاروق فجأة.

حاولت تهدئة انفعاله، لكنه أصر على قراره المفاجئ لنا جميعًا، وهو ما جعل عمتي إشراق تحتضنه، وتبكي.

- "تحمل قلب والديك يا ولدي.. تحمل قلبهما الكبير.. ليشهد ربي أن قلبي يرضى عليك". قالت عمتي إشراق.

هكذا أنهت عمتي إشراق الأمر في سرعةٍ عجيبة، وعلى خلاف المتوقع منها، ثم سألتنا عن حقائب الرحلة وترتيبها، حتى اطمأنت إلى كل شيء. غادرتنا عمتي إشراق نحو غرفة الجدة، وجلسنا نُراجع إعدادات السفر حيث سنأخذ الطائرة من مطار القاهرة إلى مدينة طيبة قرب الأقصر، ومنها نتجه نحو طريق القُصير- الأقصر، ثم نبدأ رحلة برية في سيارة استأجرها لنا أبو طالب بعد اتصالات أجراها مع معارفه بالصعيد هناك، وسنُغير طريقنا نحو حُميثرة مباشرة في منتصف الطريق تقريبًا.

- "حين نعبر الجبال الملونة، سنتوقف للراحة ثم نتجه نحو حميثرة في الجنوب الشرقي".

قال أبو طالب لنا بالأمس.

تذكرت جملة الجدة أمينة في بيت عمي المسيو، وعجبت كيف كانت تعرف حين قالت بأنه موجودٌ إلى جوار من تسمى باسمه، في الغد يا جدة سنبدأ الرحلة نحو مقام من تسمى أبي باسمه.

- "سنصل مقام سيدي أبو الحسن الشاذلي بعد الغروب بقليل". أخبرنا أبو طالب.

ساعتها تمنيت أن بعض الفضل ناله من صاحب الاسم، وأن يتجلى ببركته على أبي هُناك كما اعتقد حين قرأ كتب التصوف، أو لعل "بهلة" حفظت وعدها لجدتنا، وحفظت أبي، أحد هؤلاء الذين حملوا النور في قلوبهم من ولد مسعود.

- "تفضل أنت يا أبا طالب لتنام. إشراق أظنها تحتاجك الليلة". قال عمي بركة، وابتسم.

كان قد مر شهر آخر منذ مجيء الخبر بمكان وجوده، لكن عمي أسامة حين هاتفنا أخبرنا أنه غير متأكد من المكان الذي قصده، وفي الأسبوع التالي لذلك كان زواج عمتي وأبي طالب. كانت النار تأكل كل عقلي طوال الأسابيع الثلاثة الماضية؛ فهذا أمل جديد زكاه أبو طالب بكلامه عن مساعدتنا هناك، ولا أعرف كيف أنضجت هذه النار لهفتي وشوقي، حتى صارت بردًا وسلامًا على القلب، فسكنت بعض الشيء حين استأذن أبو طالب، وأسرع إلى غرفة الجدة حيث تنتظر عمتي إشراق، بينما عرض علينا عمي بركة، أن نمضي بقية الليل معه في شقته، فتألمت لوحدته بعدما رفضت زوجه زيارته، وحرمت على ولديه ذلك.

- "لعلكم تؤنسون وحشة وحدتي قليلًا يا أولاد". طلبها بهمّ "الحاج بركة".

صعدنا نحو شقته التي فاجأنا نظافة المكان أمامها، ووجدتني أتأخر عنهم قليلًا،

وأضبط نفسي متلبسًا بمتابعة مارية وهي تدور بدوران الدرج إلى أعلى فأرى ما يُشبه النور يُشع من وجهها حين هزت رأسها في حركةٍ عفويةٍ لتُبعد شعرها حين تهدل على وجهها. وحين جلست معهم حيث افترشوا الأرض فوق سجادة قديمة متحلقين حول عمي بركة وعمي المسيو، اقترحت علياء أن نشرب الشاي المسعودي الرائع.

- "من يريد معي الشاي المسعودي يا أولاد مسعود؟". سألتنا علياء.

- "أنا مثل أبي، نصف كوب فقط". أشار محسن الديك إلى علياء بسبابته وإبهامه بعدما قارب المسافة بينهما، فضحكوا جميعًا، ووحدي من رأى ابتسامة مارية.

- "شقتي لم تسمع ضحك إنسان منذ غادروني". أشار إلى الحائط نحو صورة زوجته وولديه.

كاد أن يبكي، لولا جاءنا صوت الشيخ خيري ينادي في الشارع باسمي، ويصرخ:

- "يا ابن حسن لا ترفض الشاي، كوب الثكلى منذور فاشربه".

هرع محسن الديك يناديه من الشباك، لكنه رفض، وظل يناديني باسمي، ثم سمعنا وقع أقدامه يجري مبتعدًا.

- "حين رأي عمي ماجد فيكس، أطلق ساقيه للريح". قال محسن الديك ورأسه في وسط الشبُّاك.

- "يا حاج!! يا حاج بركة!". صاح العم ماجد فيكس.

- "اصعد يا حضرة الضابط". جاوبه عمي بركة من مكانه.

انضم بعد قليل إلى مجلسنا العم ضياء الدين، ثم لحق بنا فاروق، وأخبرنا أنه سيغادر في الرابعة من عصر اليوم التالي نحو مطار الإسكندرية للسفر إلى إسطنبول، ومنها إلى استكهولم.

- "والله زمان يا بيت مسعود". كررها عمي بركة وظل يبتسم.

- "ينقصنا عمكم محب.. ألم يرجع من الإسكندرية؟". سأل العم ضياء الدين.

- "سيظل هناك حتى نهاية الشهر". قال حميد.

أظن ليلتها أن من رآنا سيقسم أن الحزن والألم لم يعرف طريقًا نحو هذا البيت في يوم؛ فليلتها كانت الدموع تجري من عينيْ عمي بركة لشدة الضحك، وللتندر على حكايات غرفة الشباب التي خلت من شبابها، واجتروا حكايات ثورتهم في شتاء يناير ٢٠١١، وحكى العم ماجد عن ذكرياته في المعتقل عام ٢٠٢٢، وتناقش كالعادة محسن وحميد والعم ضياء الدين حول مظاهرات ٢٠٢٧ وحركة الإسلاميين الجدد. وترحموا على كل من رحل في حب، واختصوا الألماني بالحديث كثيرًا عن سواه، واقترح العم ضياء الدين أن يُسمعنا محسن الديك بعض قصائد الألماني التي يحفظها ويتقن أداءها الصوتي، ففأجأني محسن الديك بما يحفظ، بما لا يقل مفاجأة عن أدائه الرائع لما ينشده من شعر الألماني الراحل ابن عمتنا. في هذه الليلة شعرت كأني أرى هالة من النور تملأ المكان وتغشى الحضور.

- "في بلدتنا، الرجل الذي لا يقول الشعر لا يعرف الحبَّ". قال أبي.

- "كيف وأنت لم تقل يومًا الشعر لأمي يا أبي؟!". سألتُ أبي.

* * *

أمام السيارة وقفت العمة "ياسمين" تودعنا؛ وقبل أن تتحرك بنا السيارة نحو المطار، تحركتْ إلى حيث تجلس "مارية" ونقرت بإصبعها نقرًا خفيفًا على زجاج السيارة، فانتبهتْ لها، واستجابتْ لإشارتها بالخروج من السيارة، فأخذتها العمة بحب بين ذراعيها، وضمتها بقوة، وظلت تتوسل لها أن تسامحها، وأخبرتها أنها تعلمت الدرس

لاحقًا، فبكت مارية وكادت تبكي علياء التي أسرعت نحوهما، ووقفت إلى جوارهما، وأخرجت علبة سجائرها وأشعلت واحدة منها، نفست دخانها بعصبية، وهي تواري دمعتها.

- "This is my mom". صاحت علياء، ثم ضمت شفتيها وأخذت تهز رأسها لأعلى وأسفل بهدوء.

- "يا سعدك يا عمي مصطفى بهؤلاء الباكيات". قلت في نفسي.

كثير هُنا في العائلة لم يكن يعرف محاولات عمي مصطفى في استمالة العمة ياسمين إلى قراره حين قرر الزواج من والدة مارية، ولا يدري الكثير بحكايات نقاشاتهما التي وصفها من عرف بها بأنها محض جنون تفتق عنه عقل عمي مصطفى، وعجبوا لجرأته حين قرر أن يُعْلِم العمة ياسمين بالأمر، ولاموه بشدة.

- "لو لم أكن أحبها ما قررت أن تكون أول العارفين بأمر زواجي". صرح يومها عمي مصطفى.

- "هذا جنون مطلق". اعترض الكثير وقتها.

- "لو كان احترامي وحبي لها في نظركم جنون، أفضل الجنون على عقلكم". صمد عمي مصطفى.

كنت في التاسعة من عمري يوم اصطحبني أبي من المدرسة إلى البيت، وفي طريق عودتنا هاتفته من مصر العمة ياسمين. راحت تشكو له من أمر عمي مصطفى وقرار زواجه، وأمام باب البيت في "كيرونا القديمة" وصلني صوتها واضحًا.

- "أخوك يحبها يا حسن والله.. يحبها، وأعلم أنه ليس خيارًا". ثم ظلَّ صراخ صوتها في الهاتف.

حاول يومها أبي أن يهدِّئ من غضبها، ووضع المفتاح في الباب، وانتظر قبل أن يفتح الباب لندخل حتى تنتهي من مكالمتها له؛ وحين أدار مفتاح الباب، كان يودعها

على الهاتف ويتمنى لها السلامة ويحملها السلامات إلى الجميع.

- "صدقيني، سأتحدث إليه يا ياسمين، فقط اهدئي.. قبّلي حميد وعلياء". أنهى أبي المكالمة.

- "يا لجنونك يا مصطفى! كيف تخبرها يا رجل هكذا؟!". حدث أبي نفسه وهو يضع الهاتف فوق المنضدة قرب الشباك.

حين عادت أمي من عملها سمعتُ والدي يحكي لها الخبر، وفيما بعد وحين صار فهمي أكبر لما حولي، تعجبت من موقف أمي يومها حين دافعت عن عمي مصطفى، وجعلت تختلق له المعاذير لتبرر هذا الزواج الآخر، وبقي عجبي الأكبر من أبي حين تمنى أن يخفي مصطفى الأمر.

- "للحقيقة كان جبنًا ألا يخبرها". قلت لأبي فيما بعد.

يومها أخبرني بأني لن أفهم أبدًا تعقيدات المجتمع هناك، وصار يحكي عن النساء في البلدة كيف يمكنهن تحمل العشق بأخرى، لكنهن لا يحتملن زواجهن بأخرى.

- "في بلدنا يؤمن البعض ظل الرجل أعظم من ظل الحائط". قال أبي.

- "وما بال النساء يا أبي؟!! ألا يُستراح في ظلهن؟!". سألتُ أبي.

فصلٌ آخرُ، وليس أخيرًا

حســن

يا بت قولي لأبوكي..
يحجزك في الدار..
لا أنا جدع صغير..
والعقل مني طار..
شط البحور مرقدي..
الموج بنى لي دار

"هو أنا، وأنا أنت، وأنا الساكن فيك أنت، أنت بعضي، وأنا الذي اصطفى من بين الأمكنة القلب ليتسعَ عرشي، ومثلي عرشه الحب، والحب نوري وبعضي، وعهدي إلى من أصطفيه وصلا ما بين الأعلى والأدنى، ما بين الأقصى والأدنى، هو أول فعلي مجيد تنزلت به إلى القلوب، هو سمتي وحالي حين كنت قبل الوجود، وأنت في بعض روحي، فأنا أنت وأنت أنا، وأنا منك، وأنت مني، لا أغيب ولا يغيب شعاع النور الواصل فيما بين ذاتي وبين بعضي الذي أنت منه، فأنا تراني حين ترى النور في البكور يزيح في كل الظلام الذي لا يحجبني ولا يحجب النور عنك حين تراني في طلة البدر حين الاكتمال، أو في سنا شعاع مصباح صياد عجوز في غبشة الليل، تراه الموجودات وتهتدي به، في ضوء النجوم التي تعكس بعض النور من قدري، في كل الوجوه التي حين تراها تعرف أن الشمس وحرها ليست من تتقن فن الشروق، أنا النور، وأنا الصوت، وأنت بعضي، عنك لا أغيب ولا أنشغل، فلا يليق بنوري أن يذبل أو يختفي، حتى حين تغلق العوالم كل الدلالات، أبقى متربعًا على عرشي هنا، في قلبك حيث أسكن، فينجلي حين لحظة تشعر أنه الحب؛ فانشغل بالحب، ترَني، ولا عجب، وهو العجب ألا ترى نوري وأنت بعضي".

قال الصوت لإشراق، ثم نامت في النور للأبد كما نامت عروس ليلة عُرسها.

وصلنا مطار طيبة – قريبًا من الأقصر– في السابعة من صباح اليوم؛ وحين خرجنا إلى باحة المطار المتاخمة له، هاتف أبو طالب شخصًا، وأخذ يسأله عن موضعه، ثم حدد له المكان الذي سنقضي فيه يومنا بالأقصر؛ فقد قررنا أن ننتظر اتصال العم أسامة كما أخبرنا بالأمس القريب، وأن نؤجل تحركنا من الأقصر نحو حميثرة حتى يأتينا تأكيده بالمكان.

– "نستغل الرحلة لزيارة آثارها احتفالًا بوجود مارية وعلياء معنا". قال أمجد.

تحركنا في سيارة الفندق التي تنتظر حتى اقتربنا من مجرى النيل السعيد. رحتُ أمني النفس بأن يخلع علينا النيل من مهابة العمر الذي عاشه، وأن تصفو همومنا مثل صفاء مائه الذي تحدى كل العمر الذي مر عليه. ستبهرني الشمس التي تتراقص على صفحته اللُجين تُبشر بيوم شديد القيظ هنا في مطلع الصيف من شهر مايو، وسأترك له رُوحي لتسكنها رُوحُه وتخلع الهدوء على داخلي حينما كان يُشير أبو طالب إلى مسجد كبير، ويخبرنا بسيرة صاحبه "أبي الحجاج". نظرت فوجدت المجرى المائي شديد التلوث، يكاد الماء يغيض فيه، فصرخت:

– "أين النيل؟ أين نهركم؟!".

– "السدود الثلاثة الأخيرة في شمال الخرطوم قضت على النيل". قال حميد.

تناولنا طعام الإفطار في سعادة غامرة، وحين انتقلنا إلى الكورنيش جوار النيل، تخيرت أقرب المظلات إلى مجراه الهزيل، لأخبره رسالة أمي التي حملتني إليه قبل سنوات، حين اقترح أبي أن تكون رحلتي الأولى إلى مصر، قبل أن أُغيرها باتجاه أقصى الشرق.

دق هاتف أبي طالب، فصاح:

– "الحاجة بنت حلال، كأنها تعرف بأمركم، وتريد أن تطمئن، فأنتم أمانتها معي". قال أبو طالب قبل أن يجيب الهاتف.

صمتنا للحظات حتى يُنهي أبو طالب مكالمته معها، وكادت قلوبنا تنخلع حين هبَّ واقفًا يصرخ:

- "ماذا؟ ماذا؟ متى حدث يا حاج بركة؟ أخبرني الحقيقة". صاح أبو طالب.

غاب كل الجمال والسلام في جلستنا، وتشكل الرعب في وجه أبي طالب الذي ظل يُكرر:

- "لا.. لا.. لا يا حاج بركة؟ كِيف؟ الله أكبر". قالها وسقط مغشيًّا عليه.

أسرع حميد نحو الهاتف يلتقطه، ويستفسر الخبر وما أخبر به عمي بركة أبا طالب؛ فيتسبب في سقوطه.

- "إيه؟! مش ممكن يا حاج؟! مش ممكن؟!". وظلَّ يتقافز في الهواء.

ظلَّ حميد يتقافز يصيح بسعادة ونحن مشغولون بإفاقة أبي طالب، وحين استعاد وعيه، تفرسنا بفرح وبراءة وطفق يمسك بأيدينا ويقبل ما طالت يده من أيادينا:

- "لله دركم يا آل البيت المبارك، لله حبًّا وكرامة يا أبناء النور العظيم".

- "عمتكم إشراق حامل يا شباب!! حامل بعد هذا العمر!! أتصدقون؟!!". صاح بنا حميد وظل على ضحكه.

- "What?!". صاحت علياء، ثم صكت وجهها في فرح وعجب.

- "بركاتك يا سيدي يا أبا الحجاج، بركاتك يا أبا الحسن يا شاذلي يا صاحب الحج والمقام الرفيع". صدح أبو طالب.

علت الدهشة جمعنا، واختلط الضحك بالعجب وبعض الإنكار. وأخبرنا حميد بأننا بعد سفرنا، سقطت عمتي مغشيًّا عليها، وحين ذهبوا بها إلى الطبيب، أخبرهم الأمر العجيب، وأنها تحمل جنينًا في أحشائها، وأنها بعد كل هذه السنين ستقر عينها بطفلة

ظلت تحلم بها وتراها فينا كُلنا.

- "شمس.. قالت لي في يومنا الثالث أنها ستنجب طفلة وتسميها "شمس"، لكني ظننتها تحلم!". قال أبو طالب مغمورًا بالفرح.

ظل يحدثنا أبو طالب بما حكت له عمتنا من تاريخ العائلة مما علمناه أو جهلناه من أسرارها خلال الشهر الذي أمضاه معها، لكن أعجب ما قال، ما حكاه على لسان عمتي من كلام عمي مصطفى لها حين رقد في المستشفى قبل أن يموت بيومين، بعدما تعرض لإطلاق النار من قبل أبي طالب.

- "موتي سيأتيك بشمسك يا أختي، فاقبلي جذوتها متى جاءتك تطلب السماح، كان يقصدك يا أبا طالب، لهذا سامحتك". قالت عمتي إشراق لأبي طالب.

أسرعنا بعد استفاقتنا من دهشتنا بالخبر. مارية تخبر والدتها البعيدة، وأنا أخبر ليلي، وحميد يخبر فاروق، بينما انسلخ عنا علياء وأمجد الجني بهدوء وابتعدا يتحدثان في الأمر العجيب. ومن جديد تعود عيناي لتستقر على مارية من دونهم، وألمحها تبتسم. وقتها عرفت سرَّ هذه اللهفة، والمتابعة الدقيقة التي أضبط نفسي متلبسًا بها في مراقبة كل حركاتها ولفتاتها، أظنني أرى بهلة من جديد حين تلتفت نحوي بغتة.

- "نعرف في بلدتنا أن الناس تحمل الشمس في قلوبهم يا ولدي". قال أبي.

- "ولم تُظلم قلوب الكثير يا أبي منهم؟". سألتُ أبي.

* * *

حين توقفت سياراتنا في الاستراحة الكائنة في مفترق الطرق بين حميثرة في الجنوب الشرقي، وبين طريق الأقصر – القصير، كان أبو طالب لا يسير على الأرض، إنما كمن نبت له جناحان فخفت حركته كأنه يطير، ومنذ تحركنا في اليوم الثالث لوصولنا إلى

الأقصر نحو رحلتنا إلى مرقد أبي الحسن الشاذلي، وهو يلبي كل طلباتنا كأنه خادم خاص، يحضر الماء، ويجهز الطعام، ويحمل عنا كل شيء.

- "ليتني أحمل عنكم الهموم ومتاعب الرحلة". قالها بوجه بشوش.

قبل انطلاق موكبنا المكون من سيارتين تقدم نحونا عجوز يستأذننا أن نحمله في طريقنا نحو مقام الشيخ. وافقنا على أن يصحبنا هذا العجوز، والذي جعل من نفسه دليلنا حين قدم لنا نفسه باعتباره أحد سكان الوادي حيث ستنتهي رحلتنا وسط سلسلة الجبال العيذابية كما سماها.

- "بيتنا قُرب مقام سيدي الشاذلي، فنحن جيران كراماته في وادي حميثرة". قال العجوز.

عرفنا باسمه "الشايب مخلوف وضاح من ولد ظموت"، أحد بطون العبابدة سكان الوادي في جوار القطب المبروك، وحين سأله حميد عن سر سكناهم في هذا الوادي البعيد، اكتفى بابتسامة بسيطة ورائعة، وجملة كررها مرتين.

- "في حميثرة، سوف ترى، نعم في حميثرة سوف ترى يا ولدي". قال العجوز.

اقترب بنا الطريق ناحية الجبال، وأخبرتنا اللافتة بقرب دخولنا وادي حميثرة. لحظتها أخذ "الشايب مخلوف" يدندن بصوت عذب:

- "وشممت ريح الندى من تراب ندي ... وإذا مررت على مكان ضريحه

الطامي وبحر العلم بل المرشد ... فقل السلام عليك يا بحر الندى

ولو قيل لي من في الرجال مكمل ... لقلت إمامي الشاذلي أبو الحسن

لقد كان بحرًا في الشرائع راسخًا ... فلله كم أروي قلوبًا بها محن".

بدأت تلوح بنايات الوادي القديمة، ودخلنا من جهة الغرب، فكانت بناية قديمة

جدًّا، مكونة من طابق واحد تمتد أمامه مصطبة كبيرة، تم تجديد البناية حديثًا، وتحمل لافتة تخبر بأنها "نقطة شرطة"، خلفها في ناحية الشمال الشرقي برزت بعض البنايات التي عرفنا من "الشايب مخلوف" أنها تتبع شركات النفط والمناجم، وعلى امتداد طريق الوادي طالعتنا ما يشبه النُّزُل في مواجهة البناية تلك.

– "ساحة مضيفة الحاجة زكية، صاحبة الخدمة. فيها يمكنكم التوقف قبل الزيارة". قال الشايب مخلوف.

توجهنا إلى حيث أشار. كان البناء مكونًا من طوابق ثلاثة مقببة، امتد أمامها ما يُعرف بالساحة التي ماجت، تتناثر خلفها ما يشبه معسكرات التخييم، ما بين بنايات الضيافة الكبيرة والصغيرة، وفي نهاية حدودها تبدو أكواخ وبيوت الأعراب متناثرة. دخلنا إلى ساحة "الحاجة زكية" وعبرنا صالتها الفسيحة لنرى المسجد الكبير، وإلى جواره قبة المقام، وفي أقصى يسار المسجد وجدنا نقطة حراسة مهجورة، وخلف مئذنة المسجد التي أنارت حين زحف المساء على الوادي، أنارت مئذنة أخرى، أخبرنا مسئول الخدمة في الساحة أنها مئذنة مسجد أحد تلاميذ الشيخ ومريديه في القرن الماضي. تركنا الشايب مخلوف بعدما قطع علينا الوعد بزيارته في بيته.

– "أنتم ضيوف آل ظموت طوال زيارتكم لسيدي الشاذلي". قالها ثم انصرف شاكرًا.

في واحدة من حجرات مضيفة "الحاجة زكية"، ألقيتُ بكلِّ تعبِ الرحلة إلى جوار حقيبتي، وغرقت في نوم عميق. في نومي رأيت جدتي في كيرونا وأمي تجلسان أمام مجمرة البخور التي عودنا عليها والدي خلافًا لعادات أهل كيرونا القديمة، ورأيت أبي يدور في دوائر واسعة ويضحك، ثم رأيت بهلة وزوجة العوام، حتى "سارة" رأيتها هي الأخرى تجري في غابات الشمال الفنلندي حيث حاولنا أن ننجب طفلنا الذي تمنيناه يومها، وأنا كمن يطير إلى جوار عمتي إشراق مثلما طارت في غرفة الشباب، وبين الحين والأخر يأتيني صوت الشيخ خيري:

- "أنا النبي يا بني شعلان، أنا نبيكم منذ بدأ الزمان بكم". ظل خيري يكررها.

حين صحوت، وجدت علياء تجلس إلى جوارها مارية وتتهامسان وتدخنان في صمت، وتذكرت كلمة عمي مصطفى التي حدثني بها أبي حين دخنا سويًّا لأول مرة:

- "أن تُدخن السجائر الرخيصة في صحبةِ امرأةٍ تحبها، خير من تدخينك سيجارة باهظة الثمن وحيدًا".

تحركتُ نحوهما، وألقيتُ التحية، وشاركتهما الحديث والتدخين، وحين فعلت مثلما تعلمت منهم حين يشعل أحدهم سيجارة الآخر، فطبطبت على كف مارية الممتدة بقداحتها لتشعل لي سيجارتي.

- "الوادي والجبال من حوله أظنها تصفي دواخل الزوار للمكان". قالت علياء.

نزلنا إلى الساحة، وسألنا القائم على الخدمة عن الآخرين، فأخبرنا بخروجهم إلى حيث بيوت "آل ظموت" في صحبة الشايب مخلوف، وأن ولده "عائض" ينتظرنا ليصحبنا إلى هُناك. سلمنا عليه وتحركنا في اتجاههم، وابتعدنا قليلًا حيث وجدناهم أمام بنايةٍ كبيرةٍ، وقد تحلقوا ينصتون إلى حديث الشايب مخلوف.

- "ها هو نور يا خال مخلوف، صاحب الرُّمة كلها". أشار نحوي أبو طالب.

رحب بنا الشايب مخلوف، ثم أمر عائض أن يحضر الماء المثلج، وبعدها بدأ في صبِّ الشاي في أكواب من الصاج صغيرة جدًّا، قدمها إلينا.

- "تفضلوا زردة الشاي، تقليد معتاد للضيوف عندنا". قال الشايب مخلوف.

حين كانت ترشف مارية الشاي، رحت أتامل ابتسامتها. كانت هي بهلة، وربما كانت تختلس نحوي النظر. مارية لم أعرفها قبل لقائنا بالبلدة. ربما سمعت عنها، لكن لم أقابلها قَطّ أو أتواصل معها. طلبة السنة الأخيرة في هندسة الزراعة والمحاصيل، تُرى من بعثها من عالمها البعيد إلى حيث هنا، وكيف لها أن تتلبسها بهلة؟ أعرف أنني مرهق من

السفر، وأن الأمور هنا ربما كانت مربكة ومختلطة إلى الحد الذي جعلني مستسلمًا لكل ما يحدث. أذكر مرة حين استسلمتُ للتلاميذ في صفي الثامن حيث ضربوني، صاح هنري فيّ:

- "تبًّا، لماذا لم تهرب؟!".

عرفت يومها الألم وكيف يتحول إلى لذةٍ تنسيك أصل معاناتك، وحين تكرر الأمر فيما بعد، صرخ هنرى:

- "أنت مريض، يجب أن تراجع طبيبا نفسيًّا". قاطعني بعدها لشهر كامل.

عاود العجوز يستكمل حكيه الذي بدأه معهم قبل قدومنا عليهم، وأخبر بأن الجبل حيث أشار إلى موضع القبة التابعة لمسجد القطب الشاذلي، كانت البقعة التي قُبض فيها الشاذلي ساجدًا حيث تمنى على الله في رحلة حجه أن يجعل موته في أرض لم تشهد معصية واحدة لله، وكلها مملوءة بالطهر والعبادة.

- "توفاه الله فوق الهضبة بالوادي، وهو يصلي نافلة الليل، في طريقه نحو مكة حيث نوى حج بيت الله في تلك السنة". قال الشايب مخلوف.

استمرَّ في حكاية الكرامات، وكيف يأتي فقراء الناس إلى هذا المقام في الليلة الكبيرة حيث تنحر الذبائح في ليلتها التي توافق ليلة صعود الحجاج المسلمين لجبل عرفة، وكيف يبكي هؤلاء الذين حُرموا فضل الحج في عامهم لظروفهم المادية أو الدنيوية الأخرى، فيصعدون الجبل في حميثرة ويتوجهون نحو الشرق وقلوبهم تتعلق بالجهة الشرقية للبحر الأحمر حيث مدينة "مكة المكرمة" وجبل عرفة الذي نفر إليه الحجاج يصدحون بالتوبة والدعاء والتلبية.

- "كل الزائرين في تلك الليلة يهبطون بإيمان أنهم تابوا إلى الله، وأنه قبل توبتهم وغسل ذنوبهم مثلما يغسلها هناك بالناحية الأخرى لمن شهد عرفة". استطرد الشايب مخلوف يحكي.

كان يجيب على كل أسئلتنا بثقةِ العارفِ المؤمن بكل ما يقول، والمعتقد في كل ما حكاه من كراماتٍ للشيخ القطب من جاء ببركة السماء إلى وادي حميثرة، ورحب بالعبابدة وغرهم حين مروا برحابه، وأسعد "آل ظموت" حين سكنوا الوادي إلى جوار مقامه، فأسبغ عليهم من البركات ما لا يُحصى ولا يُعد.

"ومنا من اختصه الله بعز ... لا بكثرة صيام ولا سهارا
ومنا من يكون مجنونًا فيها ... سليب العقل يرمي بالحجارا
ومنا من يكن عريانًا فيها ... يغيب عن البرودة والحرارا
ومنا من يطير على الهواء ... ومنا من له الخطو أين سارا
ومنا من له الشرق والغرب ... والآفاق بين يديه دارا
فأحوال الرجال بحر عميق ... كبحر ليس يدرك له قرار"

أنشد الشايب من شعر أبي الحسن الشاذلي..

حين انتهى من إنشاده العذب، ومن حكاياته حول الوادي والشيخ، سأل أبا طالب عن حاجتنا التي خرجنا نطلبها من الشيخ، فأعاد عليه أبو طالب حكاية غياب والدي في عُجالة، وأشار نحوي مرة أخرى.

- "وهذا نور ولده.. من جاء يبحث عنه ويطلبه".

- "اطمئن يا ولدي، حتمًا ستجد الإجابة لدي سيدك الشاذلي؛ فهو لا يضيم ضيفًا، ويجبر الخواطر لكل سائل وملهوف". قال الشايب مخلوف بثقة.

ثم نصحنا أن نبحث عن خادم المقام، وأنه يتحتم علينا أن نقدم نذرًا للشيخ، ليساعد خادم مقامه "الحاج علي"، وحذرنا؛ فالحاج "علي" خادم المقام لا يقبل المال ولا التبرعات، فقط النذور الواجبة الوفاء هي التي تُقبل.

- "أنا من ينذر الخدمة للشيخ، فحين تضع الحاجة إشراق طفلتنا شمس، سنأتي لخدمة

المقام أربعين ليلة منها الليلة الكبيرة" قال أبو طالب بحماس.

- "لا تقسم على غيب، ولا تعد بما لا تملك مفاتيح يقينه يا رجل!". نصح الشايبُ أبا طالب.

في جوار مقام الشاذلي، أخبرنا "الحاج عليّ" بأن النذر كلما وفيناه بإخلاص جاءت إجابة سؤالهم أسرع، ودلهم الشيخ على إجابةٍ تشفي خواطرهم، وأنهم يستعدون لاستقبال الحجيج هذا العام بعدما رفضت للعام الرابع على التوالي الحكومة الحجازية منح تأشيرات الحج للمصريين.

- "لعن الله السياسة والحروب، صدت الناس عن بيت الله الحرام". قال الشيخ علي.

- "غدًا سأحمل كل من يصعد إلى الجبل حيث صلي نافلته الأخيرة سيدي الشاذلي متى عرفنا إجابة سؤالنا يا حاج علي". قالها أبو طالب بسرعة وثقة.

- "حسنًا، فلتقسم يا مؤمن على نذرك أمام الشيخ، وغدًا في حميثرة سوف ترى". قال الحاج عليّ.

أشفقت معهم على أبي طالب الذي ألزم نفسه مشقة هذا النذر نيابة عني، وحاولت أن أثنيه عن قسمه، لكنه رفض، ورجعنا إلى مضيفة "الحاجة زكية" لننام ليلتنا الأولى في جوار العارف بالله الشاذلي، بعدما خلَّصنا نسيمُ الليل من كل أثر للتعب، ودخلنا إلى مخادع نومنا في انشراح بالغ.

في موعد الإفطار أخبرنا أحدُ العاملين على خدمة المضيفة بأن "الحاج علي" يطلب صاحب السؤال وصاحب النذر متى استيقظنا، وقبل أن نتناول أي طعام، وعلى الفور أمسك أبو طالب بيدي، وانطلقنا نحو مقام الشاذلي حيث "الحاج علي" في خلوته الخاصة في زاوية المقام. ألقينا السلام، فرده، ثم سألنا إن كُنا قد أفطرنا، فأخبرناه بأننا امتثلنا لما طلب؛ ولم نتناول حتى الماء، وجئنا من فورنا إليه.

- "صاحب الحاجة وصاحب النذر في صيام حتى أذان العشاء، يصليان معنا في المقام، فتُقضى حاجتكم بالمشيئة والعلم".

عُدنا إلى المضيفة، وأخبرناهم بالأمر، وزاد إشفاقنا على أبي طالب الذي بدأ في الحال في الوفاء بنذره، وطوال اليوم انشغلت بكتابة مذكراتي حول رحلتي تلك إلى العاصمة السرية. "منية المهدي" تلك التي كانت تختصر تواريخهم وأحلامهم فيها في حجرة للشباب، وبعض الذكريات هناك طوال عشرات السنين. كنتُ اكتفيت بمراقبة الحضور، وكلما وقعت عيناي على أبي طالب يحمل أحد الصاعدين إلى الهضبة حيث صلى القطب الشيخ صلاته الأخيرة، أو يحمل أحد الهابطين إلى المقام للزيارة من أعلى الجبل أزدادُ إشفاقًا عليه في حرارة الجو. جاءت مارية وعلياء تخبرانني بأن عمتنا إشراق قد عادت إلى البيت، وأنها على ما يُرام، وأن العمة ياسمين ستبقى معها لرعايتها حتى نعود من رحلتنا تلك. ساعتها تذكرت فاروق وليلي في استكهولم، فسألت عنهما.

- "هما بخير، وقد عادا إلى كيرونا الجديدة لبعض الوقت". أجاب حميد حين ظهر عند باب الحجرة حيث أجلس.

شكرتهم على كل شيء، وأخبرتهم بخجلي مما فعله أبو طالب، ثم استأذنتهم في الذهاب إليه لشكره بنفسي مرة أخرى، وأنه ربما ذلك يُخفف عنه بعض المشقة.

- "Do you mind if I join you?". فاجأتني مارية بسؤالها.

- "لا مانع إطلاقًا.. هذا يسعدني كثيرًا". جاوبتها بلا تفكير.

في الطريق إلى الهضبة حيث توقف أبو طالب، حدثتني مارية عن دراستها حول الهندسة الزراعية، وأنها تدرس خلال برنامج خاص في جامعة "كولومبيا"، وعن طموحاتها حول تأسيس شركتها الخاصة بعد انتهاء دراستها في إنتاج سلالاتٍ مطوَّرة لنباتاتٍ أكثر صحية ومقاومة لمناخ الأرض المضطرب منذ سنوات. وعرجت في حديثها

بسؤالي عن خططي المستقبلية، وهل سأعود إلى كيرونا أو أفكر في الانتقال إلى مكان جديد. وقتها شعرت برغبتي أن تختفي كل أصوات العالم ليبقى صوتها وحده في أذني، وأن تختفي الموجودات من حولي، حتى تلك الجبال وكل الخيام والبنايات في الوادي، ولا يبقى سوى نحن وحديثنا هذا، وتمنيت لو أن الطريق يطول أكثر في رحلة صعودنا نحو الأعلى؛ فقد كانت بهلة من تتحدث، وكان عمي مصطفى من يستمع إليها مرة، وأخرى كان جدي مسعود بذاته من يستمع إليها في جسدي.

- "Hey, where are you?!" سألتني وسط شرودي حيث تسمرتُ أنظر لها وهي تصعد.

حين وصلنا إلى قمة الهضبة، وجدنا أبا طالب يتصبب عرقًا، فأشفقنا عليه، وشكرته بعمق، فمسح حبات العرق عن جبينه، ونظر نحونا، وقال بحب:

- "ليت ذلك يعوضكم عما فعلت، وليت عرقي هذا يغسل عني ذنب تأخري عن السعادة التي عاينتها في صحبتكم يا أولاد الطاهرين. ألا ترون النور الذي أراه في دواخلكم يا آل الشحات؟". قال أبو طالب.

شكرناه، وتحركنا باتجاه السفح نحو المضيفة من جديد، وقررنا أن نرجع من طريق آخر، وحين خلونا إلى بعضنا، وقفت مارية، وانحنت تمسك ببعض الحجارة، وأخذت تشكل بها أحرف كلمة "LOVE"، ثم أحاطتها بخط في دائري.

- "الحب وحده ما جعل أبا طالب يتحمل مشقة نذره. أتمنى يومًا من يحبني بهذا الشكل العفوي". قالت بإعجاب.

ثم سألتني ما أعرفه عن عمي مصطفى - والدها - وكيف يصفه والدي. لحظتها تذكرت كلمة أبي حين حدثني عنه في واحدة من مناقشاتهما التي أراد عمي إقناعهم بهجومه الدائم على الفلاحين يومها.

- "لا يمكن أن تنكروا أن هؤلاء الفلاحين لا يمكن أن يدعموا يومًا الثورة، أو يدعموا

فكرنا اليساري، وإن التجربة الماوية مجرد تفسير للفكر الشيوعي يخالف أساس الفكرة وبدايتها". قال عمي بتحدٍّ وعصبية.

أخذت أسرد لها من نوادره ما حكاه لي أبي عنه وعن تاريخ عداوته للفلاحين في البلدة. ورحنا نتخيل موقفه متى عرف ان ابنته قررت التخصص في مجال الزراعة.

- "ohhh مستحيل يا إلهي". كانت تضحك.

- "أتعرف أن ملامحك تشبه ملامحه في الصور كثيرًا، حتى نبرة صوتك تُشبه تسجيلاته التي تحتفظ بها والدتي في نيويورك". قالت مارية بروعة.

ساعتها شعرت به يتلبسني من جديد، تمامًا كما يحدث حين أُسهب في الحديث عنه، وشرد ذهني قليلًا في ذلك. لم عمي مصطفى وحده دونهم من يتلبسني شخصه؟ ربما كما يقولون لأني أحمل من ملامحه ونبرات صوته الكثير. لا أعلم السر، ولا أُنكر تعودي ذلك التلبُّس وراحتي له متى يحدث، بعدما كان يزعجني في أول المرات التي حدث فيها.

- "الحب في بلدنا تفضحه العيون يا ولدي؛ فهي لغة المحبين الأولى هناك". قال أبي.

- "ولِمَ عيون المحبين فاضحة لا معلنة وكاشفة؟ هل الحبُّ فضيحة؟". سألت أبي.

* * *

تعود أبي حين كان يحكي لي عن الحب أن يصفه بأنه قدرٌ لا يُدفع وهدير موج لا يُغالب، وينتهي دومًا إلى سرد تفاصيل حكايته، وكيف أحب والدتي منذ وقعت عينه عليها للمرة الأولى، ويظل على تعليله بأنه من هؤلاء المؤمنين بأن الحب يقع منذ اللحظة الأولى، حتى إنه كثيرًا ما كنتُ أظنه يبالغ في مشاعره ناحية والدتي، فهما طرفا نقيض، كلاهما يأتي من خلفية مغايرة للآخر تمامًا، بل وقد تتصادم معه، وأنهما يعتنقان

عقيدتين غيبيتين تختلف إحداهما عن الأخرى، وإن اتفقتا في بعض المسلمات الغيبية حول البعث والجنة والجحيم، يعملان في عملين متباعدين، وحين أسأله عن كل تلك الأسباب التي تُأصِّل للاختلاف، يجيبني بجملته التي ترن الآن في أذني:

- "الفارق شاسع يا نور ما بين الاختلاف والخلاف". ثم يبتسم.

أحاول أن أستوضح وجهة نظره في الفرق بين الأمرين، فيخبرني أن الاختلافات تزيد فرص التلاقي؛ ففيها يمكن لنا أن نرى حاجتنا في الآخر وقبوله، بينما في خلافنا كل أسباب الفراق، وكعادته يضرب المثال عليهما.

- "انظرني ووالدتك.. ستجد دليل اعتقادي بما أقوله". دومًا يبتسم كلما تذكر والدتي.

- "كم أحب فلسفتك ومنطقك للأمور يا رجل". أضحك وأجيبه.

كلما كنتُ أحاول أن أعارضه أو أجد الأمثلة التي تتناف مع كلامه، فيجيبني من تراثه الشرقي بجملته التي أحبها:

"من ذاق عَرَف يا سويدي، وأنا تذوقتُ الحب مع والدتك، فعرفت كيف يكون الحال". يبتسم أيضًا.

قبل وفاة والدتي بأيامٍ طلب مني أن نغادر المستشفى لندخِّن، وحين أخبرته بملاحظتي عودته للتدخين بشكلٍ كثيف، أعاد على مسامعي نظرية عمي مصطفى ومتعة التدخين بصحبة امرأة تحبها.

- "وأنت بعض من هذه المرأة يا ولد، نصف العمى يا ابن أمك!". يبتسم هنا أيضًا.

يومها حين توقفنا أمام أحد البارات الجديدة، سألني أن ندخل ونحتسي شرابًا، وأنه لا مانع لديه لو ثملنا سويًّا للمرة الأولى، وللحقيقة كان اقتراحًا صادمًا؛ فطوال عمري أعرف أنه لا يعاقر الكحوليات، وله موقف رافض لها تمامًا، حتى إنه غضب بشدة حين علم بأنها تناولت الخمر حتى ثملت، أملًا في تغييب شعورها بالألم حين علمت حقيقة مرضها.

- "ليتني حملت المرض عنها في جسدي أنا". قال لي.

يومها قررت في نفسي ألا أنتشي بالخمر، وأنني سأتركه يفعل ما يريده؛ ففي النهاية نحتاج من يقود خطانا نحو المنزل، لا إلى سيارة الشرطة. في داخل البار، ظلَّ يعبُّ الشراب، حتى خارت قواه، وظلَّ يبكي، وعرفت متى ينهزم الرجال لأول مرة.

- "تعلمنا في بلدتنا أن خسارتنا الوحيدة هي الموت". قال أبي.

- "وهل الحياة وفقط تعتبرونها هي مكسبكم هناك؟!". سألت أبي.

* * *

في الساعة الموعودة، ذهبنا جميعًا نحو المقام، ونادينا "الحاج علي"، فجاءنا صوته من داخل خلوته يخبرنا بأن النذر قد وفيناه، وأن سؤالنا الليلة قد أُجيب، وأننا سنجد إجابة سؤالنا عند مقام خادم الشيخ، وفي المقام يتعيَّن على صاحب الحاجة أن ينام ليلته في المقام، وسيأتيه الجواب مسبوقًا بعلامةٍ كبرى فيها تختلط الفرحة بالحزن، وساعتها تأتي الإجابة المرجوَّة، وتفصح عن نفسها، فسألت الحاج علي عن سر هذا التعقيد، ولِمَ يتعمد ذلك إن كانت لديه الإجابة لسؤالي، فجاءني صوته يتهدل كنجم ليلي يتجلي في مساره بهدور رتيب:

- "لولا ملعونٌ شكٌّ في أصل النسب، لكان النور يبقى في مكانه، ولا غادره، ولولا حب النساء للرجال، ما كان أصل العوج فيهن، ولا السفر ما كان اللقاء المعقوب بالألم، ولولا الوعد ما سُطر المكتوب بيد القدر، ولولا الجهد ما كانت نتيجة العطاء، ولولا الشائعة ما كان أصل الأمل في صاحب الكرامات، ولولا صعوبة الإجابات ما كانت تُلح الأسئلة. نم يا غريب الدار في المقام، وانتظر بشارة السعد المغموس بطرف الحَزَن؛ فلولا ماء البحيرة ما كان انعكاس نور النجم ولا القمر".

خرجنا، واستأذنتهم في الذهاب إلى المقام المجاور لمسجد العارف بالله الشاذلي، حيث دُفن تلميذه وخادمه المطيع كما أمر "الحاج علي"، وهمُّوا بالانصراف حين اشتكى أبو طالب الجوع والتعب، ثم اقترب مني، واحتضنني بوهن نتيجة كل ما عاناه من وفاء قسم نذره لأجلي.

- "دعني أشم فيك رائحة إشراق وطفلتي التي انتظر يا ولدي، وليرح الله قلبك". ثم انصرفوا.

حين هممت بالذهاب في طريق المقام حيث الإجابة عن سؤالي، نادتني مارية، وسألتني أن تصحبني حتى باب المقام، بينما تابع حميد وأمجد الجني وعلياء مع أبي طالب طريق العودة نحو مضيفة "الحاجة زكية". في الطريق سألتني:

- "نور هل تؤمن بما تفعل؟ وكيف تصدقه؟".

- "وهل نملك غير السعي وراء بصيص الأمل، وإن خالف كل ما نعتقد ونؤمن فيه؟". أجبتها وتحركنا.

على باب المقام توقفت مارية، ونظرت نحوي لثوان، كانت تحمل صورة أمها "شمس" تلك التي تزوجها عمي مصطفى يومًا، وأجبروه على طلاقها.

- "شمس!! شمس!!". امتدت يد عمي مصطفى كأنها ذراعي أنا.

حاولتُ أن أوقف اللحظة في محيط ذاكرتي ليظلَّ أثرُ قبلة شمس مطبوعًا على خدي إلى أقصي مدى في قلبي قبل عقلي. وشعرت بتلبس عمي مصطفى كل كياني، فاستسلمت لذلك. بعدها وقبل أن أفكر كانت حالتي لحظتها أنسب الحالات لمن يبتغي الإجابة عن أصعب الأسئلة منذ الأزل؛ فكفيلة قبلة المحبين أن تجعل الرُّوح تصفو وتشف فترى ما لا يراه غير المتيمين بالعشق، والولاء من المتهمين بتهمة الحب في زمن يعز فيه الأحبة، وتعجز دورة الزمان أن تكرر قصصهم غير مصحوبة بالانبهار والجنون اللذيذ.

- "ماذا يحدث؟ ما هذا؟!". قالت مارية بعد قبلتها لي حين كان طيف أمها يختفي منها.

دفعت باب المقام ودخلت، وعلى الفور أمدد جسدي في أرضية المقام التي تفوح برائحة المسك، وأغمض عينيَّ فأغيب، محتفظًا بأثر القبلة الأولى، وغير مجتهد في تبريرها، ومستريح في اعتبارها إشارةً أولَى للحب، وأبتسم للحظة كوني أفلح في الحفاظ عليها، حيث طاوعني الزمن، فتوقف عندها، وأبدأ في سماع صوتٍ أعرفه تمامًا يغني، ويختلط الغناء بثغاء نعاج ثلاث، فأفتح عيني، فإذا بعبد العلام إلى جواري يبتسم، ويطلب مني أن أساعده في إخراج النعاج من داخل المقام؛ فقد تأخر وعليه أن يعود أدراجه إلى البلدة، قبل الفجر.

- "ساعدني يا ولد الشحات؛ فطريق بيتي بعيد". قال عبد العلام.

ثم يهم بالانصراف، ويخبرني ألّا أنسى شرب الشاي من يد الثكلى حيث أنتهي إلى جوار مقام المهدي في بلدتنا. يُفتح الباب الذي أغلقه "الحاج علي" من الخارج، فأجد أمجد الجني على باب المقام وبصحبته علياء، ويخبرانني بأنهما تزوجا منذ لحظات في مضيفة "الحاجة زكية"، وأنهما سينتظران عودتي للاحتفال، وقبل أن ينصرفا، يظهر خادم المضيفة ليخبرنا بأن أبا طالب قد سقط مغشيًّا عليه في مرحاض المضيفة، وقد نقلوه إلى حجرته، وأنه يطلبنا على الفور. أسرعنا إلى حجرة أبي طالب. كان كمن زاد عمره عشرات السنين في لحظات. طلب إليَّ أن أبلِّغ عمتي إشراق أن تسامحه، ثم سأل عن مارية وحميد، فأخبرتْه علياء بأنهما في حجرتيهما، وقد ناما انتظارًا لعودتي في الفجر بالإجابة المنتظرة كما وعدنا "الشيخ علي". رحتُ أخبرهم بما حدث معي في المقام، فضحك، وقال:

- "أكان هناك كل هذا الوقت يا ولدي وأنتم لا تعلمون، المرأة الثكلي التي تسقي الشاي في مقابر بلدتكم هناك خلف مقام سيدي المهدي توفي بنذرها كما وفيت

الآن نذري ووعدي". ثم يصمت للأبد.

كنا نريد دفنه حيث مات، لكننا امتثلنا لأمر الحاج بركة الذي أمرنا باحضار الجثمان لدفنه في مقبرة العائلة بالبلدة، واتفقنا ألّا نخبر عمتنا إشراق قبل عودتنا خوفًا عليها، وحين انتهى عائض ولد الشايب مخلوف من تكفين جسده وحنوطه، وبدأ ينضح صندوقها الخشبي بماء الورد، جاءنا صوتُ "الشايب مخلوف" يأمرنا بالدعاء.

- "ادعوا لأخيكم؛ فإنه الآن في حاجة إلى الدعاء".

ودَّعْنا أبا طالب، من حمل عني النذر ووفاه، ورحت أسأل نفسي كيف يُصر الموت أن يختار من يستحقون الحياة، ومن يقدمون ما يؤهلهم للاستمرارية فيها، وفقط يترك لنا الكثير ممن نبغضهم.

- "في بلدتنا تولد الحياة من رحم الموت". قال أبي.

- "وكيف يا أبي يمحو الموت الحياة؟!". سألت أبي.

* * *

في الطائرة، غفوت إلى جوار حميد ومارية، فجاءتني" بهلة" في نومي. حملتني وصعدت بي نحو السماء، ثم وضعت جسدي ممددًا فوق سحابة صغيرة، وتركتني وهبطت، ولا أنتبه إلا بلمسةٍ من كف مارية على خدي الأيمن، فأبتسم لها، وأمسك كفها، وأقبله برفق، فتلمع الشمس في عينها حين انعكست إطلالتها الأولى من الشباك المجاور لمقعدها وقت كُنا نستعد للهبوط في مدرج المطار. في طريقنا نحو البيت، حاولنا أن نجد طريقة مُثلى نخفف بها الخبر عن عمتي إشراق، وتمنينا أن يكون عمي "الحاج بركة" وعمي المسيو قد حملا عنا هذا العبء، كما حمل عنا أمجد الجني عبء مصاحبة جثته في طريق العودة نحو البلدة، وساعدنا في ذلك الشايب مخلوف.

- "لو علم أحدٌ بأننا هرَّبنا جثته في الليل دون تصريح دفن، ستصير مشكلة كبرى". نصحنا الشايب.

هكذا وفي سرية تامة أخرجنا الجثة، وصحبها أمجد الجني في سيارة خاصة، وانطلق نحو البلدة في الليل.

- "من يصدق أن قاتل أبي يُدفن معه في نفس المقبرة بإرادتنا واختيارنا لذلك؟". قال حميد.

كان كلما يذكرني بموت عمي حامد، وكيف تم تقييد الحادث ضد مجهول، بعد أن صعدت إلى رصيف الشارع سيارة مسرعة، صدمته ثم فرت، يختم بأن الموت له أفعال عجيبة وخططه نعجز عن إدراكها مهما حاولنا، وأن أسباب الموت التي نعتقدها ليست إلّا وهمًا نحاول به أن نساعد أنفسنا لنبقى ونكمل.

- "في بلدتنا نؤمن أنا ندفن في التراب الذي خلقت منه أرواحنا". قال أبي.

- "وهل ستدفن في بلدتكم؟ كيف يا رجل؟!". سألت أبي.

* * *

في مدخل الشارع، بدا أن الخبر قد سبقنا، فعجبت كيف تطير أخبارنا الحزينة وتسبقنا فتفرش لنا الحزن طريقنا نحو بيوتنا، وتنثر فوقه دموع أحبتنا؟! فحين اقتربت سيارتنا أكثر أسرع جموع من الأهل تتجمع علينا لسؤالنا عن الفقيد، فأخبرناهم القصة في عجالة، وأعلمناهم أن أمجد الجني وعلياء في رفقة الجثة، وسيصلان في الليل. وحين جلسنا للإفطار، دخلت علينا عمتي إشراق في ثباتٍ عجيب، وأخذت تسأل إن كان من وصية وصاها قبل رحيله، وكيف قضى؟ فأخبرناها الأمر كله، وما كان من قسمه وكيف وفّاه، وهو ما كان سببًا مباشرًا إلى جانب مرضه بالربو الذي أصابه بمعتقل

الغربينيات، وتمكن منه لسنوات، في أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في نفس الليلة. وحين سألتني عن أمر أبي، حكيت لها ما كان معي، وكل ما حدث في حميثرة، حتى ما رأيت في منامي مما قال به عبد العلام، فرفعت وجهها عن الأرض، وأمرتني أن أعيد رؤيتي لعبد العلام عليها بكل تفاصيلها.

- "المرأة الثكلى التي تسقي الشاي!!". كررت عمتي تستوثق.

- "نعم يا عمتي، هذا كان آخر ما قاله قبل أن يوقظني أمجد الجني يخبرني بعقده قرانه وعلياء".

نادت عمتي محسن الديك، وأمرته أن يُحضر والده وعمي "الحاج بركة"، فأسرع محسن دون تردد في طلبها، وظلت عمتي تكرر:

- "يا حبيبي يا حسن.. يا حبيبي يا أخويا".

حين عاد محسن الديك وخلفه والده المسيو وعمي "الحاج بركة"، يتبعهما العم ماجد فيكس، نهضت على الفور عمتي إشراق وقالت:

- "حسن أخوكم مدفون في مقبرتنا، فلتفتحوا مقبرتنا الآن، بل تأتون معي، الآن وفى كلُّ صاحبٍ وعدٍ بوعدِه، لا أكرم من دفن أبي طالب إلى جوارهم بعدما وفى بما نذر".

- "أتُدخِلين غريبًا على قبر أمك وأختك نورا يا إشراق". تعجب عمي بركة.

أصرت عمتي على فتح المقبرة، وأخبرتنا أن نجهز المقبرة المجاورة لدفن أبي طالب، وأنها ستصحبنا جميعًا إلى هناك، وسنُعلم الجميع بأننا نجهز مقبرة أبي طالب الآن، لكننا سنفتح مقبرة حامد ومصطفى. وأخذت تترحم على أبي طالب، وتطلب له العفو والمغفرة من الله؛ فقد وفى وعده لها.

- "لن أعود يا حاجة إلا ومعي حسن أخيكم، وسيدخل عليكم قبل دخولي علي

بيتكم". روت عمتي عن أبي طالب آخر ما قاله لها ليلة سفرنا نحو حميثرة.

حين ذهبنا إلى خلف مقام مسجد المهدي - من تنسب إليه "منية المهدي" أو ينتسب إليها - رأيت عجوزًا تجلس إلى جوار مقبرة، وتنعي ولدها بصوت واهن، وإلى جوارها أكوابٌ تملؤها بالشاي، وأخذت تتقدم نحونا وتطلب منا أن نشربها.

- "رحمة ونور على ولدي محمود". قالت العجوز.

تذكرت حديث عبد العلام معي حين رأيته في منامي في مقام حميثرة، فأخذت كوب الشاي بلا إرادةٍ، وطفقت أرشفه حين بدا محسن الديك يعاونه حميد في فتح باب المقبرة، فإذا بجسد ملفوف في ثوب أبيض، وقد ربط برباط سُندسي أخضر، ومكتوب بخيط مخملي عليه :

- "وكان حتمًا على المضيِّف أن يكرم ضيفه".

أمرته عمتي بصوت خافت أن يفتح الرباط الأخضر، ففعل، وحين هم بفتح لفافة الثوب الأبيض الملفوف وجد حافظة جلدية، فتوقف عن فتح الثوب وتناولها، ثم قدمها إلى عمي "الحاج بركة"، فجاء بها نحوي، فشعرت بأن قلبي يكاد أن يتوقف؛ فتلك الحافظة أعرفها جيدًا.

- "هذه حافظة لتضع فيها صورتي وتحملني معك في كل مكان". قالت أمي يوم عيد ميلاده قبل دخولها المستشفى لآخر مرة.

وضعت يدي على فمي، وانهمرت الدموع بلا إرادة رغمًا عني، وحين فتحها ووجدت فيها جواز سفره المصري في جانب الأيمن وجواز سفره السويدي في جانبها الأيسر، وطالعتني صورة أمي في يسارها، تذكرت إجابته حين سألته عن السبب:

- "أمي في اليمين فرض، وأنت في اليسار حيث يعيش القلب". أجابها قبل أيام من موتها.

حين تأكدوا معي من باقي محتويات الحافظة خاصته، ووجدنا تذكرة القطار من القاهرة إلى أسوان مؤرخة بتاريخ قد مضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر في (٢٥ يناير ٢٠٣٠/ القاهرة - أسوان)، تذكرت جملته التي أغضبت والدتي:

- "كم تمنيت أن أكون في مصر حين قامت ثورة ٢٥ يناير، وأن أموت شهيدًا في شوارعها".

أمرت عمتي أن يُكشف عن قدم الجثة، وأظن الجميع يعرف السبب؛ فأبي قد بتر إصبعين من قدمه اليمنى حين كان في الجامعة، وعلى الفور فعل حميد ما أمرت عمتي، ورأينا أثر البتر جليًّا في عظام الجثة.

- "اصطفوا لتصلوا الجنازة على أخيكم، قبل أن يدخل عليه زوجي ويتعاتبا في الليل".

اصطففنا، وتقدم صلاتنا عمي "الحاج بركة"، وحين انتهينا دعونا لكل سكان المقبرة بالرحمة، وفي عودتنا أدراجنا، أمرتنا أن نتوقف جميعًا هنا عند تلك المرأة الثكلى التي توزع الشاي عند قبر ولدها الصغير، ذلك الذي جاءها منذ عقود من حقل والده، ذاك الحق الذي كان يومًا من ماء البحيرة قبل تجفيفها الأول، يومها جاء الطفل يطلب إلى أمه أن تصنع له كوبًا من الشاي بعد يوم شاق في مزرعة والده.

- "كوب من الشاي مثل شاي الصيادين يا أمي". رجا الطفل أمه.

فأقسمت عليه أنه لن يشرب الشاي قبل أن يسقي بقرتها التي تربيها عند بئر الساقية، وحين أطاعها ونهض نحو بقرة أمه، وحيث انحنى إلى البئر ليأتي بالماء، زلّت قدمه، فسقط في البئر، ولما كان أولاد الفلاحين غير أولاد الصيادين في بلدتنا، ولايعرفون كيفية الغوص والعوم في الصباح والمساء، سقط ابنها في بئر الساقية، ولم يخرج إلّا في الصباح التالي غريقًا، بعدما تنبهت لغيابه في الفجر حين ذهبت توقظه ليوم حقل جديد، فأقسمت ألّا تنام في مخدعها، وأن تبقى طوال عمرها إلى جوار قبره تصنع

أكواب الشاي الساخن قاتم اللون ومر المذاق، فهكذا يُفضله الصيادون وأحبه طفلها، وظلّت تسقيه إلى كل من يمر بجوار المقبرة، ولم تكفها السنون التي قد مضت، ولم تخلف يومًا طوال خمسين عامًا من عمرها السبعيني، إلّا وندمت وبكت، وعاتبت نفسها لكونها تزوجت بواحد من أبناء الفلاحين، لتنجب ولدها فيظل مقطوع الظهر في مزرعة أبيه، لا يعرف عن فن العوم والسباحة في الترعة أو الغوص في بئر ساقية، وأنها لو كانت وافقت بزواجها بواحد من أبناء الصيادين من حيها، لكانت الآن ترعي أحفادها يملؤون دنياها بصياحهم ولعبهم، وكانوا يقينًا ورثوا فن السباحة والغوص في البحيرة والنيل المبارك، ذلك النهر الذي يشف ماءه عند مدينة الأقصر، فتصفو أرواح أبناء الصيادين كصفاء مائه، فترى حبيباتهم قدر المحبة في قلوبهم، فيتعلقون بقلوب أبناء الصيادين إلى الأبد، وتعرف النساء المحبات لهم بأن كوخ الطين لا يناسبه شنطة سفر امرأة تستعد للسفر والمخاطرة كل يوم في حياتها، وفقط يناسبها ركوب البحر في صحبة صياد شجاع.

- "يشرب الصيادون في بلدتنا الشاي قاتمًا ومُرًّا إكرامًا لذكرى طفل المرأة الثكلى التي حرَّمت أكواب نذرها على أولاد الفلاحين الذين خطفت ساقيتهم طفلها". أخبرني أبي هكذا بأسطورة تلك المرأة.

- "مساكين هؤلاء.. كيف لم أرَ همهم وأحزانهم، فليغفروا لي". قال عمي الذي تلبسني.

في الليل اكتظ مسجد "المهدي" بالجموع التي حضرت تُصلي صلاة الجنازة على جسد أبي طالب في صندوق الخشب الذي أغرقوه برائحة المسك، خوفًا أن تتسرب منه رائحة الموت. وحين همَّ المصلون بالخروج، إذا بالشيخ خيري يعتلي منبر المسجد، ويصيح فيهم:

- "الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة.. صلاة جنازة الغائب على روح "حسن بن مسعود بن الشحات ولد صابر".. الصلاة أثابكم الله يا أهل الصلاح".

ثم نظر نحوي وناداني مباشرة:

- "يا مصطفى، تقدم الناس للصلاة، وأنتم أيها الشعالوة يا من أنكرتم نبوتي، ويا بني منية المهدي ممن لم يرَ الوحي حين كلمني بالحقيقة، صلوها لأجل من تحبون، وأفسحوا في قلوبكم مكانًا لمن سكن القلوب، من عرشه كالسماء والأرض وما بينهما من النور، أفسحوا لله في قلوبكم".

رحتُ/راح مصطفى يتقدم الصفوف نحو اتجاه القبلة، بينما رأيتها من خلال تعاشيق أرابيسك الشباك الامامي المطل على المقابر. كانت هناك تبكي، وتناديني، وطيفها يتلاشى بهدوء وسكينة، وكلمتها في أذني.

- "يحميكم النور ما غبت، تحميكم المعرفة ما غبت يا آل مسعود".

في الطريق نحو المقبرة، رأيت/ رأى مصطفى بهلة تنتحب، لكنها كانت قد تشكلت في وجه عمتي إشراق.

- "ألهذا الحدّ تحبون بلدتكم تلك يا أبي رغم ما فيها وتعرفون؟!". سألتُ أبي.

- "في بلدتنا عرفنا الحبُّ أعمى عن العيوب يا ولدي". قال أبي

تمت

صباح الجمعة الساعة: ٧:٢٠ صباحا

الموافق يوم الأول من شهر فبراير ٢٠١٣م

المراجعة النهائية:

عصر الجمعة ٣,١٠

٢٠ سبتمبر ٢٠١٣

مختار سعد شحاته

"Bo Mima"

كَلِمة

ربما طلب مختار أن أكتب مقدمة لهذه الرواية لأنني واحدٌ من الذين جلسوا في غرفة الشباب يوماً، ولكنني أعتقد أن هناك سبباً آخر وأهم؛ هو أنني فنلندي عاش في تلك القرية المصرية عند بحيرة البرلس. تختلف البلدين في صفات كثيرة، ولكن هناك شيء مشترك بينهما: البحيرة.

فنلندا مليئة بالبحيرات، وقبل بناء الطرق المرصوفة وهجرة معظم الناس من القرى إلى المدن كانت البحيرات أهم طريق للتنقل، وصيد السمك كان مصدر أساسياً للطعام. وبالرغم من أن طبيعة البحيرات وشكل القرى وأساليب الصيد تختلف كثيراً بين هنا وهناك، فربما كانت البحيرة من ضمن الأشياء التى جعلتنى أحس بالألفة وليس بالغربة في تلك القرية. وليس من الصدفة أن تتحرك أحداث الرواية ما بين بحيرة البرلس وشمال السويد وجارتها فنلندا.

أماكن الرواية كلها بعيدة عن مراكز العالم السياسية والاقتصادية والإعلامية. بحيرة البرلس في محافظة كفر الشيخ تقع في إقليم من أقاليم مصر لا وجود لها تقريباً على خريطة مصر الرمزية الشديدة المركزية التي تسيطر عليها القاهرة والإسكندرية والأماكن السياحية والأثرية. مدينة كيرونا في السويد تقع في أقصى شمال البلاد وهي الأخرى بعيدة عن السلطة السياسية والقوة الاقتصادية. أماكن أخرى مثل قرية فلاحين في شمال

فنلندي، ومقام العارف بالله سيدي أبي الحسن الشاذلي فى أقصى جنوب مصر وبلادالأمازيغ في شمال مالي أيضاً أماكن هامشية. لكن كما قال الشاعر "حمدي زيدان": الهامش هو الربح. بالنسبة لصاحب الرواية، هذه الأماكن عواصم سرية تتبلور فيها أعماق وحقائق ربما لا نستطيع أن نوصل إليها إن نظرنا إلى العواصم الرسمية.
نظرية العواصم السرية مرتبطة بموضوع ثان مهم في إنتاج مختار شحاتة الأدبى: الآخر. في روايته الأولى كان البطل مصرياً اغترب ليس فقط لأنه سافر إلى خارج وطنه، بل أيضاً لأنه فقد صلته بالواقع وعاش.فى عالم لا يعلم القارئ إلى أي مدى هو واقعي أم وهمي. أما الرواية التي بين يديكم فبطلها "نور" إنسان لا يعرف أصلاً هل هو سويدياً أم مصرياً،أو هل ديانته الإسلام أم المسيحية. هو غريب في كل مكان، وفي نفس الوقت له أكثر من وطن يرتبط به بعمق ويحبه بإخلاص. أن تكون أنت الآخر بالنسبة للجميع لا يعنى أن ترى كل شيء بنظرة الاستغراب والتساؤل فقط، لكن معناه أيضاً أن الحدود والتقسيمات التى اعتاد عليها الناس لا تُطبق عليك.

اعتاد المثقفون في مصر وخارج مصر أن يفصلوا ما بين الحداثة والتقاليد، المستقبل والماضى .. وبطبيعة الحال يعتبرون أنفسهم أنصار الحداثة الذين يوجهون المجتمع إلى المستقبل الأفضل. لكن هذه الرواية تفتح آفاقاً تكسر ذلك الفصل، فتجتمع فيها أرواح البحيرة والطيران الفضائى وكرامات أولياء القرية وتطورات التكنولوجيا وأحداث سياسية ماضية ومستقبلية في سرد تتداخل فيه العصور والأماكم في زمن أسطوري واحد. التلوث والفساد يدمران البحيرة لكن روحها لا تزال خية تسود أقدار أبطال الرواية التى يعيشون العولمة بكل صفاتها بين القرية والقاهرة ومالى والسويد. يأتى الشيخ "خيرى" السلفي المذهب والمجذوب العقل ببشارة غريبة فيصدقه "نور" الذي لا ينتمي لدين بعينه ويسعي وراءها .

السنة ٢٠٣٠، ولكن مع أن زمن المستقبل قد يعطى الرواية جانباً من الخيال العلمى، فى الحقيقة هذه الرواية أسطورة. يعتمد الكاتب على الأساطير التى حكاها الصيادين عن البحيرة وأرواحها، ولكنه لا يحكى قصة الماضى، بل إنما يطبق التفكير الأسطورى على جيلنا نحن والأجيال القادمة. لا يعترف الزمن الأسطورى بالزمن التاريخى ولا يحترم الحدود ما بين الظاهر والباطن. فى هذه الأسطورة تتداخل أسرار البحيرة مع أسرار العولمة، وتتحد معاناة الفلاحين مع إحباطات الثوار وغربة أبناء القرية. وبطبيعة الأساطير لا يختار أبطال الأسطورة أقدارهم كما الشخصيات الروائية، بل ينفذون القدر المكتوب عليهم، وبذلك يقدمون لنا صورة نموذجية لأنفسنا والعالم التى نعيش فيه. فتمتعوا بقصة "نور" مع أهل العاصمة السرية وروح البحيرة لأنها قصتنا وقصة من سيأتى بعدنا.

د.صامولي شيلكه

عالم أنثروبولوجي

سيرة المؤلف

- **الاسم:** مختار سعد عبد الفتاح شحاته
-**تاريخ ومحل الميلاد:** في كفر الشيخ ١٩٧٤ بقرية منية المرشد/ مطوبس.
- **الشهادة الجامعية:** ليسانس الآداب والتربية/ لغة عربية ١٩٩٦م.

مؤلفات أخرى:

- رواية "لا للإسكندرية ج ١ " الصادرة عن دار أرابيسك للنشر و التوزيع٢٠١٠م"
- كتاب "من وحي إبداعات النزلة كُتاب العاصمة السرية" دار كلمة للنشر والتوزيع يناير٢٠١٣
- مجموعة "مكتنزة" مجموعة قصصية - صادرة عن دار كلمة بالإسكندرية ٢٠١٢

خبرات

- العمل الصحفي بجريدة "الصرخة" محرر دسك ٢٠٠٤-٢٠٠٨م
- كاتب سيناريو ومخرج فيلم " الناحية التانية " فيلم فانتازيا واقعية "المشارك بمهرجان برلين للفيلم العربي دورة نوفمبر ٢٠١٠م.
- صاحب مجموعة "محطة مصر" قصص قصيرة.. الهيئة العامة لاقليم غرب الدلتا الثقافي تحت الإصدار.
- مخرج وكاتب سيناريو فيلم " العاصمة السرية " عن تجربة الثورة في الريف المصري.. والمشارك بمهرجان موسكيرز للأفلام المستقلة مارس ٢٠١٣ مهرجان "بابل" بأوسلو للفيلم العربي أبريل ٢٠١٣، ومهرجان ألوان للفيلم العربي بنيويورك مايو ٢٠١٣، ومهرجان طلاب جامعة هلسنكي للفيلم العربي مايو ٢٠١٣، وغيرها من المهرجانات.

- باحث مشارك في بحث دوافع الإبداع بالمشاركة مع د.صامولي شيلكه لمعهد دراسات الشرق الاوسط "ZMO" ببرلين ٢٠١١-٢٠١٣م.

- معلم لغة عربية بالتربية والتعليم منذ ١٩٩٦م.

- أحد كُتاب الحوار المتمدن ويب.

http://www.ahewar.org

- منسق ورشة معمل الكتابة بالتعاون مع د.صامولي شيلكه بمعهد دراسات الشرق "ZMO" ببرلين في نوفمبر ٢٠١٢.

المراسلات :- البريد الإلكتروني: mukhtarshehata@hotmail.com
https://www.facebook.com/bo.mima

أعرف أنني مختارة، لا أملك من أمري شيئًا، لكنها روحي التي تتوق للخروج من هذا الجسد هي ما تدفعني بما رأت وعرفت، وبما ورثت من النور الذي صار قدرًا لا يغالب، ولا يدفعه تخطيط أو احتياط. كيف ستحتملين يا ابنتي تكرار الحكاية؟! أم تراها ستبني لنفسها أسطورة نور جديدة، تعرف فيها كيف تعلّم صغارها الذين يحملون منها مثلما حملنا عن آبائنا النور، تعلمهم أن يتعلموا حب الذي سكنهم، وتقدير من اصطفاهم، وكيف يعودون كلما ابتعدوا، وألاّ يحيدوا أبدًا عن معنى النور فينا. هيا يا ابن أختي اقرأ ما شاء للنور أن يتحلق في هالة مقدسة فوقها حيث تنام، وحيث كان العهد بالولاية بين امرأتين، كلتاهما أخذت من النور نصيبًا. هيا.. هيا أيها السرّ تدفق نحو نومها برفق. وأنتم أيها الواقفون هناك على أبواب محبسي هنا، لم يعد يشغلني سرّ وقوفكم ولا صمتكم العجيب الآن، فلا تشغلوني عن مراقبتها في نومها، حيث تُصغي روحها إلى قراءة ابن أختي، فيتعلم قلبها